بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٣٣) سورة الأحزاب مدنية وآياتها ثلاث وسبعون

هذه السورة مدنية بإجماع فيما علمت ، وكذلك قال المهدوي وغيره (١) .

---

(١) أخرج عبد الرزاق في المصنف ، والطيالسي ، وسعيد بن منصور ، والنسائي ، وابن المنذر ، وغيرهم عن زرٍّ قال : قال لي أُبَيٌّ بن كعب : كأين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كأين تعدها ؟ قلت : ثلاثاً وسبعين آية ، فقال : أقط ، لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ، أو أكثر من سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتَّة نكالا من الله والله عزيز حكيم » ، فرفع فيما رفع ، قال ابن كثير : وإسناده حسن . وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد أيها الناس ، إن الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتَّة » ، ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣ ﴾ (١)

قوله تعالى : [ٱتَّقِ] معناه : دُمْ على التقوى ، ومتى أُمر أحد بشيء هو به متلبس فإنما معناه الدَّوام في المستقبل على مثل الحالة الماضية ، وحذَّره تعالى من طاعة الكافرين ، وهم المُجَلِّحون بالكفر(٢) ، والمنافقون وهم المُظْهرون للإيمان وهم لا يبطنونه .

وسبب الآية أنهم كانوا يُلِحُّون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطلبات والإرادات ، وربما كان في إرادتهم سعي على الشرع ،

---

(١) نداءُ النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿ يأيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ و ﴿ يأيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ تشريف له ، وتنبيه على فضله ، وتنويه بمكانته ومحلّه ، أما غيره فنودي باسمه : يا آدم ، يانوح ، يا إبراهيم ، ياموسى ، ياعيسى . وحينما يذكر الله تعالى نبيه على سبيل الإخبار عنه فإنه يُصرح باسمه فيقول : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ ﴾ ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ ﴾ ، فقد أعلم أنه رسوله ، ولقَّن الناس أن يسموه بذلك ، أما إذا لم يقصد الإعلام بذلك فإن ذكره يأتي كما جاء في النداء ، ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَا رَبِّ ﴾ ، ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وغير ذلك من الآيات .

(٢) جَلَّحَ في الأمر : ركب رأسه فيه وأقدم ومَضَى .

وهم يدخلونها مدخل المصالح ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلقه العظيم وحرصه على استئلافهم ربما لايَنَهُم(١) في بعض الأُمور ، فنزلت الآية بسبب ذلك ، تحذيراً له منهم ، وتنبيهاً على عداوتهم ، والنوازل في طلباتهم كثيرة محفوظة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ تسليةٌ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أي : لا عليك منهم ولا من إيمانهم ، فالله عليمٌ بما ينبغي لك ، حكيم في هدى من شاءَ وإضلال من شاءَ .

ثم أَمره تعالى باتباع ما يُوحى إليه – وهو القرآن الحكيم – والاقتصار على ذلك ، وقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ تَوَعُّدٌ مَّا . وقرأَ أَبو عمرٍو وحده : [يَعْمَلُونَ] بالياءِ ، والتوعُّد على هذه القراءَة للكافرين والمنافقين أَبْيَنُ . وقوله [كَانَ] في هاتين الآيتين يقتضي الدوام ، أي : كان ويكون ، وليست الدالةَ على زمان مخصوص للمضي .

ثم أَمره تعالى بالتوكل على الله في جميع أَمره ، وأَعلمه أَن ذلك كافٍ مُقْنع ، والباءُ في قوله : [بِاللهِ] زائدة على مذهب سيبويه ، وكأَنه قال : وكَفَى اللهُ ، وهي عنده كقولهم : بحسبك أَن تفعل ، وغَيْرُه يراها غيْرَ زائدة متعلِّقة بـ [كَفَى] ، على معنى : أَكيف بالله ، و «ٱلْوَكِيلُ» القائم بالأَمر المغني فيه عن كل شيءٍ .

---

(١) في بعض النسخ : ربما لا يَتَّهِمُهُم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾

اختلف الناس في السبب في قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جوْفِهِ ﴾ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما : سببها أن بعض المنافقين قال : إنَّ محمداً له قلبان ؛ لأَنه ربما كان في شيءٍ فنزع في غيره نزعة ثم عاد إلى شأْنه الأَول ، فقالوا ذلك عنه ، فنفاه الله تعالى . وقال ابن عباس أَيضاً : بل السبب أَنه كان في قريش في بني فِهْر رجلٌ منهم يدَّعي أَن له قلبين ؛ ويقال له : ذو القلبين ، قال الثعلبي : هو أَبو مَعْمَر (١) ، وكان يقول : أَنا أَذكى من محمد وأَفهم ،

---

(١) قيل : اسمه جميل بن مَعْمر الجُمَحي ، وقال السُّهَيْلي : هو ابن مَعْمر بن حبيب ابن وهب بن حذافة بن جُمح ، واسم جمح : تَيْم ، وفيه يقول الشاعر :

وكيف ثوائِي بالمدينَةِ بَعْدَ مَا قَضَى وطَراً مِنْها جَميلُ بْنُ مَعْمَر ؟

وقال الزمخشري : هو جميل بن أسد الفهري .

فلما وقعت هزيمة بدر طاش لُبُّه ، وحدَّث أَبا سفيان بن حرب كالمختلِّ فنزلت الآيةُ بسببه ونفياً لدعواه . وقيل : إنه كان ابن خَطَل [١].

وقال الزهراوي : جاءَ هذا اللَّفظ على جهة المثل في زيد بن حارثة والتوطئة لقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ ، أي : كما أَنه ليس لأَحد قلبان ، كذلك ليس دعِيُّه ابنَه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ويظهر من الآية أَنها بجملتها نفي لأَشياءَ كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت ، وإعلامٌ بحقيقة الأَمر ، فمنها أَن بعض العرب كانت تقول : إن الإنسان له قلب يأْمره وقلب ينهاه ، وكان تضادُّ الخواطر بجملتها على ذلك ، ومن هذا قول الكميت :

تَذَكَّر مِنْ أَنَّى ومِنْ أَيْنَ شُرْبُهُ يُؤامِرُ نَفْسَيْهِ كَذِي الْهَجْمَةِ الْأَبِلُ [٢]

---

(١) قيل : اسْمُه عبد الله بن خَطَل .

(٢) البيت في اللسان والتاج ، وقد استشهدا به في (أَبَلَ) — قال في اللسان : « ورجُلٌ آبِلٌ وأَبِلٌ وإبَلِيٌّ وإبِلِيٌّ : ذو إبِلٍ ، ومن قال : أَبَلَ — بفتح الباءِ — فاسم الفاعل منه (آبِلٌ) بالمد ، ومن قال : أَبِل — بكسر الباءِ — قال في الفاعل: (أَبِلٌ) بالقصر» ، وذكر شاهداً للمدِّ ، وشاهدين للقصر ، الثاني منهما هو بيت الكميت هذا ، ثم حكى عن سيبويه أن بيت الكميت من قولهم : آبَلُ الناسِ (بالمدِّ) ، ومعناها : أَشدهم تأَنُّقاً في رعْية الإبل وأَعلمهم بها ، وأَنه لافعل له . والشاهد في البيت أَنه جعل له نفسين في قوله : (يؤامر نَفْسَيْه) ، وأن هذا من تضاد الخواطر بجملتها كما كانت عادة العرب .

والناس حتى الآن يقولون إذا وصفوا أفكارهم في شيءٍ مَّا : يقول لي أَحدُ قلْبَيَّ كذا ، ويقول الآخر كذا ، وكذلك كانت العرب تعتقد الزوجة إذا ظوهر منها بمنزلة الأُم وتراه طلاقاً ، وكانت تعتقد الدَّعيَّ المُتَبَنَّى ابناً ، فأَعلم الله تبارك وتعالى أَنه لا أَحد بقلبين ، ويكون في هذا طعن على المنافقين الذين تقدم ذكرهم ، أَي : إنما هو قلبٌ واحد ، فإِمَّا حَلَّه إِيمانٌ وإِمَّا كفر ؛ لأَن درجة الكفار كأَنها متوسطة ، يؤمن قلبٌ ويكفر الآخر ، فنفاها الله تعالى ، وبيَّن أَنه قلب واحد ، وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية متى نسي شيئاً أَو وَهِمَ ، يقول على جهة الاعتذار : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ، أَيْ : إذا نسي قلبُه الواحد يُذكِّره الآخر ، وكذلك أَعلم أَن الزوجة لا تكون أُمًّا ، وأَن الدعيَّ لا يجعله ابناً .

وقرأَ نافع ، وابن كثير : [ٱللَّاءِ] دون ياءٍ ، ورُوي عن أَبي عمرٍو ، وابن جُبَيْر : [ٱللَّايْ] بياءٍ ساكنة من غير هَمْز ، وقرأَ ورشٌ بياءٍ مكسورة من غير هَمْز ، وقرأَ عاصمٌ ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، وطلحة ، والأَعمش بِهَمْزةٍ مكسورة بعدها ياءٌ .

وقرأَ ابن عامر : [تَظَّاهَرُونَ] بشدِّ الظاءِ والأَلف ، وقرأَ عاصم ، والحسن ، وأَبو جعفر ، وقتادة : [تُظَاهِرُونَ] بضم التَّاءِ وتخفيف الظاءِ ، وأَنكرها أَبو عمرٍو ، وقال : إنما هذا في المُعَاوَنة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليس بمنكر ، ولفظة ظهار تقتضيه . وقرأَ عاصم ، وحمزة ، وأَبو بكر عن عاصم : [تَظَاهَرُونَ] بفتح التاءِ والظاءِ المخففة . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو : [تَظَّهَّرُونَ] بشد الظاءِ والهاءِ دون أَلف، وقرأَ يحي بن وثاب : [تُظْهِرُونَ] بضم التَّاءِ وسكون الظاءِ وكسر الهاءِ ، وفي مصحف أُبي بن كعب «تَتَظَهَّرُونَ» بتاءَين ، وكانت العرب تُطَلِّق وتقول : «أَنْتِ مني كظهر أُمِّي» فنزلت الآية ، وأَنزل الله تبارك وتعالى كفَّارة الظهار ، وتفْسيرُ الظِّهار وبيانه أَثبتناه في سورة المجادلة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ الآية ، سببُها أَن زيد بن حارثة كانوا يدعونه زيْدَ بنَ محمد ، وذلك أَنه كان عبداً لخديجة فوهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأَقام عنده مُدَّة ، ثم جاءَ عمُّه وأَبوه يرغبان في فدائه ، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم ـ وذلك قبل البعث ـ : خيِّراهُ ، فإِن اختاركما فهو لكما دون فداءٍ ، فخيَّراه فاختار الرِّقَّ مع محمد صلى الله عليه وسلم على حُرِّيته وقومِه ، فقال محمد صلى الله عليه وسلم : (يا معشر قريش ،

اشهدوا أنه ابْني ، يرثني وأَرِثُه) ، فرضي بذلك أبوه وعمُّه وانصرفا (١).

وقوله : [بِأَفْوَاهِكُمْ] تأْكيد لبطلان القول ، أي أنه لا حقيقة له في الوجود ، إنما هو قول فقط ، وهذا كما تقول : «أَنَا أَمْشي إليك

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان من أمْر زيد بن حارثة رضي الله عنه أنه كان في أخواله بني مَعْن من بني ثُعَل من طيئ ، فأُصيب في غِلْمة من طيئ ، فقُدم به سوق عكاظ ، وانطلق حكيم بن حزام بن خويلد إلى عكاظ يتسوق بها ، فأوصته عمته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أن يبتاع لها غُلاماً ظريفاً عربياً إن قدر عليه ، فلما جاء وجد زيداً يُباع فيها ، فأعجبه ظرفه فابتاعه فقدم به عليها ، وقال لها : إني قد ابتعت لك غلاماً ظريفاً عربياً ، فإنْ أعجبك فخذيه ، وإلا فدعيه فإنه قد أعجبني ، فلما رأته خديجة أعجبها فأخذته ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عندها ، فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم ظرفه فاستوهبه منها ، فقالت : هو لك ، فإن أردت عتقه فالولاء لي ، فأبَى عليها ، فوهبته له إن شاء أعتق وإن شاء أمسك ، قال : فشَبَّ عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه خرج في إبِل لأبي طالب إلى الشام ، فمرَّ بأرض قومه فعرفه عمُّه ، فقام إليه فقال : من أنت يا غلام ؟ قال : غلامٌ من أهل مكة ، قال : مِن أنفسهم ؟ قال : لا ، قال : فحرٌّ أنت أم مملوك ؟ قال : بل مملوك ، قال : لِمَن ؟ قال : لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فقال له : أعربيٌّ أنت أم أعجمي ؟ قال : بل عربي ، قال : ممن أهلك ؟ قال : من كلب ، قال : من أيّ كلب ؟ قال : من بني عبد وُدّ ، قال : ويحك ، ابن من أنت ؟ قال : ابن حارثة بن شراحيل ، قال : وأين أُصبْتَ ؟ قال : في أخوالي ، قال : ومن أخوالك ؟ قال : طيءٌ ، قال : ما اسم أُمك ؟ قال : سُعدى ، فالْتزَمه وقال : ابن حارثة ، ودعا أباه وقال : ياحارثة هذا ابنك ، فأتاه حارثة ، فلما نظر إليه عرفه ، قال : كيف صنع مولاك إليك ؟ قال : يؤثرني على أهله وولده ، ورُزقت منه حباً فلا أصنع إلا ماشئتُ ، فركب معه أبوه وعمُّه وأخوه حتى قدموا مكة ، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له حارثة : يا محمد ، أنتم أهل حرَم الله وجيرانه وعند بيته ، تفكُّون العاني ، وتطعمون الأسير ، ابني عبدك فامْنُنْ علينا وأحسِن إلينا في فدائه ، فإنك ابن سيِّد قومه ، فإنا سنرفع لك في الفداء ما أحببت ، فقال له رسول الله =

على قدم » ، فإنما تؤكد بذلك المسيرة ، وهذا كثير . و [يَهْدِي] معناه : يُبَيِّن ، وهو يتعدى بغير حرف جرٍّ ، وقرأ قتادة : [يُهَدِّي] بضم الياء وفتح الهاءِ وشد الدَّال ، و [ٱلسَّبِيل] هي سبيل الشرع والإيمان . وابن كثير ، وابن عامر ، وعاصم ـ في رواية جعفر ـ يقفون [ٱلسَّبِيلَا] ، ويطرحونها في الوصل ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم بالأَلف وصْلًا ووقْفاً ، وقرأ أبو عمرٍو ، وحمزة بغير أَلِفٍ وصْلًا ووقْفاً ، وهذا كله في غير هذا الموضع[1] ، واتفقوا هنا خاصَّةً على طرح الأَلف وصْلًا ووقْفاً لمكان أَلف الوصل التي تلقى اللام .

= صلى الله عليه وسلم : أُعطيكم خيراً من ذلك ، قالوا : وما هو ؟ قال : أُخيِّرُه ، فإن اختاركم فخذوه بغير فداءٍ ، وإن اختارني فكُفُّوا عنه ، قالوا : جزاك الله خيراً ، لقد أحسنتَ ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا زيد ، أتعرف هؤلاء ؟ قال : نعم ، هذا أبي وعمِّي وأخي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنا من قد عرفته ، فإن اخترتَهم فاذهب معهم ، وإن اخترتني فأنا من تعلم ، فقال زيد : ما أنا بمختار عليك أحداً أبداً ، أنت مني بمكان الوالد والعمِّ ، قال له أبوه وعمُّه : يا زيد ، تختار العبودية على الربوبية ؟ قال : ما أنا بمفارق هذا الرجل ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حرصه عليه قال : اشهدوا أنه حُرٌّ ، وأنه ابني يرثني وأرثه ، فطابت نفس أبيه وعمه لـمَّا رأوا من كرامته عليه ، فلم يزل زيد في الجاهلية يدعى : زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ فدُعي : زيد بن حارثة . (الدر المنثور) .

(١) يعني في آيات أُخرى ، منها قوله تعالى في الآية (١٠) من هذه السورة : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ ٱلظُّنُونَا ، هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

أَمر الله تعالى بدعاءِ الأَدعياءِ إلى آبائهم للصُّلْب ، فمن جُهل ذلك منه كان مولًى وأَخاً في الدين ، فقال الناس : زيد بن حارثة ، وسالم مولى أَبي حذيفة ، إلى غير ذلك ، وذكر الطبريُّ أَن أَبا بَكْرَة قرأَ هذه الآية ثم قال : أَنا ممَّن لا يُعرف أَبوه ، وأَنا أَخوكم في الدين ومولاكم ، قال الرَّاوي عنه : ولو علم والله أَن أَباه حَمَّارٌ لانتمى إليه [١] .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ورجال الحديث يقولون في أَبي بَكْرَة : نُفَيْع بن الحارث .

---

(١) الخبر في تفسير الطبري . وفي تقريب التهذيب : «أبو بكرة ، بزيادة هاءٍ ، الثقفي ، الصحابي ، نُفَيع بن الحارث» .

و [أَقْسَطُ] معناه : أَعْدَل ، وقال قتادة : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من ادَّعى إلى غير أبيه متعمداً حرَّم الله عليه الجنَّة) (١) .

وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية رفْعٌ للحرج عمَّن وَهِمَ ونَسِـيَ وأَخطأَ فجرى لسانه على العادة من نِسْبَة زيْد إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وغير ذلك مما يُشبهه ، وأَبقى الجُناح في المتعمد مع الشرط أو الجزاءِ المنصوص .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ يريد : لما مَضَى من فِعْلهم في ذلك ، ثم هما صِفَتان للهِ عزَّ وجلَّ تطَّردان في كل شيءٍ ، وقالت فرقة : خطؤُهم فيما كان سلف من قولهم ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف ، ولا يوصف ذلك بالخطإِ إلَّا بعد النهي ، وإنما الخطأُ هنا بمعنى النسيان ، وما يكون مُقابل العمد . وحكى الطبري

---

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأحمد ، ولفظه كما في مسند أحمد (٥ـ٣٨) ـ عن أبي عثمان النهدي ، قال : سمعت سعداً يقول : سَمِعَتْ أُذناي ووَعَى قلبي أن من ادَّعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه ـ فالجنة عليه حرام ، قال : فلقيتُ أبا بَكْرَة فحدَّثته فقال : وأنا سَمِعَتْ أُذناي ووَعَى قلبي من محمد صلى الله عليه وسلم .

عن قتادة أنه قال : الخطأُ الذي رفع الله فيه الجناح أن يعتقد في أحد أنه ابن فلان فينسبه إليه ، وهو في الحقيقة ليس بابنه ، والعمد هو أن تنسبه إلى فلان وأنت تدري أنه ابن غيره ، والخطأُ مرفوع عن هذه الأُمة عقابه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (وُضِع عن أُمَّتي الخطأُ والنسيان وما أُكْرهوا عليه) [١] ، وقال عليه الصلاة والسلام : (ما أخشى عليكم الخطأَ ، وإنما أخشى عليكم العمد) [٢] .

قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية . أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت في صدر الإسلام ، منها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يُصلي على ميِّت عليه دَيْن ، فذكر الله تعالى أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فجمع هذا أن المؤمن يلزم أن يحب النبيَّ صلى الله عليه وسلم أكثر من نفسه ، حسب حديث عمر رضي الله عنه [٣] ، ويلزم أن يمتثل

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنهما ، واللفظ فيه : ﴿ وَمَا ٱسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ ﴾ كما رواه السيوطي في الجامع الصغير ، وقد رمز له السيوطي بالصحة .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣-٣٠٨) ، وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها ، واللفظ كما ذكره السيوطي في الدر المنثور : (أخاف) بدلا من (أخشى) . قال السيوطي : « وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (والله ما أخشى عليك الخطأ ، ولكن أخشى عليك العمد) » .

(٣) رُوي في الصحيح أن عمر رضي الله عنه قال : يارسول الله ، والله أنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي ، فقال صلى الله عليه وسلم : (لا ياعمر ، حتَّى أكون أحبَّ إليك =

أوامره ، أَحبَّت نفسه ذلك أم كرهته ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية : (أنا أَولى بالمؤمنين من أَنفسهم ، من ترك مالاً فلورثته ، ومن ترك ديْناً أَو ضياعاً فعليَّ ، أَنا وليُّه ، اقرءُوا إن شئتم) : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (١) . وقال بعض العلماء العارفين : هو أَوْلى بهم من أَنفسهم ؛ لأَن أَنفسهم تدعوهم إلى الهلاك ، وهو يدعوهم إلى النجاة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام : (أَنا آخِذٌ بحجزكم عن النار وأَنتم تَقَحَّمون فيها تقحُّم الفَراش) (٢) .

= من نفسك) ، فقال : يا رسول الله ، والله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيءٍ حتى من نفسي ، فقال صلى الله عليه وسلم : (الآن يا عمر) .

(١) أخرج البخاري ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (ما من مؤمن إلا وأنا أَولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرءُوا إن شئتم : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ، فأَيُّمَا مُؤْمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك ديْناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ، ومسلم في الفضائل ، والترمذي في الأدب ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، ولفظه كما في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنما مثلي ومثل أُمتي كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه — أي في المستوقد المفهوم من الكلام — وأنا آخِذٌ بحُجزكم وأنتم تَقَحَّمون فيه) ، وفي رواية : (وأنتم تفلَّتون من يدي) .

وشرَّف تعالى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بأن جعلهن أُمَّهات للمؤمنين : في حرمة النكاح والمبرَّة ، وحَجَبَهن رضي الله عنهن بخلاف الأُمَّهات ، قال مسروق : قالت امرأة لعائشة رضي الله تعالى عنها : يا أُمَّه ، فقالت : لستُ لك بأُم ، إنما أنا أُم رجالكم ، وفي مصحف أُبي بن كعب : «وأزواجه أُمهاتُهم وهو أبٌ لهم» ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : «مِنْ أَنْفُسهم وهو أب لهم وأزواجه أُمهاتهم» ، وسمع عمر رضي الله عنه هذه القراءة فأنكرها ، فقيل له : إنها في مصحف أُبَيٍّ ، فسأله فقرَّرها أُبيٌّ وأَغلظ لعمر ، وقد قيل في قول لوط عليه السلام : ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي﴾(١) : إنما أراد المؤمنات ، أي : تزوجوهن .

ثم حكم تعالى بأن أُولي الأَرحام أَحق مما كانت الشريعة قررته من التوارث بأُخوَّة الإسلام وبالهجرة ، فإنه كان بالمدينة توارثٌ في صدر الإسلام بهذين الوجهين(٢) ، اختلف الرواة في صفته ، وليس

---

(١) من الآية (٧٨) من سورة (هود) .

(٢) من ذلك ما رواه هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير ، قال : ﴿وَأُولُو ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ﴾، وذلك أنا معشر قريش لمَّا قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فآخيناهم فأورثونا وأورثناهم ، فآخى أبو بكر خارجة بن زيد ، وآخيت أنا كعب بن مالك ، فجئت فوجدت السلاح قد أثقله ، فوالله لقد مات عن الدنيا ما ورثه غيري ، حتى أنزل الله هذه الآية فرجعنا إلى موارثنا .

لمعرفته الآن حكم فاختصرته ، وردَّ الله المواريث على الأنساب الصحيحة .

وقوله : ﴿فِي كِتَابِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد القرآن ، ويحتمل أن يريد اللَّوح المحفوظ ، وقوله : ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلِّق بـ [أَوْلَى] الثانية (١) ، وهذه الأُخوَّة والهجرة التي ذكرنا .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً﴾ يريد الإحسان في الحياة ، والصِّلة والوصية عند الموت ، قاله قتادة ، والحسن ، وعطاءٌ ، وابن الحنفية ، وهذا كله جائز أن يُفْعل مع الوَلِيِّ على أقسامه ، والقريب الكافر يوصى له توصية (٢) . واختلف العلماءُ ، هل يجعل وصيًّا ؟ فجوَّز بعض ، ومنع بعض ، ورد النظر إلى السلطان بعضٌ ، منهم مالك بن أنس رضي الله عنه . وذهب مجاهد ، وابن زيد ، والرمانيُّ ، وغيرهم إلى أن المعنى : «إلى أوليائكم من المؤمنين» ، ولفظ الآية يعضد هذا المذهب ، وتعميم لفظ (الوَلِيِّ) أيضاً حسنٌ كما قدَّمنا ؛ إذ ولاية النسب لا تدفع الكافر ، وإنما تدفع أن يلقى

---

(١) ولا يصحُّ أن يتعلق بقوله تعالى : ﴿وَأُولُو ٱلْأَرْحَامِ﴾ ، قال القرطبي : «بالإجماع ؛ لأن ذلك كان يوجب تخصيصاً ببعض المؤمنين ، ولا خلاف في عمومها ، وهذا حل إشكالها» .

(٢) في أكثر النسخ : «والقريب والكافر» ، وآثرنا حذفها لأن ذلك يوافق عبارة القرطبي التي نقلها عن ابن عطية ، ويوافق عود الضمير على مفرد في قول المؤلف بعده : «هل يُجْعَلُ وصيّاً» .

إليه بالمودة كوَلِيّ الإسلام ، والكتابي الذي ينتظر ذلك فيه يحتمل الوجهين اللذين ذكرنا .

و [مَسْطُوراً] من قولك : «سَطَرْتُ الْكِتَابَ» إذا أَثْبته أَسْطَاراً ، ومنه قول العجاج :

في الصُّحُف الأُولى الَّتي كانَ سَطَرْ (١)

قال قتادة : وفي بعض القراءة : «كان ذلك عند الله مكتوباً» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

(١) البيت من مشطور الرجز ، قاله العجاج من أرجوزته الطويلة الّتي مدح بها عمر بن عبد الله بن معمر ، وكان عبد الملك بن مروان قد وجهه لحرب أبي فديك الخارجي فحاربه وانتصر عليه ، والشاهد في البيت أن (سَطَر) بمعنى : كتب ، وأن السَّطر هو الخط والكتابة .

[إذْ] يحتمل أَن يكون ظرفاً لسطر الأَحكام المتقدمة في الكتاب ، كأَنه قال : كانت الأَحكام مسطرة مُلقاةً إلى الأَنبياءِ إذْ أَخذنا عليهم الميثاق في التبليغ والشرائع ، فيكون [إذْ] متعلقاً بقوله : ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ . ويحتمل أن يكون في موضع نصب بإضمار فعل تقديره : واذكر إذْ ، وهذا التَأْويل أَبين من الأَول .

وهذا الميثاق المشار إليه قال الزجاج وغيره : إنه الذي أُخذ عليهم وقت استخراج البشر من صُلب آدم كالذَّرِّ ، قالوا : وأَخذ الله تبارك وتعالى حينئذ ميثاق النَّبيِّين بالتبليغ وتصديق بعضهم بعضاً ، وبجميع ما تتضمَّنه النبوة ، ورُوي نحوه عن أُبَيٍّ بن كعب . وقالت فرقة : بل أَشار إلى أَخذ الميثاق على كل واحد منهم عند بعثه ، وعند إلقاءِ الرسالة إليه وأَوامرها ومعتقداتها .

وذكر الله تعالى النبيِّين جملةً ، ثم خصص بالذكر أَفراداً منهم تشريفاً وتعظيماً ، إذ هؤلاءِ الخمسة صلى الله عليهم وسلم هم أَصحاب الكتب والشرائع والحروب الفاصلة على التوحيد وأُلو العزم ، ذكره الثعلبي ، وقـدَّم ذكر محمد صلى الله عليه وسلم على مزِيَّته في الزمن تشريفاً خاصاً له أَيضاً ، ورُوي عنه عليه الصلاة والسلام

أنه قال : (كنت أَوَّل الأَنبياءِ في الخَلْق وآخرهم في البعث) (١) .

وكرَّر أَخذ الميثاق لمكان الصفة التي وُصف بها ، و [غَلِيظاً] إشعارٌ بحرمة هذا الميثاق وقوتها ، واللام في قوله تعالى : [لِيَسْأَلَ] متعلقة بـ [أَخَذْنا] ، ويحتمل أَن تكون لام كيْ ، أَي : بعثت الرسل وأَخذت عليهم الميثاق في التبليغ لكي يجعل الله خلقه فرقتين ، فرقة يسأَلها عن صدقها ، على معنى إقامة الحجة والتقرير ، كما قال لعيسى عليه السلام : ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ (٢) ؟ فتجيب كأَنها قد صدقت الله في إيمانها في جميع أَفعالها ، فَيُثِيبُها على ذلك ، وفرقة كفرت فينالها ما أَعدَّ لها من العذاب الأَليم ، ويحتمل أَن تكون اللام في قوله : [لِيَسْأَلَ] لامَ الصَّيرورة ، أَيْ : أَخذ الميثاق على الأَنبياءِ ليصير الأَمر إلى كذا ، والأَول أَصوب .

(١) أخرجه ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ، قال : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ ، قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : (كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث) ، وأخرج ابن أبي شيبة عن قتادة رضي الله عنه ، قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ قال : (بُدِئَ بي في الخير وكنت آخرهم في البعث)، (الدر المنثور) ، ولاشك أن بعث الرسل هو الخير للبشر جميعاً .

(٢) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة) .

والصدق في هذه الآية يحتمل أَن يكون المضاد للكذب في القول ، ويحتمل أَن يكون من صدق الأَفعال واستقامتها ، ومنه : عود صدق ، وصدقني السيف والمال ، وقال مجاهد : [ٱلصَّادِقِينَ] في هذه الآية أَراد بها الرُّسل ، أَي : يسأَل عن تبليغهم ، وقال أَيضاً : أَراد المؤَدِّين المبلغين من الرسل . وهذا كله محتمل .

وقوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ ، إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ نزلت في شأْن غزوة الخندق وما اتصل بها من أَمر بني قريظة ، وذلك أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَجلى بني النضير من موضعهم عن المدينة إلى خيبر ، واجتمعت جماعة منهم ومن غيرهم من اليهود وخرجوا إلى مكة مستنهضين قريشاً إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجَسَّرُوهم(١) على ذلك ، وأَزمعت قريش السير إلى المدينة ، ونهض اليهود إلى غطفان وبني أَسد ومَنْ أَمَّلهم من أَهل نجد وتهامة ، واستنفروهم إلى ذلك ، فتحزب الناس وساروا إلى المدينة ، واتصل الخبر برسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) أي : شَجَّعوهم ، يقال : جَسَرَ جُسوراً وجَسَارة : شجع شجاعة . وجَسَّرَه : شَجَّعَــه .

فحفر الخندق حول ديار المدينة وحصّنه ، وكان أمراً لم يعهده العرب ، وإنما كان من أعمال فارس والروم ، وأشار به سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فورد الأحزاب قريش وكنانة والأحابيش في نحو عشرة آلاف عليهم أبو سفيان بن حرب ، ووردت غطفان وأهل نجد عليهم عُيَيْنَة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، ووردت بنو عامر وغيرهم عليهم عامر بن الطفيل إلى غير هؤلاء ، فحصروا المدينة ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة ، على ما قال ابن إسحق ، وقال مالك : كانت سنة أربع (١) ، وكانت بنو قريظة قد عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الهدنة ، وعاقدوه على ألّا يلحقه منهم ضرر ، فلما تمكن هذا الحصار واثقهم بنو النَّضير ، فغدروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونقضوا العهد ، وصاروا حزباً من الأحزاب ، فضاقت الحال على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وكثرت الظنون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبشّر ويعد بالنصر .

---

(١) قال الزرقاني : «واختلف في تاريخها ، فقال موسى بن عقبة في مغازيه التي شهد مالك والشافعي بأنها أصح المغازي : كانت سنة أربع ، قال الحافظ : وتابعه على ذلك الإمام مالك» .

ثم أَلْقى الله الرعب في قلوب المشركين ، ويئسوا من الظفر بِمَنَعَة الخندق ، وبما رأَوا من جَلَد المؤْمنين ، وجاءَ رجل من قريش اسمه نوفل بن الحرث - وقيل غير هذا - فاقتحم الخندق بفرسه فقُتل فيه ، فكان ذلك حاجزاً بينهم ، ثم إن الله تعالى بعث الصَّبا[1] لنصرة نبيِّه صلى الله عليه وسلم على الكفار ، فطردتهم ، وهدَّدت بيوتهم ، وأَطفأَت نيرانهم ، وقطعت حبالهم ، وأَكفأَت قدورهم ، ولم يمكنهم معها قرار ، وبعث الله مع الصَّبا ملائكة تُشدِّد الريح ، وتفعل نحو فعلها ، وتلقي الرعب في قلوب الكفرة حتى أَزمعوا الرحلة بعد بضع وعشرين ليلة للحصر ، فانصرفوا خائبين ، فهُما الجنود التي لم تُر .
وقرأَ الحسن : [وَجَنُوداً] بفتح الجيم ، وقرأَ الجمهور : [تَعْمَلُونَ] بالتاءِ ، فكأَن في الآية مقابلة لهم ، أَي : أَنتم لم تروا جنوده وهو بصير بأَعمالكم ، فيتبين في هذا القدرة والسلطان ، وقرأَ أَبو عمرو وحده : [يَعْمَلُونَ] بالياءِ على معنى الوعيد للكفرة ، وقرأَ أَبو عمرو أَيضاً بالتاءِ ، وهما حسنتان ، ورُوي عن أَبي عمرو : ﴿لَمْ يَرَوْهَا﴾ من تحت ، قال أَبو حاتم : قراءَة العامة : ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ بالتاءِ من فوق ، ورُوي عن الحسن ، ونافع ، والأَعرج : [يَعْمَلُونَ] بالياءِ .

---

(١) الصَّبا : ريح مهبُّها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنث) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾

[إِذْ] هذه بدلٌ من الأُولى في قوله سبحانه : ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ﴾ ، وقوله : ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ يريد أَهل نَجْد مع عُيَيْنَة بن حصن ، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ يريد مكة وسائر تهامة ، قاله مجاهد ، وقيل : ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أَي : من أَعلى الوادي من قِبَل مشرق غطفان ، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ من أَسفل الوادي منه قِبَلَ المغرب ، وقيل : إنما أَراد ما يختص ببقعة المدينة ، أَي : نزلت طائفة في أَعلى المدينة ، وطائفة من أَسفلها ، وهذه عبارة عن الحصر .

و ﴿زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ﴾ معناه : مالت عن مواضعها ، وذلك فِعل الواله الفَزِع ، وأَدغم الأَعمش ﴿إِذزَّاغَتْ﴾ ، وبيّن الذال الجمهورُ ، وكُلٌّ حسن .

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ عبارة عما يجده الهَلِـعُ من ثوران نفسه وتفرقها شعاعاً ، ويجد كأَن قلبه يصْعَد علوًّا لينفصل ، فليس بُلُوغ القلوب الحناجر حقيقة بالنقلة ، بل يشير إلى ذلك ، فيستعار لها بلوغ الحناجر ، ورَوى أَبو سعيد أَن المؤمنين قالوا يوم الخندق : يا رسول الله ، بلغت القلوب الحناجر ، فهل من شيءٍ نقوله ؟ قال نعم ، قولوا : (اللَّهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا) ، فقالوها فضرب اللهُ وجوه الكفار بالريح فهزمهم (١) .

وقوله تعالى : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ ٱلظُّنُونَا﴾ ، أَي : تكادون تضطربون وتقولون : ما هذا الخُلْفُ للوعد ؟ وهذه عبارة عن خواطر للمؤمنين لا يمكن للبَشَر دفعها ، وأَما المنافقون فجَلَّحُوا (٢) ونطقوا . وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو ، وعاصم ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، والأَعمش ، وطلحة : [ٱلظُّنُونَا] بأَلف في الوصل والوقف ، وذلك اتباع لخط المصحف ،

---

(١) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قلنا يوم الخندق: يارسول الله ، هل من شيءٍ نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، قال: فضرب الله وجوه أعدائه بالريح ، فهزمهم الله بالريح . الدر المنثور .

(٢) جلَّح في الأمر : ركب رأسه فيه وأَقدم ومضى ، وفي بعض النسخ : « فعجلوا ونطقوا » ، وهي متفقة مع ما في (البحر المحيط) .

وعلته تعديل رؤُوس الآي ، وطَرْد هذه العلَّة أن تلازم الوقف . وقد روي عن أبي عمرو أنه لايصل ، وكان يوافق خط المصحف وقياس الفواصل ، وقرأ أبو عمرو أيضاً ، وحمزة في الوصل والوقف : [ٱلظُّنُونَ] بغير ألف ، وهذا هو الأَصل ، وقرأ ابن كثير ، والكسائي ، وعاصم ، وأَبو عمرو بالأَلف في الوقف ، وبحذفها في الوصل ، وعلَّلوا الوقف بتساوي رؤُوس الآي ، وبما يفعل العرب في القوافي من الزيادة والنقص .

وقوله تعالى : [هُنَالِكَ] ظرف زمان ، والعامل فيه [ٱبْتُلِيَ] ، ومن قال : إن العامل فيه [وَتَظُنُّونَ] فليس قوله بالقوي ؛ لأَن البداءة ليست بمتمكنة . و [ٱبْتُلِيَ] معناه : اخْتُبِر وامتحن الصابر منهم من الجازع ، [وَزُلْزِلُوا] معناه : حركوا بعنف ، وقرأ الجمهور : [زِلْزَالًا] بكسر الزاي ، وقرأها [زَلْزَالًا] بالفتح الجحدريُّ ، وكذلك [زِلْزَالَهَا] في ﴿إِذَا زُلْزِلَت﴾[1] ، وهذا الفعل هو مضاعف (زَلَّ) .

ثم ذكر تعالى قول المنافقين والمرضى القلوب ، على جهة الذَّم لهم ، ورُوي عن يزيد بن رومان أَن معتّب بن قشير قال : يعدنا محمد أَن نفتح كنوز كسرى وقيصر ومكة ونحن الآن لا يقدر أَحدنا أَن يذهب إلى الغائط ، ما يعدنا إلَّا غروراً ، أَي أَمراً يغرنا ويوقعنا فيما لا طاقة لنا به ، وقال غيره من المنافقين نحو هذا فنزلت الآية فيهم ، وقولهم :

(١) الآية (١) من سورة (الزّلزلة) .

﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ إنما هو على جهة الهزء ، كأنهم يقولون : على زعم هذا الذي يدعي أنه رسول ، ويدل على هذا أن من المحال أن يكون اعتقادهم أن ذلك الوعد هو من الله ومن رسوله ثم يصفونه بالغرور ، بل معناه : على زعم هذا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾

هذه المقالة رُوي أن بني حارثة قالوها ، وبيوتهم بحدود المدينة ، وقال مقاتل : بنو سَلَمة (١) ، وقيل : القائل لذلك عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول وأَصحابه . وقرأَ السُّلَمي ، وحفص ، واليماني ، والأَعرج :

(١) ذكر في بعض النسخ ، وفي تفسير البحر المحيط أنهم بنو (مسلمة) ، والثابت في سيرة ابن هشام أنهم بنو سَلَمَة .

﴿لَا مُقَامَ﴾ بضم الميم ، بمعنى : لا موضع إقامة ، وقرأ الباقون : ﴿لَا مَقَامَ﴾ بفتح الميم ، بمعنى : لا موضع قيام ، وهي قراءة أبي جعفر ، وشيبة ، وأبي رجاءٍ ، والحسن ، وقتادة ، والنَّخَعي ، وعبد الله ابن مسلم ، وطلحة ، والمعنى : في موضع القتال وموضع الممانعة . [فَارْجِعُوا] معناه : إلى منازلكم وبيوتكم ، وكان ذلك على جهة التخذيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والفريق المستأْذن ، رُوي أَن أَوْس بن قَيْظِي ، استأْذن في ذلك عن اتفاق من عشيرته ، فقال : إنَّ بيوتنا عورة ، أَي منكشفة للعدو ، وقيل : أَراد : خالية للسراق ، يقال : اعوَرَّ المنزل إذا انكشف ، ومنه قول الشاعر :

* لَنَا الشَّدَّةُ الأُولى إذا الْقِرْنُ أَعْوَرَا *(١)

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الفريق بنو حارثة ، وهم كانوا عاهدوا الله إثر أُحُد لا يُوَلُّون الأَدبار ، وقرأ ابن عباس ، وابن يعمر ، وقتادة ،

---

(١) ذُكر في اللسان والتاج (عَوِرَ) ، قالا : وهو في وصف الأسد ، واللفظ فيهما : (لَهُ الشَّدَّةُ الأولى) ، وقال في اللسان : « والعرب تقول : أعْوَرَ منزلُك إذا بدت منه عورة ، وأعور الفارسُ إذا كان فيه موضع خَلَل للضرب » . والشَّدَّة : الحملة القوية في الحرب ، والقِرْنُ : المثيل في الشجاعة كما هو المراد هنا ، وقد يكون في العِلْم ، والجمع أقران .

وأَبو رجاءٍ : [عَوِرَةٌ] بكسر الواو فيهما ، وهو اسم فاعل ، قال أَبو الفتح : «صحة الواو في هذه شاذة ؛ لأَنها متحركة قبلها فتحة» ، وقرأَ الجمهور : [عَوْرَةٌ] ساكنة الواو على أَنه مصدر وُصف به ، والبيت المُعْوِرُ هو المنفرد المعرَّض لمن شاءَه بسوءٍ ، فأَخبر الله تعالى عن بيوتهم أَنها ليست كما ذكروه ، وأَن قصدهم الفِرار ، وأَن ما أَظهروه من أَنهم يريدون حماية بيوتهم وخاصة نفوسهم ليس كذلك ، وأَنهم إنما يكرهون نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويريدون خِزْيه وأَن يغلب .

ولو دُخلت المدينة من أَقطارها ، واشتد الخوف الحقيقي ، ثم سُئلوا الفتنة والحرب لمحمد صلى الله عليه وسلم وأَصحابه رضوان الله عليهم لطاروا إليها وأَتوها مجيبين(١) فيها ، ولم يتلبثوا في بيوتهم لحفظها إلَّا يسيراً ، قيل : قَدْر ما يأْخذون سلاحهم . وقرأَ الحسن البصري : ﴿ثُمَّ سُولُو ٱلْفِتْنَةَ﴾ بغير همز ، وهي من سَالَ يَسَالُ كخاف يخاف لغة في (سأَل) العين فيها واو ، وحكى أَبو زيد : هما يتساولان ، ورُوي عن الحسن : «سُلُوا الْفِتْنَةَ» ، وقرأَ مجاهد :

---

(١) في إحدى النسخ : (مُحِبِّين) .

[سُوئِلُوا] بالمدِّ(١) . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : [لَأَتَوْهَا] بمعنى : لجاءُوها ، وقرأ عاصم ، وأبو عمرو : [لَآتَوْهَا] بمعنى : لَأَعْطَوْهَا من أنفسهم ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي ، فكأنها ردٌّ على السؤال ومشبهة له ، قال الشعبي : وقرأها النبي عليه الصلاة والسلام بالمدِّ(٢) .

ثم أخبر عنهم تبارك وتعالى أنهم قد كانوا عاهدوا على ألَّا يفرُّوا ، ورُوي عن يزيد بن رومان أن هذه إشارة إلى بني حارثة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهم مع بني سَلَمة كانتا الطائفتين اللتين همَّتا بالفشل في يوم أُحد ، ثم تابوا وعاهدوا على ألَّا يَقَع منهم فرار ، فوقع يوم الخندق من بني حارثة .

---

(١) علَّل أبو الفتح ابن جني قراءة الحسن البصري [سُولُو] بتعليلات أكثرها فيه الصنعة . راجع المحتسب (٢-١٧٧) وما بعدها .

(٢) اختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة المدّ ، قالا : وفي الحديث أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يُعذَّبون في الله ويُسألون الشرك ، فكلٌّ أَعطى ما سألوه إلا بلالاً ، ففيه دليل على قراءة المدّ ، من الإعطاء . ويدلُّ على قراءة القصر قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾ فهنا يدل على [لَأَتَوْهَا] مقصوراً . وقد أشار ابن عطية إلى أن قراءة المدّ فيها معنى الإعطاء . ونِسْبَةُ قراءة المدّ لعاصم هي رواية أبي بكر عنه ، أما رواية حفص فهي بالقصر كما هو ثابت في المصحف .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ توعّدٌ . و « الأَقْطَار » : النواحي ، واحدها قُطْرٌ وقُتْرٌ(١) ، والضمير فيها يحتمل المدينة ويحتمل البيوت .

قوله عز وجلّ :

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

أَمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية أَن يخاطبهم بتوبيخ ، فأَعلمهم بأَن الفرار لا ينجي من القدر ، وبأَنهم لا يُمتَّعُون في تلك الأَوطان ، بل تنقطع أَعمارهم في يسير من المدة . والقليل الذي

---

(١) الأقْطار : الجوانب ، وواحدها : قُطْر ، وهي الأقْتار ، وواحدها : قُتْر ، قال الفرزدق :

كَمْ مِنْ غِنًى فَتَحَ الإلَهُ لهُمْ بِهِ وَالْخَيْلُ مُقْعِيَةٌ عَلَى الأَقْطَارِ

ويروى البيت : على الأقتار . ومعنى (مقعية على الأقطار) : ساقطة على أجنابها تروم القيام كما تقعي الكلاب على أجنابها وأفخاذها .

استثناه هي مدة الآجال ، قاله الربيع بن خُثَيْم[١]، ثم وقفهم على عاصمٍ من الله يستندون إليه ، ثم حكم بأَنهم لا يجدون ذلك ، ولا وليَّ ولا نصير من الله عزَّ وجلَّ . وقرأت فرقة : [يُمَتَّعُونَ] بالياءِ ، وقرأت فرقة : [تُمَتَّعُونَ] بالتاءِ على المخاطبة .

ثم وبَّخهم بإخباره أَن الله تعالى يعلم المعوقين ، وهم الذين يعوقون الناس عن نُصْرَة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويمنعونهم بالأَقوال والأَفعال من ذلك ، ويسعون على الذين ينصرونه ، تقول : عاقني أَمر كذا ، وعوَّقني إذا بالغت وضعفت الفعل .

وأَما القائلون فاختلف الناسُ في حالهم ـ فقال ابن زيد وغيره : أَراد المنافقين ، يقول المنافق لإخوانه في النسب وقرابته : «هَلُمَّ إلَيْنَا» ، أَي : إلى المنازل والأَكل والشرب وترك القتال ، ورُوي أَن جماعةً منهم فعلت ذلك . ورُوي أَن رجلاً من المؤمنين رجع إلى داره فوجد أَخاً له منافقاً ، بين يديه رغيف وشواءٌ ونبيذ ، فقال له : أَتجلس

---

(١) في تقريب التهذيب : هو الربيع بن خُثَيْم بضم المعجمة وفتح المُثَلَّثة ، وفي الخلاصة : ابن خَيْثَم بفتح الخاء وسكون الياء ، وفتح الثاء ، وهو ابن عائذ بن عبد الله الثوري ، أبو يزيد الكوفي . قال عنه في التقريب : «ثقة عابد مخضرم ، من الثانية ، قال له ابن مسعود : لو رآك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحبك ، مات سنة إحدى وستين ، وقيل : سنة ثلاث وستين» .

يا فلان هكذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال ؟ فقال له أَخوه : هلُمَّ إلى ما أَنا فيه يا فلانُ ، ودعني من محمد فقد والله هَلَكَ ، وماله قِبَلٌ بـأَعدائه . فشتمه أَخوه وقال : والله لأُعَرِّفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فوجد الآية نزلت (١) .

وقالت فرقة : بل أَراد من كان من المنافقين يداخل كفار قريش والعرب ، فإنه كان منهم من يداخلهم ، وقال لهم : « هَلُمَّ إِلَيْنا » ، أَي إلى المدينة فإنكم تغلبون محمداً ، والإخوان ـ على هذا ـ هم في الكفر والمذهب السُّوءِ .

و « هَلُمَّ » بمعنى : أَقْبِل ، ومن العرب من يستعملها على حدٍّ واحد في المذكَّر والمؤنث والمفرد والجمع ، وهذا على أَنها اسم فعل ، وهذه لغة أَهل الحجاز ، ومنهم من يُجريها مجرى الأَفعال فيُلحقها الضمائر المختلفة ، فيقول : هَلُمَّ ، وَهَلُمِّي ، وهَلُمُّوا . وأَصل (هَلُمَّ) : (هَالْمُمْ) ، نقلت حركة الميم إلى اللام فاستُغْني عن الأَلف ، وأُدغمت الميم في الميم لسكونها فجاءَ (هَلُمَّ) ، وهذا مثلُ تعليل : (رُدَّ) من ارْدُدْ (٢) .

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه ، (الدر المنثور) ، وفي روايته أن الرجل كان أخاه من أبيه وأُمه . وذكر هذا الحديث ابنُ جرير الطبري عن ابن زيد أيضاً .

(٢) قال الأزهري : « فُتحت هَلُمَّ لأنها مدغمة ، كما فُتحت رُدَّ في الأمر ، فلا يجوز فيها هَلُمُّ بالضم ، كما لا يجوز رُدُّ لأنها لا تتصرف » . وقال ابن سيدة : « زعم الخليل أن هَلُمَّ هي لُمَّ لحقتها هاءُ التنبيه » .

والبَأْسُ : القتال ، و ﴿ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ معناه : إلَّا إتياناً قليلًا ، وقلَّته يحتمل أَن تكون لِقِصَر مُدَّته وقِلَّة أَزمنته ، ويحتمل أَن تكون لقِلَّة عقابه ، وأَنه رياءٌ وتلميع لا تحقيق .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

[أَشِحَّةً] جمع شحيح(١) ، ونصبه على الحال من [ٱلْقَآئِلِينَ] ، أَو من فعل مضمر دلَّ عليه قوله : [ٱلْمُعَوِّقِينَ](٢) ، أَو من الضمير في [يَأْتُونَ] ، أَو على الذم ، وقد منع بعض النحاة أَن يعمل في هذه الحال [ٱلْمُعَوِّقِينَ] أَو [ٱلْقَآئِلِينَ] لمكان التفريق بين الصلة والموصول

(١) والشحيح : البَخيل ، وجمع شَحيحٍ على أَشِحَّة لا ينقاسُ ، وقياسُه في الصفة المضعفة للعين واللام : فُعلاء ، نحو خليل وأَخلاء ، ورقيق وأَرقاء ، وعلى هذا فالقياس أَن يجمع شحيح على أَشحاءٍ ، وقد سمع ذلك .

(٢) وتقديره : يُعَوِّقون أَشِحَّةً .

بقوله : ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ وهو غير داخل في الصلة . وهذا الشُّحُّ قيل : هو بأنفسهم على المؤمنين ، وقيل : بإخوانهم ، وقيل : بأموالهم في النفقات في سبيل الله ، وقيل : بالغنيمة عند القَسْم ، والصواب تعميم الشُّح ، وأن يكون بكل ما فيه للمؤمنين منفعة .

وقوله : ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ ، قيل : معناه : فإذا قوي الخوف من العدوِّ ، وتُوُقِّع أن يستأصل جميع أهل المدينة ، لاذ هؤلاء المنافقون بك ، ينظرون نظر الهَلَعِ المختلط ، كنظر الذي يغشى عليه من الموت ، ﴿فإذَا ذَهَبَ﴾ ذلك الخوف العظيم [سَلَقُوكُمْ] أي : خاطبوكم مخاطبة بليغة ، يقال : خطيب سَلَّاقٌ ومِسْلَاقٌ ومِسْلَقٌ ، ولسانٌ أيضاً كذلك إذا كان فصيحاً مقتدراً ، وقرأ ابن أبي عبلة : [صَلَقُوكُمْ] بالصَّاد . ووصف الألسنة بالحِدَّة لِقَطْعها المعاني ، ونفوذها في الأقوال .

وقالت فرقة : معنى قوله : ﴿فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ﴾ أي : إذا كان المؤمنون في قوة وظهور ، وخشي هؤلاء المنافقون سطوتك يا محمد رأيتهم يصانعون وينظرون إليك نظر فازع منك خائف هلع ، فإذا ذهب خوفك عنهم باشتغالك بعدوٍّ ونحوه ـ كما كان مع الأحزاب ـ سلقوكم حينئذ . واختلف الناس في المعنى الذي فيه تسلقون ـ فقال يزيد بن رومان وغيره : ذلك في أذى المؤمنين وسبِّهم وتنقيص الشرع

ونحو هذا ، وقال قتادة : ذلك في طلب العطاء من الغنيمة والإلحاف في المسألة ، وهذان القولان يترتَّبان مع كل واحد من التأْويلين المتقدمين في الخوف . وقالت فرقة : السَّلْقُ هو في مخادعة المؤمنين بما يُرضيهم من القول على جهة المصانعة والمخاتلة .

وقوله : [أَشِحَّةً] حال من الضمير في [سَلَقُوكُمْ] ، وقوله : ﴿عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ يَدُلُّ على عموم الشُّحِّ في قوله أولًا ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ ، وقيل في هذا : معناه : أشحةً على مال الغنائم ، وهذا على مذهب من قال : إن (الخير) في كتاب الله حيث وقع فهو بمعنى المال . وقرأ ابن أبي عبلة : [أَشِحَّةٌ] بالرفع ، أَخبر تبارك وتعالى عنهم أَنهم لم يؤمنوا ، ولا كمل تصديقهم ، وجمهور المفسرين على أن هذه الإشارة إلى منافقين لم يكن لهم قط إيمان ، ويكون قوله : ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أَنها لم تكمل قط ، أَيْ أَنها كالْمُحْبَطَة ، وحكى الطبري عن ابن زيد عن أَبيه أنه قال : نزلت في رجل بدري نافق بعد ذلك ووقع في هذه المعاني فأَحبط الله عمله في بدر وغيرها ، وهذا فيه ضعف .

والإشارة بـ [ذَلِكَ] في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً﴾ يحتمل أَن تكون إلى إحبـاط عمل هـؤلاءِ المنافقين ، ويحتمل أَن تكون إلى جملـة حالهم وما وصف من شحهم ونظـرهم وغير ذلك من

أَعمالهم ، أي أَن أَمرهم يسير لا يبالى به ، ولَا له أَثر في دفع خير ولا جلب شر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

الضمير في [يَحْسَبُونَ] للمنافقين ، والمعنى أَنهم من الفزع والجزع بحيث رحل الأَحزاب وهزمهم الله تعالى وهؤلاءِ يظنون أَنهم لم يذهبوا ، بل يريدون الكَرَّة إلى المدينة ، ثم أَخبر تعالى عن معتقد هؤلاءِ المنافقين أَن ودهم إذا أَتى الأَحزاب وحاصروا المدينة أَن يكونوا هم قد خرجوا إلى البادية ومع الأَعراب وهم أَهل العمود والرحيل من قُطر إلى قُطر ، ومن كان منهم مقيماً بأَرض مستوطناً فلا يُسمُّونَ أَعراباً ، وغرضهم من البداوة أَن يكونوا سالمين من القتال . وقرأَ ابن عباس ، وطلحة ابن مصرِّف : ﴿لَوْ أَنَّهُمْ بُدَّى في ٱلْأَعْرَابِ﴾ بشدِّ الدال منونة ،

وهو جمع بادٍ كغازٍ وغُزَّى . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : «بدا» فعلًا ماضياً (١) .

وقرأ أَهل مكة ، ونافع ، وابن كثير ، والحسن : [يَسْأَلُونَ] ، أَي عن أَنبائكم ، وقرأ أَبو عمرو ، وعاصم(٢) ، والأَعمش ، والحسن : [يَسَالُونَ] بغير همز ، نحو قوله تعالى : ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٣) ، وقرأ الجحدري ، وقتادة ، والحسن – بخلاف عنه – : [يَسَّاءَلُونَ] ، أَي : يسأَل بعضهم بعضاً ، قال(٤) الجحدري في الإِمام : [يَتَسَاءَلُونَ] .

ثم سَلَّى الله تعالى نبيَّه عنهم ، وحقَّر شأْنهم بأَن أَخبر أَنهم لو حضروا لما أَغنوا ولما قاتلوا إِلَّا قتالًا قليلًا لا نفع له ، قال الثعلبي : هو قليل من حيث هو رياءٌ من غير حسبة ولو كان كثيراً .

ثم أَخبر تبارك وتعالى على جهة الموعظة بأَن كل مسلم ومدع في الإِسلام يجب أَن يقتدي بمحمد عليه الصلاة والسلام حين قاتل وصبر

---

(١) هكذا في الأصول ، وهي أيضاً عبارة البحر المحيط .
(٢) في رواية أبي بكر عنه .
(٣) من قوله تعالى في الآية (٢١١) من سورة (البقرة) : ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِنْ آيَة بيِّنَة﴾ .
(٤) هكذا في الأصل . ولعلها : وَقَرَأَ .

وجاد بنفسه (١) . وقرأ جمهور الناس : [إِسْوَةٌ] بكسر الهمزة ، وقرأ عاصم وحده : [أُسْوَةٌ] بضم الهمزة ، وهما لغتان ، ومعناها : قدوة ، وتـأَسَّى الرَّجلُ إذا اقتدى ، و «رجاءُ الله» تابع للمعرفة به ، و «رجاءُ اليوم الآخر» ثمرةُ العمل الصالح ، و «ذِكْرُ الله كثيراً» من خير الأَعمال ، فنبِّه عليه .

وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «يحسبون الأَحزاب قد ذهبوا ، فإذا وجدوهم لم يذهبوا ودُّوا أنهم بادون في الأَعراب» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

(١) ومن مظاهر ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قد شُجَّ وجهُه ، وكُسرت رباعيته ، وأن عمه حمزة رضي الله عنه قد قُتل ، وأنه جاع وربط على بطنه من شدة الجوع ، ولم يُرَ إلا صابراً محتسباً ، وشاكراً راضياً ، والأسوة بالرسول يجب أن تمتد إلى حياته كلها .

وصف تعالى فِعْلَ المؤمنين حين رأوا تجمع الأَحزاب لحربهم ، وصبرَهم على البلاء ، وتصديقَهم وعد الله تعالى على لسان نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، واختلف المتأَولون مَاذا أَرادوا بوعد الله ورسوله ؟ — فقالت فرقة : أَرادوا ما أَعلمهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أَمرهم بحفر الخندق ، فإنه أَعلمهم بأَنهم سيُحْصَرون ، وأَمرهم بالاستعداد لذلك ، وبأَنهم سينتصرون بعد ذلك ، فلما رأَوا الأَحزاب قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، فسَلَّموا الأَمر وانتظروا أَجره (١) .

وقالت فرقة : أَرادوا بوعد الله ما نزل في سورة البقرة ، من قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَٱلضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ ٱللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللهِ قَرِيبٌ﴾ (٢) .

---

(١) روى كُثير بن عمرو المزني عن أبيه عن جدّه قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذكرت الأحزاب فقال : (أخبرني جبريل عليه السلام أن أُمتي ظاهرة عليها — يعني على قصور الحيرة ومدائن كسرى — فأَبشروا بالنصر) ، فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله ، موعد صادق ، إذ وُعدنا بالنصر بعد الحَصْر ، فطلعت الأحزاب فقال المؤمنون : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، ذَكَر ذلك الماوردي ، ونقله القرطبي .

(٢) الآية (٢١٤) من سورة (البقرة) ، وقد أخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿وَلَمَّا رَأَى ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ إلى =

ويحتمل أن يكون المؤمنون نظروا في هذه الآية ، وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أمرهم بحفر الخندق ، وأشاروا بالوعد إلى جميع ذلك ، وهما مقالتان ، إحداهما من الله تعالى ، والأُخرى من رسوله صلى الله عليه وسلم .

وزيادة الإيمان هنا هي في أوصافه لا في ذاته ؛ لأن ثُبوته وإبعاد الشُّكوك والشُّبَه عنه زيادة في أوصافه ، ويحتمل أن يزيد إيمانُهم بما وقع ، وبما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لم يقع ، فتكون الزيادة بهذا الوجه ـ فيما يُؤْمَن به لا في نفس الإيمان . وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ ﴾ بواو جمع .

و «ٱلتَّسْلِيمُ» : الانقياد لأمر الله تعالى كيف جاءَ ، ومن ذلك ما ذكرناه من أن المؤمنين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند اشتداد ذلك الخوف : «إن هذا أمر عظيم ، فهل من شيءٍ نقوله ؟

= آخر الآية ، قال : إن الله تعالى قال لهم في سورة البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَٱلضَّرَّاءُ ﴾ فلما مسَّهم البلاءُ حيث رابطوا الأحزاب في الخندق قالوا : هَذَا ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُه ، فتأول المؤمنون ذلك ، فلم يزدهم إلا إيماناً وتسليماً . وأخرج مثله الطيالسي ، وعبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الدلائل عن قتادة رضي الله عنه .

فقال : (قولوا : اللَّهم آمن روعاتنا ، واستُر عيوبنا) ، فقالها المسلمون في تلك الضِّيقات .

ثم أثنى الله عزَّ وجلَّ على رجال من المؤمنين عاهدوا الله تعالى على الاستقامة التامة فوفوا وقضَوْا نَحْبهم ، أَي نَذْرَهُم وعهدهم ، والنَّحْبُ في كلام العرب النَّذْرُ والشيءُ الذي يلتزمه الإِنسان ويعتقد الوفاءَ به ، ومنه قول الشاعر :

. . . . قَضَى نَحْبَهُ في مُلْتَقَى الْقَوْم هَوْبَرُ (١)

المعنى أَنه التزم الصبر إلى فتْح أَو موت فمات ، ومن ذلك قول جرير :

بِطَخْفَةَ جالَدْنَا الْمُلُوكَ وَخَيْلُنَـا عَشِيَّةَ بِسْطَامٍ جَرَيْنَ عَلَى نَحْبِ (٢)

---

(١) هذا عجز بيت قاله ذو الرمة ، والبيت بتمامه :

عَشِيَّةَ فَرَّ الْحَارِثِيُّونَ بَعْدَمَا قَضَى نَحْبَهُ في مُلْتَقَى الْقَوْم هَوْبَرُ

وهَوْبَر : اسم رجل هو يزيد بن هَوْبر ، وهو من بني الحارث بن كعب ، والبيت في (اللسان ــ هبَر) ، قال : « الهَوْبَر : الفهد ــ عن كُرَاعٍ ــ ، وهَوْبَر : اسم رجل ، قال ذو الرمة : عَشيَّةَ فَرَّ ... البيت » ، وذكره أبو عبيدة في (مجاز القرآن) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ﴾ أي : نذره الذي كان ، كما قال ، والشاهد في البيت هنا أن النَّحْب هو الشيءُ الذي يلتزم به الإنسان حتَّى لو دفع حياته ثمناً له .

(٢) البيت في (اللسان ــ نَحَبَ) ، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة . وفي (التَّاج ــ نَحَبَ) ، و طَخْفَة : جبل أحمر طويل في ديار بني تميم ، كانت به رقعة بين بني يربوع =

أي : على أمـر عظيم التزم القيـام به ، كأنه خطـر عظيم .

وقد يُسمَّى الموتُ نحباً ، وبه فسَّر ابن عباسٍ رضي الله عنهما هذه الآية ، وقال الحسن : ﴿قَضَى نَحْبَهُ﴾ : مات على ما عهد ، ويقال للَّذي جاهد في أمر حتى مات : قَضى نَحْبه ، ويقال لمن مات : قضى فلانٌ نحْبه ، وهذا تجوُّز ، كأَن الموتَ أمرٌ لابد للإنسان أن يقع به فسُمِّي نَحْباً لذلك .

فمِمَّن سمَّى المفسرون أنه أُشير إليه بهذه الآية أَنَسُ بن النضر ، عَمُّ أنس بن مالك ، وذلك أَنه غاب عن بدر ، فساءه ذلك وقال : لَئِن شهدتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهداً لَيَرَيَنَّ الله ما أَصنع ،

=وقابوس بن النعمان ، وكان ذلك حين بعث النعمان جيشاً بقيادة ابنه قابوس وأخيه حسان ، فهزمت بنو يربوع الجيش بِطَخْفَة ، وأسروا ابن الملك وأخاهُ ، ثم مَنُّوا عليهما بعد ذلك ، وهذا ما أراده جَرير ، وتضبط الطاء في (طِخْفَة) بالفتح وبالكسر كما جاء في معجم البكري .

وهناك كثير من الشواهد على أن النَّحْب هو النَّذْر أو الشيء الذي يلتزمه الإنسان ، (والموت نحبٌ لأنه شيءٌ مفروض على الإنسان ولابدَّ من الوفاء به) ، ومنها قول الشاعر :

يَا عَمْرُو بْنَ الأَكْرَمِينَ نَسَبَا … قَدْ نَحَبَ المَجْدُ عَلَيْنَا نَحْبَاً

وقول لبيد في بيته المشهور :

ألا لا تَسْأَلانِ ٱلمَرْءَ ماذَا يُحَاوِلُ … أَنَحْبٌ فَيُقْضَى أم ضَلَالٌ وبَاطِلُ ؟

وقول حسَّان بن ثابت :

مَسَاميحُ أَبطالٌ يُرَجُّونَ لِلنَّدَى … يَرَوْنَ عَلَيْهِمْ فِعْلَ آبَائِهِمْ نَحْبَا

فلما كانت أُحد أَبْلى بلاءً حسناً حتّى قُتل ، ووجد فيه نيِّف على ثمانين جرحاً(١) ، فقالت فرقة : إن هذه الإشارة هي إلى أَنس بن النَّضْر ونظرائه ممن استشهد في ذات الله تعالى . وقال مقاتل والكلبي : الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه هم أَهلُ العقبة السبعون أهل البيعة . وقالت فرقة : الموصوفون بقضاء النَّحْب هم جماعة من أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفُّوا بعهود الإسلام على التمام ، فالشُّهداءُ منهم ، والعشَرَةُ الذين شهد لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة منهم ، إلى من حصل في هذه المرتبة مِمَّن لم يُنَصّ عليه ، ويُصحح هذه المقالة أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على المنبر ، فقال له أَعرابي : يا رسول الله ، من الذي قضى نحبه ؟ فسكت عنه النبي صلى الله عليه وسلم ساعة ، ثم دخل طلحة بن عبيد الله على باب المسجد ، وعليه ثوبان أَخضران ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) أخرجه ابن سعد ، وأحمد ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، والبغوي في معجمه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلْية ، والبيهقي في الدلائل ، عن أنس رضي الله عنه . (الدُّر المنثور) ، وروى الحديث أيضاً البخاري في المغازي ولم يذكر سبب النزول ، ورواه في التفسير مقتصراً على سبب النزول . وقال الحافظ بن حجر : « في رواية ثابت ، فقالت عمتي الربيع بنت النضر أُخته : فما عرفتُ أخي إلا ببنانه ، قال : وزاد النسائي من هذا الوجه : وكان حسن البنان » .

أَين السائل ؟ فقال : هأَنذا يا رسول الله ، قال : هذا ممن قضى نَحْبه (١). فهذا دليل على أَن النَّحْب ليس من شروطه الموت . وقال معاوية بن أَبي سفيان : إني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (طلحة ممن قضى نَحْبه)(٢) ، وروت هذا المعنى عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ ، يقول : ومنهم من ينتظر الحصول على أَعلى مراتب الإِيمان والصلاح ، وهو بسبيل ذلك ، وما بدَّلوا ولا غيَّروا ، ثم أَكَّد بالمصدر . وقرأَ ابن عباس رضي الله عنهما على منبر البصرة : «ومنهم مَنْ بَدَّلَ تبديلاً» ، رواه عنه أَبو نصرة .

---

(١) أخرجه ابن أَبي عاصم ، والترمذي وحسَّنه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن طلحة رضي الله عنه ، وفيه أن أَصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا لأعرابي جاهل : سَلْه عمَّن قضى نَحْبه من هو ؟ وكانوا لا يجترئون على سؤاله يوقِّرونه ويهابونه ، وفيه أيضاً : «ثم انطلقت من باب المسجد» . (الدر المنثور) .

(٢) أخرجه الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن معاوية رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

(٣) أخرجه الحاكم عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : دخل طلحة على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (يا طلحة أنت مِمَّن قضى نَحْبه) . (الدر المنثور) .

وروى عنه عمرو بن دينار : «ومِنْهُم من يَنْتَظِر وآخرون بَدَّلوا تبديلًا »(١).

واللام في قوله سبحانه : ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾ لام الصيرورة والعاقبة ، ويحتمل أن تكون لام كي ، وتعذيب المنافقين ثمرة إدامتهم الإقامة على النفاق إلى موتهم ، والتوبة موازية لتلك الإدامة ، وثمرة التوبة تركهم دون عذاب ، فهما درجتان : إدامة على نفاق ، أو توبة منه ، وعنهما ثمرتان : تعذيب أو رحمة ، فَذَكَر الله تعالى – على جهة الإيجاز – واحدةً من هذين ، وواحدة من هذين ، ودلَّ ما ذكر على ما ترك ذكره . ويَدُلُّك على أن معنى قوله : [لِيُعَذِّبَ] : ليديم على النفاق قولُه : ﴿إِنْ شَاءَ﴾ ومعادلته بالتوبة وبحرف [أَوْ] ، ولا يُجَوِّز أَحدٌ أَنَّ ﴿إِنْ شَاءَ﴾ يصحُّ في تعذيب منافق على نفاقه ، بل حتم الله على نفسه بتعذيبه (٢) .

---

(١) قال أبو بكر الأنباري : «وهذا الحديث عند أهل العلم مردود ؛ لخلافه الإجماع ، ولأن فيه طعناً على المؤمنين والرجال الذين مدحهم الله تعالى وشرفهم بالصدق والوفاء ، فما يُعرف فيهم مُغيِّر ، وما وُجد من جماعتهم مُبَدِّل رضي الله عنهم» .

(٢) هذا جواب عن سؤال تقديره : إن عذاب المنافقين متحتم ولابُدَّ منه ، فكيف يصحُّ تعليقه على المشيئة وهو قد شاء فعلا تعذيبهم إذا أداموا الإقامة على النفاق ؟

وقد وضح أبو حيان اجابة ابن عطية عن هذا السؤال بما يأتي :

«كأن ما ذكر يؤول إلى أن التقدير : ليقيموا على النفاق فيموتوا عليه إن شاء فيعذبهم ، أو يتوب عليهم فيرحمهم ، فحذف سبب التعذيب وأثبت المُسَبَّب وهو التعذيب ، وأثبت سبب الرحمة والغفران وحذف المُسَبَّب وهو الرحمةُ والغفران ، وهذا من الإيجاز الحسن» .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

عدَّدَ الله تعالى في هذه الآيات نعمه على المؤمنين في هزم الأَحزاب ، وأن الله ردَّهم بغيظهم لَمْ يَشْفوا منه شيئاً ، ولا نالوا مُراداً ، وكفى الله كلَّ مؤمن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُقاتل الأَحزاب . ورُوي أَن المراد بالمؤمنين هنا عليٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه وقوم معه عبئوا للقتال وبرزوا ودعوا إليه . وقيل : عنى رجلا من المشركين اسمه عمرو بن عَبْد وُدٍّ ، فكفاهم الله مداومة ذلك ودعوتَه بأَنْ هزم الأَحزاب بالريح والملائكة ، وصنع ذلك بقوته وعزته . قال أَبو سعيد الخُدْري : حُبسنا يوم الخندق فلم نُصَلِّ الظهر ولا العصر ولا المغرب ولا العشاءَ ، حتى كان بعد هوي من اللَّيل كفينا ، وأَنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ ، وأَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالًا

فأقام ، وصلى الظهر فأحسنها ، ثم كذلك كل صلاة بإقامة إقامة .

وقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ يريد بني قريظة بإجماع من المفسرين ، قال الرماني : وقال الحسن : الذين أُنزلوا من صياصيهم بنو النضير ، وقال الناس هم بنو قريظة ، وذلك أنهم لما غدروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وظاهروا الأحزاب عليه أراد الله النقمة منهم ، فلما ذهب الأحزاب جاءَ جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الظهر ، فقال : يا محمد ، إن الله يأمرك بالخروج إلى بني قريظة ، فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ، وقال لهم : (لا يُصَلِّيَنَّ أَحدٌ العصر إلَّا في بني قريظة) ، فخرج الناس إليها ، ووصلها قوم من الصحابة بعد العشاءِ وهم لم يُصلوا العصر وقوفاً مع لفظ النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يخطِّئهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، وصلى قومٌ في الطريق ، ورأَوا أَن قول النبي صلى الله عليه وسلم إنما خرج مخرج التأْكيد ، فلم يخطئهم أيضاً ، وحصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قُرَيْظَةَ خمساً وعشرين ليلة ، ثم نزلوا على حكم سعد بن معاذ الأَوْسي رضي الله عنه ، وكان بينهم وبين الأَوس حِلْف ، فَرَجَوْا حُنُوَّه عليهم ، فحكم فيهم سعْدٌ بأَن تقتل المقاتلة ، وتُسبى الذرية والعيال والأَموال ، وأَن تكون الأَرض والثمار

للمهاجرين دون الأنصار ، فقالت له الأنصار في ذلك ، فقال : أردتُ أن تكون لهم أموال كما لكم أموالٌ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقد حكمت فيهم بحكم المليك من فوق سبعة أرقعة) (١) ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجالهم فأُخرجوا أرسالًا (٢) ، وضرب أعناقهم ، وهم من الثمانمئة إلى التسعمئة ، وسيق فيهم حُيَيُّ ابن أخطب النضري ، وهو الذي كان أدخلهم في الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ذهب الأحزاب دخل عندهم ، فأخذه الحصْر حتى نزل فيمن نزل على حُكْم سعدٍ ، فلما قُرِّب وعليه حُلَّتان فُقَّاحِيَّتَانِ (٣) ويداه مجموعتان إلى عنقه وأبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : يا محمد ، والله ما لُمْتُ نفسي في عداوتك ، ولقد اجتهدت ولكن من يَخْذل الله يُخذل ، ثم قال : أيُّها الناس ، لا بأْس ، إنه أمر الله وقَدَرُه ومَلْحَمَةٌ كُتبت على بني إسرائيل (٤)، ثم تقدم فضربت عنقه،

---

(١) أي : من فوق سبع سموات ، الأرقعة : جمع رقيع ، والرَّقيع : السماء ، سمِّيت بذلك لأنها رقعت بالنجوم .

(٢) أي : جماعات .

(٣) الحُلَّة الفُقَّاحِيَّةُ هي التي لونها بلون الورد حين يبدأ في التَّفَتُّح .

(٤) المَلْحَمَة : الحرب الشديدة .

وفيه يقول جَبَل بن جَوَّال التَّغْلبيُّ :

لَعَمْرك ما لَامَ ابْنُ أَخْطَبَ نَفْسَهُ ولكِنَّهُ مَنْ يَخْذُلِ ٱللهَ يُخْذَلِ
لَجَاهَدَ حَتَّى أَبْلَغَ النَّفْسَ عُذْرَهَا وَقَلْقَلَ يَبْغِي الْعِزَّ كُلَّ مُقَلْقِلِ (١)

وقوله : [ظَاهَرُوهُمْ] معناه : عاونوهم ، وقرأ عبد الله بن مسعود : «الَّذِينَ آزَرُوهُمْ» ، وهي بمعنى : ظاهروهم .والصَّياصِي : الحصون ، واحداها : صِيصَة ، وهي كل مايُتَمَتَّع به ، ومنه يقال لقرون البقر : الصَّيَاصِي ، و «الصَّيَاصِي أَيضاً شوكُ الحاكة (٢) ، وتُتَّخَذ من حديد ، ومنه قول دُرَيْد بن الصِّمَّة :

. . . . كَوَقْعِ الصَّيَاصي في النَّسيج الْمُمَدَّدِ (٣)

والفريقُ المقتول : الرِّجال المقاتلة ، والفريقُ المأْسورُ : العيالُ والذرية . وقرأ الجمهور : [وَتَـأْسِرُونَ] بكسر السين ، وقرأها أبو حيوة : [وَتَـأْسُرُونَ] بضم السِّين .

---

(١) كان جبل بن جوَّال هذا من بني ثعلبة بن سعد ، وكان يهوديًّا ، ثم أنعم الله عليه بنعمة الإسلام ، وكانت له صحبة ، ومعنى قَلْقَلَ : تحرَّك . (راجع سيرة ابن هشام ، والاستيعاب) .

(٢) يريد شوكة يستخدمها النَّسَّاجون .

(٣) هذا عجز بيت من قصيدة طويلة قالها دُرَيْد يرثي أخاه عبد الله ، وفي مطلعها يقول :

أَرَثَّ جديدُ الحبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ بِعَاقِبَةٍ وَأَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

والبيت بتمامه :

نَظَرْتُ إِلَيْهِ والرِّماحُ تَنُوشُـهُ كَوَقْعِ الصَّيَاصِي في النَّسِيجِ المُمَدَّدِ

وتنوشه : تتناوله ، والصَّياصي جمع صِيصِيَة أو صِيصَة : شوكة الحائك التي يسوِّي بها السَّداة واللُّحْمة ، والبيت في الأغاني ، وفي اللسان ، والرواية فيه : (فجئتُ إليه) .

وقوله تعالى : [وَأَوْرَثَكُمْ] استعارة ، من حيث حصل ذلك لهم بعد موت الآخرين وقتلهم ، وقوله : ﴿وَأَرْضاً لَمْ تَطَئُوهَا﴾ يريد بها البلاد التي فتحت بعْدُ كالعراق والشام واليمن ومكة ، فوعَدَ الله بها عند فتح حصون بني قُرَيْظَة ، وأخبر أنه قد قضى بذلك ، قاله عكرمة . وذكر الطبري عن فِرَقٍ أنهم خصصوا ذلك ، فقال الحسن : أَراد الروم وفارس ، وقال قتادة : كنا نتحدث أنها مكة ، وقال يزيد بن رومان ، ومقاتل ، وابن زيد : هي خَيْبر ، وقالت فرقة : اليمن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا وجه لتخصيص شيءٍ من ذلك دون شيءٍ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

اختلف الناسُ في سببها ـ فقال قتادة : سببها غَيْرة غارتها عائشة رضي الله تعالى عنها ، وقال ابن زيد : وقع بين أزواجه تغاير ونحوه

مما شقي هو به - صلى الله عليه وسلم - فنزلت الآية بسبب ذلك ، وبشر الله أن يصرف إرادته في أن يؤوي إليه من يشاءُ ، وقال أبو الزُّبَيْر : نزل ذلك بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأَله أزواجه النفقة ، وتَشَطَّطْن في تكليفه منها فوق وُسْعه ، وقالت فرقة : بل السبب أنهن طلبن منه ملابس وثياباً ، وقالت واحدة : لو كُنَّا عند غير رسول الله لكنا لنا الحلي والمتاع . وقال بعض الناس : أُمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلاوة هذه الآية عليهن ، وتَخْييرهن بين الدنيا والآخرة وأمر الطلاق مُرْجأً ، فلو اخترن أنفسهن نظر كيف يسرحهن هو ، وليس فيها تَخْييرهن في الطلاق ؛ لأَن التخيير يتضمن ثلاث تطليقات وهو قد قال : ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلًا﴾ ، وليس مع بَتِّ الطلاق سراحٌ جميلٌ . وقالت فرقة : بل هي آية تَخْيير ، واخْتَرْنه عليه الصلاة والسلام ، ولم يعد ذلك طلاقاً ، وهو قول عائشة أيضـــاً .

واختلف الناس في التَّخْيير إذا اختارت المرأة نفسها - فقال مالك : هي طالقٌ ثلاثاً ، ولا مناكرة للزوج ، بخلاف التمليك . وقال غيره : هي طلقة بائنة . وقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : إذا خيَّر الرجل امرأته فاختارت فهي طلقة ، وهذا مخالف جداً .

قوله : ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ، أي : إنْ كانت عظيم همتكن ومطلبكن ، أي التَّعَمُّق فيها والنَّيْل من نعمتها . و «زينةُ الدنيا» : المالُ والبنون ، و «تَعَالَيْنَ» دعاءٌ ، و [أُمَتِّعْكُنَّ] معناه أُعطيكن المتاع الذي ندب الله إليه في قوله : [وَمَتِّعُوهُنَّ] (١) ، وأكثر الناس على أنها من المندوبات ، وقالت فرقة : هي واجبةٌ ، و «السَّرَاحُ الجَميلُ» يحتمل أن يكون ما دون بَتِّ الطلاق ، ويحتمل أن يكون في بقاء جميل المعتقد وحُسْن العشرة وجميل الثناء وإن كان الطلاق باتًّا . و [أَعَدَّ] معناه : يَسَّر وسَنَّى ، و «المُحْسِنَاتُ» : الطائعات لله والرسول .

وأزواج الرسول صلى الله عليه وسلم اللواتي نزلت الآية فيهن تِسْعٌ ، خمْسٌ قُرشيَّات : عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه ، وحفصة بنت عمر رضي الله عنه ، وأُمُّ حبيبة بنت أبي سفيان (٢) ، وسودةُ بنت زمعةُ ، وأُمُّ سَلَمَة بنت أبي أُميَّة (٣) . وأربعٌ غير قرشيَّات : ميمونةُ بنت الحارث الهلالية ، وصفيةُ بنت حُيَيٍّ بن أخطب الخَيْبَرِيَّة ،

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٣٦) من سورة (البقرة) : ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

(٢) اسمها رَمَلْة بنت أبي سفيان .

(٣) اسمها هِنْد بنتُ سُهَيل ، لأن اسم أبي أُمَيَّةَ هو : سُهَيل .

وزينب بنت جحش الأَسدية (١) ، وجُوَيْرِيةُ بنت الحارث المصطلقيَّة(٢) رضي الله عن أَزواج رسول الله أَجمعين .

وفي الحديث أَن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من إيلائه الشهر ، ونزلت هذه الآية ، بدأ بعائشة فقال : (إِنِّي ذاكرٌ لكِ أَمراً ، ولا عليك أَلَّا تعجلي حتى تستَأْمري أَبويك) ، ثم تلا الآية ، فقالت له : وفي هذا أَستأْمر أَبَوَيَّ ؟ فإني أُريد الله ورسوله والدار الآخرة ، قالت : «وقد علم أَن أَبويَّ لا يأْمراني بفراقه» ، ثم تتابع أَزواج النبي صلى الله عليه وسلم على مثل قول عائشة رضي الله عنها ، فاخترن الله ورسوله (٣) .

---

(١) كان اسمها بَرَّة فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب ، وكان اسم أبيها بُرَّة ؛ فقالت : يارسول الله ، بدِّل اسم أبي فإن البُرَّة حقيرة ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : (لو كان أبوك مؤمناً سميناه باسم رجل منا أهل البيت ، ولكنِّي قد سميته جَحْشاً ، والجحش من البُرَّة) ، ذكر هذا الحديث الدَّارَقُطْنيُّ .

(٢) كان اسمها بَرَّة ، فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم جُوَيرِيَة .

(٣) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في سُنَنه عن عائشة رضي الله عنها ، والرواية على لسانها كما ذكر السيوطي في الدر المنثور ، قالت : (فبدأ بي ، فقال : إني ذاكرٌ لك أمراً) إلى آخر الحديث — حيث تقول : (وفَعَلَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلتُ) . (الدر المنثور ، وفتح القدير) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾

قال أبو رافع : كان عمر رضي الله عنه كثيراً ما يقرأُ سورة يوسف وسورة الأَحزاب في الصبح ، وكان إذا بلغ ﴿ يَانِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ رفع بها صوتَه ، فقيل له ، فقال : أُذكرهن العهد .

وقرأَ الجمهور : ﴿ مَنْ يَأْتِ ﴾ بياءٍ وتاءٍ ، ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ ﴾ بياءٍ حملًا على اللفظ ، وقرأَ عمرو بن فايد ، والجحدري ، ويعقوب : [تَأْتِ] بتاءين و [تَقْنُتْ] بتاءٍ من فوق حملا على المعنى . وقال قوم : الفاحشةُ إذا وردت معرفةً فهي الزنى واللواط ، وإذا وردت منكرة فهي سائر المعاصي وكل مستفحش ، وإذا وردت منعوتة بالبيان فهي عقوق الزوج وفساد عِشرته ، ولذلك نصفها بالبيان إذ لا يمكن سترها ،

والزنى وغيره يُتَسَتَّر به فلا يكون مبيناً ، ولا محالة أن الوعيد واقع على ما خفي منه وما ظهر . وقالت فرقة : بل قوله ﴿بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ يعم جميع المعاصي ، وكذلك الفاحشة حيث وردت . ولما كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في مهبط الوحي وفي منزل أوامر الله ونواهيه قوي الأمر عليهن ولَزِمَهُنَّ بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن ، فضوعف لهن الأجر والعذاب ، والإشارة بالفاحشة إلى الزنى وغيره .

وقرأ ابن كثير ، وشبل ، وعاصم(١) : [مُبَيَّنَة] بفتح الياء ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وقتادة بكسرها ، وقرأت فرقة : [يُضَاعِفْ] بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى ، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه : [نُضَاعِفْ] بنون مضمومة [ٱلْعَذَابَ] نصباً ، وهي قراءة ابن محيصن ، وهذه مُفاعلة من واحد كطارقتُ النعل وعاقبتُ اللِّص . وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : [يُضَاعَفْ] بياءٍ مضمومة وعين مفتوحة [ٱلْعَذَابُ] رفعاً ، وقرأ أبو عمرو : [يُضَعَّفْ] بتشديد العين على بناءِ المبالغة [ٱلْعَذَابُ] رفعاً ، وهي قراءة الحسن ، وابن كثير ،

---

(١) قراءة عاصم بكسر الياء كما هو ثابت في المصحف . والقرطبي لم ينسب قراءة فتح الياء إلا إلى ابن كثير . والذي أثبته الإمام الحافظ ابن الجزري أنها قراءة ابن كثير وأبي بكر ، ومن هنا نفهم أنَّ رواية أبي بكر عن عاصم هي الفتح ، أما رواية حفص عنه فبكسر الياء .

وعيسى . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر : [نُضَعِّفْ] بالنون وكسر العين المشددة [ٱلْعَذَابَ] نصباً ، وهي قراءة الجحدري .

وقوله : [ضِعْفَيْنِ] معناه : يكون العذاب عذابين ، أي : يضاف إلى عذاب سائر الناس عذاب آخر مثله . وقال أبو عبيدة ، وأبو عمرو – فيما حكى الطبري عنهما – : بل يضاف إليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أعذبة ، وضَعَّفه الطبري ، وكذلك هو غير صحيح وإن كان له باللفظ تعلُّق احتمال ، وكون الأجر مرتين مما يفسد هذا القول ؛ لأن العذاب في الفاحشة بإزاء الأَجْرِ في الطاعة ، والإشارة بذلك إلى تضعيف العذاب .

و [يَقْنُتْ] معناه : يطيع ويخضع بالعبودية ، قاله الشعبي وقتادة . وقرأ نافع ، وابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : [يَقْنُتْ] بالياء ، و [تَعْمَلْ] بالتاء ، [نُؤْتِهَا] بالنون ، وهي قراءة الجمهور . قال أبو علي : أُسند [يَقْنُتْ] إلى ضمير ، فلما تبيَّن أنَّه لمؤنث حمل في [تَعْمَلْ] على المعنى ، وقرأ حمزة ، والكسائي كل الثلاثة بالياء حملًا في الأَولَيْن على لفظ [مَنْ] ، وبها قرأ الأَعمش ، وأبو عبد الرحمن ، وابن وثاب ، وقرأ الأَعمش أيضاً : «فَسَوْفَ يُؤْتِهَا الله أَجْرَهَا» .

و «الإعْتَادُ» : التَّيْسير والإِعْدادُ ، و «الرِّزْقُ الكريمُ» : الجنة ، ويجوز أَن يكون في ذلك وعْدٌ دنياوي ، أَي أَن أَرزاقها في الدنيا على الله ، وهو كريمٌ من حيث هو حلالٌ وقصد وبرضى من الله في نيله ، وقال بعض المفسرين : العذاب الذي تُوُعِّدْن به ضعفين هو عذاب الدنيا ثم عذاب الآخرة ، وكذلك الأَجر ، وهذا ضعيف اللّهم إلَّا أَن يكون أَزواج النبي صلى الله عليه وسلم لا تدفع عنهن حدودُ الدنيا عذاب الآخرة ، على ما هي حالُ الناس عليه ، بحكم حديث عُبادة بن الصامت (١) ، وهذا أَمرٌ لمْ يُروَ في أَزواج النبي صلى الله عليه وسلم ولا حُفِظَ تقَرُّرُهُ .

ثم خاطبهن الله تعالى بأَنهن لَسْنَ كأَحد من نساءِ عصرهن فما بَعْدُ ، بل هُنَّ أَفضل بشرط التقوى ؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام وعِظَم المحلِّ منه ونزول القرآن في حقِّهن ، وإنما خصص النساءَ لأَنَّ فيمن تقدم آسيةُ ومريم ، فتأَمَّله ، وقد أَشار إلى هذا قتادة .

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة الممتحنة ، ولفظه : (قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أَتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا — وقرأ آية النساء : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ ﴾ — فمن وفى منكم فأَجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب منها شيئاً من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذَّبه وإن شاء غفر له) .

ثم نهاهُنَّ الله عمَّا كانت الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال برخيم الصوت . ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ أي : لا تَلِنَّ ، وقد يكون الخضوع بالقول في نفس الألفاظ ورخامتها وهيئتها ، وإن لم يكن المعنى مُريباً ، والعرب تستعمل لفظة الخضوع بمعنى الميل والغزل ، ومنه قول ليلى الأخيلية حين قال لها الحجاج : هل رأَيْت قط من تَوْبَة شيئاً تنكرينه ؟ فقالت : لا والله أيُّها الأَمير ؛ إلَّا أَنه أَنشدني يوماً شعراً ظننت منه أَنه خضع لبعض الأَمر ، فأَنشدته أَنا :

وَذي حاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لَا تَبُحْ بِهَا فَلَيْسَ إِلَيْهَا ما حَيِيتَ سَبِيلُ(١)

الحكاية . وقال ابن زيد : الخضوعُ بالقول ما يدخلُ في القلوب الغزل .

وقرأ الجمهور : [فَيَطْمَعَ] بالنصب على أنه نصب بالفاء في جواب التمني . وقرأ الأعرج ، وأَبان بن عثمان : [فَيَطْمَعِ] بالجزم ،

(١) ذكر الأصبهاني الحكاية في الأغاني عن رجل يقال له : ورقاء ، قال : سمعت الحجاج يقول لليلى الأخيلية : إن شبابك قد ذهب ، واضمحلَّ أمرك وأمر توبة ، فأُقسم عليك إلا صَدَقْتِنِي ، هل كانت بينكم ريبةٌ قط أو خاطبك في ذلك قط ؟ فقالت : لا والله أيها الأمير ، إلا أنه قال لي ليلة — وقد خلونا — كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر ، فقلت له :

وَذي حاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لا تَبُحْ بها فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيِيتَ سَبِيلُ
لَنَا صاحِبٌ لا يَنْبَغِي أنْ نَخُونَهُ وَأَنْتَ لأُخْرَى فَارِغٌ وحَلِيلُ

فلا والله ما سمعتُ منه ريبةً بعدها حتَّى فرق بيننا الموت .

وكُسِر للالتقاءِ(١) ، وهذه فاءُ عطف محضة ، وكان النهي دون جواب ظاهر ، وقراءَة الجمهور أَبلغ ؛ لأَنها تُعطي أَنَّ الخضوع بسبب الطمع ، قال أَبو عمرو الداني : قرأَ الأَعرج ، وعيسى بن عمر : [فَيَطْمِعَ] بفتح الياءِ وكسر الميم .

و «الْمَرَضُ» في هذه الآية ، قال قتادة : هو النفاق ، وقال عكرمة : الفِسْق والغزل ، وهذا أَصوبُ ، وليس للنفاق مدخلٌ في هذه الآية ، والقول المعروف هو الصوابُ الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

(١) قال أبو الفتح : «هو معطوف على قول الله تعالى : ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ، أي : فلا يطمع الذي في قلبه مرض ، فكلاهما منهي عنه ، إلا أن النصب أقوى معنى ، وأشد إصابة للغدر ، وذلك أنه إذا نصب كان معناه أن طمعه إنما هو مسبب عن خضوعهن بالقول ، فالأصل في ذلك منهي عنه ، والمنهي سبب عن فعلهن ، وإذا عطفه كان نهياً لهن وله ، وليس فيه دليل على أن الطمع راجع الأصل إليهن ، وواقع من أجلهن» .

قرأ الجمهور بكسر القاف ، وفَتَحها نافع وعاصم ، فأما الأُولى فيصح أن تكون من الوقار ، تقول : وَقَر يَقِرُ وقاراً ، وقِرْنَ مثل عِدْنَ ، ويصح أن تكون من القَرار ، تقول : « قَرَرْت بالمكان » ـ بفتح الراء ـ أَقِرُّ ، والأَصل : أَقْرِرْنَ ، حذفت الراءُ الواحدة تخفيفاً ، ـ كما قالوا في ظَلَلْتُ : ظَلْتُ ـ ، ونقلوا حركتها إلى القاف ، واستغني عن الأَلف(١) ، وقال أبو عليٍّ : بل عُلَّ بأَن أُبدلت الراءُ ياءً فنُقلت حركتُها إلى القاف ثم حذفت الياءُ لسكونها وسكون الراءِ بعدها .

وأمَّا الثانية فعلى لغة العرب : « قَرِرْتُ ـ بكسر الراء ـ أَقَرُّ ـ بفتح القاف ـ في المكان » ، وهي لغة ذكرها أبو عبيد في « الغريب المُصَنَّف » ، وذكرها الزَّجَّاج وغيره ، وأنكرها قوم منهم المازني وغيره ، قالوا : وإنما يقال قَرِرْت ـ بكسر الراءِ ـ من قُرَّة العين ، وأَمَّا من القَرَار فإنما هو قَرَرْتُ ـ بفتح الراءِ ـ .

---

(١) نسب القرطبي هذا القول للمبرد ، والذي يظهر أنه رأي الفراء ؛ إذ قال في (معاني القرآن) : « أرادوا : واقْرَرْنَ في بيوتكن ، فحذفوا الراء الأولى ، فحوّلت فتحتها في القاف ، كما قالوا : هَلْ أَحَسْتَ صاحبك ؟ وكما قال : [فَظَلْتُمْ] يريد : فَظَلَلْتُمْ » ، يقصد قوله تعالى في الآية (٦٥) من سورة (الواقعة) : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ .

وقرأ عاصم : ﴿في بِيُوتِكُنَّ﴾ - بكسر الباء - ، وقرأ ابن أبي عبلة : [وَٱقْرِرْنَ] بألف وصل وراءين الأُولى مكسورة . فأمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بملازمة بيوتهن ، ونهاهُنَّ عن التَّبَرُّج ، وأَعْلَم أنه فِعْل الجاهلية الأُولى .

وذكر الثعلبي وغيره أن عائشة رضي الله عنها كانت إذا قرأت هذه الآية تبكي حتى تَبُلَّ خمارها ، وذكر أَنَّ سَوْدَة قيل لها : لم لا تَحُجِّين وتعتمرين كما يفعل أخواتك ؟ فقالت : قد حَجَجْتُ واعتمرتُ وأمرني الله أن أَقَرَّ في بيتي ، قال الراوي : فوالله ما خرجت من باب حُجرتها حتَّى أُخرجت جنازتُهَا .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبكاءُ عائشة رضي الله عنها إنما كان بسبب سفرها أيام الجمل ؛ وحينئذ قال لها عمَّار رضي الله عنه : إن الله قد أمرك أن تقَرِّي في بيتك .

و «التَّبرُّج» : إظهار الزينة والتصنع بها ، ومنه البُرُوج ؛ لظهورها وانكشافها للعيون .

واختلف الناسُ في «الجاهلية الأُولى» - فقال الحكم بن عُيَيْنَة : ما بين آدم ونوح عليهما السلام ، وهي ثمانمائة سنة ، وحكيت لهم سير ذميمة ، وقال ابن الكلبي وغيره : ما بين نوح وإبراهيم عليهما

السلام ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما بين نوح وإدريس عليهما السلام ، وذكَر قصصاً ، وقالت فرقة : ما بين موسى وعيسى عليهما السلام ، وقال عامر الشعبي : ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وقال أبو العالية : هي زمن داود وسليمان عليهما السلام ، كان فيه للمرأة قميص من الدُّرِّ غير مخيط الجانبين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يظهر عندي أنه أشار إلى الجاهلية التي لَحقْنها ، فأُمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة ؛ لأنهم كانوا لا غيرة عندهم ، وكلُّ أمر النساء دون حجبة ، وجعلها أُولى بالإضافة إلى حالة الإسلام ، وليس المعنى أن ثَمَّ جاهلية أُخرى ، وقد مرَّ اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام فقالوا : جاهلي في الشعراء ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في البخاري : «سمعت أبي في الجاهلية يقول» ، إلى غير هذا .

و [ٱلرِّجْس] اسم يقع على الإثم وعلى العذاب وعلى النجاسات والنقائص ، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت ، ونصب ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ على المدح ، أو على النداء المضاف ، أو بإضمار : أَعْني .

واختلف الناسُ في أَهل البيت ـ من هم ؟ فقال عِكْرِمَة ، ومقاتل ، وابن عباس رضي الله عنهما : هم زوجاته خاصة ، لا يدخل معهن رجل ، وذهبوا إلى أَن [ٱلْبَيْت] أُريد به مساكن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقالت فرقة ـ هي الجمهور ـ : أَهْلُ البيت : عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم ، وفي هذا أَحاديث نبوية ، قال أَبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نزلت هذه الآية في خمسة : فيَّ ، وفي عليٍّ وفاطمة والحسن والحسين)(١) ، ومن حُجة الجمهور قوله تعالى : [عَنْكُمْ] [وَيُطَهِّرَكُمْ] بالميم ، ولو كان للنساء خاصة لكان : «عَنْكُنَّ» و «يُطَهِّرَكُنَّ» ، والذي يظهر لي أَن زوجاته لا يخرجن عن ذلك البتَّة ، فأَهل البيت زوجاته وبنتُه وبنوها وزوجُها ، وهذه الآية تقتضي أَن الزوجات من أَهل البيت ؛ لأَن الآية فيهن ، والمخاطَبَة لهن ، أَما إن أُمَّ سلَمة قالت : نزلت هذه الآية في بيتي ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا وفاطمة وحسَناً وحُسَيْناً ، فدخل معهم تحت كساءٍ خَيْبَرِيٍّ ، وقال : (هؤلاءِ أَهل بيتي) ، ـ وقرأَ الآية ـ وقال : (اللَّهم أَذهب عنهم الرِّجس وطهرهم تطهيراً) ، قالت أُمُّ سَلَمة : فقلت : وأَنا يا رسول الله ؟ فقال : (أَنْتِ من أَزواج النبي ، وأَنت

---

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

إلى خير) (١) . وقال الثعلبي : هم بنو هاشم ، فهذا على أن [ٱلْبَيْتَ] يراد به النسب ، فيكون العباسُ وأعمامُه وبنو أعمامه منهم ، ورُوي نحوه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

(١) أخرجه ابن مردويه عن أم سلمة ، وأخرج مثله الطبراني عنها أيضاً ، وأخرج مثلهما ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن أم سلمة أيضاً . وأخرج مثل هذه الأحاديث ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . (الدر المنثور) — وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة ، منها ما رواه الإمام أحمد عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمر بباب فاطمة رضي الله تعالى عنها ستة أشهر إذا خرج لصلاة الفجر ، يقول : (الصلاة يأهل البيت ، إنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) ، قال ابن كثير ، ورواه الترمذي ، وقال : حديث حَسَنٌ غريب .

اتصال هذه الألفاظ يعطي أن ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نساؤه ، وعلى قول الجمهور هي ابتداءُ مخاطبة ، أَمر الله تعالى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم – على جهة الموعظة وتعديد النعمة – بذكر ما يُتلى في بيوتهن ، ولفظ «الذكر» هنا يحتمل مقصدين كلاهما موعظة وتقدير نعمة : أحدهما أن يريد : [ٱذْكُرْنَ] ، أي : تذكَّرْنه واقْدُرنه قدره ، وفكِّرْن في أنَّ مَن هذه حاله ينبغي أَن يُحَسِّن أَفعاله ، والآخر أن يريد : [ٱذْكُرْنَ] بمعنى : احفَظْن واقرأْن وأَلزمنه الأَلسنة ، وكأَنه يقول : واحفظن أَوامر الله ونواهيه ، وذلك الذي يُتلى في بيوتكن من آيات الله ، وذلك مُؤَدّيكُنَّ إلى الاستقامة . و [ٱلْحِكْمَة] هي سُنَّة الله تبارك وتعالى على لسان نبيّه عليه الصلاة والسلام دون أن تكون في قرآن مَتْلُوٍّ ، ويحتمل أَن تكون وصفاً للآيات ، وفي قوله : [لَطِيفاً] تأْنيسٌ وتعديد نعمة ؛ أَي : لطيف بِكُنَّ في هذه النعمة ، وفي قوله : [خَبيراً] تحذيرٌ مَّا .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَاتِ﴾ الآية . رُوي عن أُمِّ سَلَمة أن سببها أَنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : «يا رسول الله ، يذكر الله تعالى الرجال في كتابه في كل شيءٍ ، ولا يذكرنا» ، فنزلت الآية في ذلك (١) .

(١) أخرجه أحمد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والطبراني ، عن أُم سلمة رضي الله عنها . (الدر المنثور) .

وروى قتادة أَن نساءً من الأَنصار دخلن على أَزواج النبي عليه الصلاة والسلام ، فقُلْن لهُنَّ : «ذَكَرَكُنَّ الله تعالى في القرآن ولم يذكر سائر النساءِ بشيءٍ» ، فنزلت الآية في ذلك (١) . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَن نساءَ النبي قلن له : «ما له تعالى يذكر المؤمنين ولم يذكر المؤمنات» ، فنزلت الآية في ذلك (٢) .

وبدأَ تعالى بذكر «الإسلام» الذي يعُمُّ الإيمان وعمل الجوارح ، ثم ذكر «الإيمان» تخْصيصاً له وتنبيهاً على أنه عُظْم الإسلام ودعامته ، و «الْقَانِتُ» : العابد المطيع ، و «الصَّادقُ» معناه : فيما عوهد عليه أَن يفي به ويكمله ، و «الصابر» : عن الشهوات وعلى الطاعات في المَكْرَه والمَنْشَط ، و «الخاشعُ» : الخائفُ لله المستكينُ لربوبيته الوقورُ ، و «الْمُتَصَدِّق» بالفرْض والنَّفْل ، وقيل : بل هي في الفرض خاصةً ، والأَول أَمدح ، و «الصائم» كذلك في الفَرْض والنَّفْل ، و «حِفْظ الفَرْج» هو من الزنى وشبهه ، ويدخل مع ذلك كل ما يؤدي إلى الزنى

---

(١) أخرجه ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ، وأخرج مثله ابن سعد عن عكرمة عن قتادة من وجه آخر . (الدر المنثور) .

(٢) أخرجه ابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور) .

أو هو في طريقه . وفي قوله : [وَٱلْحَافِظَاتِ] حذف ضمير يدل عليه المتقدم ، تقديره : والحافظاتُها ، وفي [ٱلذَّاكِرَاتِ] أيضاً مِثْلُه ، و «المغفرةُ» هي سَتْرُ ذنوبهم والصَّفْحُ عنها ، و «ٱلْأَجْرُ ٱلْعَظِيمُ» : الْجَنَّــــةُ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

قوله : ﴿وَمَا كَانَ﴾ لفظُه النفي ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا ، وهذه العبارة : (ما كان) و (ما ينبغي) ونحوها تجيءُ لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون ، وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلاً ، كقوله :

﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ (١) ، وربما كان العِلْم بامتناعه شرعاً ، كقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾ (٢) ، وربما كان حظْرُه بحكم شرعي لهذه الآية ، وربما كان في المندوبات ، كما تقول : «ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل» ونحو هذا .

وسبب هذه الآية فيما قال قتادة ، وابن عباس ، ومجاهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَب زينب بنت جحش ، فظنَّت أن الخطبة لنفسه ، فلمَّا بيَّن أنه إنما يريدها لزيد بن حارثة كرهت وأَبت ، فنزلت الآية ، فأَذعنت زينب حينئذ وتزوَّجته(٣) ، وقال ابن زيد : إنما أُنزلت بسبب أَن أُم كلثوم بنت عقبة بن أَبي مُعَيْط وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فزوَّجها من زيد بن حارثة ، فكرهت ذلك هي وأَخوها ، وقالا : إنما أَردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوَّجَها غيْرَه . فنزلت الآية بسبب ذلك ، فأَجابا إلى تزويج زيد (٤) .

---

(١) من الآية (٦٠) من سورة (النمل) .

(٢) من الآية (٥١) من سورة (الشورى) .

(٣) أخرج الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن جرير ، وابن مردويه ، وأخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني عن قتادة رضي الله عنه ، وأخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه . (الدر المنثور) . ورواه الطبريُّ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال الحافظ بن حجر في « تخريج الكشاف » : « رواه الثعلبي بغير سند » .

و [ٱلْخِيَرَةُ] : مصدر بمعنى التَّخَيُّر ، وهذه الآية في ضمن قوله تعالى : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ . وهذه الآية تُقَوِّي في قوله تعالى : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾(١) أَنَّ [مَا] نافية لا مفعولة .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، وشَيْبَة ، والأعرج ، وعيسى : ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ بالتَّاءِ على لفظ [ٱلْخِيَرَة] . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، والحسن ، والأعمش ، وأبو عبد الرحمن : ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ على معنى [ٱلْخِيَرَة] ، وأن تأنيثها غير حقيقي . وقوله تعالى في الآية الأُخرى : ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ دون علامة تأنيث يُقَوِّي هذه القراءة التي بالياء .

ثم توعَّد تعالى وأَخْبَرَ أَن من يَعْصِ الله ورسوله فقد ضلَّ ، وهذا العصيانُ يعُمُّ الكفر فما دونه ، وكُلُّ عاصٍ آخِذٌ من الضلال بقدر معصيتـــه .

ثم عاتب تعالى نَبِيَّه عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ الآية . واختلف الناس في تأويلها ـ فذهب قتادة ، وابن زيد ، وجماعةٌ

---

(١) من الآية (٦٨) من سورة (القصص) .

من المفسرين – منهم الطبريُّ وغيره – إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وقع منه استِحْسَانٌ لزينب وهي في عصمة زيد ، وكان حريصاً على أن يطلقها زيدٌ فيتزوَّجها هو ، ثم إنَّ زيداً لما أَخبره بأَنه يريد فراقها ، ويشكو منها غِلْظَةَ قولٍ وعِصْيَانَ أَمْر وأَذًى باللِّسان وتَعظُّماً بالشرف قال له : ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ، أَي فيما تقول عنها ، و ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ ، وهو يخفي الحرصَ على طلاق زيد إيَّاها ، وهذا هو الذي كان يخفي في نفسه ، ولكنه لزم ما يجب من الأَمر بالمعروف . وقالوا : خَشِيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَةَ الناس في ذلك ، فعاتبه الله على هذا (١).

(١) ذكر السيوطي في الدر المنثور أن أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، والترمذي ، وابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في السُّنن قد أخرجوا عن أنس رضي الله عنه أنه قال : جاء زيد بن حارثة رضي الله عنه يشكو زينب رضي الله عنها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اتّق الله وأَمسك عليك زوجك) ، فنزلت : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ ، قال أنس : فلو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً لكتم هذه الآية ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أَوْلَم على امرأة من نسائه ما أَوْلَم عليها ، ذبح شاةً ... الخ ما ذكره السيوطي . والصواب في معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ هو ما ذكره ابن عطية من أنه خشي قالة الناس ، وأخفى علمه بأن زيداً سيطلق زينب وأن الله سيزوجها له ، بدليل أن الذي أبداه الله تعالى هو زواجه إيَّاها في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ ، ولم يُبْدِ الله تعالى شيئاً مما زعموه من حبه صلى الله عليه وسلم لها ، ثم إن الله تعالى صرَّح بأنه هو الذي زوَّجه إيَّاها لحكمة ذكرت صريحة في الآية في قوله تعالى : ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ .

وقرأ ابن أبي عبلة : «مَا ٱللَّهُ مُظْهِرُهُ» ، وقال الحسن : ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أَشَدُّ عليه من هذه الآية ، وقال هو وعائشة رضي الله عنهما : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية لِشِدَّتها عليه ، وروى ابن زيد في نحو هذا القول أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب زيداً في داره فلم يجده ، ورأى زينب حاسرةً فأعجبته فقال : (سبحان الله مُقَلِّب الْقُلُوب)(١) ورُوي في هذه القصة أشياء يطول ذكرها ، وهذا الذي ذكرنا مُسْتَوْف لمعانيها .

وذهب قوم من المتأَوِّلين إلى أن الآية لا كبير عتب فيها ، ورَوَوْا عن علي بن الحسين أنه قد كان أُوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن زيداً يطلق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما تشكَّى زيد للنبي صلى الله عليه وسلم خُلُقَ زينب وأنها لا تطيعه ، وأعلمه بأنه يريد طلاقها ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية : (ٱتَّقِ ٱللَّه) ـ أي في أقوالك ـ (وأمسك عليك

(١) قال الحافظ بن حجر في تخريج الكشاف : «ذكره الثعلبي بدون سند» ، وكذلك ذكر مثل هذا المعنى الخازن البغوي بدون سند ، وما رواه الطبري في هذا كان عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ، وعبد الرحمن بن زيد هذا ضعيف .

زوجك) ، وهو يعلم أَنه سيفارقها ، وهذا هو الذي أَخفى في نفسه ، ولم يُرد أَن يأْمره بالطلاق لما علم أَنه سيتزوجها ، وخشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أَن يلحقه قول من الناس في أَن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه وقد أَمره بطلاقها ، فعاتبه الله تبارك وتعالى على هذا القدر من أَن خَشِـي النَّاس في شيءٍ قد أَباحه الله له بأَن قال : «أَمْسِكْ» مع علمه بأَنه يطلق ، وأَعلمه أَن الله أَحق بالخشية ، أَي في كل حال (١) .

قوله تعالى : ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أَي بالإسلام وغيره ، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أَي بالعتق ، وهو زيد بن حارثة ، وزينب بنت جحش هي بنت أُميمة بنت عبد المطلب عمة النبي عليه الصلاة والسلام .

ثم أَعلم تعالى أَنه زوَّجها منه لما قضى زيدٌ وطره منها ليكون سُنَّة للمسلمين في أَزواج أَدعيائهم ، ولِيُبَيِّن أَنها ليست كحرمة البنوة ، ورُوي أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال لزيد : (ما أَجد في نفسي أَوثق منك ، فاخطب زينب عَلَيَّ) ، قال : فذهبت وولَّيْتها ظهري توقيراً

---

(١) قال القرطبي في تفسيره ، ونقله عنه أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط : «قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وهذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية ، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين ، كالزهري ، والقاضي بكر بن العلاء القشيري ، والقاضي أبي بكر بن العربي ، وغيرهم» .

للنبي عليه الصلاة والسلام ، وخطبتها ففرحت وقالت : ما أَنا بصانعة شيئاً حتَّى أُوأَمر ربِّي ، فقامت إِلى مسجدها ، ونزل القرآن فتزوَّجها النبي صلى الله عليه وسلم ودخل بها [١] .

و «ٱلْوَطَرُ» : الحاجة والبُغْية ، والإِشارة إِلى الجماع ، وروى جعفر ابن محمد عن أَبائه عن النبي صلى الله عليه وسلم : «وَطَرًا زَوَّجْتُكَهَا» . وذهب بعض الناس من هذه الآية ومن قول شعيب : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾[٢] إِلى أَن ترتيب هذا المعنى في المهور ينبغي أَن يكون : «أَنْكَحَهُ إِيَّاهَا» ، فَتُقَدِّم ضمير الزوج كما في الآيتين ، وهذا عندي غير لازم ؛ لأَن الزوج في الآية مُخَاطَب فَحَسُن تقديمه ، وفي المهور الزوجان غائبان[٣] فقدِّم من شئت ، ولم يبق ترجيح إِلَّا بدرجة الرجال وأَنهم القائمون .

---

(١) رواه أحمد في المسند ، ومُسْلم في صحيحه ، والنسائي في سُنَنه ، وذكر السيوطي في الدر المنثور أنّ ابن سعد ، وأبا يَعْلَى ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، كلهم قد أخرجوه عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) من الآية (٢٧) من سورة (القصص) .

(٣) معنى ذلك أنهما في الرتبة سواءٍ ، ولا ترجيح لأحد الضميرين على الآخر ، اللهم إلا إذا رؤي ترجيح ضمير الرجال .

وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ فيه حذفُ مضاف تقديره : «وكان حكم أَمر الله» ، أَو «مُضمَّن أَمر الله» ، وإلَّا فالأَمر قديمٌ لا يوصف بأَنه مفعول ، ويحتمل – على بُعْد – أَن يكون «الأَمْرُ» واحد الأُمور التي شأْنها أَن تُفْعل . ورُوي أَن عائشة وزينب تفاخرتا ، فقالت عائشة رضي الله عنها : أَنا التي سِيقَتْ صفتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الجنة في سَرَقَة حرير (١) ، وقالت زينب رضي الله عنها : أَنا التي زَوَّجني الله من فوق سبع سمٰوات (٢) ، وقال الشعبي : كانت زينب تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إِني لأَدِلُّ عليك بثلاثٍ مَا مِنْ نسائك امرأَةٌ تَدِلُّ بهن ، إِنَّ جدِّي وجدَّك واحد ، وإِنَّ الله أَنكحك إِياي من السماءِ ، وإِن السفير في ذلك جبريل (٣) .

---

(١) السَّرَقُ : شقق الحرير ، أو أجوده ، والواحدة سَرَقة . (مع) – عن المعجم الوسيط .

(٢) لفظه في القرطبي : (أنا التي جاء بي الملَك إلى النبي صلى الله عليه وسلم في سَرَقة من حرير ، فيقول : « هذه امرأتك » ،) ثم قال : « خرَّجه الصحيح » . وقال السيوطي في « الدر المنثور » : « أخرج الحكيم الترمذي ، وابن جرير عن محمد بن عبد الله بن جحش ، قال : تفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما ، فقالت زينب رضي الله عنها : أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة رضي الله عنها : أنا الذي نزل عذري من السماء في كتابه حين حملني ابن المعطل على الراحلة ، فقالت لها زينب رضي الله عنها : ماقلت حين ركبتها ؟ قالت : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل ، قالت : قلتِ كلمة المؤمنين .

(٣) أخرجه ابن جرير عن الشعبي . (الدر المنثور) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾

هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأُمَّة ، أَعلمهم أَنه لا حرج على رسول الله صلى الله عليه وسلم في نيل ما فرض الله له وأَباحَه ، من تزوُّجه لزينب بعد زيد ، ثم أَعلم أَن هذا ونحوه هو السُّنَن الأَقدم في الأَنبياءِ ، من أَن ينالوا ما أَحلَّه الله لهم ، وحكى الثعلبي عن مقاتل وابن الكلبي أَن الإشارة إلى داود عليه السلام ، حيث جمع الله بينه [illegible] على المصدر ، أَو على إضمار فعل

تقديره : الزم أو نحوه ، أو على الإغراء ، كأنه قال : فَعَلَيْه سُنَّة الله . و ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾ هم الأنبياء ، بدليل وصفهم بعْدُ بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ ٱللهِ﴾ . و ﴿أَمْرُ ٱللهِ﴾ في هذه الآية ، أي : مأمورات الله والكائنات عن أمره ، فهي مقدورة ، وقوله : [قَدَراً] فيه حذف مضاف ، أي : ذا قَدَر وعَنْ قَدَر ، وقرأ ابن مسعود : «الَّذين بلَّغوا رِسَالَاتِ ٱللهِ» .

وقوله : ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا ٱللهَ﴾ تعريض بالعتاب الأول في خشية النبي صلى الله عليه وسلم النَّاسَ ، ثم ردَّ الأمر كله إلى الله ، وأنَّه المحاسب على جميع الأعمال والمعتقدات ، وكفى به لَا إله إلَّا هو ، ويحتمل أن يكون [حَسِيباً] بمعنى «مُحْسِب» ، أي كافياً .

قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ . أذْهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس منافقين وغيرهم من بعد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينبَ زوجة دَعِيِّه زيد ؛ لأنهم كانوا استعظموا أن يتزوج زوجة ابنه ، فنفى القرآن تلك الصورة في البنُوَّة ، وأعلم أن محمداً لم يكن في [illegible] ه أبا أحد من رجال المعاصرين له ، ولم يُقْصد بهذه الآية أن [illegible] صلى الله عليه وسلم لم يكن له ولد فيحتاج إلى الاحتجاج في أمر [illegible] ي أمر

الحسن والحسين بأنهما كانا طفلين ، ومن احتج بذلك فإنه تأوَّل نَفْيَ البُنُوَّة عنه بهذه الآية على غير ما قُصد بها .

وقرأ ابن أبي عبلة وبعض الناس : ﴿وَلَـٰكِنْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ بالرفع على معنى : هو رسولُ الله ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، والأعرج ، وعيسى : [رَسُولَ] بالنصب على العطف على [أَبَا] ، وهؤلاء قرءُوا [وَلَـٰكِنْ] بالتخفيف ، وقرأت فرقة : [وَلَـٰكِنَّ] بشد النون ، فينتصب [رَسُول] على أنه اسم [لَـٰكِنَّ] والخبر محذوف .

وقرأ عاصم وحده (١) ، والْحَسَن ، والشعبي ، والأعرج بخلاف : ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بفتح التاء على معنى أنهم به خُتِمُوا ، فهو كالخَاتَم والطَّابع لهم ، وقرأ الباقون والجمهور بكسر التاء بمعنى أنه خَتَمَهم أي جاءَ آخرهم ، وروت عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال : (أَنا خاتم أَلْف نبي) (٢) ، وهذه الأَلفاظ عند جماعة علماءِ الأُمة

(١) يعني : من السبعة ، وإلا فقد قرأ بها غيره كما ذكر المؤلف .

(٢) الأحاديث في ذلك كثيرة ، وهي مروية في صحيح السُّنَّة ، ومنها ما أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل ابتنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبِنَة ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع اللَّبنة ، فأنا موضع اللَّبِنة ، فخُتِم بي الأنبياء) . ومنها ما رواه مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه =

خَلَفاً وسَلَفاً مُتَلَقَّاةٌ على العموم التام ، مُقْتَضِية نصًّا أنه لا نَبِيَّ بعده ، وما ذكره القاضي ابن الطَّيِّب في كتابه المسمَّى بالهداية من تجويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية ضعيف ، وما ذكره الغزالي في هذه الآية وهذا المعنى في كتابه الذي سمَّاه بالاقتصاد إلْحادٌ عندي ، وتطرُّقٌ خبيث إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختْم محمد عليه الصلاة والسلام النُّبُوَّة ، فالحذَر الحذَر منه ، والله الهادي برحمته(١) . وقرأ ابن مسعود : «مِنْ رِجَالِكُمْ ولَكِنْ نَبِيًّا ختم النَّبِيِّين» ، قال الرُّمَّاني : خُتم به عليه الصلاةُ والسلام الاستصلاح ، فمن لم يصلح به فميئوسٌ من صلاحه .

قوله : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ عمومٌ ، والمقصود به هنا علمه تبارك وتعالى بما رآه الأَصلح لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وما قدَّره في الأَمر كله .

=أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فُضِّلْتُ على الأنبياء بستٍّ : أُعطيتُ جوامع الكلِم ، ونُصرتُ بالرعب ، وأُحِلَّت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأُرسلتُ إلى الخلق كافة ، وخُتِم بي النَّبيُّون) . ومنها ما أخرجه البخاري ، ومسلم ، عن جبير بن مطعم رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن لي أسماءً : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو اللهُ بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشرُ الناسُ على قدميَّ ، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد) .

(١) نقل هذا الكلام عن ابن عطية كلٌّ من القرطبي في تفسيره ، وأبو حيان في البحر المحيط .

ثم أَمر تعالى عباده بأَن يذكروه ذكراً كثيراً ، وجعل ذلك دون حدٍّ ولا تقدير لسهولته على العبيد ، ولِعِظَم الأَجر فيه قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم يعذر أَحدٌ في ترك ذكر الله إِلَّا من غلب على عقله ، وقال : الكثيرُ : أَلَّا ينساهُ أَبداً ، وروى أَبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، (أَكثروا ذكر الله حتى يقولوا : مجنون) (٤) .

وقوله : ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أَراد : في كل الأَوقات ، فحدَّدَ الزمن بطرفي نهاره وليله ، وقال قتادة ، والطبري وغيرهما : الإِشارة إِلى صلاتي الغَدَاة والعصر .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه الآية مدنية فلا يتعلق بها من زعم أَن الصلاة إِنما فُرضت أَوَّلًا صلاتين في طَرَفي النهار ، والرواية بذلك ضعيفة ، و «الأَصيلُ» من العصر إِلى الليل .

ثم عدَّد تعالى على عباده نعمته في الصلاة عليهم ، وصلاةُ الله تبارك وتعالى على العبيد هي رحمته لهم ، وبركته لديهم ، ونشره إِلينا الجميل ، وصلاةُ الملائكة الدعاءُ للمؤمنين ، وروت فرقة أَن

---

(١) أخرجه أحمد ، وأبو يعلى ، وابن حبان ، والحاكم وصححه . (الدر المنثور) .

النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : يا رسول الله ، كيف صلاة الله على عباده ؟ قال : (سُبُوحٌ قُدُوسٌ ، رحمتي سبقت غضبي) (١) ، واختُلف في تأويل هذا القول ـ فقيل : إنه كله من كلام الله ، وهي صلاتُه على عباده ، وقيل : «سُبُّوحٌ قُدُّوس» من كلام محمد صلى الله عليه وسلم ، يُقدمه بين يَدَيْ نُطقه باللفظ الذي هو صلاة الله ، وهو : «رحمتي سبقت غضبي» ، وقدم عليه الصلاة والسلام هذا من حيثُ فهم من السائل أن تَوَهَّم في صلاة الله على عباده وجْهاً لا يليق بالله تعالى ، فقدَّم التنزيه لله والتعظيم بين يدَيْ إخباره .

وقوله تعالى : [لِيُخْرِجَكُمْ] أي : صَلَاتُه وصلاة ملائكته لكي يهديكم وينقذكم من الكفر إلى الإيمان ، ثم أَخبر تبارك وتعالى برحمته بالمؤمنين تأْنيساً لهم .

---

(١) أخرج ابن مردويه عن عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ قال : (صلاته على عباده سُبُّوح قُدُّوس ، تغلب رحمتي غضبي) ، وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طريق عطاء بن رباح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قلت لجبريل عليه السلام : هل يصلي ربك ؟ قال : نعم ، قلت : وما صلاته ؟ قال : سُبُّوح قُدُّوس ، سبقت رحمتي غضبي) .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ ، قيل : يوم القيامة المؤمن تحييه الملائكة بالسلام ، ومعناه : السلامة من كل مكروه . وقال قتادة رضي الله عنه : يوم دخولهم الجنة يُحَيِّي بعضهم بعضاً بالسلام ، أي : سلمنا وسلمتَ من كل همٍّ وتخوف . وقيل : تحييهم الملائكة يومئذ ، وأمَّا «الأَجر الكريم» فإنه جنة الخلد في جوار الله تبارك وتعالى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

هذه الآيات فيها تأْنيس للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وتكريم لجميعهم ، وقوله : [شَاهِداً] معناه : على أُمتك بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأُمم في تبليغ أَنبيائهم ، ونحو ذلك . وقوله : [وَمُبَشِّراً] معناه : مُبَشِّر للمؤمنين برحمة الله وبالجنة . و [نَذِيراً] معناه : للعصاة

والمكذبين من النار وعذاب الخلد . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلِيًّا ومُعَاذاً رضي الله عنهما ، فبعثهما إلى اليمن ، وقال : (اذهبا فَبَشِّرا ولا تُنَفِّرا ، ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا ، فإني قد أُنزل عَلَّي : وقرأ الآية)(١) ، و «الدُّعاءُ إلى الله» هو تبليغ التوحيد والأخذ به ، ومكافحة الكفرة . و [بِإِذْنِهِ] معناه هنا : بأمره إيَّاكَ وتقديره ذلك في وقته وأوانه . و ﴿سِرَاجاً مُنِيراً﴾ استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه ، فكأن المهتدين به والمؤمنين يخرجون بنوره من ظُلْمة الكفر .

وقوله تعالى : [وَبَشِّر] ، الواو عاطفة جملة على جملة ، والمعنى منقطع من الذي قبله ، أمره تعالى بأن يبشِّر المؤمنين بالفضل الكبير من الله .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

قال لنا أبي رضي الله عنه : هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى ؛ لأن الله سبحانه قد أمر نبيَّه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، والخطيب ، وابن عساكر ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور) .

فضلًا كبيراً ، وقد بيَّن الله تعالى الفضل الكبير ما هو في قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾(١) ، فالآية التي في هذه السورة خبر ، والتي في ﴿حٰمٓ ، عٓسٓقٓ﴾ تفسير لها .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ﴾ نهيٌ له عن السماع منهم في أشياءَ كانوا يطلبونها مما لا يجب ، وفي أشياءَ كانوا يدخلونها مدخل النصائح وهي غشٌّ ، إلى نحو هذا المعنى . وقوله : ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ يحتمل معنيَيْن : أَحدهما أَن يأْمره بترك أَن يؤذيهم هو ويعاقبهم ، فكأَن المعنى : فاصفح عن زلَلهم ولا تؤذهم ، فالمصدر ــ على هذا ــ مضاف إلى المفعول ، ونُسخ من الآية ــ على هذا التأْويل ــ ما يخص الكافرين ، وناسخه آية السيف ، والمعنى الثاني أَن يكون قوله : ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ بمعنى : أَعرض عن أَقوالهم وما يؤذونك ، فالمصدر ــ على هذا التأْويل ــ مضاف إلى الفاعل ، وهذا تأْويل مجاهد ، ثم أَمره تعالى بالتوكل عليه ، وآنسه بقوله : ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾ ، ففي قوة الكلام وعْدٌ بنصر . وتقدم القول في ﴿كَفَى بِاللهِ﴾ . و « الوكيل » : الحافظ القائم على الأَمر .

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (الشورى) .

ثم خاطب تعالى المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناء[١] ، واستدل بعض الناس بقوله : ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ وبمهلة [ثُمَّ] على أن الطلاق لا يكون إلَّا بعد نكاح ، وأن من طلَّق المرأة قبل نكاحها - وإن عيَّنَهَا - فإن ذلك لا يلزمه ، وقال هذا نيِّف على ثلاثين من صاحب وتابع وإمام ، سمَّى البخاري منهم اثنين وعشرين[٢] . وقالت طائفة من أهل العلم : إن طلاق المعيَّنة الشخص أو القبيل أو البلد لازم قبل النكاح ، منهم مالك وجميع أصحابه وجمع عظيم من علماء الأئمة .

وقرأ جمهور القراء : [تَمَسُّوهُنَّ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وطلحة ، وابن وثاب: [تَماسُّوهُنَّ] ، والمعنى فيهما الجماعُ ، وهذه العِدَّة إنما هي لاسْتِبراء الرحم وحِفْظ النسب في الحمل ، فمن لم تمسّ فلا يلزم ذلك فيها .

وقرأ جمهور الناس بتشديد الدال من [تَعْتَدُّونَهَا] على وزن تفتعلونها ، من العَدِّ[٣] ، وروى ابن أبي برزة عن ابن كثير [تَعْتَدُونَهَا] بالتخفيف ،

---

(١) يقال : بَنَى بزوجته وعليها : دَخَل بها . (المعجم الوسيط) .
(٢) سَمَّاهم البخاري في باب (لا طلاق قبل النكاح) ، لكنه ذكر أربعة وعشرين اسماً .
(٣) في بعض النسخ : «من العدد» ، وعلى كل فالمعنى : تستوفون عددها ، من قولك : عدَّ الدراهم فاعْتَدَّهَا ، أي : استوفى عددها ، وهذا نحو قولك : كِلْتُهُ واكْتَالَه .

من العدوان ، كأنه قال : فما لكم من عدة تعتدونها عدواناً وظلماً لهن(١) . والقراءة الأُولى أشهر عن ابن كثير ، وتخفيف الدال وَهْمٌ من ابن أبي برزة (٢) .

ثم أمر تعالى بتمتيع المطلقة قبل البناء ، واختلف الناسُ في المُتْعة ـ فقالت فرقة : هي واجبة ، وقالت فرقة : هي مندوب إليها ، منهم مالك وأصحابه ، وقال قوم : المتعة لِلَّتي لم يُفرض لها ، ونصف المهر لِلَّتي فُرض لها ، وقال سعيد بن المسيب : بل المتعة كانت لجميعهن

---

(١) في بعض النسخ : « فما لكم من عدة تلزمونها عدواناً وظُلْماً لهن » .

(٢) قال أبو حيان تعقيباً على كلام ابن عطية بعد أن ذكره : « وليس بوهم ؛ إذ قد نقلها عن ابن كثير ابن خالويه ، وأبو فضل الرازي في كتاب « اللوامح » في شواذ القراءات ، ونقلها الرازي المذكور عن أهل مكة ، وقال : هو من الاعتداد لا محالة ، لكنهم كرهوا التضعيف فخففوه ، فإن جعلت من الاعتداء الذي هو الظلم ضعف ؛ لأن الاعتداء يتعدى بعَلَى» ، ثم أكمل أبو حيان كلامه فقال : « وإذا كان يتعدى بعَلَى فيجوز أن يحذف (على) ويصل الفعل إلى الضمير ، نحو قوله :

تَحِنُّ فَتُبْدِي مَا بِهَا مِنْ صَبَابَةٍ وأُخْفِي الَّذي لوْلا الأَسَى لَقَضَانِي

أي : لقضى عَلَيَّ » . وقال الزمخشري : « وقُرِئَ (تَعْتَدُونَهَا) مخففاً ، أي : تعتدون فيها ، كقوله : ويوماً شهدناه ، والمراد بالاعتداء ما في قوله : ﴿ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا ﴾ ، ومعنى كلامه أنه لمَّا حذف حرف الجر وصل الفعل إلى ضمير العدة ، وذلك كقول الشاعر :

وَيَوْماً شَهِدْنَاهُ سُلَيْماً وَعَامِراً

أي : شهدنا فيه سُلَيْماً وعامراً ، أما على تقدير (عَلَى) فيكون المعنى : تعتدون عليهن فيها .

بهذه الآية ، ثم نسخت آيةُ البقرة بالنصف لمن فُرض لها ما تضمَّنته هذه الآية من المتعة .

وهذه الآية خصصت آيتين : إحداهما ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾(١) ، فخصَّصَتْ هذه الآية من لم يُدْخل بها ، وكذلك خصصت من ذوات الثلاثة الأَشْهُر ، وهُنَّ من قَعَدْنَ عن المحيض(٢) ، ومن لم يحضن من صغير المطلقات قبل البناءِ . و « السَّرَاحُ الجميلُ » هو الطلاق يتبعه عِشْرَةٌ حسنة وكلمةٌ طيِّبة دون أذى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) من الآية (٢٢٨) من سورة (البقرة) .

(٢) وهن اللائي ذكرهن الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَٱلَّـٰٓئِى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ — من الآية (٤) من سورة (الطلاق) .

قرأ الجمهور : [ٱللَّاتِــي] بتاءٍ من فوق ، وقرأ الأعمش : [ٱللَّايِــي] بياءٍ من تحت(١) . وذهب ابن زيد ، والضحاك في تفسير قوله : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى أَن المعنى أَن الله تعالى أَحلَّ له أَن يتزوَّج كل امرأَة يُؤْتيها مهرها ، وأَباح له كلَّ النساءِ بهذا الوجه ، وأَباح له ملك اليمين ، وأَباح له بنات العم والعمة والخال والخالة ممن هاجر معه ، وخصص هؤلاءِ بالذكر تشريفاً وتنبيهاً ؛ إِذْ قد تناولَهُنَّ ـ على تأْويل ابن زيد ـ قولُه : ﴿أَزْوَاجَكَ ٱللَّاتِــي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ ، وأَباحَ له الوَاهبات خاصَّةً له ، فهذه ـ على تأْويل ابن زيد ـ إباحةٌ مُطْلقة في جميع النساءِ حاشَى ذوات المحارم ، لاسيَّما ـ على ما ذكره الضَّحَّاك ـ أَن في مصحف ابن مسعود «وَبَنَاتِ خالاتِكَ واللَّاتي هاجَرْنَ مَعَكَ» . ثم قال ـ بعد هذا ـ : ﴿تُرْجِـي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أي : من هذه الأَصناف كلها ، ثم تجري الضمائر بعد ذلك على العموم إلى قوله : ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ فيجيءُ هذا الضمير مقطوعاً من الأَول عائداً على أَزواجه التسع فقط ، على الخلاف في ذلك .

وتأَول غير ابن زيد في قوله : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ٱللَّاتِــي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أَن الإشارة إلى حفصة وعائشة رضي الله عنهما ومَنْ

(١) في بعض النسخ : بياءَيْن من تحت .

في عصمته مِمَّن تزوَّجن بمهر ، وأن مِلْك اليمين بَعْدُ حلالٌ له ، وأن الله تعالى أباح له صلى الله عليه وسلم مع المذكورات بناتِ عمه وعماته وخاله وخالاته ممَّن هاجرن معه ، والواهباتِ خاصة له صلى الله عليه وسلم ، فيجيءُ الأَمر – على هذا التأْويل – أَضيق على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويؤيد هذا التأْويل ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوَّج في أَي الناس شاءَ ، وكان ذلك يشق على نسائه ، فلما نزلت هذه الآية وحرّم عليه الناس (١) إِلَّا من سُمِّي سُرَّ نساؤُه بذلك» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لأَن ملك اليمين إنما تعلقه في النادر من الأَمر ، وبنات العم والعمات والخال والخالات يسير (٢) ، ومن يمكن أَن يتزوج منهن محصور عند نسائه ، لاسيَّما وقد قيِّد ذلك بشرط الهجرة ، وكذا الواهبة من النساءِ قليل ، فلذلك سُرَّ أَزواجه بانحصار الأَمر ، ثم يجيءُ قوله : ﴿تُرْجِـي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره ، ثم يجيءُ

---

(١) هكذا في جميع الأصول ، واللفظ في القرطبي : «حُرِّمَ عليه النساءُ» ، وهو أيضاً اللفظ في (الدر المنثور) ، وقد ذكر الخبر ، وقال : «أخرجه ابن جرير ، وابن مردويه» .

(٢) سقطت كلمة (يسير) من جميع الأصول ، والتصويب عن (البحر المحيط) الذي نقل الكلام كاملا ، فيكون المعنى : بناتُ العم والعمات والخال والخالات أمرهن يسير . على أنه يمكن أن نجعل «محصور عند نسائه» خبراً عن المبتدإ «بنات» مع مافي ذلك من قلق .

قوله : ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ إشارة إلى أزواجه اللواتي تقدم النَّص عليهن بالتحليل ، فيأْتي الكلام منسّقاً مطّرداً أكثر من اطّراده على التأْويل الأَول (١) . والأُجور : المهور .

وقوله : ﴿مِمَّا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي ردّه عليك في الغنائم ، يُريد : أَو على أُمّتك لأَنه فيءٌ عليه . ومِلْك اليمين أَصله الفيءُ من الغنائم ، أَو ما تناسل ممن سُبي ، والشراءُ من الحربيين كالسباء ، ويباح السباءُ من الحربيِّين ، ولا يجوز سبيُ من له عهدٌ ولا تَملُّكه ، ويُسَمَّى سبي الخِبْثَــــة (٢) .

وقوله تعالى : ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ يريد قرابته (٣) ، رُوي عن أُم هَانِــيءٍ بنت أَبي طالب أَنها قالت : «خطبني رسول الله صلى الله عليه

---

(١) ولأن قوله تعالى : ﴿ آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ ماضٍ ، ولا يكون الفعل الماضي بمعنى الاستقبال إلا بشروط .

(٢) الخِبْثَةُ : الحرام ، ويقال : سبْيٌ لا خِبْثَةَ فيه ، أي : سبيٌ من قوم يحلُّ استرقاقهم ، وسبْيُ خِبْثَة ، أي : سبْيٌ من قوم لا يحلُّ استرقاقهم لعَهْدٍ تقدم لهم ، أو حرية في الأصل ثبتت لهم . (راجع كتب اللغة والمعاجم) .

(٣) قال ابن كثير : « هذا عدلٌ وسط بين الإفراط والتفريط ؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباحت بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وبتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا شنيع فظيع » .

وسلم ، فاعتذرت إليه فعذرني ، ثم نزلت هذه الآية فحرّمتني عليه لأني لم أهاجر معه ، وإنما كنتُ من الطُّلَقاء» (١) .

وقرأ جمهور الناس : ﴿إنْ وَهَبَتْ﴾ بكسر الألف ، وهذا يقتضي استئناف الأمر ، أي : إنْ وقع فهو حلال له ، على أنه قد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة إلّا بعقد نكاح أو مِلْك يمين . وأمّا بالْهِبَة فلم يكن عنده منهن أحد» . وقرأ الحسن البصري ، وأُبيٌّ بن كعب ، والثّقفي ، والشّعبي : ﴿أنْ وَهَبَتْ﴾ بفتح الألف ، فهي إشارةٌ إلى ما وقع من الواهبات قبل نزول الآية ، وكسر الألف يجري مع تأويل ابن زيد الذي قدّمناه ، وفتحها يجري مع التأويل الآخر ، ومن قرأ بالفتح قال : الإشارة إلى من وهب نفسه للنبي صلى الله عليه وسلم من النساء على الجملة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما – فيما حكى الطبري – : هي ميمونة بنت الحارث ، وقال علي بن الحسين : هي أُمّ شُريك .

(١) أخرجه ابن سعد ، وابن راهويه ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسّنه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي . (الدر المنثور) ، وقال القرطبي : «خرجه أبو عيسى وقال : هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه» . قال ابن العربي : «وهو ضعيف جداً ، ولم يأت هذا الحديث من طريق صحيح يحتج بها» .

وقال الشَّعبيُّ وعُروة : هي زينب بنت خزيمة أُمُّ المساكين ، وقال أَيضاً عُروة بن الزبير : هي خولة بنت حكيم بن الأَوقص السلمي ، وفي مصحف بن مسعود : «وامرأَةً مُؤْمِنَةً وَهَبَت» ، دون «إنْ» .

وقوله : ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾ أَي : هِبَةُ النِّساءِ أَنفسهن خاصَّةٌ ومزيَّة [لا تجوز](١) ، فلا يجوز أَن تهب المرأَة نفسها لرجل ، وأَجمع الناس على أَن ذلك غير جائز ؛ إلَّا ما رُوي عن أَبي حنيفة ، ومحمد بن الحسن ، وأَبي يوسف أَنهم قالوا : إِذا وَهَبَتْ وأَشهد هو على نفسه بِمَهْرٍ فذلك جائز .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فليس في قولهم إلَّا تجويز العبارة بلفظة ٱلْهِبَة ، وإلَّا فالأَفعال التي اشترطوها هي أَفعال النكاح بعينه ، ويظهر من لفظ أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه أَن معنى قوله : ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾ يراد به جميع الإباحة ، لأَن المؤمنين قُصِروا على مَثْنى وثُلاث ورُباع .

قوله تعالى : ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ الآية ، يريد : فَرَضْنا الوليَّ والشاهدَ والمهرَ والاقتصار على أَربع ، قاله قتادة ومجاهد ، وقال أُبيٌّ بن كعب :

---

(١) ما بين العلامتين زيادة عن القرطبي الذي نقل كلام ابن عطية ، وقد سقطت هذه الزيادة من الأصول .

هو مثنى وثُلاث ورُباع . وقوله : ﴿ لِئَلَا يَكُونَ ﴾ أَي : بيَّنا هذا البيان ، وشرحنا هذا الشرح لئلا يكون عليك حرج ويُظن بك أنَّك أثِمت عند ربِّك في شيءٍ ، ثم آنس الجميع من المؤمنين بغفرانه ورحمته .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

[تُرْجِـي] معناه : تؤخر ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم[١] : [تُرْجِـئُ] بالهمز ، وقرأ عاصم - في رواية حفص - وحمزة ، والكسائي : [تُرْجِـي] بغير همز ، وهما لغتان بمعنى . [وَتُؤْوِي] معناه : تَضُم وتُقَرِّب ، وقال المبرد : هو مُعَدَّى (رَجَا يَرْجُو) ، تقول : «رَجَا الرجل وأَرْجَيْتُه» جعلته ذا رجاءٍ .

(١) في رواية أبي بكر عنه .

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى فسح لنبيِّه فيما يفعله في جهة النساء ، والضمير في [مِنْهُنَّ] عائد على من تقدم ذكره من الأصناف حيث الخلاف المذكور في ذلك .

وهذا الإرجاءُ والإيواءُ يحتمل معاني : منها في القَسْم ، أي : تُقَرب من شِئْت في القِسْمة لها من نفسك ، وتُؤَخر من شئت ، وتُكثر لمن شئت ، لا حرج عليك في ذلك ، فإذا علمن هن أن هذا هو حُكم الله وقضاؤُه زالت الأنفة والتغاير عنهن ، وقرَّت أعينهن . هذا تأويل مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ؛ لأن سبب الآية إنما كان تغايُراً – وقع بين زوجات النبي عليه الصلاة والسلام – عليه ، فشقي بذلك ، ففسح الله تبارك وتعالى له ، وأنَّبهن بهذه الآيات .

وقال ابن زيد [١] ، وابن عباس : في طلاق من شاءَ مِمَّن حصل في عصمته ، وإمساك من شاءَ ، قال ابن زيد [١] : وكان عليه الصلاة والسلام قد همَّ بطلاق بعض نسائه ، فقلن له : اقسم لنا ما شئت ، فكان ممن أَرْجأَ سودةُ وجويرةُ وصفية وأُم حبيبة وميمونة ، وآوى إليه عائشة وأُمَّ سَلَمة وحفصة وزينب رضي الله عنهن أجمعين .

---

(١) في إحدى النسخ : (أبو رزين) بدلا من (ابن زيد) ، ولعله أقرب إلى الصواب ، إذ هو موافق لما في القرطبي وغيره .

وقال الحسن بن أبي الحسن : المعنى : في تزوج من شاءَ من النساءِ وترك من شاءَ ، وقالت فرقة : المعنى : في ضمٍّ من شاءَ من الواهبات وتأْخير من شاءَ .

وعلى كلٍّ معنى فالآية معناها التوسعة عليه ـ صلى الله وسلم عليه ـ والإباحة ؛ قالت عائشة رضي الله عنها : لما قرأَ عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية قلت : ما أَرى ربك إلا يسارع في هواك (١) .

وذهب هِبَةُ الله في «الناسخ والمنسوخ» له إلى أَن قوله : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ﴾ الآية ناسخٌ قوله : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ﴾ الآية ، وقال : ليس في كتاب الله ناسخ تقدم المنسوخ سوى هذا . وكلامه يضعف من جهات (٢) .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن جرير عن الحسن ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ـ عن عائشة رضي الله عنها ، ونصه : (قالت : كنت أغار من اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : كيف تهب نفسها ؟ فلما أنزل الله ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك) . وقال ابن العربي : هذا الذي ثبت في الصحيح .

(٢) منها أن أكثر العلماء قالوا : إن قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ ناسخ لقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَتَاعاً إِلَى ٱلْحَوْلِ غير إِخْرَاجٍ ﴾ مع أن آية الأشهر الأربعة متقدمة على آية الحول . (راجع كل كتب التفسير ، وبخاصة القرطبي =

وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ يحتمل معاني : أَحدهما أَن تكون [مَنْ] للتبعيض ، أَي : مَنْ أَردتَه وطلبته نفسك مِمَّن كنت عَزَلْتَه وأَخَّرته فلا جُناح في ردِّه إلى نفسك وإيوائِه إليك بعد عزلتـه . ووجه ثان وهو أَن يكون مُقَوِياً ومُؤَكِّداً لقـوله : ﴿تُرْجِـي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ ، فيقول بعْدُ : ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّن عَزَلْتَ﴾ فذلك سواءٌ لا جناح عليك في جميعه ، وذلك كما تقول : «مَنْ لقيك ممن لم يلقك جميعهم لك شاكرين» ، وأنت تريد : «من لقيك ومن لم يلقك» ، وهذا المعنى يصحُّ أَن يكون في القَسْم ، ويصح أَن يكون في الطلاق والإِمساك ، وفي الواهبات ، وبكل واحدٍ قالت فرقة .

= جـ ٣ صفحة ١٧٤) . وجاز أن ينسخ المتقدم المتأخر لأن القرآن كله بمنزلة سورة واحدة ، قال ذلك النحاس ، وصحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الله أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في شهر رمضان . وقد عارض بعض فقهاء الكوفيين فقال : محال أن ينسخ قولُه تعالى : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ قوله سبحانه : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ ...﴾ وهي قبلها في المصحف الذي أجمع عليه المسلمون ، وقد عارض النحاسُ هذا الرأي كما قدمنا ، ومِمَّا يؤيد قوله هذا ما رواه الطحاوي عن أُم سلمة ، قالت : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتَّى أحلَّ الله له أن يتزوج من النساءِ من شاءَ ، إلا ذات محرم ، وذلك قوله تعالى : ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ﴾ الآية . قال القرطبي : وهذا هو قول علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، وعلي بن الحسين ، والضحاك .

وقرأ الجمهور : ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ برفع الأَعيُن ، وقرأ ابن محيصن : ﴿[أَنْ تُقِرَّ﴾ بضم التاءِ من [تُقِرَّ] وكسر القاف [أَعْيُنَهُنَّ] نصباً . وقوله : ﴿بِمَا آتَيْتَهُنَّ﴾ أي : من نفسك ومالك . وقرأ جمهور الناس : [كُلُّهُنَّ] رفعاً على التأْكيد للضمير في [يَرْضَيْنَ] ، ولم يُجوِّز الطبري غيرها ، وقرأ جويرة بن عابد[1] : [كُلَّهُنَّ] بالنصب على تأْكيد ضمير [آتَيْتَهُنَّ] ، والمعنى أَنَّهُنَّ يسلِّمن لله ولحكمه ، وكُنَّ قبل لا يتسامحن بينهن للغيرة ، ولا يسلِّمن للنبي صلى الله عليه وسلم أنفةً ، نحا إلى هذا المعنى ابن زيد ، وقتادة .

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَافِي قُلُوبِكُمْ﴾ خبرٌ عام ، والإشارة إلى ما في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من محبة شخص دون شخص ، وكذلك يدخل في المعنى أَيضاً المؤمنون . وقوله : [حَلِيماً] صفة تقتضي

---

(١) هكذا في الأصول ، لكن الذي أثبته ابن جني في (المحتسب) أنها قراءة أبي إياس جُؤَيَّة بن عائذ ، ويتفق مع هذا كلام أبي حيان في (البحر المحيط) ، قال ابن جني : نصبه على أنه توكيد لـ [هُنَّ] من قوله [آتَيْتَهُنَّ] ، وهو راجع إلى معنى قراءة العامة [كُلُّهُنَّ] بضم اللام ؛ وذلك أن رضاهن كلهن بما أُوتين كُلُّهن على انفرادهن واجتماعهن ، فالمعنيان إذاً واحد ، إلا أن الرفع أقوى معنى ، وذلك أن فيه إصراحاً من اللفظ بأن يرضيهن كلهن ، والإصراح في القراءة الشاذة ــ أعني النصب على قراءة جُؤَيَّة بن عائذ إنما هو بإيتائهن كلهن ، وإن كان محصول الحال فيهما مع التأويل واحداً .

منه تبارك وتعالى صفحاً وتأنيساً في هذا المعنى ؛ إذ هي خواطر وفِكَرٌ لا يملكها الإنسان في الأغلب .

واتفقت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام عدل بينهن في القسمة حتى مات ، ولم يمتثل ما أُبيح له معهن ضبطاً لنفسه ، وأخذاً بالفضل ، غير أن سوْدة وهبت يومها لعائشة توصلًا لمسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ ، قيل كما قدّمنا : إنما حظرت عليه النساءُ إلَّا التسع اللَّواتي كن عنده ، فكأنَّ الآية ليست متصلة بما قبلها . قال ابن عباس ، وقتادة رضي الله عنهم : لما هجرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهراً وآلى منهن ، ثم خرج وخيَّرهن فاخترن الله ورسوله ، جازاهن الله بأن حظر عليه النساءَ غيرهن ، وقنَّعه بهن ، وحظر عليه تبديلهن ، ونسخ بذلك ما أباحه له من قبل من التوسعة في جميع النساءِ . وقال أُبيٌّ بن كعب ، وعكرمة : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي : من بعد الأصناف المسمَّاة . ومن قال بأن الإباحة كانت له مطلقة قال هنا : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ﴾ معناه : لا يحل لك اليهوديات ولا النَّصرانيات ، وهذا تأويلٌ فيه بُعْدٌ وإن كان رُوي عن مجاهد ، وكذلك قَدَّر : «ولا أن تُبَدِّل اليهوديات والنصرانيات

بالمسلمات ، وهو قول أَبي رَزين ، وسعيد بن جبير . وقال أُبي بنُ كعب: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَاءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ يعني : لا يحلُّ لك العماتُ ولا الخالاتُ ونحوهن ، وأُمر مع ذلك أَلَّا يتبَدَّل بأَزواجه التِّسع ، ومنع أَن يُطلِّق منهن ويتزوَّج غيرهن ، قاله الضَّحَّاك . وقيل : ممَّن تَزَوَّج وحصل في عصمته ، أَي : لا يُبَدِّلها بأَن يأْخذ زوجة إِنسان ويعطيه هو زوجته ، قال ابن زيد : وهذا شيءٌ كانت العرب تفعله . وهذا قولٌ ضعيف أَنكره الطبري وغيره في معنى الآية ، وما فعلت العرب هذا قط ، وما رُوي من حديث عُيَيْنَة بن حصن أَنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة رضي الله عنها فقال : (من هذه الحميراءُ ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هذه عائشة ، فقال عُيَيْنَة : يا رسول الله ، إِنْ شِئْتَ نزلْتُ لك عن سيدة نساءِ العرب جمالًا ونسباً) فليس بتبديل ، ولا أَراد ذلك ، وإِنما احتقر عائشة لأَنها كانت صبيَّة فقال هذا القول (١).

---

(١) اختصر ابن عطية رواية خبر عُيَيْنَة بن حصن ، وحتى لا يكون هنا تساؤلات ترد على الذهن عند قراءة الخبر بهذه الصورة أُورده هنا كاملا كما رواه القرطبي في تفسيره وكذلك الإمام السيوطي في الدر المنثور . (أخرج البزار ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل : تنزل لي عن امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتي ، وأزيدك ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ ، قال : فدخل عُيَيْنَة بن حصن الفزاريُّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عائشة رضي الله عنها ، فدخل بغير إذن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عُيَيْنَة فأين الاستئذان ؟ فقال : يا رسول الله ، مااستأذنت على رجل من مُضَرَ =

وقرأ أبو عمرو ـ بخلاف ـ : [تَحِلُّ] بالتاءِ على معنى : جماعة النساءِ ، وقرأ الباقون بالياءِ من تحت ، على معنى : جميع النساءِ ، وهما حسنان ؛ لأن تأنيث لفظ النساءِ ليس بحقيقي .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزل ذلك بسبب أسماءَ بنت عُميس ، أُعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم حُسنُها حين مات عنها جعفر بن أَبي طالب ، [فأَراد أَن يتزوجها] (١) ، وفي هذه اللفظة : ﴿أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ دليل على جواز أَن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها ، وقد أَراد المغيرة ابن شعبة زواج امرأَةٍ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (انظر إليها

=منذ أدركت ، قال : من هذه الحميراءُ إلى جنبك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه عائشة أم المؤمنين ، قال : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق ؟ قال : يا عُيَيْنَة ، إن الله قد حرَّم ذلك ، قال : فلما خرج قالت عائشة : يا رسول الله ، من هذا ؟ قال : أحمق مُطاع ، وإنه ـ على ما تَرَيْن ـ لَسَيِّد قومه) . ا . هـ . فعيينة دخل بدون استئذان ، وقد نبهه النبي صلى الله عليه وسلم ، وعيينة لم يعرض بدلا ، وإنما عرض على الرسول صلى الله عليه وسلم ما يناسب مقامه في نظره بعد أن استصغر عائشة رضي الله عنها ، والنبي صلوات الله وسلامه عليه نبهه إلى أن ذلك حرام ، ثم وصفه صلى الله عليه وسلم بأنه أحمق ، ومن سماحة النبي صلى الله عليه وسلم أن يتعامل مع الأحمق بما يناسبه .

(١) ما بين العلامتين [...] زيادة وردت في كتب التفسير ، وأثبتناها لأنها تفصح عن الغرض الذي حمل الرسول صلى الله عليه وسلم على النظر إليها ، فهو نظر مشروع ، والغرض منه الخطبة والزواج .

فإنه أَجدر أَن يُؤْدِم بينكما)(١) ، وقال صلى الله عليه وسلم لآخر : (انظر إليها فإن في أَعين الأَنصار شيئاً) (٢) ، قال الحميدي : يعني : صفراءَ ، وقال سهل بن أَبي حثمة : رأيت محمد بن مَسْلَمة يطارد بُبَيْتَة بنت الضحاك على إجَّار من أَجاجير (٣) المدينة ، فقلت له : أَتفعل هذا ؟ فقال : نعم : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا أَلقى الله في قلب أَحدكم خِطبة امرأَة فلا بأْس أَن ينظر إليها) (٤) .

قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ . [مَا] في موضع رفع بدل من [ٱلنِّسَاءُ] ، ويجوز أَن تكون في موضع نصب على الاستثناء ، وفي النصب ضعف ، ويجوز أَن تكون [مَا] مصدرية ، والتقدير : إلَّا ملك

(١) أخرجه الترمذي في النكاح ، وكذلك النسائي ، وابن ماجه ، والدارمي ، وأخرجه أحمد في مسنده ٤–٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ولفظه كما في المسند ، عن المغيرة بن شعبة ، قال : (أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكرتُ له امرأة أخطبها ، فقال : اذهب فانظر إليها فإنه أجدر أن يُؤْدِم بينكما ، قال : فأتيت امرأة من الأنصار فخطبتها إلى أبويها ، وأخبرتهما بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكأنهما كرها ذلك ، قال : فسمعت ذلك المرأة وهي في خدرها ، فقالت : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك أن تنظر فانظر ، وإلا فإني أنشدك ، كأنها عظمت ذلك عليه ، قال : فنظرت إليها فتزوجتها ، فذكر عن موافقتها) .

(٢) قال عنه القرطبي : « أخرجه الصحيح » ، ثم نقل أيضاً عن الحميدي قوله بلفظ : يعني صفراءَ أو زرقاءَ ، وقيل : رمصاءَ ، والرَّمَص : وسخٌ يتجمع في موق العين ، ويسمى الغَمَص إن كان سائلا ، والرَّمَص إن جامداً .

(٣) الإجَّار : السَّطْح بلغة الشام والحجاز ، والجمع : أجاجير وأجاجرة ، قال ابن سيدة : الإجَّار والإجَّارة : سطح ليس عليه سُتْرة ، وفي الحديث (من بات على إجَّار ليس حوله ما يردُّ قدميه فقد برئت منه الذمة) ، قال ذلك في اللسان ، ثم استشهد بحديث محمد بن مسلمة هذا .

(٤) أخرجه ابن ماجه في النكاح .

يمينك ، و بمعنى (مملوك) ، وهو في موضع نصب لأنه استثناءٌ من غير الجنس الأول(١) . و « الرَّقيبُ » فعيل بمعنى فاعل ، أي : راقب(٢).

قوله عزّ وجلّ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾

---

(١) عقَّب أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) على كلام ابن عطية في إعراب [ما] بعد أن نقله فقال : « وليس بجيد ؛ لأنه قال : « والتقدير : إلا مِلْك اليمين ، ومِلْك بمعنى مملوك » ، فإذا كان بمعنى مملوك صار من جملة النساء ؛ لأنه لم يُرد حقيقة المصدر ، فيكون الرفع أرجح ، ولأنه قال : « وهو في موضع نصب » ، ولا يتحتم أن يكون في موضع نصب ولو فرضنا أنه من غير الجنس حقيقة ، بل الحجاز ينصب ، وتميم تُبدل ؛ لأنه مستثنى توجَّه العامل عليه ، وإنما يكون النصب متحتماً حيث كان المستثنى لا يمكن توجه العامل عليه ، نحو : ما زاد المال إلا النقص ، فلا يمكن توجه الزيادة على النقص . ولأنه قال : « استثناء من غير الجنس » ، وقال : مِلْك بمعنى مملوك » فناقَضَ . ا هـ .

(٢) وفي ذلك تحذير من تجاوز حدوده وتخطي حلاله وحرامه .

هذه الآية تتضمن قصتين : إحداهما الأدب في أمر الطعام والجلوس ، والثانية أمر الحجاب .

فأمّا الأُولى فالجمهور من المفسرين على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا تزوج زينب بنت جحش أولَم عليها ، فدعا الناس ، فلما طعموا قعد نفر في طائفة من البيت ، فثقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم ، فخرج ليخرجوا بخروجه ، ومرَّ على حجر نسائه ، ثم عاد فوجدهم في مكانهم وزينب في البيت معهم ، فلما دخل ورآهم انصرف ، فخرجوا عند ذلك ، قال أنس : فأُعلم أو أَعْلَمْتُه بانصرافهم فجاء ، فلمّا وصل الحجرة أرخى الستر بيني وبينه ودخل ، ونزلت الآية بسبب ذلك(١) . وقال قتادة ، ومقاتل – في كتاب الثعلبي – : إن هذا جرى في بيت أُمِّ سَلمة(٢) ، والأَول أشهر ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي عليه الصلاة والسلام ، فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون(٣) . وقال اسماعيل بن أبي حكيم : هذا أدب

---

(١) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في سُنَنه – من طرق – عن أنس رضي الله عنه . (الدر المنثور) ، وفي (فتح القدير) : أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما بدون سند .

أَدَّب الله به الثقلاءَ ، وقال ابن أَبي عائشة في كتاب الثعلبي : بحسبك من الثقلاءِ أَن الشرع لم يحتملهم .

وأما آية الحجاب فقال أَنس بن مالك وجماعة : سببها أَمْر القعود في بيت زينب ، القصة المذكورة آنفاً ، وقالت فرقة : بل في بيت أُمِّ سَلَمَة ، وقال مجاهد : نزلت آية الحجاب بسبب ذلك ، وقالت عائشة رضي الله عنها وجماعة : سبب الحجاب كلام عمر رضي الله عنه ، وأَنه كلَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم مراراً في أَن يحجب نساءَه ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفعل ، وكان عمر يتابع ، فخرجت سودةُ ليلًا لحاجتها — وكانت امرأَة تفرع النِّساءَ طولًا — فناداها عمر رضي الله عنه : قد عرفناك يا سودةَ — حرصاً على الحجاب (١)— وقالت له زينب بنت جحش : عجباً لك يا ابن الخطاب ، تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا ؟ فما زال عمر رضي الله عنه يتابع حتى نزلت آية الحجاب (٢) .

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن عائشة رضي الله عنها — (فتح القدير ، والدر المنثور) ، قال ابن كثير : هكذا وقع في هذه الرواية ، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما رواه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله تعالى عنها .

(٢) أخرجه ابن جرير ، عن ابن مسعود من طريق عطاء بن السائب ، وذكره السيوطي في الدر المنثور ، من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال الحافظ بن حجر في تخريج (الكشاف) : « رواه الثعلبي من رواية مجاهد عن الشعبي » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وافقت ربِّي في ثلاث : منها الحجاب ، ومقام إبراهيم ، و ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾(١) . الحديث(٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكانت سيرةُ القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يُبكِّر من شاءَ إلى دار الدعوة ، ينتظرون طبخ الطعام ونضجه في حديث وأُنْس ، وكذلك إذا انتهوْا منه جلسوا كذلك ، فنهى الله تعالى المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، ودخل في النهي سائر المؤمنين ، والْتزم الناس أدب الله لهم في ذلك ، فمنعهم من الدخول إلَّا بإذن عند الأَكل ، لا قَبْلَهُ لانتظار نضج الطعام .

و [نَاظِرِينَ] معناه : منتظرين ، و [إِنَاهُ] مصدرُ أَنَى الشيءُ يأْنِي إذا فرغ وحانَ إِنًى ، ومنه قول الشاعر :

(١) من الآية (٥) من سورة (التحريم) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة ، وفي تفسير آل عمران ، ومسلم في فضائل الصحابة ، والدارمي في المناسك ، والإمام أحمد في مسنده (١-٢٣ ، ٢٤ ، ٣٦) ، ولفظه : (وافقت ربِّي عزَّ وجلَّ في ثلاث : قلتُ : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلَّى ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ، وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البَرُّ والفاجر ، فلو حَجَبْتَهُنَّ ، فأنزل الله آية الحجاب ، وقلت لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم لمَّا تمالأن عليه في الغيرة : «عسى ربه إنْ طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن» فنزلت كذلك . هذا وقد ذكر — في رواية لمسلم — قصة أسارى بدر ، وهي نقطة رابعة حصلت فيها المُوَافقة .

تَمَخَّضَتِ ٱلْمَنُونُ لَهُ بِيَوْمٍ أَنَى ولِكُلِّ حامِلَةٍ تَمَامُ (١)

وقرأ الجمهور بفتح النون من [إِنَاهُ] ، وأمالها حمزة والكسائي .

ثم أَكَّدَ المنع وحصر وقت الدخول بأَن يكون عند الإِذن ، ثم أمر بعد الطعام بأَن يفترق جمعهم وينتشر .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ عطف على قوله : ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ﴾ ، و [غَيْرَ] منصوبة على الحال من الكاف والميم في [لَكُمْ] ، أَيْ : غَيْرَ ناظرين ومستأْنسين . وقرأ ابن أَبي عبلة : [غَيْرِ] بكسر الراءِ ، وجوازه على تقدير : غير ناظرين إِناه أَنتُمْ (٢) . وقرأ الأَعمش :

---

(١) نسبه في التاج إلى عمرو بن حسَّان ، ونسبه في القرطبي إلى الشيباني ، وذكره مع بيت قبله وهو :

وكِسْرَى إذْ تَقَسَّمَهُ بَنُوهُ بِأسْيَافٍ كَمَا اقْتُسِمَ اللِّحامُ

واستشهد به في اللسان غير منسوب ، قال : « ابن الأنباري : الأنَى من بلوغ الشيء منتهاهُ ، مقصور يكتب بالياءِ ، وقد أنَى يأنِي ، وقال : تمخضت المنون ... البيت » ، أي : أدرك وَبَلَغَ ، وهكذا قال صاحب التاج ، وعلى هذا فإنَّ (أنَى) في البيت فعل ماض بمعنى أدرك وبلغ . ومعنى البيت أن كل شيءٍ له أوان ينتهي عنده ، كما أن كل من تحمل من النساء لابدَّ أن تلد عندما تُتِمُّ حملها .

(٢) يرى الفراءُ أن [غَيْرَ] بالنصب نعتٌ للقوم ، وهم معرفة ، و [غَيْرَ] نكرة ، فنصبت على الفعل ، كقوله تعالى : ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ إلا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ﴾ ، ثم قال : «ولو خفضت ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ﴾ كان صواباً ، لأن قبلها [طَعَامٍ] وهو نكرة ، فتجعل فعلهم تابعاً للطعام ، كما تقول العرب : رأيت زيداً مع امرأة مُحسنٍ إليها ، مُحسناً إليها » .

[إنَاهُ] على جمع (إِنَى) بمدَّةٍ بعد النون(١) . وقرأت فرقة : [فَيَسْتَحْيِـي] بإظهار الياءِ المكسورة قبل الساكنة ، وقرأت فرقة : [فَيَسْتَحِـي] بسكون الياءِ دون ياءٍ مكسورة قبلها . وقوله : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحِـي﴾ معناه : لا يقع منه تَرْكُ قول الحق ، ولما كان ذلك يقع من البَشَر لِعِلَّةِ الاستحياءِ نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً﴾ الآية هي آية الحجاب ، و « المتاع » عامٌّ في جميع ما يمكن أن يطلب على غرف السكنى والمجاورة من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا . ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يريد الخواطر التي تعرض للنساءِ في أمر الرجال .

قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الآية ، رُوي أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال : « لو مات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لتزوجت عائشة » ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتأَذَّى به ، هكذا كنَّى عنه ابن عباس بـ « بعض الصحابة » ، وحكى مكي عن مَعْمر أنه قال : « هو طلحة بن عبيد الله »(٢) .

---

(١) في (أَنَى) لغاتٌ ، تكرن بكسر الهمزة ، و (أَنَى) بفتحها ، و (أَنَاء) بفتح الهمزة والمدِّ ، وعلى هذه جاءَ قول الحطيئة :

وَأَخَّرْتِ الْعَشَاءَ إلى سُهَيْلٍ أَوِ الشِّعْرَى فَطَالَ بِيَ الأَنَاءُ

(٢) هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة التيمي ، أبو محمد المدني ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، مشهور ، استشهد يوم الجمل سنة ستٍّ وثلاثين ،=

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لله درُّ ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذا عندي لا يصحُّ على طلحة ، الله عاصمه منه ، ورُوي أن رجلا من المنافقين قال حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمَّ سَلَمَة بعد أَبي سَلَمَة ، وحفصة بعد خُنَيْس بن حُذَافة . «ما بال محمد يتزوج نساءنا ، والله لو قد مات

=وكان عمره ثلاثاً وستين سنة . (تقريب التهذيب) . هذا وقد ذكر السيوطي الحديث في (الدر المنثور) من طريق ابن مردويه عن ابن عباس ، وقال الحافظ بن حجر في (تخريج الكشاف) : « ورَوى ابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طريق داود عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية ، قال : نزلت في رجل همَّ أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم ... الحديث ، قال السيوطي في (الدر) : قال : سفيان : ذكروا أنها عائشة رضي الله عنها » ا هـ . كلام الحافظ . وقال القشيري أبو نصر عبد الرحمن : « قال ابن عباس : قال رجلٌ من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراء — في نفسه — : لو توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم لتزوجت عائشة ، وهي بنت عمي ، قال مقاتل : هو طلحة بن عبيد الله ، قال ابن عباس : وندم هذا الرجل على ما حدَّث به في نفسه ، فمشى إلى مكة على رجليه ، وحمل على عشرة أفراس في سبيل الله ، وأعتق رقيقاً ، فكفَّر الله عنه » .

هذا مجمل ما روي عن طلحة في هذه القصة ، ولكن ابن عطية رحمه الله ينفيها عنه كما رأينا ، والقرطبي أيضاً يقول بعد أن حكى الخبر عن النحاس : « ولا يصح » ، وقال الإمام أبو العباس : « وقد حُكي هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة ، وحاشاهم عن مثله ، وإنما الكَذِبُ في نقله » ، والآية صريحة في تحريم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على الناس بعد وفاته ، قال الشافعي : « ومن استحل ذلك كان كافراً » .

لأَجلنا السهام على نسائه » ، فنزلت الآية في هذا ، حرَّم الله نكاح أَزواجه بعده ، وجعل لهن حكم الأُمهات ، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب ثم رجعت تزوج عكرمة بن أَبي جهل قيلة بنت الأَشعث بن قيس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوجها ولم يَبْن بها (١) ، فصعب ذلك على أَبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقَلِقَ له ، فقال له عمر رضي الله عنه : مهلًا ، إنها ليست من نسائه ، إنه لم يخيرها ولا أَرخى عليها حجاباً ، وقد أَبانتها منه ردَّتُها مع قومها ، فسكن أَبو بكر رضي الله عنه (٢) ، وذهب عمر إلى أَلَّا يشهد جنازة زينب بنت جحش إلَّا ذو محرم منها مراعاة للحجاب فدلَّته أَسماءُ بنت عميس على سترها في النعش بالقبة ، وأَعلمته أَنها رأَت ذلك في بلاد الحبشة فصَنَعه ، ورُوي أَن ذلك صُنع في جنازة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أي : لم يدخل بها ، يقال : بَنَى الرجل بامرأته وعليها بمعنى : دخل بها .

(٢) قال القرطبي : « أما زوجاته صلى الله عليه وسلم اللاتي فارقهن في حياته مثل الكلبية ، فهل كان يحل لغيره نكاحهن ؟ فيه خلاف ، والصحيح جواز ذلك ، لما رُوي أن الكلبية تزوجها عكرمة بن أبي جهل » ، وقيل : إن الذي تزوجها هو الأشعث بن قيس الكندي — لاحظ اسمها كما نقله ابن عطية — ، وقيل : بل إن الذي تزوجها هو مهاجر بن أبي أُمية . قال القاضي أبو الطيب : « ولم ينكر ذلك أحد ، فدلّ على أنه إجماع » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾ الآية ... وعيدٌ وتوبيخ لمن تقدم التعريض به في الآية قبلها ، ممن أُشير إليه بقوله : ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ ، ومن أُشير إليه في قوله : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ، فقيل لهم في هذه الآية : إن الله يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة ، ويُجازيكم عليها ، ثم ذكر تبارك وتعالى الإباحة فيمن سمَّى من القرابة ؛ إذ لا تقتضي أَحوال البشر إلَّا مداخلة من ذَكَر ، وكثرة ترْداده ، وسلامة نفسه من أَمر الغزل ؛ لما تتحاماه النفوس من ذوات المحارم ، فمن ذلك الآباءُ والأَولاد والإخوة وأَبناؤُهم وأَبناءُ الأَخوات .

قوله تعالى : ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ دخل فيه الأَخوات والأُمهات وسائر القرابات ومن يتصل من المنصرفات لهن ، هذا قول جماعة من أَهل

العلم ، ويؤيد قولَهم هذه الإضافة المخَصِّصة في قوله : [نِسَائِهِنَّ] ، فقال ابن زيد وغيره : إنما أَراد جميع النساءِ المؤمنات ، وتخصيص الإِضافة إنما هي في الإِيمان .

قوله : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ، قالت طائفة : من الإماء دون العبيد ، وقالت طائفة : من العبيد والإماءِ ، ثم اختلفت هذه الطائفة ـ فقالت فرقة : ما مَلَكَتْه من العبيد دون من ملك سواهن ، وقالت فرقة : بل من جميع العبيد ، كان في مِلكهن أَو مِلك غيرهن ، والمُكَاتَب إذا كان عنده ما يؤَدي فقد أَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم نضرب الحجاب دونه ، وفعلت ذلك أُمُّ سَلَمَة مع مُكَاتَبها نبهان ، ذكره الزهراوي .

وقالت فرقة : دخل الأَعمامُ في الآباءِ ، وقال الشعبي ، وعكرمة : لم يذكرهم لإِمكان أَن يصفوا لأَبنائهم ، وكذلك الأَخوال ، وكرهوا أَن تضع المرأَة خمارها عند عمها أَو خالها .

واختلف المتأَولون في المعنى الذي رفع فيه الجُنَاح بهذه الآية ـ فقال قتادة : هو الحجاب ، أَيْ : أُتيح لهذه الأَصناف الدخول على النساءِ دون الحجاب ورؤْيتهن ، وقال مجاهد : ذلك في وضع الجلباب وإبداءِ الزينة .

ولما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف ، وانجزمت الإباحة ، عَطَف فأمرهن بالتقوى عطف جملة ، وهذا في غاية البلاغة والإيجاز ، كأنه قال : اقتصِرْن على هذا واتَّقِين الله فيه أن تتعدَّينه إلى غيره ، ثم توعَّه تبارك وتعالى بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

هذه الآية شرَّف الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذكر منزلته منه ، وظهر بها سوءُ فعل من استصحب في جهته فكرة سُوءٍ في أمر زوجاته ، ونحو ذلك .

وقوله : [يُصَلُّونَ] ، قالت فرقة : الضمير فيه لله وللملائكة ، وهذا قول من الله تعالى شرَّف به ملائكته ، فلا يصحبه الاعتراض الذي جاءَ في قول الخطيب عند النبي صلى الله عليه وسلم : « من أَطاع الله ورسوله رَشَد ، ومن يعصهما فقد ضل » . فقال له رسول الله صلى الله

عليه وسلم : (بئس الخطيب أنت) (١) ، قالوا : لأنه ليس لأحد من البشر أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير واحد ، ولِله أن يفعل من ذلك ما يشاءُ . وقالت فرقة : في الكلام حذف تقديره : إن الله يصلي على النبي وملائكته يصلُّون ، ودلَّ الظاهر من القول على ما تُرِكَ ، وليس في الآية اجتماع في ضمير ، وقالت فرقة : بل جمع الله تعالى الملائكة مع نفسه في ضمير ، وذلك جائز للبشر فعلُه ، ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بئس الخطيب أَنت) لهذا المعنى ، وإنما قاله لأَن الخطيب وقف على «من يعصهما» وسكت سكتة ، ومما يؤيد هذا أَن في كلام النبي صلى الله عليه وسلم في مصنَّف أَبي داود : «فجمع ذكر الله وذكر رسوله في ضمير» ، ومما يؤيد القول الأَول أَن في كتاب مسلم : (بئس الخطيب أَنتَ ، قل : ومن يعص الله ورسوله) ، وهذا يحتمل أَن يكون لمَّا خطَّأَه في وقفه وقال له : (بئس الخطيب أَنت) أَصْلَح له بعد ذلك جميع كلامه ؛ لأَن فصل ضمير اسم الله تعالى من ضمير غيره أَولى لا محالة ، فقال له : (بئس الخطيب أَنت) لموضع

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعة ، والإمام أحمد في مسنده (٤-٢٥٦ ، ٣٧٩) . ولفظه كما في صحيح مسلم ، عن عدي بن حاتم أن رجلا خطب عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوَى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بئس الخطيب أنت ، قل : ومن يعص الله ورسوله) ، قال ابن نمير : فقد غوِيَ .

خطئه في الوقف ، وحمله على الأُولى في فصل الضميرين وإن كان جمعهما جائزاً .

وقراءة الجمهور : [وَمَلَائِكَتَهُ] نصباً عطفاً على المكنون ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما بالرفع عطفاً على الموضع قبل دخول [إنَّ] ، وفي هذا نظر (١) .

وصلاة الله تعالى رحمةٌ منه وبركة ، وصلاة الملائكة دعاءٌ وتعظيم ، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل حين من الواجبات وجوب السُّنَن المؤكَّدة التي لا يصح تركها ، ولا يغفلها إلَّا من لا خير فيه ، وقال عليه الصلاة والسلام : (أَكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة فإنه يوم مشهود) (٢) .

وصِفتُها على ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في كتاب الطبري ، ومن طريق ابن عباس رضي الله عنهما ، أَنه لما نزلت هذه الآية قال له قوم من الصحابة : هذا السلام عليك يا رسول الله عرفناه ، فكيف

(١) ذلك لأن الكوفيين — فيما عدا الفراءَ — هم الذين يجيزون ذلك ، أما الفراءُ فيشترط خفاءَ إعراب اسم (إنَّ) ، وأما البصريون فيقولون : هو على حذف الخبر ، والتقدير هنا : « إن الله يصلي على النبي وملائكتُه يصلون » ، فالنَّظَرُ الذي يشير إليه ابن عطية هو عدم جواز ذلك عند البصريين .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الجنائز .

نصلي عليك ؟ قال : (قولوا : اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلَّيت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وارحم محمداً وآل محمد كما رحمت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد) ، وفي بعض الروايات زيادة ونقص ، وهذا معناه [١] .

وقرأ الحسن : ﴿يَـٰأَيُّها ٱلَّذِينَ آمنُوا فَصَلُّوا عَلَيْهِ﴾ ، وهذه الفاءُ تُقَوِّي معنى الشرط ، أَي : صلَّى اللهُ فصلُّوا أَنتم ، كما تقول : أَعطيتُك فَخُذ ، وفي حرف عبد الله : «صلُّوا عليه كما صلَّى الله عليه وسلِّموا تسليماً» .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية ، قال الجمهور معناهُ : بالكفر ونِسْبة الصاحب والولد والشريك إليه ، ووصفه بما لا يليق به ، وفي الحديث (قال الله : شتمني عبدي فقال : إن لي ولداً ،

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، وأخرج مثله ابن جرير عن يونس بن خباب ، وأخرج أيضاً مثله عن إبراهيم ، ومثله عن عبد الرحمن بن أبي كثير بن أبي مسعود الأنصاري ، وأخرج الحديث أيضاً عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وغيرهم عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، والحديث له صِيغ مختلفة باختلاف الروايات . (راجع الدر المنثور ، وفتح القدير) ، ومن هذا نعرف معنى قول المؤلف : «وفي بعض الروايات زيادة ونقص» .

وكذَّبني فقال : إنه لن يبعث) (١) ، وقال عكرمة : معناه : بالتصوير والتعرُّض لفعل مالا يفعله إلَّا الله بنحت الصُّور وخلقها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لعن الله المصورين) (٢) ، وقالت فرقة : ذلك على حذف مضاف ، تقديره : يؤْذون أَولياءَ الله .

وإذاية الرسول صلى الله عليه وسلم هي بما يؤذيه به من الأَقوال في غير معنى واحد ، ومن الأَفعال أَيضاً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتَّخَذ صفيَّة بنت حُيَي (٣) .

---

(١) أخرج مثله ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في الآية ، قال : ذُكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول فيما يروي عن ربه عزَّ وجلَّ : (شتمني ابن آدم ولم ينبغ له أن يشتمني ، وكذبني ولم ينبغ له أن يكذبني ، فأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، وأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني) . (الدر المنثور) .

(٢) رُوي لَعْنُ (المصوِّر) بالإفراد في حديث أخرجه البخاري في اللباس ، والبيوع ، والطلاق ، وأخرجه أحمد (٤-٣٠٨) ، ولفظه كما في مسنده : (عن عون بن أبي جحيفة قال : رأيت أبي اشترى حجاماً ، فأمر بالمحاجم فكسرت ، قال : فسألته عن ذلك فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ثمن الدم وثمن الكلب وكسب البغي ، ولعن الواشمة والمستوشمة وآكل الربى وموكله ، ولعن المصور) ، وأخرج البخاري في اللباس عن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون) .

(٣) رواه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما ، من طريق عطية العوفي ، وزاد السيوطي في الدر المنثور نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما . ومعنى (اتَّخذ صفية) : اتخذها زوجة له .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والطَّعنُ في تـأْمير أُسامة إذايةٌ له أَيضاً (١) .

وقوله : [لُعِنُوا] معناه : أُبعدوا من كل خير .

وإذاية المؤمنين والمؤمنات هي أَيضاً بالأَفعال والأَقوال القبيحة والبُهتان والكذب الفاحش المختلق ، ورُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال يوماً لأُبيٍّ بن كعب : إنِّي قرأْتُ البارحة هذه الآية ففزعت منها ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية ، والله إنِّي لأَضربهم وأَنهرهم ، فقال له أُبيٌّ : لست منهم يا أَمير المؤمنين ، إنما أَنت مُعَلِّم ومُقَوِّم ، وذكر أَبو حاتم أَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأَ : «إنَّ ٱلذينَ يُؤذونَ ٱلْمؤمنين وٱلْمُؤمنات» ، ثم قال لأُبيّ رضي الله عنه : كيف تقرأُ هذه الآية ؟ فقـــرأَها كما قرأَها عمر رضي الله تعالى عنه .

(١) روي في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثاً وأمَّر عليه أُسامة بن زيد ، فطعن الناسُ في إمرته ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل ، وآيْم الله إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لَـمِن أحب الناس إليّ ، وإن هذا لَـمِن أحب الناس إليّ بعده) . »

وبعث أُسامة هذا كان لغزو قرية اسمُها (ابْنى) قرب مُؤْتة ، وهي المكان الذي قتل فيه أبوه زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذ بثأر أبيه ، وقال الذين طعنوا في إمرته : إنه صغير السنّ (إذ كان في الثامنة عشرة من عمره) ، وإنه من الموالي . ومات النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يخرج أُسامة بالجيش ، فلما تولى أبو بكر رضي الله عنه أنفذ هذا البعث .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾

لما كانت عادة العربيات التبذل في معنى الحجبة ، وكنَّ يكشفن وجوههن كما تفعل الإماءُ ، وكان ذلك داعياً إلى نظر الرجال إليهن وتشعب الفكرة فيهن — أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأمرهن بإدناءِ الجلابيب ليقع تسترهن ، ويَبِين الفرقُ بين الإماءِ والحرائر ، فتعرف الحرائر بسترهن ، فيكف عن معارضتهن من كان غَزِلًا أَو شابًّا .

ورُوي أنه كان في المدينة قوم يجلسون على الصعدات لرؤْية النساءِ ومعارضتهن ومراودتهن ، ونزلت الآية بسبب ذلك .

و «ٱلْجِلْباب» : ثوب أَكبر من الخمار ، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن مسعود رضي الله عنه أَنه الرداءُ . واختلف الناس في صورة إدنائه — فقال ابن عباس ، وعُبيدة السلْماني[1] : ذلك أَن تلويه المرأَة حتى لا يظهر منها إلَّا عين واحدة تبصر بها ، وقال ابن

(١) هو عَبيدة بن عمرو السَّلْماني — بفتح العين من عَبيدة ، وبسكون اللام من السلْماني — ويقال : بفتح اللام من (السَّلَماني) ، أبو عمرو الكوفي ، تابعي كبير ، مخضرم ، ثقة ثَبْت ، كان شريح إذا أشكل عليه شيءٌ سأله ، مات سنة اثنتين وسبعين للهجرة ، أو بعدها ، وقيل : الصحيح أنه مات قبل السبعين (تقريب التهذيب) .

عباس أيضاً ، وقتادة : ذلك أَن تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأَنف وإن ظهرت عيناها ، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ ، أَي : على الجملة بالفرق حتَّى لا يختلطن بالإماءِ ، فإذا عُرِفْن لم يقابلن بـأَدنى من المعارضة مراقبةً لرتبة الحرية ، وليس المعنى أَن تُعرف المرأَة حتَّى تُعلم من هي ، وكان عمر رضي الله عنه إذا رأَى أَمَةً تقنَّعت قنعها الدِّرّة محافظة على زيِّ الحرائر .

وباقي الآية ترْجية ولُطْف وحضٌّ على التوبة وتطميع في رحمة الله ، وفيها تـأْنيس للنساءِ في ترك الجلابيب قَبْل هذا الأَمر المشروع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

اللَّام في [لَئِنْ] هي المؤذنة بمجيءِ الْقَسَم ، واللَّام في [لَنُغْرِيَنَّكَ] هي لام القَسَم ، وتوعَّد الله تبارك وتعالى هذه الأَصناف في هذه الآية ، وقَرَن توعُّده بقرينة متابعتهم في تركهم الانتهاءَ ، فقالت فرقة :

إن هذه الأَصناف لم تنته ، ولم ينفذ الله عليهم هذا الوعيد ، فهذه الآية دليل على بُطلان القول بإنفاذ الوعيد في الآخرة . وقالت فرقة : إن هذه الأَصناف انتهت ، وتستَّر جميعُهم بأَمرهم وكفوا ، وما بقي من أَمرهم أَنفذ الله وعيداً بإزائه ، وهو مثل نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الصَّلاة عليهم ، إلى غير ذلك مما أَحلَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمنافقين : من الإذلال في إخراجهم من المسجد ، وبما نزل فيهم من سورة براءة ، وغير ذلك ، فهم لم يمتثلوا الانتهاءَ جملة ، ولا نفذ عليهم الوعيد كاملًا .

و [ٱلْمُنَافِقُونَ] صنف يظهر الإيمان ولا يبطنه ، ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو الغَزل وحب الزِّنى ، قاله عكرمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾(١) ، ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ هم قومٌ من المنافقين كانوا يتحدثون بغزو العرب المدينة ، وبأَن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيُغلَب ، إلى نحو هذا مما يرجفون به نفوسَ المؤمنين ، فيحتمل أَن تكون هذه الأَصناف متفرقة بعضها من بعض ، ويحتمل أَن تكون داخلة : في جملة المنافقين لكنه نص على هاتين الطائفتين – وقد ضمَّهم عموم لفظة النفاق – تنبيهاً عليهم ، وتشريداً بهم ، وغضًّا منهم .

(١) من الآية (٣٢) من هذه السورة (الأحزاب) .

و « نُغرِيَنَّكَ » معناه : نحضك عليهم بعد تعيينهم لك ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لنُسَلِّطَنَّك عليهم ، وقال قتادة : لنحرسنَّك بهم . وقوله : ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ أي بعد الإغراءِ ؛ لأنك تنفيهم بالإخافة والقتل ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل أن يريد : إلّا جِواراً قليلا ووقتاً قليلًا ، ويحتمل أن يريد : إلّا عدداً قليلًا كأنه قال : إلّا أقِلّاءَ . وقوله : [مَلْعُونِينَ] يجوز أن ينتصب على الذم ، قاله الطبري ، ويجوز أن يكون بدلًا من « أقِلّاءَ » الذي قدرناه قبل في أحد التأويلات(١) ، ويجوز أن يكون حالًا من الضمير في [يُجَاوِرُونَكَ] ، كأنه قال : ينتَفُونَ من المدينة ملعونين ، [فلما تقرر ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ تقدير « يَنْتَفُونَ » حسن هذا](٢) ، واللَّعنة : الإبعاد ، و [ثُقِفُوا] معناه : حُصِرُوا وقُدر عليهم ، و [أُخِذُوا] معناه : أُسِرُوا ، والأَخِيذُ : الأَسير ، ومنه قول العرب : « أَكْذَبُ من الأَخيذِ الصبْحانِ »(٣) ، وقرأ جمهور

---

(١) قال أبو حيان في البحر : « وتجويز ابن عطية أن يكون بدلا ، فالبدل بالمشتق قليل » .

(٢) العبارة بين العلامتين وردت هكذا في الأصول ، وأثبتت في البحر محرَّفة ، والظاهر أن الصواب فيها أن يقال : (فلما تقرر في ﴿لا يُجاوِرُونكَ﴾ تقدير « ينتفون » — حسُن هذا) ، أي كون [مَلْعُونِينَ] حالا من الضمير في [يُجَاوِرُونَكَ] .

(٣) الأخيذ : المأخوذ ، أي : الأسير . والصَّبْحان : المُصْطبح ، وهو الذي شرب الصَّبُوح ، والمرأة : صَبْحَى ، والمراد الأسير الذي أُسر بعد أن شرب لبن الصباح ، وأصل المثل أن رجلاً خرج من حيِّه وقد اصطبح ، فلقيه جيش يريدون قومه ، فأخذوه وسألوه عن =

الناس : [وَقُتِّلُوا] بشد التاء ، ويؤيِّدها المـصدر بعدها ، وقرأت فرقة بتخفيف التاء ، والمصدر ـ على هذه القراءة ـ على غير الصدر ، قال الأعمش : كلُّ ما في ٱلْقرآن غير هذا الموضع فهو «قُتِلُوا» بالتخفيف (١).

وقوله تعالى : ﴿سُنَّةَ ٱللهِ﴾ نصب على المصدر ، ويجوز فيه الإغراءُ على بعد ، و ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾ هم منافقوا الأُمم ، وقوله : ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللهِ تَبْدِيلًا﴾ ، أَي : من غالبٍ يستقر تبديله ، فيخرج عن هذا تبديل العُصاة والكفرة ، ويخرج عنه ما يبدله الله من سُنَّة بِسُنَّة في النسخ .

= الحيِّ ، فقال : إنما بتُّ في القَفْر ولا عهد لي بقومي ، فبينما هم يتنازعون إذْ غلَبه البولُ فبالَ ، فعلموا أنه قد اصطبح ولولا ذلك لم يَبُل ، فطعنه واحد منهم في بطنه فبدره اللبن ، فمضوا غير بعيد فعثروا على الحيِّ ، وقال الفراءُ في مصادره : «أكذب من الأخيذ الصَّبْحان» يعني الفصيل ، يقال : أخذ يأخذ أخذاً ، إذا أكثر شُرْب اللبن ، بأن يتفلَّت على أُمِّه فيمتك لبنها فيأخذه ، أي : يتْخَم منه ، وكذِبُه أن التُّخمة تكسبه جوعاً كاذباً ، فهو لذلك يحرص على اللبن ثانياً .

(١) من ذلك قوله تعالى في الآية (١٦٩) من سورة (الأعراف) : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتاً﴾ ، وقوله في الآية (١٩٥) من نفس السورة: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ ، وقوله في الآية (٥٨) من سورة الحج : ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللهُ﴾ ، وقوله في الآية (٤) من سورة (محمد) : ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة ، متى هو ؟ فلم يُجب في ذلك بشيءٍ ، ونزلت الآية آمرةً أن يَرُدَّ العلم فيها إلى الله ؛ إذ هي من مفاتيح الغيب التي استأْثر الله بعلمها ، ثم توعَّد العالم بقُربها في قوله : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ الآية .. أي : ينبغي أن تحذر ، و [قَرِيباً] لفظة واحدٍ جمعاً وإفراداً ومذكراً ومؤنثاً ، ولو كان صفة لـ [ٱلسَّاعَة] لكان «قريبة» . ثم توعَّد الكافرين بعذاب لا وليَّ لهم فيه ولا ناصر .

وقوله : [يَوْمَ] يجوز أن يكون متعلقاً بما قبله ، والعامل فيه [يَجِدُونَ] ، وهذا تقدير الطبري ، ويجوز أن يكون العامل فيه [يَقُولُونَ] ويكون ظرفاً للقول .

وقرأ الجمهور : ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله ، بضم التاء وشد اللّام المفتوحة ، وقرأ أبو حيوة ﴿تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ بفتح التَّاء ، بمعنى تَتَقَلَّب ، وقرأ ابن أبي عبلة : [تَتَقَلَّبُ] بتاءَيْن ، وقرأ خارجة ، وأبو حيوة : [نُقَلِّبُ] بالنون ، وقرأ عيسى ابن عمر الكوفي [تُقَلِّبُ] بالتاء المضمومة وكسر اللّام ونصب الوجوه ، أيْ تُقَلِّب السعيرُ وجُوهَهُم ، فيومئذ يتمنون الإيمان وطاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم التمنِّي .

ثم لاذوا بالتَّشَكِّي من كبرائهم في أنهم أَضلُّوهم ، وقرأ جمهور الناس : [سَادَتَنَا] ، وهو جمع سيِّد ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وابن عامر وحده ـ من السبعة ـ ، وأبو عبد الرحمن ، وأبو رجاءٍ ، وقتادة ، والعامة في المسجد الجامع بالبصرة : [سَادَاتِنَا] ، على جمع الجمع ، و [ٱلسَّبِيلَا] مفعول ثان ؛ لأَنَّ «أَضَلَّ» مُعَدَّى بالهمزة ، و «ضَلَّ» يتَعدَّى إلى مفعول واحد ، وهي سبيل الإيمان والهُدى ، ثم دعَوْا بأَن يضاعف الله للكُبَراءِ المُضِلِّين العذاب ، أَي : عن أَنفُسِهِم وعمَّن أَضَلُّوا .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحُذَيْفة بن اليمان ، والأَعرج ـ بخلاف

عنه - : ﴿لَعْناً كَبِيراً﴾ بالباءِ ، من الكِبَر ، وقرأ الباقون والجمهور : ﴿لَعْناً كَثِيراً﴾ بالثاءِ ذات الثلاث ، والكَثْرة أَشبه بمعنى اللَّعنة من الكِبَر ، أي : الْعَنْهم مرات كثيرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

الذين آذَوْا موسى هم قوم من بني إسرائيل ، واختلف الناس في الإذاية التي كانت وبرَّأه الله منها - فقالت فرقة : هي قصة قارون وإدخاله المرأة البغي في أن تدَّعي على موسى ، ثم تبرئتها موسى وإشهارها لمداخلة قارون ، وقد تقدمت القصة في ذكر قارون . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هي أن موسى وهارون عليهما السلام خرجا من فحص التِّيهِ (١) إلى جبل ، فمات هارون فيه ، فجاءَ موسى وحده ، فقال قوم :

(١) التِّيه هو المكان الذي ضلَّ فيه موسى عليه السلام وقومه ، وهو أرض بين أَيْلَة (العقبة) ومصر وبحر القلزم (البحر الأحمر) ، وهو الآن وسط شبه جزيرة سيناء . وفَحْص التِّيه هو المكان الذي يُسكن منه ، والفَحْص كلُّ موضع يُسكن ، سهلا كان أو جبلا .

هو قتله ، فبعث الله ملائكة حملوا هارون عليه السلام حتى طافوا به في أسباط بني إسرائيل ، ورأوا آية عظيمة دلَّتهم على صدق موسى عليه السلام ، ولم يكن فيه أثر [القتل][1] ، وروي أنه حيِـيَ فأخبرهم بأمره وببراءة موسى ، وقال ابن عباس ، وأبو هريرة ، وجماعة : هي ما تضمنه حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، قال : (كان بنو إسرائيل يغتسلون عراة ، وكان موسى عليه السلام يتستَّر كثيراً ويُخفي بدنه ، فقال قوم : هو آدَر أَوْ أبرص أو به آفة[2] ، فاغتسل موسى يوماً وحده وجعل ثيابه على حجر ، ففَرَّ الحجر بثيابه واتَّبعه موسى يقول : ثوبي حَجَرُ ، ثوبي حَجَرُ[3] ، فمرَّ في اتِّباعه في ملإٍ من بني إسرائيل فرأوه سليماً مما ظُنَّ به ..) ... الحديث بطوله خرَّجه البخاري[4] ، فبرَّأه الله مما قالوا .

---

(١) كلمة (القتل) زيادة عن كتب التفسير يقتضيها المعنى .

(٢) الأُدْرة (على وزن غُرْفة) : انتفاخ الخصية . والبرَص : بياض يظهر في الجسد لعلَّة ، وهو مرض معروف ، والآفة : كلُّ ما يُصيب شيئاً فيفسده ، من عاهة أو مرض أو قحط ، يقال : آفة العلم النسيان .

(٣) أي : اتْرك ثوبي يا حجر ، اتْرك ثوبي يا حجر .

(٤) هذا الحديث مشهور ، وهو في الصحاح ، أخرجه البخاري ، وأخرجه مسلم بمعناه ، وقد ذكره ابن الجوزي بإسناده في كتابَيْه : « المغنى » و « الحدائق » . وأورده السيوطي في « الدر المنثور » ، وقال : أخرجه عبد الرزاق ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، والترمذي ، =

و «الْوَجِيهُ» : المكرم الوجه ، وقرأ الجمهور : ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ، وقرأ عبد الله بن مسعود : «وكان عبداً لِلهِ» . ثم وصّى الله المؤمنين بالقول السداد ، وذلك يعُمُّ جميع الخيرات ، وقال عكرمة : أراد : «لَا إِلٰه إِلَّا الله» ، والسَّداد يعُمُّ جميع هذا (١) ، وإن كان ظاهر الآية يُعطي أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وجهة المؤمنين ، ثم وعد تعالى بأنه يجازي على القول السَّداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب . وباقي الآية بيِّن .

= وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، من طرق عن أبي هريرة ، وقال ابن كثير في تفسيره بعد أن أورد الحديث : «وهذا سياق حسن مطول» ، وقال : «وهذا الحديث من إفراد البخاري دون مسلم» ، على أن القرطبي قال في تفسيره : «أخرجه البخاري ومسلم بمعناه ، ولفظ مسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كانت بنو إسرائيل يغتسلون ...) الحديث .

وفي الدر المنثور قال السيوطي : «وأخرج البزّار ، وابن الأنباري في المصاحف ، وابن مردويه عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كان موسى رجلا حيِيّاً ، و نه أتى الماء ليغتسل ...) ، وساق مثل الحديث السابق .

(١) يظهر أن في الكلام نقصاً ، وأنه قد سقط من النساخ بعض الجمل ، فقد أورد القرطبي العبارة بمثل ما ذكرها هنا ابن عطية وفيها بعد قوله : وقال عكرمة : أراد : «لا إله إلا الله» ما يأتي : (وقيل : هو الذي يوافق ظاهره باطِنَه ، وقيل : هو ما أُريد به وجه الله دون غيره ، وقيل : هو الإصلاح بين المتشاجرين ، وهو مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض ، والقول السداد يعُمُّ الخيرات ، فهو عام في جميع ما ذكر) ، وإن كان ظاهر الآية ... الخ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

اختلف الناسُ في الأَمانة ـ فقال ابن مسعود رضي الله عنه : هي في أَمانات المال كالودائع ونحوها ، ورُوي عنه أَنه في كل الفرائض ، وأَشدُّها أَمانةُ المال .

وذهبت فرقة هي الجمهور إلى أَنها كل شيءٍ يؤْتمن الإِنسان عليه ، من أَمر ونهي وشأْن دِينٍ وَدُنيا ، فالشرع كله أَمانة ، قال أُبي بن كعب رضي الله عنه : من الأَمانة أَن تؤتمن المرأَة على فرجها ، وقال أَبو الدرداءِ رضي الله عنه : غسل الجنابة أَمانة ، ومعنى الآية : إِنا عرضنا على هذه المخلوقات العظام أَن تحمل الأَوامر والنواهي ، وتقتضي الثواب إِن أَحسنت والعقاب إِن أَساءَت ، فأَبت هذه المخلوقات وأَشفقت .

ويحتمل أَن يكون هذا العَرْض بإِدراك يخلقه الله لها ، ويحتمل أَن يكون هذا العرض على من فيها من الملائكة ، ورُوي أَنها قالت :

ربِّ ذَرْني مسخَّرة لما شئت أَنت ، طائعة فيه ، ولا تَكِلْني إلى نظري وعملي ، ولا أُريد ثواباً . وحَمَلَ الإِنسان الأَمانة : أَي : الْتزم القيام بحقِّها ، وهو في ذلك ظلوم لنفسه ، جهول بقدر ما دخل فيه ، وهذا تأْويل ابن عباس ، وابن جُبير . وقال الحسن : [وَحَمَلَهَا] معناه : خان فيها ، والآية في الكافر والمنافق .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والعصاة على قدرهم .

وقال ابن عباس وأَصحابه ، والضحاك ، وغيره : الإِنسان : آدم ، تحمَّل الأَمانة ، فما تمَّ له يوم حتى عصى المعصية التي أَخرجته من الجنة . ورُوي أن الله تبارك وتعالى قال له : يا آدم ، إنِّي عرضت الأَمانة على السموات والأَرض والجبال فأَبيْنَ أَن يحملنها ، وأَشْفَقْن منها ، أَفتحملها أَنت بما فيها ؟ قال : وما فيها ؟ قال : إن أَحسَنْتَ أُجِرْتَ ، وإن أَسأْتَ عوقبت ، قال : نعم قد حملتها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ، فما مرَّ له ما بين الأُولى والعصر حتى عصى ربَّه .

وقال ابن مسعود ، وابن عباس : الإنسان : ابن آدم ، قابيل الذي قتل أَخاه ، وكان قد تحمَّل لأَبيه أَمانة أَن يحفظ الأَهل بعده ، وكان آدم عليه السلام سافر عنهم إلى مكة في حديث طويل ذكره الطبري وغيره .

وقال بعضهم : الإنسان : النوعُ كله ، وهذا حسن مع عموم الأَمانة .

وقال الزَّجاج : معنى الآية : إنا عرضنا الأَمانة في نواهينا وأَوامرنا على هذه المخلوقات ، فقمن بأَمرها ، وأَطعن فيما كلفناها ، وتأَبَّيْنَ من حمل المذمة في معصيتنا ، وحَمَل الإنسان المذمة فيما كلفناه من أَوامرنا وشرعنا ، والإنسان – على تأْويله – الكافر والعاصي .

وتستقيم هذه الآية مع قوله تعالى : ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(١) ، فعلى التأْويل الأَول الذي حكيناه يكون قوله : ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ إجابةً لأَمر أُمرت به ، وتكون هذه الآية إبايةً وإشفاقاً من أَمر عُرض عليها وخُيِّرت فيه ، رُوي أَن الله عرض الأَمانة على هذه المخلوقات فأَبت ، فلما عرضها الله تبارك وتعالى على آدم عليه السلام قال : أَنا أَحملها بين أُذني وعاتقي ، فقال الله : إنِّي سأُعينك ، وقد جعلت لبصرك حجاباً فأَغلقه عما لا يحلُّ لك ، ولِفَرْجك لباساً فلا تكشفه إلَّا على ما أَحْلَلْتُ لك . ورُوي في هذا المعنى أَشياءُ تركتها اختصاراً لعدم صحتها .

وقال قوم : إن الآية من المجاز ، أَيْ : إنا إذا قايَسْنَا ثِقَل الأَمانة بقوة السموات والأَرض والجبال رأَينا أَنها لا تُطيقها ، وأَنها لو تكلمت لأَبَتْها وأَشفقت ، فعُبِّر عن هذا المعنى بالآية ، وهكذا كما تقول :

---

(١) من الآية (١١) من سورة (فُصِّلت) .

عرضتُ الحِمْل على البعير فأَباه ، وأَنت تريد بذلك : قايَسْتُ قوَّته بثِقَل الحِمْل فرأَيْتُ أَنها تقصر عنه .

قوله تعالى : ﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ﴾ هي لام العاقبة ؛ لأَن الإِنسان لم يحمل ليقع العذاب ، لكن حمل فصار الأَمر وآلَ إِلى أَن يُعَذِّب من نافق أَو أَشرك ، وأَن يتوب على من آمن (١) . وقرأَ الجمهور : [يَتُوبَ] نصباً ، عطفاً على قوله : [لِيُعَذِّبَ] ، ورفعها الحسنُ على القطع والاستئناف (٢) . وباقي الآية بيِّن .

كمل بعون الله وتوفيقه تفسير سورة الأَحزاب

والحمد لله رب العالمين

(١) وقال الزمخشري : هي لام التعليل ، على طريق المجاز ؛ لأن نتيجة حمل الأمانة العذاب ، كما أن (التأديب) في قولك : (ضربتُه للتأديب) نتيجة الضرب .

(٢) وهي أيضاً قراءة الأعمش ، والمعنى فيها جعلُ العلة قاصرة على فعل من حمل الأمانة ، ثم يبتدئُ كلامٌ جديد بقوله : [وَيَتُوبُ] ، أما المعنى على قراءة الجمهور بالنصب فهو : ليُعَذِّبَ اللهُ من حمل الأمانة ، ويتوبَ على غيره ممن لم يحملها ، وهذا المعنى يتفق مع الآراء التي تجعل المراد بالإنسان الكافر أو العاصي ، لكنه لا يتفق مع قول من يرى أن المراد بالإنسان النوع كله .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٣٤) سورة سبأ مكية وآياتها أربع وخمسون

هي مكِّيَّة ، واختُلف في قوله تعالى : ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾ الآية (١) ـ فقالت فرقة : هي مكِّيَّة ، والمراد المؤمنون بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وقالت فرقة : هي مدنية ، والمراد من أسلم بالمدينة من أهل الكتاب كابن سلام وأشباهه (٢) .

---

(١) هي الآية رقم (٦) من السورة .

(٢) وقال قتادة : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنون به كائناً من كان ، وعدد آيات السورة (٥٤) آية ، وقد نزلت بعد سورة (لقمان) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾

الأَلف واللّام في [ٱلْحَمْد] لاستغراق الجنس ، أَي : الحمد على تنوُّعه هو لله تعالى من جميع جهات الفكرة ، ثم جاءَ بالصفات التي تستوجب المحامد ، وهي : مُلْكُه جميع ما في السموات وما في الأَرض ، وعِلْمُه المحيط بكل شيءٍ ، وحكمتُه وخبرته بالأَشياءِ ، إِذْ وجودها إنما هو به جلَّت قدرته ، ورحمتُه بأَنواع خلقه ، وغفرانُه لمن سبق في علمه أَن يغفر له من مؤمن(١) .

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ في ٱلْآخِرَةِ﴾ يحتمل أَن تكون الأَلف واللّام للجنس أَيضاً ، وتكون الآية خبراً أَن الحمد في الآخرة هو له وحده لإِنعامه وأَفضاله وتغمُّده وظهور قدرته وغير ذلك من صفاته ، ويحتمل أَن تكون الأَلف واللّام فيه للعهد والإِشارة إِلى قوله تعالى :

---

(١) في بعض النسخ : « لمن سبق في علمه أن يغفر له في الآخرة » .

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾(١) ، أو إلى قوله : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾(٢) .

و [يَلِجُ] معناه : يدخل ، ومنه قول الشاعر :

رَأَيْتُ ٱلْقَوَافِي يَتَّلِجْنَ مَوَالِجاً ... تَضَايَقُ عَنْهَا أَنْ تَوَلَّجَهَا الإِبَرْ(٣)

---

(١) من الآية (١٠) من سورة (يونس) .

(٢) من الآية (٧٤) من سورة (الزُّمَر) .

(٣) البيت لطرفة بن العبد ، وهو آخر ثلاثة أبيات قالها في حادثة رواها ابن الأعرابي ، قال : كان لطرفة أخ اسمه معبد ، وكان لهما إبل يرعيانها يوماً ويوماً ، فلما أغبَّها طرفة — أي ترك سقيها — قال له أخوه : لم لا تسرّيح في إبلك ؟ ترى أنها لو أُخذت تردُّها بشعرك هذا ؟ قال : فإني لا أخرج فيها أبداً حتى تعلم أن شعري سيردُّها إن أُخذت ، فتركها وأخذها أُناس في مضر ، فادَّعى جوار عمرو ، وقابوس ، ورجل من اليمن يقال له : بشر بن قيس ، فأنشد في ذلك :

أَعَمْرَو بنَ هنْدٍ ما تَرَى رأيَ صِرْمَةٍ ... لهَا سَبَبٌ تَرْعَى بهِ الماءَ والشَّجَرْ ؟

وكان لها جاران ، قابوس منهمـــا ... وعمرٌو ولمْ أَستَرْعِهَا الشمسَ والقَمَرْ

رأيْتُ القَوافي يَتَّلِجْنَ مَوالِجاً ... تَضَيَّقُ عنها أنْ تَوَلَّجَهَا الإِبَـرْ

والبيت في (اللسان — وَلَجَ) غير منسوب ، وفي (فرائد القلائد في شرح مختصر الشواهد) للعيني . والقوافي : جمع قافية ، وأراد بها هنا القصائد ؛ لأن القصيدة تشتمل على القافية ، أو لأن القافية من أبرز خصائص القصيدة . و (يَتَّلِجْنَ) : يدخلن ، وأصلها : (يَوْتَلِجن) ؛ لأنها من (وَلَجَ) ، والموالج : جمع مولج ، وهو موضع الولوج ، والإبَر : جمع إبْرَة ، وهي آلة الخياطة ، يقول طرفة : إن قصائد الشعر تبلغ من التأثير في النفوس مواضع بعيدة عميقة ، لا تصل إليها أسنة الإبر إذا طعن بها المهجوّ ، وكأنه يعني أن الإبر تصيب الأبدان ، وأن القصائد تؤثر في النفوس ، وجراحات النفوس أعمق وأبقى أثراً من جراحات الأبدان ، « والقول ينفذ مالا تنفذ الإبرُ » .

و [يَعْرُجُ] معناه : يصعد . وهذه الرُّتب حصرت كلَّ ما يصح عمله من شخص أو قول أو معنى ، وقرأ أبو عبد الرحمن : ﴿وَمَا يُنَزَّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ بضم الياء وفتح النُّون وشدّ الزاي .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

رُوي أن قائل هذه المقالة هو أبو سفيان بن حرب ، قال : «واللَّات والعزَّى ما ثَمَّ ساعة تأْتي ، ولا قيامة ولا حشر» . فأَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أَن يُقْسم بربِّه مقابلة لِقَسَم أَبي سفيان ، قيل : ردًّا وتكذيباً وإِيجاباً لما نفاه ، وأَجاز نافع الوقف على [بَلَى] ، وقرأَ الجمهور : [لَتَأْتِيَنَّكُمْ] بالتَّاءِ من فوق ، وحكى أَبو حاتم قراءَة : [لَيَأْتِيَنَّكُمْ] بالياءِ على المعنى في البعث .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي - بخلاف عنه - : [عَالِمِ] بالخفض على البدل من [رَبِّي] ، وقرأ نافع ، وابن عامر : [عَالِمُ] بالرفع على القطع ، أي : هو عالمُ ، ويصح أن يكون [عَالِمُ] رفع بالابتداءِ ، وخبره ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ وما بعده ، ويكون الإخبارُ بأن «الْعَالِمَ» لا يعزب عنه شيءٌ إشارةً إلى أنه قدَّر وقتها وعَلِمَهُ ، والوجه الأَول أَقرب . وقرأَ حمزة ، والكسائي : [عَلَّامِ] على المبالغة مخفوضاً على البدل(١) . و [يَعْزُبُ] معناه : يغيب ويبعد ، وبه فسَّر مجاهد وقتادة . وقرأَ جمهور القراءِ بضم الزَّاي ، وخفضها الكسائي ، وابن وثاب ، وهما لغتان . و ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ معناه : مقدار تثاقلها ، وهذا في الأَجرام بيِّن ، وفي المعاني بالمقايسة . وقرأَ الجمهور : ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ بالرفع عطفاً على قوله : [مِثْقَالُ] ، وقرأَ نافع ، والأَعمش ، وقتادة : [أَصْغَرَ] ، وَ [أَكْبَرَ] بالنصب عطفاً على [ذَرَّة] ، ورُويت عن أَبي عمرو(٢) ، وفي قوله : ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ضمير

(١) وأجاز أبو البقاءِ أن تكون [عَالِم] صفة ، قال أبو حيان : «ويعني أن ﴿عَالِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ يجوز أن يتعرف ، وكذا كلٌّ ما أُضيف إلى معرفة مما كان لا يتعرف بذلك ، يجوز أن يتعرف بالإضافة إلا الصفة المشبهة فلا تتعرف بإضافة ، ذكر ذلك سيبويه في كتابه ، وقلَّ من يعرفه» .

(٢) علَّق أبو حيان على ذلك بقوله : «ولا يتعيَّن ما قال ، بل تكون (لا) لنفي الجنس ، وهو مبتدأٌ ، أعني مجموع (لا) وما بني معها على مذهب سيبويه ، والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ، وهو من عطف الجُمل لا من عطف المفردات كما قال ابن عطية .

تقديره : إلَّا هو في كتاب مبين ، و «الْكِتاب الْمُبِينُ» هو اللوح المحفوظ.

واللَّام في قوله : [لِيَجْزِيَ] يصح أَن تكون متعلِّقة بقوله : [لَتَأْتِيَنَّكُمْ] ، ويصح أَن تكون متعلِّقة بقوله : [لَا يَعْزُبُ] ، ويصحُّ أَن تكون متعلِّقة بما في قوله : ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ من معنى الفعل ؛ لأَن المعنى : إلَّا أَثْبَتَهُ في كتاب مبين . و «الْمَغْفِرَة» تغمُّد الذنوب ، و «الرِّزْقُ الكريم» الجنَّـــــة .

قوله : [وَٱلَّذِينَ] معطوف على [ٱلَّذِينَ] الأُولى ، أَي : وليجزي الذين سَعَوْا ، و [مُعَاجِزِينَ] معناه : محاولين تعجيز قدرة الله فيهم . وقرأَ الجحدري ، وابن كثير ، وأَبو عمرو : [مُعَجِّزِينَ] دون أَلف[١] ، أَي : معجزين قدرة الله تبارك وتعالى بزعمهم . وقال ابن الزُّبير : معناه : مُثَبِّطين عن الإِيمان من أَراده ، مدخلين عليه العجز في نشاطه ، وهذا هو سعيهم في الآيات ، أَي : في شأْن الآيات . ثم بيَّن تعالى جزاءَ هؤلاءِ الساعين ، كما بيَّن قبل جزاءَ المؤمنين .

---

(١) لم يضبط المؤلف قراءة الجحدري وابن كثير وأبي عمرو ، وقد ضبطناه بالتشديد اعتماداً على قول صاحب «البحر المحيط» : «وقرأ الجمهور : [مُعْجِزِينَ] مخففاً ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، والجحدري ، وأبو السماك مثقلا» .

وقرأ عاصم - في رواية حفص - : [أَلِيمٌ] بالرفع على النَّعت ، والباقون بالكسر على نعت «الرِّجْزِ» ، و «الرِّجْزُ» هو العذاب السَّيِّئُ جداً ، وقرأ ابن محيصن : [رُجْزٍ] بضم الرَّاءِ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ ﴾

قال الطبريُّ والثعلبي وغيرهما : [يَرَى] معطوف على ما قبله من الأَفعال ، والظاهر أَنه مُسْتأْنف ، وأَن الواو إنما عطفت جملة على جملة ، وكأَن المعنى الإِخبارُ بأَن أَهل العلم يروْن الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم حقًّا وأَنه يهدي إلى صراطٍ مستقيم .

وقوله : ﴿ ٱلَّذي أُنْزِلَ ﴾ مفعول بـ [يَرَى] ، و [ٱلْحَقَّ] مفعول ثانٍ ، و [هُوَ] عماد . و ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ﴾ قيل : هم مَن أَسلم من أَهل

الكتاب ، وقال قتادة : هم أُمة محمد عليه الصلاة والسلام المؤمنون به كائناً من كان ، و [يَهْدِي] معناه : يُرْشد ، و «ٱلصِّرَاطُ ٱلْمُسْتَقِيمُ» الطريق المعتدل ، وأراد طريق الشَّرع والدين .

ثم حكى عن الكفَّار مقالتهم التي قالوها على جهة التَّعجُّب والهُزْء ، أي : قالها بعضهم لبعض ، كما يقول الرجل لمن يريد أن يُعجِّبه : هل أَدُلك على أُضحوكة نادرة ؟ فلما كان البعث عندهم من البعيد المحال جعلوا من يُخْبر بوقوعه في حيِّز من يُتعجَّب منه ، والعامل في [إِذَا] فعل مضمر قبلها فيما قال بعض النَّاس ، تقديره : يُنَبِّئُكُم بأَنَّكم تُبعثون إذا مُزِّقتم ، ويصح أن يكون العامل ما في قوله : ﴿إِنَّكُمْ لَفِـي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ من معنى الفعل ؛ لأَن تقدير الكلام : يُنَبِّئُكُم إنكم لفي خلقٍ جديد إذا مُزِّقتم . وقال الزَّجَّاج : العامل في [إِذَا] هو [مُزِّقْتُمْ] وهو خطأٌ وإفساد للمعنى المقصود(١) ، ولا يجوز أَن يكون

(١) عقَّب أبو حيان الأندلسي على ذلك بقوله في «البحر المحيط» : «وليس بخطإٍ ولا إفساد للمعنى ، وإذا الشرطية مختلف في العامل فيها ، وقد بيَّنا ما كتبناه في شرح التسهيل أن الصحيح أن يعمل فيها فعلُ الشرط كسائر أدوات الشرط ، والجملة الشرطية يحتمل أن تكون معمولة لـ[يُنَبِّئُكُمْ] لأنه في معنى : يقول لكم إذا مُزِّقتم كل مُمَزَّق : تبعثون ، ثم أكَّد ذلك بقوله : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ، ويحتمل أن يكون : ﴿إِنَّكُمْ لَفِي=

العامل [يُنَبِّئُكُمْ] بوجه ، و [مُزِّقْتُمْ] معناه : بِالْبِلَى وتَقَطُّع الأَوصال في القبــــور وغيرها . وكُسر الأَلف من [إِنَّكُــمْ] لأَن [يُنَبِّئُكُــمْ] في معنى : يقول لكم ، ولمكان الــلَّام التي في الخبر . و [جَدِيد] بمعنى: مُجَــدَّد .

وقولهم : « أَفْتَرَى » هو من قول بعضهم لبعض ، وهي أَلف الاستفهام دخلت على أَلف الوصل ، فحذف أَلف الوصل ، وبقيت مفتوحة غير ممدودة ، فكأَن بعضهم استفهم بعضاً عن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أَحالُ الفِرْية على الله هي حالُه أَمْ حالُ الجنون ؟ لأَن هذا القول إنما يصدر عن أَحد هذين . فأَضرب القرآن عن قولهم وكذَّبه ، فكأَنه قال : ليس الأَمر كما قالوا ، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ ، والإِشارة بذلك إليهم ، ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾ ، يريد : عذاب الآخرة ؛ لأَنهم يصيرون إليه ، ويحتمل أَن يريد : في العذاب في الدنيا بمكابدة الشَّرع ومكايدته ، ومحاولة إطفاءِ نور الله وهو يتِمُّ ، وهذا كله عذاب ،

= خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ معمولاً لِـ [يُنَبِّئُكُمْ] ، ولولا اللام في خبر [إنَّ] لكانت مفتوحة ؛ فالجملة سدَّت مسَدَّ المفعولين ، والجملة الشرطية ـ على هذا التقدير ـ اعتراض » ا. هـ. وفي هذا الكلام نقضٌ لقول ابن عطية بعد ذلك : « ولا يجوز أن يكون العامل [يُنَبِّئُكُمْ] بوجه » .

وفي الضلال البعيد ، أَي : قَوِيت الحَيْرةُ وتمكَّنَ التَّلَفُ لأَنه قد أَبعد صاحبه عن الطريق الذي ضلَّ منه (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

الضمير في [يَرَوْا] لهؤلاءِ الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وقفهم الله على قدرته ، وخوَّفهم من إحاطتها بهم ، المعنى : أَليس يرون أَمامهم ووراءَهم سمائي وأَرضي ، لا سبيل لهم عن فقد ذلك عن أَبصارهم ، ولا عدم إحاطته بهم .

---

(١) يريد أن يقول : إن الضلال يُقَوِّي حيرة صاحبه ويُمَكِّن التلف منه لأنه أبعده عن طريق الصواب ، ولهذا سمي بعيداً ، والعبارة قلقة .

وقرأ الجمهور : ﴿إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ﴾ ، ﴿أَوْ نُسْقِطْ﴾ بالنون في الثلاثة ، وقرأ حمزة ، والكسائي بالياء فيهن ، وهي قراءة ابن وثّاب ، وابن مصرِّف ، والأعمش ، وعيسى ، واختارها أبو عبيد . و «خَسْفُ الأَرض» هو إهْوَاؤُها بهم وتهوُّرها وغرقهم فيها ، و «الكِسَفُ» قيل : هو مفردٌ اسم القطعة ، وقيل : هو جمع كَسْفَة ، على مثال تَمْرَة وتَمْرٍ ، ومشهور جمعها كِسَفٌ كسِدْرَة وسِدَر (١) .

وأدغم الكسائي الفاءَ في الباءِ في قوله تعالى : ﴿نَخْسِفْ بِهِمْ﴾ ، قال أبو علي : وذلك لا يجوز ؛ لأَن الباءَ أَضعف في الصوت من الفاءِ فلا تدغم فيها ، وإن كانت الباءُ تدغم في الفاءِ في قولك : «اضرب فلاناً» ، وهذا كما تدغم الباءَ في الميم في قولك : «اضرب مُّحمداً» ، ولا تدغم الميم في الباءِ في قولك : «أَصمم بك» ؛ لأَن الباءَ انْحطت عن الميم بفعل الغُنَّة التي في الميم(٢) .

---

(١) في (اللسان — كَسَف) : «كِسْفُ السَّحاب وكِسَفُه : قِطَعُه» ، وفيه : «وقال الزجاج : قُرِئَ : ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ و [كِسْفاً] ، فمن قرأ : [كِسَفاً] جعلها جمع كِسْفَة ، وهي القطعة ، ومن قرأ : [كِسْفاً] جعله واحداً» .

(٢) وقال الزمخشري : «وقرأ الكسائي : ﴿نَخْسِف بِهِمْ﴾ بالإدغام ، وليست بقوية» ا. هـ. وعلَّق أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط على كلام أبي علي المذكور هنا ، وعلى كلام الزمخشري فقال : «والقراءَة سُنَّة مُتَّبعة ، ويوجد فيها الفصيح والأفصح ، وكل ذلك من تيسيره تعالى القرآن للذكر ، فلا التفات لقول أبي عليٍّ ولا الزمخشري» .

والإشارة بقوله : ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى إحاطة السماءِ بالمرءِ ، ومماسَّة الأَرض له على كل حال . و «الْمُنِيبُ» : الرَّاجع .

ثم ذكر تعالى نعمته على داود وسليمان عليهما السلام احتجاجاً على ما منح محمداً صلى الله عليه وسلم ، أَي: لا تستبعدوا هذا فقد تفضَّلنا على عبيدنا قديماً بكذا ، فلما فرغ التمثيل بمحمد[1] عليه الصلاة والسلام رجع التمثيل لهم بسَبَإٍ وما كان من هلاكهم بالكفر والعُتُوِّ ، والمعنى : قلنا : يا جبال ، و [أَوِّبي] معناه : رجِّعي معه ؛ لأَنه مضاعف آب يؤُوب ، فقال ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم : معناه : سبِّحي معه ، أَي : يُسبِّح هو وترجِّع هي معه التَّسبيح ، أَي : تردُّ بالذكر ، ثم ضوعف الفعل للمبالغة ، وقيل : معناه : سيري معه ؛ لأَن التأْويب سيْر النهار ، كأَن الإِنسان يسير باللَّيل ثم يرجِّع السير بالنهار ، أَي يُردِّده ، فكأَنه يُؤَوِّبه ، فقيل له : التأْويب ، ومنه قول الشاعر :

يَوْمَانِ يَوْمُ مُقَامَاتٍ وأَنْدِيَـــةٍ ويَوْمُ سيْرٍ إلى الأَعداءِ تأْويبُ[2]

---

(١) في بعض النسخ : «فلما فرغ التمثيل لمحمد ...» .

(٢) هذا البيت لسلامة بن جندل السَّعْدي ، وهو من فرسان العرب المعدودين ، وكان من أحسن من وصف الخيل ، والبيت من قصيدة له يأسف فيها على شبابه ، ثم يفخر بجوده وبجود قبيلته ، وبما أظهره من الشجاعة في الحرب ، وقوله : يومان ، أي : لِبَنِي سعد ، =

ومنه قول ابن مقبل :

لَحِقْنَا بِحَيٍّ أَوَّبوا السَّيْرَ بَعْدَمَا دَفَعْنَا شُعَاعَ الشَّمْسِ والطَّرْفُ يَجْنَحُ (١)

وقال مؤرج : [أَوِّبي] : سبِّحي بلغة الحبشة ، وهذا ضعيف غير معروف ، وقال وهب بن مُنَبِّه : المعنى : نوحي معه والطير تساعدك على ذلك ، قال : فكان داود عليه السلام إذا نادي بالنِّياحة والحنين أَجابته الجبال وعكفت الطير عليه من فوقه ، قال : فمن حينئذ سُمع صدى الجبال ، وقرأ الحسن ، وقتادة ، وابن أَبي إسحق : [أُوبِي] بضم الهمزة وسكون الواو ، أَي : ارجعي معه ، أَي في السير أَو في التسبيح ،

= ومُقامات : جمع مُقامة — بالضم — وهي الإقامة ، أو — بالفتح — وهي المجلس ، والأندية : الأفنية ، والنَّدِيُّ والنادي سواءٌ ، وهو ما حول الدار وإن لم يكن مجلساً ، يريد بالمقامات والأندية مواقف الخطابة ونحوها ، والتأويب : سير اليوم كله إلى الليل ، يقال : أوَّب القوم تأويباً ، أي : ساروا النهار كله . والبيت في (مجاز القرآن) لأبي عبيدة ، وفي (اللسان — أوب) ، وعلَّق عليه بقوله : والتأويب سير النهار كله إلى الليل ، والقصيدة التي منها هذا البيت رقمها (٢٢) في المفضليات ، ومطلعها :

أَوْدَى الشَّبَابُ حَمِيداً ذُو التَّعَاجِيبِ أَوْدَى وذلِك شأوٌ غَيْرُ مَطْلُوبِ

(١) ابن مُقبل اسمُه : تميم ، وهو من بني العجلان ، شاعر جاهلي إسلامي ، بلغ مائةً وعشرين سنة ، ويُروى : (رَفَعْنا) بدلا من (دفعنا) ، وفي بعض النسخ (مُجَنْح) بدلا من (يَجْنَح) ، والجنوح هو الميل ، يقال : جنحت الشمس للغروب ، أي : مالت ، وجَنَح الليلُ ، أي : للذهاب أو المجيء ، والشاهد أن (أوَّب) بمعنى سار النهار كله إلى الليل كالبيت الذي قبله .

وأمر الجبال كما تؤمر الواحدة المؤنثة لأن جميع مالا يعقل كذلك يُؤْمر ، وكذلك يكنى عنه ويوصف ، ومنه المثل «يا خيل الله اركبي »(١) ، ومنه ﴿مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (٢) ، وهذا كثير .

وقرأ الأعرج ، وعاصم - بخلاف - وجماعةٌ من أهل المدينة : [وَٱلطَّيْرُ] بالرفع عطفاً على لفظ قوله : ﴿يَا جِبَالُ﴾ ، وقرأ نافع ، وابن كثير ، والحسن ، وابن أبي إسحق ، وأبو جعفر : [وَٱلطَّيْرَ] بالنصب - فقيل : ذلك عطف على [فَضْلًا] ، وهو مذهب الكسائي ، وقال سيبويه : هو على موضع قوله : ﴿يَا جِبَالُ﴾ ؛ لأن موضع المنادي المفرد نصب ، وقال أبو عمرو : نَصْبُهَا بإضمار فعل تقديره : وسخَّرنا الطيرَ . وقوله : ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ معناه : جعلناه لَيِّناً ، وروى قتادة أن الحديد كان له كالشمع لا يحتاج في عمله إلى نار ، وقيل : أعطاهُ قُوَّةً يَثْني بها الحديد ، ورُوي أنه لقي مَلَكاً - وداود

(١) قال ابن الأثير في كتابه (النِّهاية في غريب الحديث والأثر - خيَل) : «وفي الحديث (يا خيل الله اركبي) ، وهذا على حذف مضاف ، وأراد : يا فُرسان خيل الله اركبي ، وهذا من أحسن المجازات وألطفها» .

(٢) من الآية (١٨) من سورة (طه) ، وهي قوله تعالى : ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ .

عليه السلام يظنه إنساناً ـ وداودُ متنكِّر خرج ليسأَل الناسَ عن نفسه في خفاءٍ ، فقال داود لذلك الشخص الذي تمثَّل فيه الملَك : ما قولك في هذا الملِك داود ؟ فقال له الملَك : نِعْمَ العبد لولا خلَّة فيه ، فقال داود : وما هي ؟ قال : يرتزق من بيت المال ، ولو أكل من عمل يده لَتَمَّت فضائله ، فرجع فدعا الله في أن يعلِّمه صنعة ويُسَهِّلها عليه ، فعلَّمه صنعة اللبوس ، وألان له الحديد ، فكان ـ فيما رُوي ـ يصنع فيما بين يومه وليلته دِرْعاً تُساوي ألف درهم ، حتى ادَّخر منها كثيراً وتوسَّعت معيشته ، وكان ينفق بيت المال في مصالح المسلمين .

وقوله تعالى : ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ ، قيل : إنَّ [أَنْ] مفسِّرةٌ لا موضع لها من الإعراب (١)، وقيل : هي في موضع نصب بإسقاط حرف الجرِّ ، و «السَّابغاتُ» : الدروع الكاسيات ذوات القفول ، قال قتادة : داود عليه السلام أول من صنعها ، ودرع الحديد مؤنثة ، ودرع المرأة مذكَّر .

---

(١) هذا قول الحوفي ، ذكر ذلك أبو حيان في البحر المحيط ، ثم عقَّب عليه بقوله : «ولا يصحُّ ؛ لأن من شرطها أن يتقدمها معنى القول ، وليس في الكلام هذا ، وقدر بعضهم قبلها فعلاً محذوفاً يحمل معنى القول حتى يصح أن تكون مفسِّرة ، وتقديره : وأمَرْناه أن اعْمل ، ولا ضرورة تدعو إلى هذا المحذوف» . اهـ . بتصرف .

قوله تعالى : ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ . اختلف المتأولون ، في أيِّ شيءٍ هو التقدير من أشياءِ السَّرْد ؟ إذ السَّرْد هو إتْباع الشيءِ بالشيءِ من جنسه ، قال الشماخ :

. . . . كَمَا تَابَعتْ سَرْدَ ٱلعِنَانِ الْخَوَارِزُ (١)

ومنه : سَرَدَ الحديثَ (٢) ، وقيل للدرع : مسرودة لأنها تُوبعت فيها الحلق بالحلق ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) هذا عجز بيت ، وهو بتمامه كما في (جمهرة أشعار العرب) :

رَكِبْنَ الذُّنَابَى فاتَّبَعْنَ بهِ ٱلْهَوَى كما تَابَعَت سَرْدَ العِنَانِ ٱلْخَوَارِزُ

وقيل : بل الشطر الأول هو : (فَظَلَّتْ تِباعاً خَيْلُنَا في بُيُوتِكُمْ) ، وهذه رواية القرطبي في تفسيره ، وفي الديوان روى الشطر الأول هكذا : (شَكَكْنَ بأحْشَاءِ الذُّنَابَى عَلَى هُــدًى) .

هذا والشَّماخ لقب للشاعر ، واسمهُ معقل بن ضرار ، وهو أرجز الناس على بديهة ، والبيت من قصيدة له قال عنها الأصمعي : « ما قيلت قصيدة على الزاي أجود من قصيدة الشماخ في وصف القوس ، ولو طالت قصيدة المتنخِّل كانت أجود » . وهو يقصد أبياتاً قالها المتنخل أيضاً على الزاي ، ومعنى (رَكِبْنَ الذُّنَابَى) : فررن ، واتَّبَعْنَ به الهوى : أيْ هوى الحمار الوحشي ، والخوارز : جمع خارز ، من قولهم : خَرَزَ الجِلْدَ ، أي ثَقَبه بالمخرز وخاطه ، والشاهد أن السَّرْد هو : إتْباع الشيءِ بالشيء من جنسه كما قال المؤلف ، وقد رُوي البيت في الجمهرة : (كما تَابَعَتْ شَدَّ العِنَانِ) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه .

(٢) في (اللسان — سَرَدَ) : « سَرَدَ الحديثَ ونحوه سرداً : إذا تابعه ، وفي صفة كلامه صلى الله عليه وسلم : (لم يكن يسرد الحديث سرْداً) أي : يُتَابعه ويستعجل فيه .

وَعَلَيْهِمَا مَسْرودَتَانِ قَضَاهُمَا ... داوُدُ أَوْ صَنعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ (١)

وقول دُرَيْد :

. . . . فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ (٢)

---

(١) البيت لأبي ذُؤَيْب الهُذَلِيّ ، وهو من قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها :

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوَجَّعُ ... والدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

ورواية الديوان في (أشعار الهذليين) : (وَعَلَيْهِمَا ماذِيَّتَانِ) ، وفي رواية الأصمعي (وَتَعَاوَرَا مَسْرُودَتَيْنِ) ، والسَّرْدُ : الخَرْزُ في الأديم ، والمِسْرَدُ : ما يُخْرَزُ به ، ويقال للدرع : مسرودة لأنها مخروزة ومنظومة . وقضاهما : فرغ من عملهما ، والصَّنَع : الحاذق بالعمل ، والمراد به هنا تُبَّع . يقال : رجلٌ صَنَعٌ وامرأةٌ صَنَاعٌ ، قال الأصمعي : سمع الشاعر بأن داود عليه السلام كان سُخِّر له الحديد فكان يصنع منه ما أراد ، وسمع بأن تُبَّعاً عَمِلَهما فقال : عَمِلهما ، والحقيقة أنه أمر بالسوابغ أن تعمل ، وتُبَّع أعظم من أن يصنع بيده .

(٢) هذا جزء من بيت قاله دُرَيْد بن الصِّمة من قصيدة طويلة يرثي بها أخاه رثاءً إنسانياً عميقاً ، والبيت بتمامه مع بيت قبله :

وقلتُ لعَرَّاضٍ وأَصْحابِ عارِضٍ ... ورَهْطِ بَنِي السَّوْدَاءِ والقَوْمُ شُهَّدِي

عَلانِيَةً : ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ ... سَرَاتُهُمُ في الفَارِسِيِّ المُسَرَّدِ

وعارض هو أخو دريد ، والقوم شُهَّدي : شهودى على ما قلته ، وعلانيةً : جهراً أمام الجميع ، وظُنُّوا : أَيْقنُوا ، والمُدَجَّج : التّام السلاح ، وسَرَاتُهُم : أشرافُهم ورؤساؤهم ، والفارسيُّ : دِرْعٌ من بلاد فارس ، والمُسَرَّد : المحكم النسج أو الدقيق الصنع المتتابع الحلقات . والمعنى : لقد نصحت عارضاً وأصحابه وجماعةً من بني السوداء ، ونهيتهم في مشهد من القوم ، وكان حديثي لهم علانية وجهراً ، وقلت لهم : إن ألفَيْ مقاتل يتربصون بكم ، وأشرافهم مُدجَّجون =

قال ابن زيد : التقدير الذي أُمِر به هو في قدْر الحلقة ، أي : لا تعملها صغيرة فتضعف حتى لا تقوى الدرع على الدفاع ، ولا كبيرة فَيُنَالُ لابسها من خلالها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : التقدير الذي أُمر به هو في المسمار ، يريد : قدِّر المسامير والحلق ، حتى لا تدق[1] المسامير فتسلس ، ويروى : فَيُسَلْسِل ، ولا تغلظه فينقصم ، بالقاف ـ وبالفاءِ أيضاً رواية ـ ، وروى قتادة أن الدروع كانت قبله صفائح فكانت ثقالاً ، فلذلك أُمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفَّة والحصانة ، أَي : قدِّر ما يأْخذ من هذين المعينين بقسطه ، أي : لا يقصد الحصانة فيثقل ، ولا الخفة وحدها فيزيل المنعة .

قوله : ﴿وَٱعْمَلُوا صَالِحاً﴾ ، لمَّا كان الأَمر لداود وآله حُكِي وإن كان لم يَجْرِ لهم ذكر لدلالة المعنى عليهم ، ثم توعَّدهم بقوله : ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ، أي : لا يخفى عليَّ حَسَنُه من قبيحه ، وبحسب ذلك يكون جزائي لكم .

= ومُحَصَّنُون بالدروع الفارسية المحكمة الصنع . ثم يصرخ بعد هذين البيتين ببيته الرائع الذي جرى بعد ذلك مجرى الأمثال :

أَمَرْتُهُمُ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ ٱللِّوَى فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إلا ضُحَى الغَدِ

(١) في بعض النسخ : (تَرِقّ) بالراء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾

قال الحسن : عقر سليمان عليه السلام الخيلَ أَسفاً على ما فوَّتته من وقت صلاة العصر ، فأَبدله الله خيراً منها وأَسرع ، الريح بـأَمره(١) ، وقرأَ الجمهور : [ٱلرِّيحَ] بالنصب على معنى : ولسليمان سخَّرنا الريح ، وقرأَ عاصمٌ ـ في رواية أَبي بكر ـ والأَعرجُ : [ٱلرِّيحُ] بالرفع على تقدير : تسخَّرت الريحُ ، أَو على الابتداءِ ، والخبر في المجرور ، وذلك على حذف مضاف تقديره : ولسليمان تسخير الريح . وقرأَ الحسن : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيَاحُ﴾ ، وكذلك جَمَع في كل القرآن .

قوله تعالى : ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ ، قال قتادة : إِنها كانت تقطع به في الغُدُوِّ إلى قرب الزَّوال مسيرة شهر ، وتقطع به في الرَّواح من بعد الزَّوال إلى الغروب مسيرة شهر ، ورُوي عن الحسن البصري أَنه قال : كان يخرج من الشام من مُسْتَقَرِّه بتدمر التي بنتها له الجن بالصفاح والعمد فَيَقيل في اصطخر ، ويروح منها فَيَبيت في كابل

(١) في بعض النسخ : « الريح يأمُره » .

من أَرض خراسان ، ونحو هذا ، وكانت الأَعاصير تُقِل بساطه وتحمله بعد ذلك الرُّخاءُ ، وكان هذا البساط يحمل - فيما رُوي - أَربعة آلاف فارس وما يشبهها من الرجال والعُدد ويتسع لهم ، ورُوي أَكثر من هذا بكثير ، ولكن عدم صحته مع بُعْد شبهه أَوجب اختصاره ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (خير الجيوش أَربعة آلاف)(١) ، وما كان سليمان ليعدو الخير .

وقرأَ ابن أَبي عبلة : «غَدْوَتُها شَهْرٌ وَرَوْحَتُها شَهْرٌ»(٢) ، وكان سليمان عليه السلام إِذا أَراد قوماً لم يُشْعَر به حتى يُظِلَّهم في جوِّ السماءِ .

قوله تعالى : ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ ، رُوي عن ابن عباس ، وقتادة أَنه كان يسيل له باليمن عين جارية من نحاس يُصنع له منها جميع ما أَحب ، والقِطْر : النُّحاس ، وقالت فرقة : القِطْر : الفِلِزُّ كله ، النحاسُ والحديد وما جرى مجراه ، كانت تسيل له منه عيون ، وقالت فرقة : بل معنى ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ : أَذَبْنَا له النحاس ، على نحو ما كان الحديد يلين لداود ، قالوا : وكانت الأَعمال تتأَتّى منه لسليمان وهو بارد دون نار ، و [عَيْن] - على هذا

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد ، وكذلك ابن ماجه ، وأخرجه الدارمي في السِّيَر ، ولفظه كما في سُنَن الدارمي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خير الأصحاب أربعة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ، وخير السرايا أربعمائة ، وما بلغ اثنا عشر ألفاً فصبرُوا وصدقوا فَغُلِبوا من قِلَّة) .

(٢) على وزن (فَعْلَة) ، وهي المرة الواحدة من : (غدا) و (راح) .

التأْويل ـ بمعنى المذاب ، وقالوا : لم يَلِن النحاس ولا ذاب لأَحد قبله .

وقوله : ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ﴾ يحتمل أن تكون [مَنْ] في موضع نصب على الإتباع لما تقدم بإضمار فعل تقديره : وسخَّرنا مِن الجن مَنْ يعمل ، ويحتمل أَن تكون في موضع رفع على الابتداء ، والخبر في المجرور ، و [يَزِغْ] معناه : يَمِل ، أَي ينحرف عاصياً ، وقال : ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ ولم يقل : «عن إِرادتنا» لأَنه لا يقع في العالم شيءٌ يخالف الإِرادة ، وقد يقع ما يخالف الأَمر . قال الضحاك : وفي مصحف عبد الله : «وَمَنْ يَزِغْ عَنْ أَمْرِنَا» بغير «مِنْهُمْ» . وقوله : ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ، قيل : عذاب الآخرة ، وقيل : بل كان قد وكل بهم مَلَك بيده سوط من نار السَّعير ، فمن عصى ضربه فأَحرقه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

المحاريب : الأَبنية العالية الشريفة ، قال قتادة : القصور والمساجد ، وقال ابن زيد : المساكن ، والمحراب أَشرف موضع في البيت ، والمحراب

موضع العبادة أشرف ما يكون منه ، وغلب عُرف الاستعمال في موضع وقوف الإمام لشرفه ، ومن هذه اللَّفظة قول عديٍّ بن زيد :

كَدُمَى ٱلْعَاجِ فِي المحَارِيبِ أَوْ كَا ... لْبَيْضِ فِي الرَّوْضِ زَهْرُهُ مُسْتَنِيرُ (١)

والتماثيل ، قيل : كانت من زجاج ونحاس ، تماثيل أشياءَ ليست بحيوان ، وقال الضحاك : كانت تماثيل حيوان ، وكان هذا من الجائز في ذلك الشَّرع .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

ونُسخ بشرع محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال قوم : حرم التصوير لأَن الصُّور كانت تُعبد ، وحكى في الهداية أَن فرقة تجوِّز التصوير وتحتج بهذه الآية ، وذلك خطأٌ ، وما أَحفظ من أَئِمَّة العلم من يجوِّزه .

---

(١) هذا البيت من قصيدة قالها عدي وهو في السجن ، وتحدث فيها عن صروف الدهر ، لكنه استهلها بوصف السحاب وما فيه من رعد وبرق ومطر ، وشبَّه الغيوم البِيض بالدُّمَى العاجية ، أو بالحسان اللواتي يرتدين الشفوف والحرير ، ويتضمخن بطيب الحياة الناعمة . وإذا كان وصف المطر والغيوم من الصور التقليدية في الشعر العربي إلا أن الشاعر قد غيَّر في بيئة التشبيه ، وظهرت عنده معالم جديدة للحضارة ، وكثرت فيها الحليُّ والأصباغ ، وهذا يكشف عن رؤية جديدة للشاعر تتمثل فيها الأشياء ، والشاهد هنا أن المحاريب استعملت بمعنى المعابد .

والْجَوَابي جمع جابية ، وهي البِرْكة التي يجيءُ إليها الماءُ الذي يجتمع ، قال الراجز :

فَصَبَّحْتُ جَابِيَةً صُهَارِجَا كَأَنَّهُ جِلْدُ السَّمَاءِ خَارِجَا (١)

وقال مجاهد : هي جمع جَوْبَة (٢) ، وهي الحفرة العظيمة في الأَرض ، وفي هذا نظر ، ومنه قول الأَعشى :

نَفَى الذَّمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفْنَةٌ كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ ٱلْعِرَاقِيِّ تَفْهَقُ (٣)

---

(١) البيتان من مشطور الرجز ، وهما غير منسوبان ، والبيت الأول في (اللسان — صَهْرَج) ، استشهد به على أنَّ (صَهْرَجَ) بمعنى (طَلا) ، قال : « وصَهْرَجَ الحوضَ : طلاه ، وحوض صُهَارِجٌ : مطليٌّ بالصَّاروج ، والصُّهارج — بالضمِّ — مثل الصِّهْريج ، وأنشد الأزهري : « فصبَّحْتُ جابِيَةً صُهارجاً » ، يقول : إن الجابية مطليةٌ بالصاروج ، أو تشبه المطلية به ، وفي البيت الثاني يشبه لونها بلون السماء في الزرقة . والشاهد هنا أن الجابية هي الحوض الكبير الذي يُجمع فيه الماءُ .

(٢) في اللسان : (قال ابن الأنباري : « هو جمع جِبْيَة » ، وقال : والجِبْوَةُ والجُبْوَةُ والجِبَى والجَبَا والجِبَاوة : ما جمعتَ من الماء في الحوض) .

(٣) رواية الديوان كرواية ابن عطية هنا ، ورواية اللسان مثل رواية الطبري التي أشار إليها ابن عطية ، والبيت من قصيدة للأعشى يمدح فيها المحلَّق بن خيثم بن شداد بن ربيعة ، والجَفْنَة : القَصْعَة الكبيرة ، والجابية : الحوض الضخم أو الحفرة العظيمة التي جمع فيها الماءُ ، وتَفْهَق : تفيض، وقد خصَّ الشيخ العراقيَّ لجهله بالمياه لأنه حضريٌّ، فإذا وجدها ملأ جابيته وأعَدَّها ، ولم يدر متى يجد المياه ، وأما البدوي فهو عالم بالمياه فهو لا يبالي ألا يُعِدَّها . قال ذلك صاحب اللسان ، وذكره أيضاً المبرد في كتابه (الكامل) ، وعلَّل الرواية الثانية أيضاً وهي بالسِّين والحاء المهملتين ، قال أبو العباس : وسمعت أعرابية تُنشد (وهي رواية أهل الكوفة ، والأعرابية هي أُم الهيثم الكلابية من ولد المحلَّق) : « كَجَابِيَةِ السَّيْح » تريد النَّهْرَ الذي يجري على جابيته ، فماؤها لاينقطع ؛ لأن النهر يمده .

وأنشده الطبريُّ : «تَروحُ عَلَى آلِ ٱلْمُحَلَّقِ» ، ويروى : «السَّيْح» بالسِّين المهملة والحاءِ المهملة ، وهو الماءُ الجاري على وجه الأَرض ، ويروى بالشين والخاءِ منقوطتين ، فيقال : أَراد كسرى ، ويقال : أَراد شيخاً من فلاحي سواد العراق غيْرَ مُعيَّن ، وذلك أَنه لضعفه يدَّخر الماءَ في جابية فهي تَفْهق أَبداً ، فشبهت الجفنة بها لعظمها ، وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد : «الجوابي : الحياض» . وقرأَ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : [كَالْجَوَابِ] بغير ياءٍ في الوصل والوقف ، وقرأَ أَبو عمرو ، وعيسى بغير ياءٍ في الوقف وبياءٍ في الوصل ، وقرأَ ابن كثير بياءٍ فيهما . وَوَجه حذف الياء التخفيف والإِيجاز ، وهذا كحذفهم الياءَ في «القاضِ ، والغَازِ ، والهادِ» ، وأَيضاً فلمَّا كانت الأَلف واللَّام تعاقب التنوين وكانت الياءُ تحذف مع التنوين وجب أَن تحذف مع ماعاقبته ، كما يُعْمِلون الشيءَ أَبداً عمل نقيضه .

و [رَاسِيَاتٍ] معناه : ثابتات لكبرها ، ليست مما يُنقل ولا يُحمل ، ولا يستطيع عمله إِلَّا الجن ، وبالثبوت فسَّرها الناس . ثم أُمروا مع هذه النِّعم بأَن يعملوا بالطَّاعات .

وقوله : [شُكْراً] يحتمل أَن يكون نصبه على الحال ، أَي : اعملوا بالطَّاعة في حال شكر منكم لله على هذه النِّعم ، ويحتمل أَن يكون

نصبه على جهة المفعول ، أَي : اعملوا عملًا هو الشُّكر ، كأَن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي نفسها الشكر إِذْ سدَّت مسدِّه ، وفي الحديث أَن النبي صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فتلا هذه الآية ، ثم قال : (ثلاثٌ من أُوتيهنَّ فقد أُوتي في العمل شكراً : العدلُ في الغضب والرِّضى ، والقصد في الفقر والغنى ، وخشية الله في السِّرِّ والعلانية)[١] ، وروي أَن داود عليه السلام قال : يارب كيف أُطيق شكرك على نِعَمِكَ وإِلْهَامي وقُدرتي على شكركَ نِعمةٌ لك ؟ فقال : الآن يا داود عرفتني حق معرفتي ، وقال ثابت[٢] : روي أَنَّ مُصَلَّى آل داود لم يَخْل قَطُّ من قائم يصلي ليلًا ونهاراً ، كانوا يتناوبونه دائماً ، وكان سليمان عليه السلام ـ فيما رُوي ـ يأْكل الشعير ، ويطعم أَهله الخُشْكَار[٣] ، ويطعم المساكين الدَّرْمك[٤] . ورُوي أَنه ما شبع قط ، فقيل له في ذلك فقال : أَخاف إِن شبعت أَن أَنسى الجياع .

(١) أخرجه الحاكم عن أبي هريرة (الجامع الصغير) .

(٢) هو ثابت بن أسلم البُناني ـ بضم الباء وتخفيف النونين ـ أبو محمد البصري ، ثقة ، عابد ، من الرابعة ، مات سنة بضع وعشرين وله ستٌّ وثمانون . (تقريب التهذيب) .

(٣) الخُشْكَارُ : الخبز الأسمر غير النقي ، (فارسي) . عن المعجم الوسيط .

(٤) الدَّرْمَك : دقيق الحُوَّارى ، وهو الدقيق الأبيض .

وقوله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ يحتمل أن تكون مخاطبة لآل داود ، ويحتمل أن تكون مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى كل حال ففيها تنبيه وتحريض ، وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلًا يقول : اللّهم اجعلني من القليل ، فقال له : ما هذا الدُّعاءُ ؟ فقال : أردت قوله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ ، فقال عمر : كل الناس أعلم من عمر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد قال الله تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ ما هُمْ﴾(١) ، والقِلَّة أيضاً بمعنى الخمول منحة من الله تبارك وتعالى(٢) ، فلهذا الدعاءِ محاسن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

الضمير عائد على سليمان عليه السلام ، و [قَضَيْنَا] بمعنى : أنفذنا وأخرجناه إلى حيِّز الوجود ، وإلّا فالقضاءُ الأخير به متقدم في الأزل ،

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة (ص) .
(٢) لعله يريد البُعْد عن الكبرياء والاغترار بالمظاهر .

وروي عن ابن عباس ، وابن مسعود رضي الله عنهما في قَصَصها أَن سليمان عليه السلام كان يتعبَّد في بيت المقدس ، وكان ينبت في محرابه كل سنة شجرة ، فكان يسأَلها عن منافعها ومضارها وسائر شأْنها فتخبره ، ويأْمر بها فتقلع وتصرف في منافعها ، أَو تُغرس لتتناسل ، فلما كان عند موته خرجت شجرة فقال لها : ما أَنت ؟ قالت : أَنا الخروب ، خرجت لخراب مُلْكك هذا ، فقال : ما كان الله ليخربه وأَنا حيٌّ ، ولكنه لاشكَّ حضور أَجلي ، فاستعد عليه السلام وغرسها ، وصنع منها عصاً لنفسه ، وجدَّ في عبادته ، وجاءه بعد ذلك مَلَك الموت ، فأَخبره أَنه قد أُمر بقبض روحه ، وأَنه لم يبق له إلَّا مدة يسيرة ، فروي أَنه أَمر الجن حينئذ فصنعت له قُبَّة من زجاج تشفُّ ، وحصل فيها يتعبد ، ولم يجعل لها باباً ، وتوكأَ على عصاه على وضع يتماسك معه وإن مات ، ثم توفي صلى الله عليه وسلم على تلك الحالة ، ورُوي أَنه استعد في تلك القبة بزاد سَنَة ، وكان الجن يتوهمون أَنه يتغذى باللَّيل ، وكانوا لا يقربون من القُبَّة ، ولا يدخلون من كُوًى كانت في أَعاليها ، ومن رام ذلك منهم احترق قبل الوصول إليها ، هذا في مدة حياة سليمان عليه السلام في القُبَّة ، فبقيت تلك الهيبة على الجن ، وروي أَن القبة كان لها باب ، وأَن سليمان أَمر

بعض أَهله بكتمان موته عن الجن والإنس ، وأَن يترك على حاله تلك سنةً ، وكان غرضه في هذه السنة أَن يعمل الجن عملًا كان قد بُدئَ في زمن داود عليه السلام وقدَّر أَنه بقي منه عمل سنة ، فأَحب الفراغ منه ، فلما مضى لموته سنة خرَّ عن عصاه ، وقد أَكلتها الأَرضة ، وهي الدودة التي تأْكل العود ، فرأَت الجن انخراره فتوهمت موته ، فجاءَ جسور منهم فاقترب فلم يحترق ، ثم عاد فقرب أَكثر ، ثم قرب حتى دخل من بعض الكُوى فوجد سليمان عليه السلام ميتاً فأَخبر بموته ، فنظر ذلك الأَجل فقدر أَنه سنة ، قال بعض الناس : جُعلت الأَرضة فأَكلت يوماً وليلة ، ثم قيس ذلك بأَكلها في العَصَا فَعُلم أَنها أَكلت منذ سنة ، فهكذا كانت دلالة دابة الأَرض على موته .
وللمفسرين في هذا القصص إكثارٌ عُمْدَتُه ما ذكرناه . وقال كثير من المفسرين : ﴿دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ : سوسة العود ، وهي الأَرضة . وقرأَ ابن عباس ، والعباس بن الفضل : [ٱلْأَرَضِ] بفتح الرَّاءِ ، جمع أَرضة ، فهذا يقوي ذلك التأْويل . وقالت فرقة : ﴿دَابَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ : حيوان من الأَرض ، شأْنه أَن يأْكل العود ، وذلك موجود ، وليست السُّوسة من دوابِّ الأَرض . وقالت فرقة منها أَبو حاتم اللغوي : [ٱلْأَرْضُ] هنا مصدر «أَرِضَت الأَثوابُ والخشبُ» إذا أَكلتها الأَرَضة ، كأَنه

قال : دابة الأَكل الذي هو بتلك الصورة ، على جهة التَّسَوُّس .

وفي مصحف عبد الله : «أَكَلَتْ مِنْسَأَتَهُ» ، والمِنْسأة هي العصا ، ومنه قول الشاعر :

إِذَا دَبَبْتَ عَلَى المِنْسَاةِ مِنْ كِبَرٍ فَقَدْ تَبَاعَدَ مِنْكَ اللَّهْوُ وَالْغَزَلُ(١)

وكذا قرأت جماعة من القُرَّاءِ بغير همز ، منها أَبو عمرو ، ونافع ، قال أَبو عمرو : ولا أَعرف لها اشتقاقاً ، فأَنا لا أَهمزها ؛ لأَنها إِن كانت مما لا يُهمز فقد احتطْتُ ؛ لأَنه لا يجوز لي همز مالا يهمز ، وقال غيره : أَصلها الهمز ، وهي من المنسأَة بهمزة مفتوحة ، من : «نَسأْتُ الإِبلَ والغنمَ والنَّاقَةَ» إِذا سُقْتَهَا ، ومنه قول طرفة :

أَمونٌ كعيدانِ الأَرانِ نَسَأْتُهَا عَلَى لاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُد (٢)

---

(١) البيت في (اللسان – نسأ) وفي (التاج – نسأ) ، أما صاحب اللسان فقد استشهد به – نقلا عن الجوهري – على أن المِنْسأَة هي العَصَا ، قال : «وأصله الهمز ، وقد ذكر» ، وأما صاحب التاج فقد استشهد به على أن يكون بغير همز ، والرواية فيهما «دَبَبْتُ» ، والبيت من شواهد أبي عبيدة في (مجاز القرآن) ، والرواية فيه «حَبَيْتُ» ، قال : ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ وهي العصا ، وأصلها من : نَسَأْتُ بها الغنم ، وهو من المهموز الذي تركت العرب الهمزة من أسمائها ، ويهمزون الفعل منها ، كما تركوا همزة النبيِّ ، والبريَّة ، والخابية ، وهو من : أنبأتُ ، ومن : برأتُ ، ومن : خبأتُ .

(٢) البيت من معلقة طرفة ، ذكره في وصفه للناقة ، ورواية الديوان : «أمون كألواح الأران» ، والأمون : التي يُؤمن عثارها ، والأران : التابوت العظيم ، ونسأتها : سُقْتها ،=

ويُروى : «وعَنْسٍ كألْواح» ، وخففت همزتها جملة ، وكان القياسُ أَن تخفف بيْنَ بيْنَ . وقرأَ باقي السبعة على الأَصل بالهمز . وقرأَ حمزة : [مَنْسَاتَهُ] بفتح الميم وبغير همز ، وقرأَت فرقة : [مِنسْأْتهُ] وهذا لا وجه له إلَّا التخفيف في تسكين المتحرك لغير علة ، كما قال امرؤُ القيس :

فالْيَوْمَ أَشْــرَبْ غيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إثْمــاً مِنَ ٱللهِ وَلَا وَاغِــلِ (١)

= ورواية الديوان (نَصَأْتها) بالصاد بمعنى : زجرتُها – وعلى هذا فلا شاهد في البيت – ، واللاَّحب : الطريق الواضح ، والبُرْجُد : الكساءُ المخطط . يقول : هذه الناقة الموثَّقة الخلق يُؤمن عثارها في أثناءِ العدو ، وعظامها ضخمة قوية كأنها ألواح التابوت العظيم ، وقد سقتها على طريق واضح كأنه كساءٌ مخطط في عرضه ، والبيت يقدم كثيراً من الوصف والحديث عن الناقة ، فهي ناقة قوية ، مأمونة في سيرها من العثار ، وهذا هو السبب فيما سبق أن ذكره من أنه يُمْضي هَمَّه بها ، وعظامها كبيرة متينة تشبه ألواح التوابيت الضخمة الّتي يوضع فيها الموتى ، ثم إنه يسوقها أو يزجرها بعصاه ، والطريق الذي تسير فيه واضح مخطط ، ومع هذا الحشد الكثير من الأوصاف والمعلومات فإن التراكيب اللغوية دقيقة سهلة ليس فيها تكلف ولا تقديم أو تأخير .

(١) البيت من قصيدة قالها امرؤ القيس بعد ظفره ببني أسد ، وقبله يقول :

حلَّتْ لِيَ الخَمرُ وكُنْتُ ٱمرَءًا عنْدَ شُرْبِهَا في شُغُلٍ شاغِــلِ

والمُسْتَحْقِب : المكتَسب للإثم الحاملُ له ، والواغلُ : الذي يدخل على القوم وهم يشربون من غير أن يُدْعَى ، ورواية الديوان : «فاليوم أُسْقَى» بدلا من «أشرب» ، يقول : إنه بعد انتصاره على أعدائه بني أسد حلَّت له الخمر الّتي كان مشغولا عنها بطلب الثأر لأبيه ، فهو اليوم يشرب ما يريد . والشاهد أنه سكن المتحرك لغير علَّة عندما سكَّن الباءَ من (أشْرَبْ) دون سبب إلا مجرد التخفيف وضرورة الشعر ، قال الأعلم : وذلك في حال الرفع والوصل . وقد اعترض المبرد على سيبويه وقال : إنما الرواية : فاليومَ فاشربْ ، وعلى هذا فلا شاهد فيه .

وقرأت فرقة : ﴿مِنْ سَأْتِهِ﴾ بفصل [مِنْ] وكسر التَّاءِ في [سَأَتِهِ]، وهذه تنحو إلى : سِيَة القوس ؛ لأَنه يقال : سِيَة وسَأَة ، فكأَنه قال : «من سأَتِه» ثم سكن الهمزة ، ومعناها : من طرف عصاه ، أَنزل العصا منزلة القوس .

وقال بعض الناس : إن سليمان عليه السلام لم يمت إلَّا في سفر مضطجعاً ، ولكنه كان في بيت مبني عليه ، وأَكلت الأَرَضَة عتبة الباب حتَّى خَرَّ البيت فعلم موتُه ، وهذا ضعيف (١) .

وقرأَ الجمهور : ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ بإسناد الفعل إليها ، أَي : بانَ أَمْرُهَا ، كأَنه قال : افتضحت الجنُّ ، أَي للإنس ، هذا تأْويل . ويحتمل أَن يكون قوله : ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ بمعنى : علمت الجنُّ وتحقَّقت ، ويريد بالجن : جمهورهم والفَعَلَة منهم والخدمَة ، ويريد بالضمير في [كَانُوا] روَساءَهم وكبارهم ؛ لأَنهم هم الذين يدَّعون علم الغيب لأَتباعهم من الجنِّ والإِنس ويُوهمونهم ذلك ، قاله قتادة ، فَتَبَيَّن الأَتباعُ أَن الرُّؤُوس لو كانوا عالمين مالبثوا . و [أَنْ] - على التأْويل

---

(١) لأن معنى ذلك أن المِنْسَأة هي عتبة البيت ، ولو كان كذلك وعاد الضمير عليها لكان التركيب : « فلما خرَّتْ » بتاء التأنيث ، ولا يجوز حذف هذه التاء إلا في ضرورة الشعر . ولا يكون ذلك على معنى العود لأنه قليل ، قال ذلك أبو حيان في البحر المحيط لبيان سبب الضعف .

الأَول ـ بدل من [ٱلْجِن] ، وعلى التأْويل الثاني مفعولة محضة ، وقرأَ يعقوب : ﴿تُبِيِّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ على الفعل المجهول ، أَي : تَبَيَّنَهَا النَّاسُ ، و [أَنْ] ـ على هذه القراءَة ـ بدلٌ ، ويجوز أَن تكون في موضع نصب بإِسقاط حرف الجرِّ ، أَي : بأَنْ ، على هذه القراءَة ، وعلى التأْويل الأَول من القراءَة الأُولى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

مذهب سيبويه أَن [أَنْ] في هذه الآية لا موضع لها من الإِعراب ، وإِنما هي مُؤذنة بجواب ما تَنَزَّلَ منزلة القَسَم من الفعل الذي معناه التَّحقُّق واليقين؛ لأَن هذه الأَفعال التي هي : تبيَّنت وتحقَّقت وعَلمت وتيقَّنت ونحوها تحلُّ محلَّ القَسَم في قولك : علمتُ أَن لو قام زيد ما قام عمرٌو ، وكأَنَّك قُلْتَ : والله لو قام زيد ما قام عمروٌ ، فقوله : ﴿مَا لَبِثُوا﴾ ـ على هذا القول ـ جواب ما تنزَّل منزلة القَسَم لا جواب [لَوْ] ، وعلى الأَقوال الأُول جواب [لَوْ] ، وفي كتاب النحاس إِشارةٌ إِلى أَنه يقرأُ بنصب [ٱلْجِن] ، أَي : تَبَيَّنَت الإِنسُ ٱلْجِنَّ ، و ﴿ٱلْعَذابِ ٱلْمُهِينِ﴾ هو العمل في تلك السُّخرة ، والمعنى أَن الجن لو كانت تعلم الغيب لما خفي عليها أَمر سليمان عليه السلام ، وقد ظهر أَنه خفي عليها

بدوامها في الخدمة الصعبة وهو ميت ، فالمُهِينُ : المُذِلُّ ، من الهوان . قال الطبريُّ : وفي بعض القراءات «فَلَمَّا خرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْإِنْسُ أَنَّ ٱلْجِنَّ لَوْ كَانُوا» ، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس ، والضحاك ، وعلي بن الحسين . وذكر أبو حاتم أنها كذلك في مصحف ابن مسعود ، وأَكْثَر المفسرون في قصص هذه الآية بما لا صحة له ، ولا تقتضيه ألفاظ القرآن ، وفي معانيه بُعْد ، فاختصرته لذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

هذا مثل لقريش بقوم أنعم الله عليهم وأرسل إليهم الرُّسل فكفروا وأَعرضوا فانتقم منهم ، أَي : فأَنتم أَيها القوم مثلهم . وسباٌ : أَراد به القبيل ، واختُلف ، لِمَ سُمِّي القبيل بذلك ؟ فقالت فرقة : هو اسم امرأَة كانت أُمَّ القبيل ، وقال الحسن بن أَبي الحسن في كتاب الرُّمَّاني :

هو اسم موضع ، فَسُمِّي القبيل به ، وقال الجمهور : هو اسم رجل كان أَباً للقبيل كلهم ، قيل : هو ابن يشجب بن يعرب ، ورُوي في في هذا القول حديث أَن النبي صلى الله عليه وسلم سأَله فَرْوة بن مُسَيْك (١) عن سبأٍ ، ما هو ؟ فقال : (هو اسم رجل مِنْهُ تناسلت قبائل اليمن) (٢).

وقرأ نافع ، وعاصم ، وأَبو جعفر ، وشيبة ، والأَعرج : [لِسَبَإٍ] بهمزة منونة مكسورة ، على معنى الحَيِّ ، وقرأَ أَبو عمرو ، والحسن : [لِسَبَأَ] بهمزة مفتوحة غير مصروف ، على معنى القبيلة .

---

(١) هو فروة بن مُسَيْك – بالسِّين مصغراً – المُرَادي ، ثم الغُطيفي – بمعجمة مصغَّراً – ، صحابي سكن الكوفة ، يكنى أبا عمير ، واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه . (تقريب التهذيب) .

(٢) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري في تاريخه ، والترمذي وحسَّنه ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن فَرْوة بن مُسَيْك المرادي رضي الله عنه ، قال : أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، ألا أُقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم ؟ فأذن لي في قتالهم وأمَّرني ، فلما خرجتُ من عنده سأل عنّي : (ما فعَل الغُطَيْفي ؟ فأُخبر أني قد سرتُ ، قال : فأرسل في أثري فردَّني ، فأتيته وهو في نفر من أصحابه ، فقال : (ادع القوم ، فمن أسلم منهم فاقبل منه ، ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك) ، قال : وأُنزل في سبأٍ ما أُنزل ؛ فقال رجل : يا رسول الله : وما سبأٌ ؟ أرض أو امرأةٌ ؟ قال : (ليس بأرض ولا بامرأة ، ولكنه رجل ولَد عشرة من العرب ، فتيَامَن منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة ، فأما الذين تشاءموا فلَخْم وجُذام وغسّان وعاملة ، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعَريُّون وحِميْر وكِنْدة ومَذْحج وأنمارٌ) ، فقال رجل : يا رسول الله ، وما أنمار ؟ قال : (الذين منهم خَثْعم وبجيلة) . (فتح القدير ، والدر المنثور) .

وقرأ جمهور القراء : [مَسَاكِنِهُم] ؛ لأَن كلَّ أَحد له مسكن ، وقرأ الكسائي وحده : ﴿في مَسْكِنِهِمْ﴾ بكسر الكاف ، أَي : في موضع سكناهم ، وهي قراءَة الأَعمش ، وعلقمة ، قال أَبو علي : والفتح حَسَنٌ أَيضاً ، لكن هذا كما قالوا : «مَسْجِد» ، وإِن كان سيبويه يرى هذا اسم البيت ، وليس موضع السجود ، قال : هي لغة الناس اليوم ، والفتح هي لغة الحجاز ، وهي اليوم قليلة ، وقرأَ حمزة ، وحفص : [مَسْكَنِهُم] بفتح الكاف ، على المصدر ، وهو اسم جنس يراد به الجمع ، وهي قراءَة إِبراهيم النخَعي ، وهذا الإِفراد هو كما قال الشاعر :

* كُلُوا في بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَخِفُّوا * (١)

وكما قال الآخر :

. . . . قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ ٱلْجَوَامِيسِ(٢)

---

(١) يريد الشاعر : «في بطونكم» ، فاستعمل المفرد وأراد الجمع ، وسيبويه يرى ذلك ضرورة ، قال أبو حيان الأندلسي : «ومن أفرد ينبغي أن يُحمل على المصدر ، أي : في سكناكم حتى لا يكون مفرداً يراد به الجمع» .

(٢) هذا عجز بيت سبق الاستشهاد به على أن (سبأ) تكون ممنوعة من الصرف على أنها اسم قبيلة من اليمن ، وسبب المنع من الصرف هو العلمية والتأنيث ، ويمكن ملاحظة الأصل ، وهو أنها اسم أبي القبيلة ، فهو مذكر ، ولهذا يجوز صرفه ، والبيت بتمامه : =

و [آيَةٌ] معناه : عبرة وعلامة على فضل الله وقدرته ، و [جَنَّتَان] ابتداءٌ ، وخَبَرُه في قوله سبحانه : ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾(١) ، أو خبر ابتداءٍ تقديره : هي جنّتان ، وهي جملةٌ بمعنى : هذه حالهم ، والبدل من [آيَة] ضعيف ، وقد قاله مكيٌّ وغيره ، وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿آيَةٌ جَنَّتَيْنِ﴾ بالنصب ، وروي أنه كان في ناحية اليمن وادٍ عظيم بين جبلين ، وكانت حُقَّتا(٢) الوادي منبت فواكه وزرع ، وكان قد بُني في رأس الوادي عند أول الجبلين جسر عظيم من حجارة من الجبل فارتدع الماءُ فيه وصار بحيرة عظيمة ، وأُخِذ الماءُ من جَنْبَتَيْهَا فمشى مرتفعاً يسقي جنات جنبتي الوادي ، قيل : بَنَتْه بلقيس ، وقيل : بناه حِمْير أبو القبائل اليمنية كلها ، كانوا بهذا الحال في أرغد نِعم ، وكانت لهم بعد ذلك قُرًى ظاهرة مُتَّصلة من اليمن إلى الشَّام ، وكانوا أرباب تلك البلاد في ذلك الزمان .

= الوارِدُونَ وتَيْمٌ في ذَرَى سَبَأٍ قَدْ عَضَّ أعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ

أما الشاهد هنا فهو استعمال المفرد والمراد به الجمع ، فقد قال : « جلد الجواميس » ، والمراد : « جلود الجواميس » ، وهي التي تؤخذ منها القيود التي يربطون بها عند الأسر . (راجع الجزء الحادي عشر ص ١٩١ ، هامش ١) .

(١) قال أبو حيان : « ولا يظهر ؛ لأنه نكرة لا مُسَوِّغ للابتداء بها ، إلا إن اعتقد أن ثمة صفة محذوفة ، أي : جنّتان لهم ، أو : جنَّتان عظيمتان ، وعلى تقدير ذلك يبقى الكلام مفلتاً مما قبله » .

(٢) الحُقَّة والحُقُّ : الأرض المطمئنة .

وقوله تعالى : [كُلُوا] فيه حذف ، كأَنه قال : قيل لهم : كُلُوا ، و [طَيِّبَةٌ] معناه : كريمة التربة ، حَسَنَة الهواءِ ، رغدة من النَّعيم ، سليمة من الهوامِّ والمضار ، هذه عبارات المفسرين ، وكان ذلك الوادي ـ فيما رُوي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ـ لا يدخله برغوث ولا قملة ولا بعوضة ولا عقرب ولا شيءٌ من الحيوان الضَّار ، وإذا جاءَ به أَحد من سفر سقط عند أَول الوادي ، ورُوي أَن الماشي كان إذا مَشَى بمكْتَل(١) فوق رأْسه بين أَشجاره كان يمتلئُ مِكْتَله دون أَن يمد يداً ، ورُوي أَن هذه المقالة من الأَمر بالأَكل والشرب والتوقيف على طيب البلد والغفران من الرَّبِّ مع الإِيمان به هي من قول الأَنبياءِ لهم . وقرأَ رُوَيْسٌ عن يعقوب : «بلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبًّا غَفُوراً» بالنصب في الكلِّ . وبعث إليهم ـ فيما رُوي ـ ثلاثة عشر نبيًّا فكفروا بهم وأَعرضوا ، فبعث الله على ذلك السَّدِّ جراداً أَعمى توالد فيه وخَرَّقَه شيئاً بعد شيءٍ ، وأَرسل سيلًا في ذلك الوادي فحمل ذلك السَّدَّ ، فيُروى أَنه كان من العِظَم وكثرة الماءِ بحيث ملأَ ما بين الجبلين وحمل الجنَّات وكثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفِرار ، ورُوي أَنه لما خرق السد

(١) المِكْتَلُ والمِكْتَلَةُ : الزَّبيل الذي يحمل فيه التمر والعنب إلى الجرين ، وفي حديث الظِّهار أنه أُتِيَ بِمِكتل من تمر ، وهو بكسر الميم ، كأن فيه كُتَلا من التمر ، أي قِطَعاً مجتمعـــــة .

كان ذلك سبب يُبْس الجنَّات فهلكت بهذا الوجه ، ورُوي أنه صرف الماءَ من موضعه الذي كان فيه أولًا فتعطَّل سقْيُ الجنَّات .

واختلف الناس في لفظة [ٱلْعَرِم] ـ فقال المغيرة بن حكيم ، وأبو ميسرة : العَرِمُ في لغة اليمن جمع عِرْمَة وهو كل ما بُني أو سُنِم (١) ليُمْسك الماءَ ، ويقال لذلك بلغة الحجاز : المُسَنَّاة ، كأَنها الجسور (٢) والسِّداد (٣) ونحوها ، ومن هذا المعنى قول الأَعشى :

وفي ذَاكَ لِلْمُؤْتَسِي أُسْوَةٌ ومَأْرِبُ عَفَّى عَلَيْهَا الْعَرِمْ
رِجَامٌ بَنَاهُ لَهُمْ حِمْيَرٌ إذا جَاءَ مَوَّارُهُ لَمْ يَرِمْ (٤)

---

(١) سَنِمَ الشَّيْءُ : ارتفع على وجه الأرض ، فهو سَنِمٌ ، وهي سَنِمَة ، ومنه : سَنِمَ البعير بمعنى : عظُم سَنَامه .

(٢) قال النحاس : المُسَنَّاةُ : هي التي يُسميها أهل مصرَ الجِسْرَ .

(٣) السِّدادُ : ما سدَدْتَ به خلَلاً ، ويقال : سِدادُ القارورة : لما يسُدُّ فمها .

(٤) هما من قصيدة قالها الأعشى يمدح قيس بن معديكرب ، والإشارة بقوله : (ففي ذلك) إلى الموت في البيت قبلهما :

ولَلْمَوْتُ خيْرٌ لِمَنْ نالَهُ إذا المرْءُ أُمَّتُهُ لَمْ تَدُمْ

والرواية في الديوان : (ومأربُ قَفَّى) بدلا من (عَفَّى) ، والموَّارُ : المضطرب المتحرك ، وفي الديوان : (إذا جاءَ ماؤُهُم) ، وفسَّر أبو عبيدة قوله : (لَمْ يَرِمْ) فقال : أيْ حبَسَه . وبعد البيتين يقول :

فَأَرْوَى الزُّرُوعَ وأَعْنَابَهَا عَلَى سَعَةٍ ماؤُهُمْ إذْ قُسِمْ
فَعَاشُوا بذلِكَ في غِبْطَةٍ فجارَ بِهِمْ جارفٌ مُنْهَزِمْ

ومنه قول الآخر :

مِنْ سَبَأَ الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إِذْ   يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهَا الْعَرِمَا (١)

وقال ابن عباس ، وقتادة ، والضَّحاك : اسم وادي ذلك الماءُ بعينه الذي كان السَّدُّ يُبنى له ، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً : إن سيل ذلك الوادي كان يصل إلى مكة ويُنتفع به ، وقال ابن عباس : العَرِم : الشديد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكأنه صفة لِلسَّيْل ، من العَرَامة ، والإضافة إلى الصفة مبالغة ، وهي كثير في كلام العرب .

وقالت فرقة : العَرِم : اسم الجُرُذ ، وهذا ضعيف . وقيل : العَرِم : صفةٌ للمطر الشديد الذي كان عند ذلك السَّيْل .

وقوله تعالى : ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ قولٌ فيه تجوُّزٌ واستعارة ؛ وذلك أن البدل من الخَمْطِ والأَثْل لم يكن جَنَّات ، لكن

---

(١) البيت في (اللسان ـ سَبَأَ) غير منسوب ، قال : « وكان أبو عمْرو يقرأ : (لِسَبَأَ) ، قال : من سَبَأَ ... البيت » ، فهو شاهد على أن (سَبَأَ) يترك صرفه على إرادة القبيلة ، كما أنه يصرف على إرادة الحيِّ كما قال ابن عطية ، وشاهده :

أَضْحَتْ يُنَفِّرُها الوِلْدَانُ مِنْ سَبَأٍ   كأنَّهُمْ تَحْتَ دَفَّيْهَا دَحَارِيجُ

هذا كما تقول لمن جُرِّد ثوباً جيداً وضُرب ظهره : « هذا الضَّرْبُ ثوبٌ صالحٌ لك » ، ونحو هذا . وقوله : [ذَوَاتَيْ] تثْنية « ذات » . و « ٱلْخَمْطُ » : شجر الأَرَاكِ ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، وقيل : « ٱلْخَمْطُ » : كل شجر له شوك وثمرته كريهة الطعم بمرارة ، أَو حمضه ، أَو نحوه ، ومنه : تَخَمَّط اللَّبنُ : إذا تغيَّر طعمه . و « الْأَثْلُ » : ضربٌ من الطرفاءِ ، هذا هو الصحيح ، وكذا قال أَبو حنيفة في كتاب النبات ، قال الطبري : وقيل : هو شجر شبيه بالطرفاءِ ، وقيل : إِنَّه السَّمُر . و « السِّدْرُ » معروف ، وله نبق شبيه العنَّاب ، لكنه دونه في الطعم بكثير . و « لِلْخَمْطِ » ثمرٌ غثٌّ هو البَريرُ ، و « لِلأَثْلِ » ثمر قليل الْغَنَاءِ غير حسن الطعم .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع : [أُكْلٍ] بضم الهمزة وسكون الكاف . وقرأَ الباقون بضم الهمزة وضم الكاف ، ورُوي أَيضاً عن أَبي عمرو السكون في الكاف ، وهما بمعنى الْجَنَي والثَّمرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِـي أُكُلَهَا ﴾(١) أَي جَنَاهَا . وقرأَ الجمهور بتنوين [أُكُلٍ] ، وصِفَتُه [خَمْطٍ] وما بعده ، قال أَبو علي : البدل في هذا لا يحسن ؛ لأَن « الْخَمْطِ » ليس بالأُكل ، و « الأُكُل » ليس بالخمط نفسه ، والصفة أَيضاً كذلك ؛ لأَن الخَمْط اسمٌ لا صفة ، وأَحسن ما فيه

(١) من الآية (٢٥) من سورة (إبراهيم) .

عطف البيان ، كأنه بيَّن أن «الأُكُل» هذه الشجرة ومنها ، ويُحَسِّن قراءة الجمهور أن هذا الاسم قد جاء مجيء الصفة في قول الهُذَلِيِّ :

عُقَارٌ كَمَاءِ النِّيءِ لَيْسَتْ بِخَمْطَةٍ وَلَا خَلَّةٍ يَكْوِي الشُّرُوبَ شِهَابُهَا (١)

وقرأ أبو عمرو بإضافة [أُكُلٍ] إلى [خَمْطٍ] وبضم الكاف ، أي : ﴿أُكُلِ خَمطٍ﴾ ، ورجَّح هذه القراءة أبو علي .

وقوله تعالى : [ذَلِكَ] إشارة إلى ما أجراه عليهم ، وقوله : ﴿وَهَلْ نُجَازِي﴾ ، أي : يُنَاقش ويُعارض(٢) بمثل فعله ، قدراً بقدر ؛ لأن جزاء المؤمن إنما هو بتفضُّل وتضعيف ، وأمَّا الذي لا يُزادُ ولا ينقص فهو الكفور ، قاله الحسن بن أبي الحسن ، وقال طاوس : هي المناقشة ، وكذلك إن كان المؤمن ذا ذُنوب فقد يُغفر له ولا يجازى ، والكافر يُجازى ولابُدّ ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : (من نُوقِش الحساب

---

(١) البيت في (اللسان – خَلَلَ) ، والعُقَارُ : التي تعاقر العقلَ أو الدَّنَّ ، أي : بقي منها بقية في أسفل الدَّنِّ لطول مرِّ السنين عليها ، وماءُ النِّيءِ : ما قَطَر من اللحم ، يريد : هي في لونه وصفائه ، والخَمْطة : التي أخذت طعم الإدراك ولم تُدرك ، والخَلَّةُ : الحامضةُ ، ولا خَلَّة : أي : في مجاوزة القَدْرِ ، يعني لم تخرج من حال الخمر إلى حال الحموضة والخَلِّ ، يقول : هي في لون ماء اللحم الذي لم ينضج بعد ، وليست كالخَمْطة التي لم تدرك بعد ، ولا كالخَلَّة التي جاوزت القدر فصارت خلا ، فليس يكوى الشُّروبَ شهابُها ، أي : لا يؤذيهم ما فيها من حدَّة ونار ، والشُّروب : جمع شَرْب وهم الندامى .

(٢) استعمل هذه الصيغة لأن قراءة العامة هي : ﴿وَهَلْ يُجَازَى﴾ ، والمعنى : يُنَاقَشُ ويُعَارَضُ .

عُذِّب)(١) ، وقرأ جمهور القراء : [يُجَازَى] بالياء وفتْح الزَّاي ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [نُجَازِي] بالنون وكسر الزَّاي [ٱلْكَفُورَ] بالنصب ، وقرأ مسلم بن جُنْدب(٢) : ﴿وَهَلْ يُجْزَى﴾ ، وحكى عنه أبو عمرو الدَّاني أنه قرأ [يُجْزِي] بضم الياء وكسر الزَّاي . قال الزجاج : يقال : جَزَيْتُ في الخير ، وجازيت في الشَّر . فَتترَجَّح قراءة الجمهور .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

هذه الآية وما بعدها وصف لحالهم قبل مجيء السَّيل ، وهي أن الله تبارك وتعالى ـ مع ما كان منهم ـ منحهم من الجَنَّتَيْن والنِّعمة الخاصة بهم ، كان قد أَصلح لهم البلاد المتَّصلة بهم وعمَّرها ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم ، عن عائشة رضي الله عنها ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن ، وروى الطبراني في الكبير (من نوقش المحاسبة هلك) .

(٢) هو مسلم بن جُندب الهُذَلي ، المدني ، القاص ، ثقة فصيح قارئٌ ، من الثالثة ، مات سنة ست ومائة . (تقريب التهذيب) .

وجعلهم أَربابها ، وقدَّر السَّير فيها بأَن قرَّب القُرَى بعضها من بعض ، حتى كان المسافر من مأْرب إلى الشام لَيَبِيتُ في قرية ويَقِيلُ(١) في قرية ، فلا يحتاج إلى حَمْل زاد ، و «الْقُرَى» : المدن ، ويقال للجمع الصغير قرية أَيضاً ، وكلها من : قَرَيْتُ ، أَي جَمَعْتُ ، والقُرى التي بورك فيها هي قرى الشام بإِجماع من المفسرين ، والقرى الظَّاهرة هي التي بين الشَّام ومأْرب ، وهي الصغار التي هي البوادي . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي قرى عربية بين المدينة والشَّام ، وقاله الضحاك ، واختلف في معنى [ظَاهِرة] ـ فقالت فرقة : معناه : مُستعلية مرتفعة في الإِكام والظِّراب(٢) ، وهي أَشرف القرى ، وقالت فرقة : يظهر بعضها من بعض ، فهي أَبداً في قبضة عين المسافر ، ولا يخلو من رؤْية شيءٍ منها بهذا الوجه . والذي يظهر لي أَن معنى [ظاهِرَة] : خارجة عن المدن ، فهي عبارة عن القرى الصغار التي في ظواهر المدن ، وإنما فصل بهذه الصِّفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي

(١) يقال : قالَ يَقيل قيْلاً : نام وسط النهار ، فهو قائل .

(٢) الإكام : جمع أَكَمَةٍ ، وهي التَّلُّ ، ويقال في جمع أَكَمَةٍ أيضاً : آكامٌ وأَكَمٌ . والظِّراب : جمع ظَرِبٍ ، وهو الجبل المنبسط ، وفي حديث الاستسقاء : (اللَّهم على الآكام والظِّراب وبطون الأودية) .

المُدن ؛ لأَن ظواهر المدن ما خرج عنها في الفيافي والفحوص[١]، ومنه قولهم : نزلنا بظاهر فلانة ، أَي : خارجاً عنها . وقوله : [ظَاهِرَةً] نظير تسمية النَّاس إِيَّاها البادية والضاحية ، ومن هذا قول الشاعر :

فَلَوْ شَهِدَتْني مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ ... قُرَيْشُ الْبِطَاحِ لَا قُرَيْشُ الظَّواهِرِ[٢]

يعني الخارجين عن بطحاءِ مكة ، وفي حديث الاستسقاءِ : (وجاءَ أَهل الضواحي يشتكون : الغرق الغرق)[٣] .

---

(١) الفيافي : جمع فيفاء ، وهي الصحراءُ الواسعة المستوية . والفُحوص كالأفاحيص : جمع أُفْحوصٍ ، وهي حفرة تحفرها القطاة أو الدجاجة في الأرض لتبيض وترقد فيها .

(٢) البيت في (التاج ، واللسان – بَطَحَ) ، وهو غير منسوب ، وكذلك ذكر شطره الثاني صاحب (أساس البلاغة) ، قال في التاج : « وبطحاءُ مكة وأَبطَحُها معروفة لانبطاحها ، وقريش البطاح ، الذين ينزلون أَباطح مكة وبطحاءَها ، وقريش الظواهر : الذين ينزلون ما حول مكة ، قال : فلو شَهِدَتْني ... البيت » . وفي التهذيب عن ابن الأعرابي : « قريش البطاح هم الذين ينزلون الشِّعْب بين أَخْشَبَي مكة ، وقريش الظواهر الذين ينزلون خارج مكة ، وأكرمهما قريش البطاح ، وأَخْشَبا مكة جَبَلاها : أبو قُبَيْس والذي يقابله » . وعبارة أرباب الأنساب : « قريش الأباطح ، ويقال : قريش البطاح ؛ لأنهم صبابة قريش وصميمها الذين اختطوا بطحاءَ مكة ونزلوها ، ويقابلهم قريش الظواهر الذين لم تسعهم الأباطح ، والكلُّ قبائل » ، قالوا : وفي قريش من ليس بأَبطحية ولا ظاهرية » .

(٣) الثابت في الصحيحين في حديث الاستسقاءِ الذي رواه أنس أن الذي اشتكى للنبي صلى الله عليه وسلم من القحط هو رجل واحد ، ثم اشتكى في الجمعة التالية من كثرة المطر ، ولعلَّ هذه الجملة عن أهل الضواحي جاءَت في واحد من كتب الحديث الأخرى .

قوله تعالى : ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ ، هو ما ذكرناه من أن المسافر فيها كان يَقيل في قرية ويبيت في أُخرى على أَيٍّ طريقٍ سلَك ، لا يعوزه ذلك . وقوله تعالى : ﴿سِيرُوا فِيهَا﴾ معناه : وقلنا لهم . و [آمِنِينَ] معناه : من الخوف من الناس المفسدين ، وآمنين من الجوع والعطش وآفات المسافر .

ثم حكى عنهم مقالة قالوها على جهة البَطَر والأَشَر ، وهي طلب البُعْد بين الأَسفار ، أَو الإخبار بأَنها بعيدة على القراءات الأُخرى ، وذلك أَن نافعاً ، وعاصماً ، وحمزةَ ، والكسَّائيَّ قرءُوا : ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنا﴾ بكسر العين على معنى الطلب ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والحسن ، ومجاهد : ﴿بعِّدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بشدِّ العين وكسرها على معنى الطلب أَيضاً ، فهاتان معناهما الأَشر بأَنهم ملُّوا النِّعمة في القُرب ، وطلبوا استبدال الذي هو أَدنى بالذي هو خير(١) . وفي كتاب الرُّماني أَنهم قالوا : لو كان جنى ثمارنا أَبعد لكان أَشهر وأَكثر قيمة ، وقرأ

---

(١) هم في هذا كبني إسرائيل حين قالوا : ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ بعد أن كانوا في رغد من العيش ، ويأكلون المَنَّ والسَّلْوَى ، وهم أيضاً كالنضر بن الحارث حين قال : ﴿ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ ، فقتل يوم بدر بالسيف صبراً .

ابن السميفع ، وسفيان بن حسين ، وسعيد بن أَبي الحسن ـ أَخو الحسن ـ (١) وابن الحنفية : [رَبَّنَا] بالنصب ﴿ بَعُدَ بَيْنَ أَسْفارِنَا ﴾ بفتح الباءِ وضم العين ، وبنصب [بَيْنَ] أَيضاً . وقرأَ سعيد بن أَبي الحسن ـ من هذه الفرقة ـ : [بَيْنُ] بالرفع وإضافته إلى الأَسفار (٢) ، وقرأَ ابن عباس ، وأَبو رجاءٍ ، والحسن البصري ، وابن الحنفية : [رَبُّنَا] بالرفع [بَاعَدَ] بفتح العين والدال ، وقرأَ ابن عباس ، وابن الحنفية أَيضاً ، وعمرو بن فايد ، ويحي بن يَعْمَر : [رَبُّنَا] بالرفع [بَعَّدَ] بفتح العين وشدها وفتح الدال . فهذه القراءَة معناها الإِخبار بأَنهم استبعدوا القريب ، ورأَوْا أَن ذلك غير مقنع لهم ، حتى كأَنهم أَرادوها متَّصلة الدور ، وفي هذا تعسُّف وتسخط على أَقدار الله تعالى وإِرادته ، وقلَّة شكر على نعمته ، بل هي مقابلة النعمة بالتَّشَكِّي . وفي هذا المعنى ونحوه مما اقترن بكفرهم ظلموا أَنفسهم ففرَّقهم الله تعالى ،

---

(١) يعني الحسن البصري ، فهو سعيد بن أبي الحسن البصري ، قال عنه أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني في كتابه (تقريب التهذيب) : « أخو الحسن ، ثقة ، من الثالثة ، مات سنة مائة » .

(٢) قال أبو الفتح ابن جني في المحتَسَب : « وتدلُّ هذه القراءة على أن (بَيْنَ) ليس ظرفاً في قراءة النصب ، بل منصوب على المفعول به »

وخَرَّب بلادهم ، وجعلهم أَحاديث ، ومنه المثل السائر : «تفرَّقوا أَيادي سبأَ» ، و «أَيدي سبأَ» ، يقال المثل بالوجهين ، وهذا هو تمزُّقهم كل مُمَزَّق . وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إِن سبأَ أَبو عشر قبائل)(١) ، فلما جاءَ السَّيْلُ على مأْرب وهو اسم بلدهم تيامَن منهم ستة قبائل ، أَي : تبددت في بلاد اليمن ، وتشاءَمَتْ منها أَربعة ، فالمُتَيَامِنة كِنْدة والأَزْد وأَشْعَر ومَذْحِج وأَنمار التي منها بَجِيلَة وخَثْعَم ، وطائفة قيل لها : حِمْيَر ، بقي عليها اسم الأَب الأَول ، والتي تشاءَمت لَخْم وجُذَام وغَسَّان وخُزَاعة ، نزلت تهامة ، ومن هذه المتشائمة أَولاد قَيْلة ، وهم الأَوس والخزرج ، ومنها عاملة وغير ذلك .

ثم أَخبر تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام وأُمَّته - على جهة التنبيه - أَن هذه القصص فيها آياتٌ وعِبَرٌ لكل مؤمن على الكمال ، ومن اتصف بالصبر والشُّكر فهو المؤمن الذي لا تنقصه خلَّة جميلة بوجه .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث وذكر نصه كاملا في الهامش (٢) من صفحة (١٦٣) من هذا الجزء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

قرأَ نافع ، وأَبو عمرو ، وابن عامر : ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ﴾ بتخفيف الدال [إِبْلِيسُ] رفعاً [ظَنَّهُ] نصباً على المصدر ، وقيل : على الظرفية ، أي : في ظَنِّه ، وقيل : على المفعول ، على معنى أَنه لما ظن عمل عملاً يصدق به ذلك الظن ، فكأَنه إنما أَراد أَن يصدق ظنه ، وهذا نحو من قولك : « أَخطأْتُ ظَنِّي وأَصبْتُ ظَنِّي » . وقرأَ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [صَدَّقَ] بتشديد الدَّال ، و « الظَّنُّ » – على هذا مفعول بـ [صَدَّقَ] ، وهي قراءَة ابن عباس ، وقتادة ، وطلحة ، [وعاصم][1] ، والأَعمش . وقرأَ الزّهري ، وأَبو الهجهاج [2] ، وبلال بن أَبي بُرْدَة :

(١) هكذا بالتكرار في جميع النسخ الأصلية .

(٢) هكذا في النسخ الأصلية ، وفي القرطبي ، وفي كتاب إعجاز القرآن للنحاس ، وهو في البحر المحيط : (أبو الجهجاه) . وفي المحتسب روى أبو الفتح عن أبي حاتم قوله : « روى عُبَيْد بن عُقَيْل عن أبي الورقاء قال : سمعتُ أبا الهَجْهَاج – وكان فصيحاً – يقرأُ :=

[صَدَقَ] بتخفيف الدال [إبْلِيسَ] نصباً [ظَنُّهُ] رفعاً . وقرأت فرقة : [صَدَقَ] بتخفيف الدال [إبْلِيسُ] بالرفع [ظَنُّهُ] بالرفع على البدل ، وهو بدل الاشتمال .

ومعنى الآية أن ما قال إبليس من أنه سيفتن بني آدم ويُغويهم ، وما قال من أن الله لا يجد أكثرهم شاكرين ، وغير ذلك كان ظنّاً منه وصدق فيهم ، وأخبر الله تعالى عنهم أنَّهم اتَّبعوه ، وهو اتِّباعُ في كُفْر ؛ لأنه في قصة قوم كفَّار ، وقوله تعالى : ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ يدل على ذلك ، [ومِن] في قوله : ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض ؛ لأَن التبعيض يقتضي أن فريقاً من المؤمنين اتبع إبليس .

و «ٱلسُّلْطَانُ» : الحُجَّة ، وقد يكون الاستعلاء والاستقدار ؛ إذ اللَّفظ من التَّسَلُّط ، وقال الحسن بن أَبي الحسن : والله ما كان له سوطٌ ولا سيف ولكنه استمالهم فمالوا بتزيينه . وقوله تعالى : ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي : لنعلم موجوداً ؛ لأَن العلم به متقدم أَوَّلًا . وقرأت فرقة : ﴿إِلَّا لِيُعْلَمَ﴾ بالياءِ مضمومة على المجهول .

وقوله تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ آية تعجيز وإِقَامَةُ حجَّة ، ويُروى أن ذلك نزل عند الجوع الذي أَصاب قريشاً . والجمهور على

=[إبْلِيسَ] بالنصب [ظَنُّه] ، رفع » . قال أبو الفتح : « معنى هذه القراءة أن إبليس كان سَوَّلَ له ظنُّه شيئاً فيهم ، فصَدَّقه ظنُّه فيما كان عقد عليه معهم من ذلك الشيء » .

﴿قُلُ ٱدْعُوا﴾ بضم اللَّام ، وروى عباسٌ عن أبي عمرو : ﴿قُلِ ٱدْعُوا﴾ بكسر اللام [ٱلَّذِينَ] يريد الملائكة والأَصنام ؛ وذلك أَن قريشاً والعرب كان منهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يقول : نعبدها لتشفع لنا ، ونحو هذا ، فنزلت هذه الآية معجزة للكلِّ منهم . ثم جاءَ بصفة هؤلاء الذين يدعونهم آلهةً ، من أَنهم لا يملكون مِلْك الاختراع مثقال ذَرَّة في السماءِ ولا في الأَرض ، وأَنهم لا شِرْكَ لهم فيها ، وهذان نوعا المِلْك : إمَّا استبدادٌ وإمَّا مُشاركة ، فنفى عنهم جميع ذلك ، ونفى أَن يكون لله معينٌ في شيءٍ من قدرته ، و «الظَّهيرُ» : المُعين . ثم تقرَّر في الآية بَعْدُ أَن الذين يظنون أَنهم يشفعون لهم لا تصح منهم شفاعة لهم ؛ إذ هؤلاءِ كفرة ، ولا يأْذن الله في الشفاعة في كافر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

المعنى : إن كلَّ من دعوتم إلٰهاً من دون الله لا يملكون مثقال ذرَّة ، ولا تنفع شفاعتهم إلَّا بإذن الله فيمن آمن ، فكأَنه قال : ولاهم شفعاءَ على الحدِّ الذي ظننتم أَنتم .

واختلف المتأولون في قوله : ﴿ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ ـ فقالت فرقة : معناه : لمن أراد له ، وقالت فرقة : معناه : لمن أذن له أن يشفع هو .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واللَّفظ يعمهما ؛ لأَنه إذا انفرد للشافع فلا شك أن المشفوع فيه مُعَيَّن له ، وإذا انفرد للمشفوع فيه فالشافع لا محالة عالمٌ مُعين لذلك ، وانظر أن اللام الأُولى تشير إلى المشفوع فيه من قوله : [لِمَنْ] ، تقول : شفعتُ لفلان .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي بضم الألف ـ من [أُذِنَ](١) ـ ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : [أَذِنَ] بفتحها والضمير في [قُلُوبِهِمْ] عائد على الملائكة الذين دعوهم آلهة ، ففي الكلام حذف يدل عليه الظاهر ، كأنه قال : ولاهم شفعاء كما تحسبون أنتم ، بل هم عَبَدة ومُستسلمون أبداً حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم .

وتظاهرت الأَحاديث(٢) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن

(١) ما بين العلامتين ـ . . . ـ زيادة للتوضيح والبيان .

(٢) من هذه الأحاديث ما أخرجه سعيد بن منصور ، وعبْد بن حميد ، والبخاري ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنه =

هذه الآية ، أعني قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحيَ إلى جبريل بالأمر يأمُر اللهُ به سمعت كجَرِّ سلسلة الحديد على الصفوان ، فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة ، وقيل : خوف أن تقوم الساعة ، فإذا فرَغَ ذلك فُزِّع عن قلوبهم ، أي : أُطير الفزع عنها وكُشف ، فيقول بعضهم لبعض ولجبريل : ﴿ماذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ؟ فيقول المسئولون : قال الحقَّ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ . وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تَتَّسق هذه الآية على الأُولى(١) ، ومن لم يشعر أَن الملائكة مُشَارٌ إليهم من أَوَّل قوله : ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ لم تتَّصل له هذه الآية بما قبلها ، فلذلك اضطرب المفسرون في تفسيرها ، حتى قال بعضهم في الكفار ـ بعد حلول الموت ـ

= سلسلة على صفوان ، يفزعهم ذلك ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الذي قال الحقَّ ، وهو العليُّ الكبير ، فيسمعها مسترقوا السمع ، ومسترقوا السمع هكذا ، واحد فوق آخر ـ وصَفَ سفيان بيده وفرَّج بين أصابعه ، نصبها بعضها فوق بعض ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَنْ تحته ، ثم يُلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يُلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يُدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء) .

(١) ناقش أبو حيَّان الأندلسي في « البحر المحيط » كلام ابن عطية هذا محاولا إظهار بعض الخطإ فيه ، فارجع إليه هناك ، (٧ـ٢٧٨) .

فُزِّع عن قلوبهم بفقد الحياة فرأَوْا الحقيقة ، وزال فزعهم من شُبه ما يقال لهم في حياتهم ، فيقال لهم حينئذ : ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ؟ فيقولون : قال الحق ، يَقِرُّون حين لا ينفعهم الإقرار . وقالت فرقة : الآية في جميع العالم ، وقوله : ﴿حَتَّى إِذَا﴾ يريد : في القيامة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والتأْويل الأَول في الملائكة هو الصحيح ، وهو الذي تظاهرت به الأَحاديث . وهذان بعيدان .

وقرأَ الجمهور : [فُزِّعَ] بضم الفاء وكسر الزَّاي(١) ، ومعناه : أُطير الفزع عنهم ، وهذه الأَفعال جاءت مخالفة لسائر الأَفعال ؛ لأَن «فَعَّل» أَصلها الإِدخال في الشيء(٢) ، وقولك : فزَّعتُ زيداً معناه : أَزلتُ الفَزَعَ عنه . وكذلك : جزَّعته : أَزلت الجزعَ عنه ، ومنه في الحديث : (فدخل ابن عباس على عمر فجزَّعَهُ)(٣) ، ومنه : مَرَّضتُ

(١) أي : مع تشديدها .

(٢) (فَعَّل) تأتي لمعان كثيرة ، أوَّلها وأصلها الإدخال في الشيء ، يقال : فزعه بمعنى أخافه وروَّعه ، أي أدخله في الخوف والرَّوع ، ومنها الإزالة نحو قرَّدت البعير ، بمعنى : أزلتُ عنه القراد ، ونحو ما ذكره ابن عطية من أفعال .

(٣) الحديث رواه البخاري في صحيحه في باب « مناقب عمر » ، عن المسْوَر بن مَخْرمة ، قال : لما طُعِن عمر – رضي الله عنه – جعل يألم ، فقال له ابن عباس رضي الله عنهما – =

فلاناً : أزلتُ المرض عنه . وانظر أن مضارع هذه الأفعال يلحق بـ(تَحَنَّث وتحرَّج وتَفَكَّه وتأَثَّم وتَخَوَّتَ) (١) . وقرأ ابن عامر : [فَزَّعَ] بفتح الفاء والزَّاي وشد الزاي ، وهي قراءة ابن مسعود ، وابن عباس ، وطلحة ، وأبي المتوكل الناجي ، واليماني . وقرأ الحسن البصري — بخلاف — : [فُزِعَ] بضم الفاء وكسر الزاي وتخفيفها ، كأنه بمعنى : أقلع ، ومَن قال إنها في العالم أجمعه قال : معنى هذه القراءة : فُزع الشيطان عن قلوبهم ، أي بادر . وقرأ أيوب عن الحسن أيضاً : [فُرِّغَ] بضم الفاء وبراءٍ مهملة مشدَّدة وبغين منقوطة ، من التفريغ ، قال أبو حاتم : ورواها عن الحسن نحو من عشرة أنفس ، وهي قراءة أبي مجلز . وقرأ مطر الورَّاق ، عن الحسن : [فَزِعَ] على بناء الفعل للفاعل ، وهي قراءة مجاهد ، وقرأ الحسن أيضاً : [فَرَغَ] بالراءِ المهملة مخففة ، من الفراغ . قال أبو حاتم : ما أظن الثِّقات رَوَوْها عن الحسن على وجوه إلَّا لصعوبة المعنى عليه فاختلفت ألفاظه

= وكأنه يُجزِّعه — : يا أمير المؤمنين ، ولئن كان ذاك لقد صحبتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راضٍ ، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته ، ثم فارقته وهو عنك راض ... الخ وهو حديث طويل .

(١) تَخَوَّتَ الشيءَ : اختطفه .

فيها (١) . وقرأ عيسى بن عمر : ﴿ حتَّى إِذَا ٱفْرُنْقِعَ ﴾ ، وهي قراءة ابن مسعود . ومعنى هذا كله : وقع فراغُها من الفزع والخوف . ومن قرأ شيئاً من هذا على بناءِ الفعل للمفعول فقولُه تعالى : ﴿ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ في موضع رفع ، و « افْرَنْقع » معناه : تفرَّق .

وقوله تعالى : [مَاذا] يجوز أَن تكون [مَا] في موضع نصب بـ [قَالَ] ، ويصح أَن تكون في موضع رفع بمعنى : أَيُّ شيءٍ قال ؟ والنصب في قولهم : [ٱلْحَقَّ] على نحوه في قوله تعالى : ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً ﴾ (٢) ؛ لأَنهم حقَّقُوا أَن ثمَّ ما أُنْزِلَ ، وحَقَّقُوا هنا أَنَّ ثَمَّ ما قِيلَ . وباقي الآية تحميدٌ وتمجيد .

---

(١) قال أبو الفتح عثمان بن جني في « المحتسب » : « يعني أبو حاتم اجتماع معنى (ف ز ع) مع معنى (ف ر غ) في أن الفــزع : قلَق ومُفــارقة للموضـــوع المقلوق عليه ، والفــراغ : إخــلاءُ الموضع ، فهما من حيث المعنى ملتقيان ، وكذلك معنى (افْرُنْقِــعَ) ، يقال : افْرَنْقَعَ القومُ عن الشيء ، أي : تفرقوا عنه .

ومما يحكى في ذلك أن أبا علقمة النحوي ثار به المُرَارُ (وهو مِزَاجٌ مِنْ أمْزجة البدن) ، فاجتمع الناسُ عليه ، فلما أفاق قال : مالكم قد تكأكَأتم علي كتكأكُئِكُم على ذي جِنَّةٍ ، افرنقعوا عنِّي. قال: فقال بعض الحاضرين: إن شيطانه يتكلم بالهندية » . اهـ . المحتسب (٢–١٩٣).

(٢) من قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة (النحل) : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ، وفي الأصول خطأٌ في الآية حيث وردت بحيث تجمع بين هذه الآية ، وبين الآية (٢٤) من نفس السورة وهي قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

أَمر الله تبارك وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم – على جهة الاحتجاج ، وإقامة الدليل على الرازق لهم من السموات والأَرض – [أَن يَسأَلهم](١) : من هو ؟ ثم أَمره أَن يقتضب الاحتجاج بأَن يأْتي بجواب السؤال ؛ إِذْ هم في بَهْتَة ووجْمَة من السؤال ، وإِذ لا جواب لهم ولا لمفْطُورٍ إِلَّا بأَن يقول : هو الله . وهذه السبيل في كل سؤال جوابه في غاية الوضوح ؛ لأَن المحتجَّ يريد أَن يقتضب ويتجاوز إِلى حجة أُخرى يوردها . ونظائر هذا في القرآن كثير .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ تلَطُّف في الدعوى والمحاورة والمعنى ، كما تقول لمن خالفك في مسأَلة : أَحدنا مُخْطِئٌ ، أَي : تَثَبَّتْ وتَنَبَّه ، والمفهوم من كلامك أَن مخالفك هو المخطئُ ، فكذلك

(١) ما بين العلامتين زيادة يحتاج إليها المعنى .

هذا معناه : وإنَّا لَعَلَى هُدًى أَو في ضلالٍ مبين ، وإنَّكم لعلى هُدًى أَو في ضلال مبين ، فلْنَتَبَيَّنْهُ ، والمقصد أَن الضلال في حيِّز المخاطبين ، وحُذف أَحد الخبرين لدلالة الباقي عليه (١) . وقال أَبو عبيدة : [أَوْ] في الآية بمعنى واو النَّسق ، والتقدير : وإنا وإيَّاكم لعلى هدًىأَو في ضلال مبين ، وهما خبران غير مبتدأين ، وهذا القول غير متَّجه واللَّفظ لا يساعده ، وإن كان المعنى – على كل قول – يقتضي أَن الهدي في حيِّز المؤمنين والضلال في حيِّز الكفرة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ﴾ الآية – مهادنة ومتاركة ، وهي منسوخة بآية السيف .

(١) هذا الأسلوب يسمى في علم البيان : استدراج المخاطب ، يذكُر المتكلم له أمراً يسلِّمه وإن كان هو على خلاف ما ذُكر حتى يصغي إليه ، ولا يزال ينقله من حال إلى حال حتى يتبيَّن له الحق ويقبله ، ومثاله من الشعر العربي قول حسَّان :

أَتَهْجُوهُ ولستَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ

والآية الكريمة فوق ما فيها من التَّلَطُّف في الدعوة والمحاورة فإنها تتضمَّن الإنصاف ، وتحمل معنى التورية والتعريض ، والرَّدُّ بهما أبلغ من الرَّدّ بالتصريح ، ومن ذلك قول العرب : أخزى الله الكاذب منِّي ومنك ، يقول ذلك من يتيَقَّن أن صاحبه هو الكاذب ، ولكنه يُوبِّخه بلفظ غير مكشوف .

و [أَوْ] هنا على موضوعها لكونها لأحد الشيئَيْن أو الأشياء ، وخَبَرُ ﴿ إنَّا أَوْ إيَّاكُمْ ﴾ هو قوله تعالى : ﴿ لَعَلَى هُدًى أَوْ في ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ ، ولا يَحْتاج إلى تقدير حذف ؛ إذ المعنى : إنَّ أحدنا لفي أحد هذين ، كقولكَ : زيدٌ أو عمروٌ في المسجد أو في البيت ، والمعنى : أحد هذَيْن في أحد هذَيْن .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ يجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ الآية .. إخبارٌ بالبعث من القبور ، وقوله : [يَفْتَحُ] معناه : يحكم ، والفتّاح : القاضي ، وهي مشهورة في لغة اليمن ، وهذا كله منسوخ بالسيف .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرُونِـي﴾ يحتمل أن تكون رؤية قلب ، فيكون قوله : [شُرَكاءَ] مفعولًا ثالثاً ، وهذا هو الصحيح ، أي : أَرُوني بالحُجَّة والدليل كيف وجه الشركة ، وقالت فرقة : هي رؤية بصر ، و [شُرَكَاءَ] حال من الضمير المفعول بـ [أَلْحَقْتُمْ] والعائد على [الَّذِينَ] ، وهذا ضعيف ، لأَن استدعاء رؤية العين في هذا لا غناء له .

وقوله : [كَلَّا] ردٌّ لما تقرّر من مذهبهم في الإشراك بالله تعالى ، وَوَصَفَ سبحانه وتعالى نفسه باللائق من العزّة والحكمة .

قوله عزّ وجلّ :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

هذا إعلامٌ من الله تبارك وتعالى بأَنه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جميع العالم ، و «الكَافَّةُ» : الجمع الأَكمل من الناس ،

وهي نصب على الحال ، وقدَّمها للاهتمام ، وهذه إحدى الخصال التي خُصَّ بها محمد صلى الله عليه وسلم من بين الأَنبياءِ ، والتي حصرها في قوله عليه الصلاة والسلام : (أُعطيتُ خمساً لم يُعطَهُنَّ أَحدٌ قبلي : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تحل لأَحد قبلي ، وأُوتيت جوامع الكلم ، وجُعلت لي الأَرض مسجداً وطهوراً ، وبُعث كلُّ نبيٍّ إلى خاص من الناس وبُعِثْت إلى الأَحمر والأَسود) ، وفي هذه الخصال زيادة في كتاب مسلم (١) .

وقوله : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يريد به العموم في الكفرة ، والمؤمنون هم الأَقل .

ثم حكى عنهم مقالتهم في الهُزْءِ بأَمر البعث ، واستعجالهم — على معنى التكذيب — بقولهم : ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ؟ فأَمر الله تعالى نبيَّه بأَن يخبرهم عن ميعاد يوم هو يوم القيامة ، لا يتأَخر عنه أَحد ولا يتقدمه . قال أَبو عبيدة : الوعْد والوعيد والميعاد بمعنى ، وخولف

(١) أخرجه أبو داود في السِّير والصلاة ، والبخاري في التيمم والجهاد والصلاة والاعتصام ، ومسلم في المساجد ، والترمذي في السِّير ، والنسائي في الغسل والجهاد ، وأحمد في مواضع كثيرة في مسنده . ومن الزيادات التي في صحيح مسلم وأشار إليها ابن عطية قوله صلى الله عليه وسلم في بعض الروايات : (وأُعطيت الشفاعة) ، وقوله في رواية أخرى : (وختم بي النبيُّون)، وقوله في غيرهما : (وبينا أنا نائم أُوتيتُ بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي) .

في هذا ، والذي عليه الناس أن الوعد في الخير ، والوعيد في المكروه ، والميعاد يقع لهذا ولهذا ، وأضاف الميعاد إلى اليوم تَجَوُّزاً من حيث كان فيه ، وتحتمل الآية أن يكون استعجال الكفرة لعذاب الدنيا ، ويكون الجواب عن ذلك أيضاً ، ولم يجر للقيامة ذكر على هذا التأْويل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

حُكيت في هذه الآية مقالة قالها بعض قريش ، وهي أنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بما بين يديه من التوراة والإنجيل والزَّبور ، وكأنَّهم كذَّبوا بجميع كتب الله ، وإنما فعلوا هذا لما وقع الاحتجاج عليهم بما في التوراة من أمر محمد عليه الصلاة والسلام . وقالت فرقة : «والَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» هي الساعة والقيامة ، وهذا خطأٌ لم يفهم قائله أمر «بَيْنَ الْيَدِ» في اللغة وأنه المتقدم في الزمن ، وقد بيَّنا معناه فيما تقدم .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى نبيَّه عن حالة الظالمين في صيغة التَّعجب من حالهم ، وجواب [لَوْ] محذوف ، و ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ﴾ يريد : يتحاورون ويتجادلون ، ثم فسَّر ذلك الجدل بأن الأَتباع والضعفاء من الكفرة يقولون للكبار والرؤوس – على جهة التَّذْنيب والتوبيخ وردٍّ اللائمة عليهم – : لولا أنتم لآمَنَّا نحن واهتدينا ، أي : أنتم أغويتمونا وأمرتمونا بالكفر ، فقال لهم الرُّؤَساءُ – على جهة التقرير والتكذيب – : أنحن صددناكم عن الهدى ؟ بل كنتم مجرمين ، أي : دخلتم في الكفر ببصائركم ، وأجرمتم بنظر منكم ، ودعوتنا لم تكن ضربة لازم عليكم ؛ لأنا دعوناكم بغير حجة ولا برهان ، هذا كله يتضمنه اللفظ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

هذه مراجعة من الأَتباع للروَساء حين قالوا لهم : إنما كفرتم ببصائركم ومن أنفسكم ، فقال المستضعفون : بل كفرنا بمكْرِكم

بنا في اللَّيل والنهار ، وأَضاف المكر إلى اللَّيل والنهار من حيث هو فيهما ، ولتدلَّ هذه الإِضافة على الدُّءوب والزمان ، كما قالوا : ليلٌ نائم ونهار صائم ، وأَنشد سيبويه :

* فَنَـــام لَيْلِي وتَجَـــلَّى هَمِّي *(١)

وهذه قراءَة الجمهور ، وقرأَ قتادة بن دعامة : ﴿بَلْ مَكْرٌ﴾ مُنَوَّناً ﴿ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ نصباً ، وذُكرت عن يحيي بن يَعْمَر ، وكأَن معناها الإِحالةُ على طول الأَمل والاغترار بالأَيام ، مع أَمْر هؤلاءِ الرُّؤَساءِ بالكفر .. و [النِّدُّ» : المثيل والشَّبيه ، والضمير في قوله : [وَأَسَرُّوا] عام في جميع من تقدم من المستضعفين والمستكبرين ، و [أَسَرُّوا] معناه : اعتقدوها في نفوسهم ، ومعتقدات النفس كلها سِرٌّ ، لا يعقل غير ذلك ، وإنما يظهر ما يصدر عنها من كلام أَو قرينة . وقال بعض

---

(١) أي : نمتُ فيه : وهذا مثل قول جرير :

لَقَدْ لُمْتِنَا يا أُمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ونِمْتِ وما لَيْلُ الْمَطِيِّ بِنَائِمِ

إذ أسند النوم إلى الليل إسناداً مجازياً عقلياً ، والأصل أن يسند النوم إلى الناس ، وهذا من باب التوسع المجازي ، والعلاقة هنا الزمانية . قال الفراءُ في (معاني القرآن) : « المكر ليس لِلَّيل ولا للنهار ، وإنما المعنى : بل مكركم باللَّيل والنهار ، وقد يجوز أن تُضيف الفعل إلى الليل والنهار ، ويكونا كالفاعلين ؛ لأن العرب تقول : نهارُك صائم ، وليلُك قائم ، ثم تضيف الفعل إلى الليل والنهار وهو في المعنى للآدميين ، كما تقول : نام ليلُك » ا هـ . (معاني القرآن ٢-٣٦٣) .

الناس : [أَسَرُّوا] : أَظهروا ، وهي من الأَضداد ، وهذا كلام من لم يعتبر المعنى ، أَما نفس الندامة فلا تكون إِلَّا مُسْتَسَرَّة ضرورة ، وأَما الظاهر عنها فغيرها ، ولم يثبت قطُّ في لغة أَن (أَسَرَّ) من الأَضداد .

وقوله تعالى : ﴿لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ﴾ أَي : وافوه وتيقَّنوا حصولهم فيه . وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾

هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن فعل قريش وقولها ، أَي : هذه يا محمد سيرة الأُمم ، فلا يهمنك أَمر قومك ، و « القرية » : المدينة ، و « المُتْرف » : المنعم البطال الغنيُّ القليلُ تعب النفس والجسم ، فعادتهم المبادرة بالتكذيب .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَاداً ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على « المُتْرَفين » ، ويكون ذلك من قولهم مع تكذيبهم ، ولمّا كانت قريش مثلهم أمره الله تعالى أن يقول : ﴿ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ﴾ الآية ، ويحتمل أن يكون الضمير في [قالوا] لقريش ، ويكون كلامُ « المُترفين » قد تقدم ، ثم تطَّرد الآية بعد . ومعنى قولهم : ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَاداً ﴾ الاحتجاج بأَن الله لم يعطنا هذا وقدَّره لنا إلّا لرضاه عنّا وعن طريقتنا ، ونحن ممن لا يُعَذَّب البتَّة ؛ إذ الله الذي تزْعُم أنت عِلْمَه بجميع الأَشياء وإحاطته قد قدَّر علينا النِّعم ، فهو إذًا راضٍ عنَّا . وقال بعض المفسرين : معنى قولهم : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أَي : بالفقر ، وهذا ليس كالأَول في القوة ، فأَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يقول : إن الأَمر ليس كما ظنُّوا ، بل بَسْط الرزق وقدره مُعلَّق بالمشيئة في كافر ومؤمن ، وليس شيءٌ من ذلك دليلًا على رضي الله والقرب منه ؛ لأَنه قد يُعطي ذلك أَملًا واستدراجاً ، ولكن كثيراً من الناس لا يعلم ذلك كأَنتم أَيُّها الكفرة . وقرأَت فرقة : [وَيَقْدِرُ] ، وفرقة بالتشديد ، وهي راجعة إلى معنى التَّضْييق الذي هو ضد البَسْط .

ثم أخبرهم أن أموالهم وأولادهم ليست بمقَرِّبة من الله [زُلْفَى] ، وهي مصدر بمعنى القُرب ، وكأنه قال : تقربكم عندنا تقريباً ، وقرأ الضحاك : [زُلَفاً] بفتح اللّام والتنوين . وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ﴾ استثناءٌ ، و [مَنْ] في موضع نصب بالاستثناء . وقال الزجاج : هي بدل من الضمير في [تُقَرِّبُكُمْ] ، وقال الفراءُ : هي في موضع رفع ، وتقدير الكلام : ما هو مقرِّب إلَّا من آمن . وقرأ الجمهور : ﴿جَزَاءُ الضِّعْفِ﴾ بالإضافة ، وقرأ قتادة : [جَزَاءٌ] منوناً [ٱلضِّعْفُ] رفعاً ، وحكى عنه الدَّاني [جَزَاءً] نصباً منوناً [ٱلضِّعْفَ] نصباً . و «ٱلضِّعْفُ» هنا اسم جنس ، أي التَّضعيف ؛ إذ بعضهم يجازى إلى عشرة ، وبعضهم أكثر صاعداً إلى سبعمائة بحسب الأعمال ومشيئة الله فيها .

وقرأ الجمهور : ﴿فِي ٱلْغُرُفَاتِ﴾ بالجمع ، وقرأ حمزة وحده : ﴿فِي ٱلْغُرْفَةِ﴾ على اسم الجنس يراد به الجمع ، ورويت عن الأعمش ، وهما في القراءة حسنتان . قال أبو علي : وقد يجيءُ هذا الجمع بالألف والتاءِ «الغُرُفاتِ» ونحوه للتكثير ، ومنه قول حسَّان :

لنَا الْجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى وأَسْيافُنَا يَقْطُرْنَ مِن نَجْدةٍ دما (١)

(١) البيت من قصيدة في الفخر ، بدأها حسَّان بقوله : «أَلَمْ تسْأَلِ الرَّبْعَ الجديدَ التَّكَلُّمَا» ، والجفنة : القصعة ، وجمعها : جفانٌ وجفَنَات ، وفي التنزيل العزيز : ﴿وَجِفَانٍ =

فلم يُرد إلا كثرة جفان ، وتأَمَّل نقد الأَعشى في هذا البيت .

وقرأَ الأَعمش ، والحسن ، وعاصم - بخلاف - : ﴿ في ٱلْغُرْفَاتِ ﴾ بسكون الراءِ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى المؤمنين العاملين للصالحات وثوابهم عقَّب بذكر ضدهم وذكر جزائهم ليظهر تبايُن المنازل ، وقرأَت فرقة : [مُعَاجِزِينَ] ، وفرقة [مُعْجِزِينَ] ، وقد تقدم تفسيرها .

و [مُحْضَرُونَ] من الإِحضار والإِعداد .

ثم كرَّر بسط الرِّزق وقَدْرَهُ تأَكيداً وتَبْيِيناً ، وقصد به هنا رزق المؤمنين ، وليس سوقُه على المعنى الأَول الذي جُلب للكافرين ،

= كالْجَوَابِ ﴾ ، وفي أمثال العرب : « ادْعُ إلى طِعانك من تدعو إلى جِفَانك » . ويقْطُرْنَ : يتزل منها الدَّمُ قطْرةً قطْرة ، والنجدة : الشجاعة في القتال وسرعة الإغاثة . ونقد الأعشى للبيت مشهور وموجود في كتب الأدب .

بل هذا هنا على جهة الوعظ والتَّزهيد في الدنيا ، والحض على النفقة في الطَّاعات ، ثم وعد بالخُلْف في ذلك وهو بشرط الاقتصاد والنِّيَّة في الطَّاعة ودفع المضرَّات وعدٌ منجز ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة . وروى أَبو هريرة رضي الله عنه أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله قال لي : أَنفِق أُنْفِق عليك)(١) ، وفي البخاري : (إنَّ الملَك يُنَادي كل يوم ، اللَّهم أَعط مُنفقاً خَلَفاً ، ويقول ملَك آخر : اللَّهم أَعْط مُمْسِكاً تَلَفاً)(٢) ، وقال مجاهد : المعنى : إن كان خلف فهو مُوليه ومُيَسِّره ، وقد لا يكون الخلف .

وأَما قوله : ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ﴾ فمن حيث يقال في الإِنسان : إنه يرزق عياله ، والأَمير جُنده ، لكن ذلك من مالٍ يملك عليهم ، والله تعالى من خزائن لا تفنى(٢) ، ومن إخراج من عدم إلى وجود . وقرأَ الأَعمش : [وَيُقَدِّرُ] بضم الياءِ وشدِّ الدال .

---

(١) أخرج البخاري ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قال الله عزَّ وجلَّ : أَنْفِق يابن آدم أُنْفق عليك) . (الدر المنثور) .

(٢) أخرجه البخاري ، ومسلم في الزكاة ، وأخرجه أحمد في مسنده (٥-١٩٧) ، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما طلعت شمس قط إلا بعث بِجَنْبَتَيْهَا ملكان يناديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يأيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، فإن ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثر وألْهى ، ولا آبت شمس قط إلا بعث بِجَنْبَتَيْهَا ملكان يناديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : اللَّهم أَعْط منفقاً خَلَفاً ، وأَعْط مُمْسِكاً مالا تَلَفًا) .

(٢) يعني : يرزق من خزائن لا تفنى ... الخ .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾

هذه آية وعيد للكفار ، والمعنى : واذكر يومَ . وقرأ الجمهور : [نَحْشُرُهُمْ] ، ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ بالنون فيهما ، ورواها أبو بكر عن عاصم ، وقرأ حفص عن عاصم بالياء فيهما ، وذكرها أبو حاتم عن أبي عمرو .

والقول للملائكة هو توقيف تقوم منه الحجة على الكفار عَبَدَتِهِم ، نحو قوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾(١) ،

---

(١) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة) .

وإذْ قال الله تعالى للملائكة هذه المقالة قالت الملائكة : [سُبْحَانَكَ] ، أَي : تنزيهاً لك عما فعل هؤلاءِ الكفرة ، ثم بَرَّءُوا أَنفسهم بقولهم : ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ يريدون البراءَة من أَن يكون لهم عِلْم أَو رضًى أَو مشاركة في أَن يعبدهم البشر ، ثم قرروا أَن البشر إِنما عبدوا الجنَّ برضى الجنِّ وبإِغوائها للبشر ، فلم تنف الملائكة عبادة البشر إِيَّاها ، وإِنما قررت أَنها لم تكن لها في ذلك مشاركة ، ثم ذنَّبت الجن . وعبادة البشر للجن هي فيما نعرفه نحن : طاعتهم إِياهم ، وسماعهم من وسوستهم وإِغوائهم ، فهذا نوع من العبادة ، وقد يجوز أَن كان في الأُمم الكافرة من عبد الجنَّ ، وفي القرآن آياتٌ يظهر منها ذلك في الأَنعام وغيرها .

ثم قال سبحانه : [فَالْيَوْمَ] ، وفي الكلام حذف ، تقديره : «فيقال لهم» ، أَي : لمن عَبَدَ ولِمنْ عُبِدَ : ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرًّا﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ . ذكر في هذه الآية أَقوالهم وأَنواع كلامهم عندما يُقرأُ عليهم القرآن ، ويسمعون حِكَمه وبراهينه البَيِّنَة ، فقائِلٌ طعن على النبي صلى الله عليه وسلم بأَنه يقدح في الأَوثان ودين الآباءِ ، وقائلٌ طعن عليه بأَن هذا القرآن

مفترى ، أَي : مصنوع من قِبَلِ محمد ويدَّعي أَنه من عند الله ، وقائل طعن عليه بأَن ما عنده من الرقة واستجلاب النفوس واستمالة الأَسماع إنما هو سحْرٌ يجلب به ويستدعي ، تعالى الله عن أَقوالهم ، وتقدَّست الشريعة عن طعنهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ * قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

معنى هذه الآية أَنهم يقولون بآرائهم في كتاب الله تبارك وتعالى ، فيقول بعضهم : سحرٌ ، وبعضهم : افتراءٌ ، وهو منهم تجرُّؤٌ لا يستندون فيه إِلى أَثارة علم(١) ، ولا إِلى خبر من يُقبل خبره ، فإِنا ما آتيناهم

(١) الأَثارة : العلامة ، وبقية الشيء ، وفي الكتاب العزيز : ﴿ إِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، (٤) (الأحقاف) .

كتباً يدرسونها ، ولا أرسلنا إليهم نذيراً فيمكنهم أن يدّعوا أن أقوالهم تستند إلى أمره .

وقرأ جمهور الناس : [يَدْرُسُونَهَا] بسكون الدال ، وقرأ أبو حيوة : [يَدَّرِسُونَهَا] بفتح الدال وشدها وكسر الراءِ ، والمعنى : ما أرسلنا من نذير يشافِهُهُم بشيءٍ ، ولا يباشر أهل عصرهم ولا من قَرُب من آبائهم ، وإلَّا فقد كانت النِّذارة في العالم وفي العرب مع شعيب وصالح وهود ، ودعوة الله وتوحيده أمر قديم ، ولم تخْلُ الأَرض من داع إليه ، فإنما المعنى : مِنْ نَذِيرٍ يختص بهؤلاءِ الذين بعثناك إليهم ، وقد كان عند العرب كثير من نذارة إسماعيل عليه السلام ، والله تعالى يقول : ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾(١) ، ولكن لم يتجرَّد للنذارة ولا قاتل عليها إلَّا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ثم مثَّل لهم بالأُمم المكذبة قبلهم ، وقوله : ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها أن يعود الضمير في [بَلَغُوا] على قريش ، وفي [آتَيْنَاهُمْ] على الأُمم الذين من قبلهم ، والمعنى : من القوة والنعم والظهور في الدنيا ، قاله ابن عباس ، وقتادة ،

(١) من الآية (٥٤) من سورة (مريم) .

وابن زيد رضي الله عنهم . والثاني بالعكس ، والمعنى : من الآيات والبيان والنور الذي جئتهم به ، والثالث أَن يعود الضمير على الأُمم المتقدمة ، والمعنى : من شكر النعمة وجزاءِ المِنَّة . و «المِعْشَارُ» : العُشْر ، ولم يأْت هذا البناءُ إلَّا في العشرة والأَربعة ، فقالوا : مِرْبَاع ومِعْشار ، وقال قوم : المِعْشَارُ : عُشْرُ العُشْر ، وهذا ليس بشيءٍ .

و «النَّكِيرُ» مصدر كالإِنكار في المعنى ، وكالعرين في الوزن ، وسقطت الياءُ منه تخفيفاً لأَنها آخر آية ، و «كَيْفَ» تعظيم للأَمر ، وليست استفهاماً مجرداً ، وفي هذا تهديد لقريش ، أَي : إنهم مُعَرَّضون لنكير مثله .

ثم أَمر نبيه صلى الله عليه وسلم أَن يدعوهم لعبادة الله ، والنظر في حقيقة نُبُوَّته هو ، ويعظهم بأَمر يقرب للأَفهام ، فقوله : [بِوَاحِدَةٍ] معناه : بقضية واحدة إيجازاً لكم وتقريباً عليكم ، وقوله : [أَنْ] مفسرة ، ويجوز أَن تكون بدلًا من [وَاحِدَةٍ] . وقوله : ﴿تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ يحتمل أَن يريد بالطاعة والإِخلاص والعبادة ، فتكون الواحدة التي وعظ بها هذه ، ثم عطف عليها أَن تَتَفَكَّرُوا في أَمره هو ، هل به جِنَة أَو هو بريءٌ من ذلك ؟ والوقف عند أَبي حاتم [تَتَفَكَّرُوا] ، فيجيءُ ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ نفياً مُستأْنفاً ، وهو عند سيبويه جواب

ما تنزل منزلة القَسَم ؛ لأَن (تَفكَّرَ) من الأَفعال التي تعطي التحقيق كتَبَيَّن ، وتكون الفكرة ـ على هذا ـ في آيات الله والإيمان به ، ويحتمل أَن يريد بقيامهم أَن يكون لوجه الله في معنى التفكير في محمد عليه الصلاة والسلام ، فتكون الواحدة التي وعظ بها ﴿أَن تَقُومُوا﴾ ، والمعنى : أَن تقوموا للفكرة في أَمر حاجتهم ، وكأَن المعنى أَن يفكر الواحد بينه وبين نفسه ، وتتناظم الآيتان على جهة طلب التحقيق ، هل بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ جِنَّة أَم لا ؟ وعلى هذا لا يوقف على الفكرة . وقدم المثنى لأَن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أَجدى من فكرة واحدٍ ، فإِذا انقدح الحقُّ بين الاثنين فكَّر كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة ، وقد قال الشاعر :

إِذَا اجْتَمَعُوا جَاءُوا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ فَيَزْدَادُ بعْضُ الْقَوْمِ من بَعْضِهِمْ عِلْماً (١)

وقرأَ يعقوب : ﴿ثُمَّ تفَكَّرُوا﴾ بتاءٍ واحدة ، وقال مجاهد : [بِوَاحِدَةٍ] معناه : لا إِله إِلَّا الله ، وقيل غير هذا مما لا تعطيه الآية .

وقوله : ﴿بَيْنَ يَديْ﴾ يترتب على أَن محمداً صلى الله عليه وسلم جاءَ في الزمان من قبل العذاب الشديد الذي تُوُعِّدُوا به .

---

(١) يريد أن لقاءَ الأفكار ، وتجمع الآراء نتيجة للحوار والمناقشة يأتي بكل نادر وغريب ، والإنسان يتعلم من غيره إذا التقى معه في نقاش موضوعي هادئ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾

أمر الله تعالى في هذه الآية بالتَّبَرِّي من طلب الدنيا وطلب الأَجر على الرسالة ، وتسليم كل دنيا إلى أَربابها ، والتوكل على الله في الأَجر وجزاءِ الحدِّ ، والإقرار بأَنه شهيد على كل شيءٍ من أَفعال البشر وأَقوالهم وغير ذلك .

قوله تعالى : ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ ، يريد : بالوحي وآيات القرآن ، واستعار له القذف من حيث كان الكفار يرمون بآياته وحكمه ، وقرأَ الجمهور : [عَلَّامُ] بالرفع ، أَي : هو علّام ، ونصبها عيسى بن عمر ، وابن أَبي إسحق ، إِما على البدل من اسم [إِنَّ] ، أَو على المدح ، وقرأَ الأَعمش : « وهو عَلَّام الغُيوب » ، وقرأَ عاصم : [الْغِيُوب] بكسر الغين .

قوله : ﴿قُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ﴾ يريد الشرعَ وأَمْرَ الله ونهْيه ، وقال قوم : يعني السيف . وقوله : ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ، قالت فرقة : الباطلُ غيْرُ الحق ، من الكذب والكفر ونحوه ، استعار له الإبداءَ والإعادة ونفاهما عنه ، كأَنه قال : وما يصنع الباطل شيئاً . وقالت فرقة : الباطلُ : الشيطان ، والمعنى : وما يفعل الباطل شيئاً مفيداً ، أي : ليس يخلق ولا يرزق . وقالت فرقة : [ما] استفهام ، كأَنه قال : وأَيّ شيءٍ يصنع الباطل ؟

وقرأَ الجمهور : [ضَلَلْتُ] بفتح اللام ، ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ﴾ بكسر الضاد ، وقرأَ الحسن ، وابن وثاب : [ضَلِلْتُ] بكسر اللام [أَضَلُّ] بفتح اللام ، وهي لغة تميم .

وقوله : [فَبِمَا] يحتمل أَن يكون بمعنى الذي ، ويحتمل أَن تكون [ما] مصدرية ، و [قَرِيبٌ] معناه : بإحاطته وإجابته وقدرته .

واختلف المتأَولون في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ الآية - فقال ابن عباس ، والضحاك : هذا في عذاب الدنيا ، ورُوي أَن ابن أَبزى (١) قال : ذلك في جيش يغزو الكعبة فيخسف بهم في بيداءَ من الأَرض ،

---

(١) في الأصل : «وروي أن أبْزى» ، والصواب ما ذكرناه .

ولا ينجو إلَّا رجلٌ من جهينة ، فيخبر الناس بما نال الجيش ، وقالوا : وبسببه قيل :

. . . . وعِنْدَ جُهَيْنَةَ ٱلْخَبَـرُ ٱلْيَقِينُ (١)

وهذا قول بعيد ، وروي في هذا المعنى حديث مطوَّل عن حذيفة ، وروى الطبريُّ أنه ضعيف السَّنَد مكذوب فيه على ابن روَّاد بن الجرَّاح (٢) وقال قتادة : ذلك في الكفار في بدر ونحوها . وقال الحسن بن أبي الحسن:

---

(١) هذا عجز بيت من الوافر ، وقد صار مثلا يضرب في معرفة حقيقة الشيء ، وقد ذكر الميداني قصة المثل في « مجمع الأمثال » في خبر طويل خلاصته أن رجلا من جهينة اسمه الأخنس بن كعب أحدث في قومه أمْراً ثم فرَّ هارباً ، فلقي حصين بن عمرو الكلابي ، وكان قد خرج من قومه أيضاً لأمر قد أحدثه ، وتعارفا ، ثم صحب كل منهما صاحبه على حذر ، ومضيا يقطعان الطريق على الناس ، حتى التقيا برجل من لَخْم يتناول الطعام ومعه أمرال كثيرة ، فدعاهما لطعامه فأكلا وشربا وتحدثا ، ثم ابتعد حصين لبعض أمره ، فقتل الجهيني اللخمي ، فلما عاد حصين فوجئ بذلك ، فلام صاحبه على فعلته ، وقال : ويحك ، فتكت برجل قد تحرمنا بطعامه وشرابه ، ثم غافل الجهيني حصيناً وقتله ، وأخذ متاعه ومتاع اللخمي وعاد إلى قومه ، وفي الطريق التقى بامرأة حصين تسأل عنه فأخبرها أنه قتل زوجها ، ثم وقف في القوم يقول أبياتاً منها :

تُسائِلُ عَنْ حُصَيْنٍ كُلَّ رَكْبٍ وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ
جُهَيْنَةُ مَعْشَرِي وهُمُ مُلُوكٌ إذَا طَلَبُوا الْمَعَالِيَ لَمْ يَهُونُوا

وقال الأصمعي ، وابن الأعرابي : اسمه جُفَيْنَة بالفاء ، وكان عنده خبر رجل مقتول ، وفيه يقول الشاعر :

تُسائِلُ عَنْ أَبِيهَا كُلَّ رَكْبٍ وعِنْدَ جُفَيْنَةَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ

(٢) في الأصل : « عَلَى روَّاد بن الجرَّاح » ، والتصويب عن الطبريّ وفيه ، حدثنا عصام بن روَّاد بن الجراح ... الخ » ، والخبر بطوله هناك .

ذلك في الكفار عند خروجهم من القبور للقيامة . وهذا أَرجح الأَقوال عندي .

وأَما معنى الآية فهو التعجب من حالهم إذا فزعوا من أَخذ الله إياهم ، ولم يتمكن لهم أَن يفوت منهم أَحد ، وقوله : ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ معناه : أَنهم للقدرة قريبٌ حيث كانوا ، قيل : من تحت الأَقدام ، وهذا يتوجه على بعض الأَقوال ، والذي يعُمُّ جميعها أَن يقال : إنَّ الأَخذ يجيئُهم من قرب في طمأْنينتهم ، بينا الكافر يُؤَمِّل ويظُنُّ ويترجَّى إذ غشيه الأَخذ ، ومن غشيه أُخذ من قريب فلا حيلة له ولا روِيَّة ، وقرأَ الجمهور : [أُخِذُوا] ، وقرأَ طلحة بن مصرِّف : ﴿فَلَا فَوْتَ وَأَخْذٌ﴾ ، كأَنه قال : وحالهم أَخْذٌ [1] .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾

الضمير عائد على الله تعالى في قوله : [بِهِ] ، وقيل : على محمد صلى الله عليه وسلم وشرعه والقرآن . وقرأَ ابن كثير ، ونافع ،

(١) قال ابن جني : يجوز أن يكون فاعلا لفعل محذوف ، والتقدير : وأحاط بهم أَخْذٌ ، ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف ، والتقدير : وهناك أَخْذٌ لهم .

وعاصم ، وابن عامر ، وعامة القراء : [ٱلتَّنَاوُش] بضم الواو دون همز ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم أيضاً بالهمز ، والأُولى معناها : التَّناول ، من قولهم : ناشَ ينوشُ إذا تناول ، وتناوَشَ القومُ في الحرب إذا تناول بعضهم بعضاً بالسلاح ، ومنه قول الشاعر :

فَهْيَ تَنُوشُ الْحَوْضَ نَوْشاً مِن عَلَا نَوْشاً بِهِ تَقْطَعُ أَجْوَازَ الْفَلَا (١)

فكأَنه قال : وأَنَّى لهم تناوُل مرادهم وقد بعُدوا عن مكان إمكان ذلك .

وأَما الهمز فيحتمل أَن يكون مما تقدم وهُمزت الواو لمَّا كانت مضمومة

(١) هذان البيتان من الرَّجز المشطور ، ذكرهما صاحب التاج ، وصاحب اللسان مرتين ، مرة في (عَلا) شاهداً على أن قوله : (مِنْ عَلا) معناه : من أعْلى ، ومرة في (نَوَشَ) شاهداً على أن التَّناوُشُ معناه : التَّناول ، وقال في التاج : هو لأبي النَّجم الراجز ، أو لِغَيْلان ابن حريث ، أما في اللسان فقد نسبه إلى أبي النجم في (علا) ، وإلى غَيْلان في (نوشَ) . وذكرهما الجوهري في الصحاح ولكنه لم ينسبهما ، وقال : المعنى أنها تتناول ماءَ الحوض من فوق وتشرب شرباً كثيراً ، وتقطع بذلك الشُّرب فلوات فلا تحتاج إلى ماءٍ آخر . وذكرهما كذلك الفراءُ في (معاني القرآن) ، وأبو عبيدة في (مجاز القرآن) .

هذا والضمير في (فَهْيَ) يعود على الإبل ، وتنوش الحوضَ : تتناول منه الماءَ ، مِنْ عَلا : من فوق ، وأجواز : جمع جَوْزٍ وهو الوسط ، أي : وسط الصحراء الواسعة ، يصف الإبل بأنها عالية الأجسام طويلة الأعناق ، ولذلك فهي تتناول الماءَ من الحوض من فوق وتشرب كثيراً ، فيساعدها ذلك على قطع الفلاة بدون أن تحتاج إلى ماءٍ آخر .

بضمة لازمة ، كما قالوا : أُقِّتَتْ وغير ذلك (١) ، ويحتمل أن يكون من الطلب ، تقول : «تَنَاءَشْتُ الشيءَ»(٢) إذا طلبته من بعيد . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : تَنَاوُش الشيءِ : رُجوعُه ، حكاه عنه ابن الأَنباري ، وأنشد :

تَمَنَّى أَنْ تَؤُوبَ إِلَيْكَ مَيٌّ وَلَيْسَ إلى تَنَاوُشِهَا سَبِيلُ (٣)

وكأَنه قال في الآية : وأَنَّى لهم طلب مرادهم وقد بَعُدَ؟ وقال مجاهد : المعنى : من الآخرة إلى الدنيا .

وقرأَ الجمهور : [وَيَقْذِفُونَ] بفتح الياءِ وكسر الذَّال ، على إسناد الفعل إليهم ، أَي : يرجمون بظنونهم ، ويرمون بها الرسول وكتابَ الله ، وذلك غَيْبٌ عنهم ، في قولهم : سِحْرٌ وافتراءٌ وغير ذلك ، قاله مجاهد ،

---

(١) قال أبو حيّان الأندلسي تعقيباً على ذلك : «ليس على إطلاقه ، بل لا يجوز ذلك في المتوسطة إذا كانت مدغمة فيها» .

(٢) في الأصل : «اتناءشت الشرَّ» ، وهو خطأٌ ، والصواب ما ذكرناه ، ونعتقد أن هذا الخطأ نشأ عن تحريف من النساخ .

(٣) هذا شاهد على أن التناوش يكون بمعنى الرجوع ، ويروى البيت : «تَمَنَّى أن تَؤُوب إليَّ» ، وآب معناها : رجع ، وفي الكتاب العزيز : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ، وفي الحديث الشريف أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أقبل من سفر قال : (آيبونَ تائبون ، لربِّنا حامدون) ، وعلى هذا يكون معنى البيت : يتمنى رجوع ميٍّ ولكن ليس إلى رجوعها من سبيل ، ويكون المعنى في الآية : يطلبون الرجعة إلى الدنيا ليؤمنوا ، وهيهات لهم ذلك .

وقال قتادة : قذفهم بالغيب هو قولهم : لا بعث ولا جنة ولا نار . وقرأ مجاهد بضم الياءِ وفتح الذَّال ، على معنى : ويَرْجُمهم الوحي بما يكرهون من السماءِ .

قوله : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية . قال الحسن : معناه : من الإِيمان والتوبة والرجوع إلى الأَمانة والعمل الصالح ، وذلك أَنهم اشتهوه في وقت لا تنفع فيه التوبة ، وقاله أَيضاً قتادة ، وقال مجاهد : معناه : حِيلَ بينهم وبين نعيم الدنيا ولذَّاتها ، وقيل : معناه : حِيلَ بينهم وبين الجنة ونعيمها ، وهذا يتمكن جداً على القول بأَن الأَخْذَ والفزع المذكور هو يوم القيامة[١] .

قوله : ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ أَي الفِرَق المشابهة لهم من كل أُمَّة ، وهو جمع شِيعَة[٢] ، وقوله : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يصلح في بعض

---

(١) قال الحوفي : الظرف قائم مقام اسم ما لم يُسَمَّ فاعله في قوله تعالى : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾ ، وقد عارضه أبوحيَّان ، وبيانُ بطلان ذلك في البحر المحيط « ٧–٢٩٤ » . ثم قال : « وإنما يُخَرَّج ما ورد من مثل هذا على أن القائم مقام الفاعل هو ضمير المصدر الدال عليه (وحِيلَ) ، أي : هُوَ ، وهو الحَوْل ، ولكونه أُضمر لم يكن مصدراً مؤكداً فجاز أن يُقام مقام الفاعل ، وعليه يُخَرَّج قول الشاعر :

وقالَتْ : مَتَى يُبْخَلْ عَلَيْكَ ويُعْتَلَلْ بِسُوءٍ وإنْ يُكْشَفْ غرامُكَ تدرب

أي : ويُعْتَلَل هو ، أي الاعتلال » .

(٢) في رأي أكثر اللغويين أن (أشْياع) جمع (شِيَع) ، و (شِيَع) : جمع (شِيعَة) .

الأَقوال المتقدمة تعلُّقه بـ [فُعِلَ] ، ويصلح ـ على قول من قال : إن الفزع يوم القيامة ـ تعلقه بـ [أَشْيَاعِهِمْ] ، أَي : بمن اتصف بصفتهم من قبل في الزمان الأَول ، لأَن ما يُفعل بجميعهم إنما هو في وقت واحد ، لا يقال فيه : من قبل .

و «الشَّكُّ المُرِيبُ» : أَقوى ما يكون من الشَّكِّ وأَشَدُّه إظلاماً(١)، والله أَعلم .

كمل بعون الله وتوفيقه تفسير سورة سبأ

والحمد لله رب العالمين

(١) نسبة الإرابة إلى الشّكّ مجاز ؛ قال الزمخشري : إلا أن بينهما فرْقاً ، وهو أن (المُريبَ) من المُتَعَدّي منقولٌ ممن يصح أن يكون مُريباً من الأعيان إلى المعنى ، ومن اللازم منقول من صاحب الشّكّ إلى الشّكّ ، كما تقول : شعرٌ شاعرٌ .

قيل : ويجوز أن يكون قد أَرْدَفَ (المُريب) على (الشّكِ) وهما بمعنى واحد لتناسق آخر الآية بالتي قبلها من مكان قريب ، كما تقول : عجب عجيب ، وشتاً شاتٍ ، وليلةٌ لَيْلاء، أي : هو نوع من التأكيد .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٣٥) سُورَةُ فَاطِرٍ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ

هذه السورة مكِّيَّة (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ

---

(١) أخرج البخاري ، وابن الضريس ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : أُنزلت سورة فاطر بمكة ، قال القرطبي : في قول الجميع . وهي خمس وأربعون آية .

غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ للهِ ﴾ ، الأَلف واللام في [ٱلْحَمْد] لاستغراق الجنس على أَتَمِّ عموم ؛ لأَن الحمد بالإطلاق على الأَفعال الشريفة بالكمال هو لله ، والشكر مستغرق فيه ؛ لأَنه فضل من فضوله . و [فاطِر] معناه : خالق ، لكن يزيد في المعنى الانفراد بالابتداءِ لخلقتها ، ومنه قول الأَعرابي : « أَنا فطرْتُهَا » ، أَراد : ابتدأْت حفرها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما كنت أَفهم معنى [فَاطِر] حتى سمعت قول الأَعرابي (١). وقرأَ الزهري ؛ ﴿ ٱلْحَمْدُ للهِ فَطَرَ ﴾ ، وقرأَ جمهور

(١) جاءَ أعرابيان إلى ابن عباس رضي الله عنهما يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : « أنا فطرتُهَا » أي : أنا ابتدأتُ حفرها ، والفَطْر في اللغة : الشَّقُّ عن الشيء ، يقال : فطرتُه فانفطر ، ومنه : فَطَرَ نابُ البعير ، أي طلع ، وسَيْفٌ فُطار ، أيْ : فيه تشقُّق ، قال عنترة :

وسَيْفِي كالعَقِيقَةِ فَهُوَ كِمعْسي ... سِلاحِي لا أَفَلَّ ولا فُطَارَا

أي : هو كشعاع الشمس ، وهو ضجيعي ، ليس فيه شقوق ولا ثلوم .

الناس : [جَاعِلِ] بالخفض ، وقرأت فرقة : [جَاعِلُ] بالرفع ، على قطع الصفة ، وقرأ خالد بن نشيط : [جَعَل] على صيغة الماضي [ٱلْمَلَائِكَةَ] نصباً ، فأما على هذه القراءة الأخيرة فنصب قوله : [رُسُلًا] على المفعول الثاني ، وأما على القراءتين المتقدمتين فقيل : أراد بـ [جَاعِلِ] الاستقبالَ ؛ لأن القضاء في الأزل ، وحذف التنوين منه تخفيفاً ، وعمِل عَمل المستقبل في [رُسُلًا] . وقالت فرقة : [جاعِل] بمعنى المضيِّ ، و [رُسُلًا] نصب بإضمار فعل ، و [رُسُلًا] معناه : بالوحي وغير ذلك من أوامر ، فجبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل رُسُلٌ ، والملائكة المتعاقبون رُسُل ، والمُسدِّدون لحكام العدل رُسُل ، وغير ذلك . وقرأ الحسن : [رُسْلًا] بسكون السِّين .

و [أُولِي] جمعُ واحِدُه (ذو) ، ومنه : التَّقِيُّ ذو نُهية ، والقوم أُولوا نُهيً ، وحُكي عن الحسن أنه قال في تفسير قول مريم عليها السلام : ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾(١) : علمتُ أن التَّقيَّ ذو نُهية .

وقوله تعالى : ﴿مَثْنى وَثُلَاثَ ورُبَاعَ﴾ ألفاظ معدولة من اثنين وثلاثة وأربعة ، فعُدلت في حالة التنكير فتعرفت بالعدْل ، فهي

(١) من قوله تعالى في الآية (١٨) من سورة (مريم) : ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ .

لا تنصرف للعدْل والتعريف ، وقيل : للعَدْل والصفة ، وفائدة العدل الدلالة على التكرار ؛ لأَن «مَثْنَى» بمنزلة قولك : اثنين اثنين . وقال قتادة : إن أَنواع الملائكة هي هكذا ، منها ما له جناحان ، ومنها ما له ثلاثة ، ومنها ما له أَربعة ، وشذَّ منها ما له أَكثر من ذلك ، ورُوي أَن لجبريل عليه السلام ستمائة جناح فيها اثنان يبلغان من المشرق إلى المغرب . وقالت فرقة : المعنى : إن في كل جانب من المَلك جناحين ، ولبعضهم أَربعة ، وإلَّا فلو كانت ثلاثة لواحد لما اعتدلت في معتاد ما رأَينا نحن من الأَجنحة ، وقيل : بل هي ثلاثة لواحد كالحوت ، والله أعلم بذلك .

وقوله تعالى : ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ تقرير لما يقع في النفوس من التعجب والاستغراب عند الخبر بالملائكة أُولي الأَجنحة ، أَي : ليس هذا ببدع في قدرة الله تبارك وتعالى؛ فإنه يزيد في خلقه ما يشاءُ ، ورُوي عن الحسن ، وابن شهاب أَنهما قالا : المزيد هو حسن الصوت ، قال الهيثم الفارسي : رأَيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال لي : «أَنت الهيثم الذي تزيِّن القرآن بصوتك ، جزاك الله خيراً» ، وقيل : الزيادة : الخطُّ الحسن ، وقال عليه الصلاة والسلام : (الخط

الحسن يزيد الحَقَّ وضوحاً)(١) ، وقال قتادة : الزيادة : ملاحة العينين ، وقيل غير هذا ، وإنما ذكَر هذه الأَشياءَ مَنْ ذكرها على جهة المثال ، لا أَن المقصود هي فقط ، وإنما مثلوا بأَشياءَ هي زيادات خارجة عن الغالب المعتاد الموجود كثيراً ، وباقي الآية بيِّن .

قوله تعالى : ﴿ما يَفْتَحِ ٱللهُ﴾ ، [مَا] شرطٌ ، و [يَفْتَح] جزم بالشرط ، و ﴿مِنْ رَحْمَةٍ﴾ عام في كل خير يعطيه الله لعباده جماعتهم وأَفرادهم ، وقوله : ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ فيه حذف مضاف ، أَي : من بعد إمساكه ، ومن هذه الآية سَمَّتِ الصوفيةُ ما يُعطاه (الصُّوفيُّ) من الأَموال والمطاعم وغير ذلك : الفتوحات ، ومنها كان أَبو هريرة رضي الله عنه يقول : «مُطرنا بنوءِ الفتح» ، ويقرأُ الآية (٢) .

وقوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا﴾ الآية ... خطابٌ لقريش ، وهو متَّجه لكل كافر ، لا سيَّما لعُبَّادِ غير الله ، وذكَّرهم تعالى بنعمته عليهم في خلقتهم وإيجادهم ، ثم استفهمهم على جهة التقرير والتوقيف

---

(١) أخرجه الدَّيْلَمي في مسند الفردوس ، عن أُم سلمة رضي الله عنها ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه ضعيف . وفي القرطبي : «وقال مهاجر الكلاعـي : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الخط الحسن ... الحديث) .

(٢) الخبر في موطإ الإمام مالك رحمه الله .

بقوله : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ ؟ أي : فليس الإله إلّا الخالق ، لا ما تعبدون أنتم من الأصنام ، وقرأ حمزة : [غَيْرِ] بالخفض نعت على اللفظ ، وخبر الابتداءِ [يَرْزُقُكُمْ] ، وبها قرأ أبو جعفر ، وشقيق ، وابن وثاب ، وقرأ الباقون بالرفع ، وهي قراءة شيبة بن نصاح ، وعيسى ، والحسن بن أَبي الحسن ، وذلك يحتمل ثلاثة أَوجه : النعتُ على الموضع والخبر مضمر ، تقديره : في الوجود ، أَو في العالم . وأَن يكون [غَيْرُ] خبر الابتداءِ الذي هو في المجرور ، والرفع على الاستثناءِ ، كأَنه قال : هل خالقٌ إلّا اللهُ ؟ فجرت [غَيْرُ] مجرى الفاعل الذي بعد إلّا (١) . وقوله : ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ يريد : بالمطر ، ومن [ٱلْأَرْضِ] يريد : بالنبات ، وقوله : ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي : فلا وجه تصرفون (فيه) عن الحق .

ثم سلَّى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بما سلف من حال الرُّسل مع الأُمم ، و [ٱلْأُمُور] تعم جميع الموجودات المخلوقات ، إلى الله مصير جميع

(١) قال أبو حيان في (البحر المحيط) : « وفي هذا نظر ، وهو أن اسم الفاعل أو ما جرى مجراه إذا اعتمد على أداة الاستفهام وأُجري مجرى الفعل فرفع ما بعده ، هل يجوز أن تدخل عليه (من) التي للاستغراق ، فتقول : هل من قائم الزيدون ؟ كما تقول : هل قائم الزيدون ؟ والظاهر أنه لا يجوز ، ألا ترى أنه إذا أُجري مجرى الفعل لا يكون فيه عموم خلافه إذا أُدخلت عليه (من) ، ولا أحفظ مثله في لسان العرب ، وينبغي ألا يقدم على إجازة مثل هذا إلا بسماع من كلام العرب » .

ذلك على اختلاف أَحوالها ، وفي هذا وعيد للكفار ووَعْد للنبي صلى الله عليه وسلم .

ثم وعظَ جميع العالَم وحذَّرهم غرور الدنيا بنعيمها وزُخرُفِها ، الشاغلة عن المعاد الذي له يقول الإنسان : يا ليتني قدمتُ لحياتي ، ولا ينفعه «لَيْت» يومئذ ، وحذَّر غرور الشيطان . وقوله : ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللهِ حَقٌّ﴾ عبارة عن جميع خبره عزَّ وجلَّ في خيْر وتنعيم أَو عذاب وعقاب . وقرأَ الجمهور : [ٱلْغَرُور] بفتح الغين ، وهو الشيطان ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقرأَ سماك العبدي ، وأَبو حيوة : [ٱلْغُرُورُ] بضم الغين ، وذلك يحتمل أَن يكون جمع غارٍّ كجالِسٍ وجُلُوس ، ويحتمل أَن يكون جمع غرٍّ ، وهو مصدر غَرَّه يغُرُّه غَرًّا ، ويحتمل أَن يكون مصدراً وإن كان شاذًّا في الأَفعال المتعدية أَن يجيءَ مصدرها على «فُعُول» لكنه قد جاءَ : «لَزِمَه لُزُوماً» ، و «نَهَكَهُ المرضُ نُهوكاً» ، فهذا مثله ، وكذلك هو مصدر في قوله تعالى : ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (١) .

---

(١) من الآية (٢٢) من سورة (الأعراف) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ ﴾ الآية ... يُقَوِّي قراءة من قرأ : [ٱلْغَرُورَ] بفتح الغين ، وقوله : ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ أي : بِالمُبَايَنَةِ والمقاطعة والمخالفة له باتِّباع الشَّرع . و « الحِزْبُ » : الحاشية والصاغية (١) ، واللام في [لِيَكُونُوا] لام الصيرورة : لأَنه لم يدعهم إلى السعير ، وإنما اتَّفق أَن صار أَمرهم عن دعائه إلى ذلك ، و [السَّعِيرُ] طبقة من طبقات جهنم ، وهي سبع طبقات .

وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في موضع رفع بالابتداءِ ، وهذا هو الحسن لعطف ﴿ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عليه بعد ذلك ، فهما جملتان تعادلتا ،

(١) صاغية الرجل : خاصته الميَّالون لاتِّباعه .

وجوَّز بعض الناس أَن يكون [ٱلَّذِينَ] بدلًا من الضمير في [يَكُونُوا]، وجوَّز غيره أَن يكون في موضع خفض بدلًا من [أَصْحَابِ]، وهذا محتمل، غير أَن الابتداءَ أَرجح.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ﴾ الآية ... توقيف، وجوابه محذوف، تقديره عند الكسائي: تذهب نفسك حسرات عليه، ويمكن أَن يتقدر: كمن اهتدى، ونحو هذا من التقدير، وأَحسنُها ما دلَّ اللفظ بعْدُ عليه، وقرأَ طلحة: [أَمَّنْ] بغير فاءٍ، وهذه الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام عن كفر قومه، ووجب التسليم لله تعالى في إضلال من شاءَ وهداية من شاءَ، وأَمر نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن أَمرهم، وأَلَّا يبخع نفسه أَسفاً عليهم. وقرأَ الحسن: [تَذْهَبَ] بفتح التاءِ والهاءِ [نَفْسُكَ] بالرفع، وقرأَ أَبو جعفر، وقتادة، وعيسى، والأَشهب: [تُذْهِبْ] بضم التاءِ وكسر الهاءِ [نَفْسَكَ] نصباً، ورويت عن نافع. و «الحسرة»: همُّ النفس على فوات أَمر، واستشهد ابن زيد لِذلك بقوله: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ ٱللهِ﴾(١)، ثم توعَّد الكفرة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

---

(١) من الآية (٥٦) من سورة (الزُّمَر).

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) ﴾

هذه آية احتجاج على الكفرة في إنكارهم البعث من القبور ، فدلَّهم على المثال الذي يعاينوه وهو سواءٌ مع إحياءِ الموتَى . و « الْبَلَدُ الْمَيِّتُ » هو الذي لا نبت فيه ، قد اغبرَّ من القحط ، فإذا أَصابه الماءُ من السحاب اخضرَّ وأَنْبت ، فتلك حياته ، و [النُّشُور] مصدر : نشر الميت إذا حَيِـيَ ، ومنه قول الأَعشى :

. . . . يا عَجَبًا لِلْمَيِّت النَّاشِـرِ (١)

---

(١) هذا عجز بيت قاله الأعشى من قصيدة له يهجو بها عَلْقمة بن عُلاثة ويمدح عامر ابن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما ، وهو بتمامه مع بيت قبله :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إلى نَحْـرِهَا عَاشَ ولَمْ يُنْقَلْ إلى قَـابِرِ

حتّى يقولَ النَّـاسُ مِمَّا رَأَوْا يا عَجَبَـا لِلْمَيِّـتِ النَّاشِـرِ

واستعماله (مَيْت ومَيِّت) يدلُّ على أنهما بمعنى واحد ، وقد جمع بينهما عديُّ بن الرعلاء حين قال :

لَيْسَ مَنْ ماتَ فاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأحْيَـاءِ =

وقوله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ يحتمل ثلاثة معانٍ : أحدها أن يريد : من كان يريد العزَّة بمغالبةٍ فَلِلَّهِ العزَّة ، أي : ليست لغيره ، ولا تَتِمُّ إلَّا لَهُ ، وهذا المُغالب مغلوب ، ونحا إليه مجاهد ، وقال : من كان يريد العزَّة بعبادة الأوثان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تمسُّك بقوله تعالى : ﴿وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾(١) .

والمعنى الثاني : من كان يريد العزة وطريقها القويم ، ويُحِبُّ نَيْلها على وجهها ، فَلِلَّه العزَّة ، أي : بِهِ وعن أمره ، لا تُنال عزَّته إلَّا بطاعته(١) ، ونحا إليه قتادة .

= إنَّمَا الْمَيْتُ مَنْ يَعِيشُ كَئِيباً كاسِفاً بالُهُ قَلِيلَ الرَّجَاءِ

وإلى هذا يميل أكثر اللغويين ، وإن كان الجوهري قد حكى عن الفراء قوله : « يقال لمن لم يمت : إنه مائتٌ عن قليل ، ومَيِّتٌ ، ولا يقولون لمن مات : هذا مائتٌ » . قال صاحب اللسان : وهذا خطأ » ، وإنما (مَيِّت) يصلح لما قد مات ولما سيموت ، قال تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ، والآية هنا أكبر دليل على أن (الميِّت) بالتشديد تكون للميت بالفعل ، وغيرها يدل على أن الميْت بالتخفيف هو الميِّتُ أيضاً بالفعل ، وأن كلا من المخففة والمثقلة بمعنى واحد .

(١) من الآية (٨١) من سورة (مريم) .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم مُفَسِّراً لقوله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ : (مَنْ أراد عزَّ الدارَيْن فليطع العزيز) ، ولقد أحسن من قال : =

والمعنى الثالث ـ وقاله الفراءُ ـ : من كان يريد علم العزّة فَلِلَّه العزَّة ، أَي : هو المتصف بها . و [جَمِيعاً] حال .

وقوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أَي التوحيد والتمجيد وذكر الله ونحوه . وقرأ الضحاك : [يُصْعَدُ] بضم الياءِ ، وقرأ الجمهور : [ٱلْكَلِمُ] وهو جمع كَلِمَة ، وقرأ أَبو عبد الرحمن : [ٱلْكَلَامُ] . و [ٱلطَّيِّبُ] : الذي يُسْتحسن سماعه الاستحسان الشرعي . وقال كعب الأَحبار : إن لِـ «سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إِله إِلَّا الله ، والله أَكبر» لدويًّا حول العرش كدويِّ النحل ، تذكِّر بصاحبها .

قوله : ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ، اختلف الناس في الضمير ، على من يعود ؟ فقالت فرقة : يعود على [ٱلعَمَل] ، ثم اختلفت هذه الفرقة ـ فقال قوم : الفاعل بـ [يَرْفَعُ] هو [ٱلْكَلِمُ] ، أَي : والعمل يرفعه الكَلِمُ ، وهو قول : «لا إِله إِلَّا الله» ؛ لأَنه لا يُرفع عملٌ إِلَّا بتوحيد . وقال بعضهم : الفعل مسند إِلى الله تعالى ، أَي : والعمل الصالح يرفعه هو ، وهذا أَرجح الأَقوال .

= وإِذَا تَذَلَّلَتِ الرِّقَابُ تَوَاضُعاً مِنَّا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا في ذُلِّهَا

ومن اعتزَّ بالله أعزَّه الله ، ومن اعتزَّ بالعبد أَذلَّه الله .

وقال ابن عباس ، وشهر بن حوشب ، ومجاهد ، وقتادة : الضمير في [يَرْفَعُهُ] عائد على [ٱلْكَلِم] ، أي : إنَّ العملَ الصالح هو يرفع الكَلِمَ ، واختلفت عبارات أهل هذه المقالة ـ فقال بعضها : رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن العبد إذا ذكر الله تعالى ، وقال كلاماً طيباً ، وأدَّى فرائضه ، ارتفع قولُه مع عمله ، وإذا قال ـ ولم يُؤَدِّ فرائضه ـ رُدَّ قولُه على عمله وقيل : عملُه أَوْلى به . وهذا قولٌ يردُّه معتقد أَهل الحق والسُّنَّة ، ولا يصحُّ (١) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والحقُّ أَن العاصي التَّارك للفرائض إذا ذكر الله تعالى ، وقال كلاماً طيِّباً فإنه مكتوبٌ له ، مُتَقَبَّلٌ منه ، وله حسناته ، وعليه سيئاته ، والله يتقبل من كل من اتَّقى الشِّرك ، وأَيضاً فإن الكَلِم الطيِّب عملٌ صالح ، وإنما يستقيم قول من يقول : «إن العمل هو الرَّافعُ للكَلِم» بأَن يُتَأَوَّل أَنَّه يزيد في رفعه وحُسْن موقعه إذا تعاضد معه ، كما أَن صاحب الأَعمال من صلاة وصيام وغير ذلك ـ إذا تخلَّل أَعماله كَلِمٌ طيِّبٌ ، وذكر الله ـ كانت الأَعمال أَشرف ، فيكون قوله : ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ موعظةً وتذكرةً وحضًّا على الأَعمال (٢).

---

(١) الذي في الأصول : «والأصحُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والصواب ما ذكرناه ، وقد نقله القرطبي في تفسيره هكذا .

(٢) نقل القرطبي كلام ابن عطية هذا ، وفيما نقله زيادة على ما هنا ، وهي : «وأما الأقوال التي هي أعمالٌ في نفوسها ، كالتوحيد والتسبيح فمقبولة» . (القرطبي ١٤ـ ٣٣٠) .

وذكر الثعلبي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يقبل الله قولًا إلَّا بعمل ، ولا عملًا إلَّا بنيَّةٍ) (١) ، ومعناه : قولًا يتضمن أن قائله عمِل عملًا ، أو يعمل في الآنف ، وأما الأقوال التي هي أعمالٌ في نفوسها ـ كالتوحيد والتسبيح ـ فمقبولةٌ على ما قدمناه .

وقرأت فرقة : ﴿وَٱلْعَمَلَ ٱلصَّالِحَ﴾ بالنصب فيهما ، وعلى هذه القراءة ف [يَرْفَعُهُ] مُسْنَدٌ إمَّا إلى الله تعالى ، وإمَّا إلى [ٱلْكَلِم] ، والضمير في [يَرْفَعُهُ] عائد على العمل لا غير .

وقوله تعالى : ﴿يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾ إمَّا أنه عدَّى [يَمْكُرُونَ] لمَّا أحلَّه محل «يكسبون» ، وإمَّا أنه حذف المفعول وأقام صفته مقامه ، وتقديره : يمكرون المكرات السيئات ، و [يَمْكُرُونَ] معناه : يتخابثون ويخدعون وهم يُظهرون أنهم لا يفعلون .

و [يَبُورُ] معناه : يفسد ويبقى لا نفع فيه ، وقال بعض المفسرين : يدخل في الآية أهلُ الرِّياء .

---

(١) ذكر القرطبي الحديث كاملا ، ونصه : (لا يقبل الله قولا إلا بعمل ، ولا يقبل قولا وعملا إلا بنيَّة ، ولا يقبل قولا وعملا ونيَّة إلا بإصابة السُّنَّة) ، ووَجَدْتُ في الجامع الصغير حديثاً أخرجه الطبراني في الكبير ، ورمز له الإمام السيوطي بأنه حديث حسن ، ولفظه : (لا يقبل إيمانٌ بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان) ، وليس فيه ذكر للأقوال ، وإنما هو بيان لقيمة العمل في الإسلام إلى جانب العقيدة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ونزول الآية أولاً في المشركين .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

هذه الآية آية تذكير بصفات الله تعالى على نحو ما تقدم ، وهذه المحاورة إنما هي في أمر الأَصنام وفي بعث الأَجساد من القبور ، والله تعالى خلقكم من تراب من حيث خلق آدم أبانا منه عليه السلام. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي بالتناسل من مني الرجال ، و [أَزْوَاجاً] قيل : معناه : أنواعاً ، وقيل : أراد تزوج الرجال النساءَ .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ الآية ... اختلف الناس في عود الضمير في قوله : ﴿ولَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيره ما مقتضاه أنه عائد على [مُعَمَّرٍ] الذي هو اسم جنس ، والمراد غيرُ الذي يُعَمَّر ، أي أن القول تضمن شخصين ،

يُعمَّر أَحدهما مائة سنة أَو نحوها ، ويُنْقَص من الآخر بأَن يكون عاماً واحداً أَو نحوه ، وهذا قول الضحاك ، وابن زيد ، لكنه أَعاد الضمير إِيجازاً واختصاراً ، والبيان التام أَن يقول : ولا يُنْقَصُ من عمر مُعَمَّر ؛ لأَن لفظ «مُعَمَّر» هي بمنزلة : ذي عُمْر ، كأَنه قال : ولا يُعَمَّر من ذي عُمْر ولَا يُنقص من عُمْر ذي عُمْر .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أَيضاً ، وأَبو مالك ، وابن جبير : المراد شخص واحد ، وعليه يعود الضمير ، أَي : ما يُعَمَّر إِنسانٌ ولا يُنْقص من عُمره ، بأَن يُحصى ما مضى منه ، إِذا مرَّ حولٌ كتب ذلك ، ثم حولٌ ، فهذا هو النقص ، قال ابن جبير : ما مضى من عمره فهو النقص ، وما يُسْتَقْبَل فهو الذي يُعَمَّره ، ورُوي عن كعب الأَحبار أَنه قال : المعنى : ولا يُنْقَص من عمره ، أَي : لا يخترم بسبب قدرة الله تعالى ، ولو شاءَ لأَخر ذلك السبب ، ورُوي أَنه قال حين طُعِن عُمَرُ رضي الله تعالى عنه : «لو دعا الله لزاد في أَجله» ، فأَنكر عليه المسلمون ذلك ، وقالوا : إِنَّ الله تعالى يقول : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ﴾(١) ، فاحتجَّ بهذه الآية . وهو قولٌ ضعيف مردودٌ ، يقتضي القول بالأَجَلَيْن ، وبنحوه تمسَّكت المعتزلة .

---

(١) من الآية (٣٤) من سورة (الأعراف) ، وتكرر في الآية (٦١) من سورة (النحل) .

وقرأ الحسن ، والأعرج ، وابن سيرين : [يَنْقُصُ] على بناء الفعل للفاعل ، أي : يَنْقُصُ اللهُ ، وقرأ : ﴿مِنْ عُمْرِهِ﴾ بسكون الميم الحسنُ ، وداودُ . والكتاب المذكور في الآية : اللَّوحُ المحفوظ . وقوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى تحصيل هذه الأعمار واختصار دقائقها وساعاتها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

هذه آية أُخرى يستدل بها كل عاقل ، ويقطع أَنها مما لا مدخل لصنم فيه ، و [ٱلْبَحْرَانِ] يريد بهما جميع الماءِ الملح وجميع الماءِ العذب حيث كان ، فهو يعني به جملة هذا وجملة هذا ، و «ٱلْفُرَاتُ» : الشديد العذوبة ، و «ٱلْأُجَاج» : الشديد الملوحة التي تميل إلى المرارة من ملوحته . قال الرماني : هو من : أَجَّجْتُ النَّار ، كأَنه يحرق من حرارته . وقرأ عيسى الثقفي : ﴿سَيِّغٌ شَرَابُهُ﴾ بغير أَلف وبشدِّ الياءِ ، وقرأَ طلحة : [مَلِحٌ] بفتح الميم وكسر اللام .

و «اللَّحم الطريَّ» : الحوت ، وهو موجود في البحرين ، وكذلك الفُلْك تجري في البحرين ، وبقيت الحِلْيَةُ وهي اللُّؤْلؤ والمرجان ، فقال الزَّجاج وغيره : هذه عبارة تقتضي أَن الحِلْية تخرج منهما وهي إنما تخرج من الملح ، وذلك يجوز ، كما قال في آية أُخرى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾(١) ، وكما قال : ﴿يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾(٢) ، والرسل إنما هي من الإِنس .

وقال بعض الناس : بل الحِلْية تخرج من البحرين ؛ وذلك أَن صَدف اللؤلؤ إنما يلحقه ـ فيما يزعمون ـ ماءُ السماءِ ، فمنه ما يخرج ويوجد الجوهر فيه ، ومنه ما ينشق في البحر عند موته ويقطعه فيخرج جوهره بالعطش وغير ذلك من الحيل ، فهذا هو من الماءِ الفُرات ، فنُسب إِليه الإِخراج لما كان من الحلية بسبب ، وأَيضاً فإِن البحر الفرات كله ينصب في البحر فيجيءُ الإِخراج منهما جميعاً ، وقد خُطِّئَ أَبو ذُؤَيب في قوله في صفة الجوهر :

فَجَاءَ بها ما شِئْتَ مِنْ لَطَمِيَّةٍ عَلَى وَجْهِهَا ماءُ الْفُرَاتِ يَمُوجُ (٣)

(١) الآية (٢٢) من سورة (الرحمن) .

(٢) من الآية (١٣٠) من سورة (الأنعام) .

(٣) البيت من قصيدة تطرق فيها أبو ذؤيب الهذلي إلى وصف ابنة السهمي ، وشبهها بأنها دُرَّة عثر عليها غواصٌ بعد أن اجتاز إليها لُجَّة بعد لُجَّة ، وبعد أن أصابه التعب والإعياءُ . =

وليس ذلك بخطـإٍ على ما ذكرنا من تـأْويل هــذه الفرقة .

و [ٱلْفُلْكَ] في هذا الموضع جمع بدليل صفته بجمع .

و [مَوَاخِرَ] جمع ماخِرَةٍ ، وهي التي تمخر الماءَ ، أَي تَشُقُّه ، وقيل : الماخرة : التي تشق الريح ، وحينئذ يحدث الصوتُ ، والمَخْر : الصوت الذي يحدث من جري السفينة بالريح ، وعبَّر المفسرون عن هذه بعبارات لا تختص باللفظة ، فقال بعضهم : المواخر هي التي تجيءُ وتذهب بريح واحدة ، وقال مجاهد : الريح تمخر السفن ، ولا تمخر الريح من السفن إلَّا الفلك العظام ، هكذا وقع لفظه في البخاري ، والصواب أَن تكون الفُلْك هي الماخرة لا الممخورة .

وقوله تعالى : [لِتَبْتَغُوا] يريد بالتجارة والحج والغزو وكل سفر له وجه شرعي .

= فالضمير في (بها) يعود على الدُرَّة ، ورواية البيت في الديوان : (تدوم البحارُ فوقها وتموج) ، وقال شارحه : ويروى : (يدوم الفراتُ) ، يقول : إن هذه الدُّرَّة قد جاءَ بها التاجر في اللَّطائم ، واللَّطيمة : عير تحمل التجارة والعطر ، فإن لم يكن فيها عطر فليست بلطيمة ، ومعنى (تدوم البحار) : تَسْكن فوقها ، وتموج : تتحرك ، أي : تذهب وتجيءُ . قال الأصمعي : « الفراتُ : العذب ، ولا يجيءُ منه الدُّرُّ ، إلا أنه غلط ، وظن أن الدُّرَّة إذا كانت في الماءِ العذب فليس لها شِبْهٌ ، ولم يعلم أنها لا تكون في العذب » ، وابن عطية هنا يدفع ما قيل من خطئه على التأويل الذي ذكره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

[يُولِــجُ] معناه : يُدْخِلُ ، وهذه عبارة عن أَن ما نقص من الليل زاد في النهار ، فكأَنه دخل فيه ، وكذلك ما نقص من النهار يدخل في الليل . والأَلف واللام في ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ هي للعهد ، وقيل : هي زائدة لا معنى لها ولا تعريف(١) . وهذا هو الصواب . و « الأَجل ٱلْمُسَمَّى » هو قيام الساعة ، وقيل : آماد الليل وآماد النهار ، فـ « أَجَلٌ » ـ على هذا ـ اسم جنس . وقرأَ جمهور القراءِ : [تَدْعُونَ] بالتاءِ ، وقرأَ يعقوب والحسن بالياءِ . و « الْقِطْمِيرُ » : القشرة الرفيعة التي على

(١) أعاد الضمير على « الألف واللام » مفرداً باعتبارهما بعد التركيب حرفاً واحداً هو « ألْ » .

نوى التمرة ، هذا قول الناس الحُجَّة ، وقال جُوَيْبِر (١) عن رجاله : القِطْمِير : القمع الذي في رأس التمرة ، وقال الضحاك : والأَول أَشهر وأَصوب .

ثم بيَّن تعالى أَمر الأَصنام بثلاثة أَشياءَ ، كلُّها تعطي بطلانها : أَوَّلها أَنها لا تسمع إن دُعيَت ، والثاني أَنها لا تُجيب إنْ لو سمعتْ ، وإنما جاءَ بهذا لأَن لقائل متعسف أَن يقول : عساها تسمع ، والثالث أَنها تتبرَّأُ يوم القيامة من الكفار .

و ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أَي : بأَن جعلوهم شركاءَ لله ، فأَضاف الشِّرْك إليهم من حيث هم قرَّروه ، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل ، وقوله : [يَكْفُرُونَ] يحتمل أَن يكون بكلام وعبارة يقدر اللهُ الأَصنام عليها ، ويخلق لها إدراكاً يقتضيها ، ويحتمل أَن يكون بما يظهر هنالك من جمودها وبطولها عند حركة كل ناطق ، ومدافعة كل محتج ، فيجيءُ هذا على طريق التجوز ، كقول ذي الرمة :

(١) تصغير جابر ، يقال : اسمه جابر ، وجُوَيْبر لقبه ، ابن سعيد الأَزْدي ، أبو القاسم البلخي ، نزيل الكوفة ، راوي التفسير ، قال عنه في « تقريب التهذيب » : ضعيف جداً ، من الخامسة ، مات سنة الأربعين . وهناك جابر أَوْ جُوَيْبر العبدي ، قال عنه في « التقريب » . مقبول من الثالثة ، ولا نعرف من المقصود منهما هنا .

وَقفْتُ عَلَى رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاطِــقٍ تُخاطِبُني آثَــارُهُ وَأُخَــاطِبُهُ
وأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّــهُ تُكَلِّمُني أَحْجَــارُهُ وَمَلَاعِبُه (١)

قوله تعالى : ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ، قال المفسرون ـ قتادة وغيره ـ : الْخَبِيرُ : أَراد به تعالى نفسه ، فهو الخبير الصادق الخبر ، نبَّأَ بهذا فلا شكَّ في وقوعه . ويحتمل أَن يكون قوله تعالى : ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ من تمام ذكر الأَصنام ، كأَنه قال : ولا يُخْبرك مثلُ من يُخْبِر عن نفسه ، وهي قد أَخبرت عن أَنفسها بالكفر بهؤلاءِ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

(١) الرَّبْع : الموضع يُنْزل فيه زمن الربيع ، أو الدارُ وما حولها ، أو الحيُّ ، وآثارُه : بقاياه وما ترك فيه السكان بعد الرحيل ، أَبُثُّ فلاناً : أُطْلِعه على سِرِّي وأشْجاني . يقول : أوقفت ناقتي على منزل ميَّة ، وإنه لمنزل ناطق ، حادثتُه وشكوت إليه أخباري وأسراري ، وكادت أحجاره وآثاره تجاوبني وتناجيني ، فقد أنطق ذو الرمة آثار الديار ، وجعلها تتكلم ، على طريق التجوز ، وهذا هو الشاهد هنا .

هذه آية موعظة وتذكير ، والإنسان فقير إلى الله تعالى في دقائق الأمور وجلائلها ، لا يستغني عنه طرفة عين ، وهو مُسْتغْنٍ عن كل أَحد ، والله تعالى غني عن الناس ، وعن كل شيءٍ من مخلوقاته ، غني على الإطلاق ، و [ٱلْحَمِيدُ] : المحمود بالإطلاق . وقوله : [بِعَزِيزٍ] أي : بممتنع .

و [تَزِرُ] معناه : تحمل الوِزْر الثقيل ، وهذه الآية في الذنوب والآثام والجرائم ، قاله قتادة ، وابن عباس ، ومجاهد ، وسببها أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين : اكفروا بمحمد وعَلَيَّ وِزْرُكم ، فحكم الله بأَنها لا يحملها أَحد عن أَحد ، ومن تطرَّق من الحكام إلى أَخذ قريب بقريب في جريمة – كفعل زياد ونحوه – فإن ذلك لأَن المأْخوذ ربَّما أَعان المجرم بمؤازرة ومواصلة ، أَو اطلاع على حالةٍ وتقرير لها ، فهو قد أَخذ من الجُرم بنصيب[1] ، وهذا هو المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾[2] ؛ لأَنهم أَغْوَوْهم ، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (مَن سنَّ سُنَّة سيِّئة فعليه وزرها وَوِزْر مَن عَمِل بها بعده ، ومن سنَّ سُنَّة حسنة فله أَجرها وأَجر مَن

(١) قال أبو حيَّان تعقيباً على كلام ابن عطية هذا : « وكأن ابن عطية تأوَّل أفعال زياد وما فعل في الإسلام ، وكانت سيرتُه قريبة من سيرة الحجَّاج » .

(٢) من الآية (١٣) من سورة (العنكبوت) .

عَمِل بها بعده)(١) ، وأُنثت [وَازِرَة] لأَنه ذهب بها مذهب النفس ، وعلى ذلك أُجريت [مُثْقَلَةٌ] . والحِمْلُ : ما كان على الظهر في الأَجرام ، ويُستعار للمعاني كالذنوب ونحوها ، فيجعل كل محمول متصلًا بالظهر ، كما يجعل كل اكتساب منسوباً إلى اليد(٢) . واسم [كَانَ] مضمر ، تقديره : ولو كان الداعي .

ثم أَخبر تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أَنه إِنما ينذر أَهل الخشية ، وهم الذين يُمنحون العلم ، أَي : إنما ينتفع بالإِنذار هم ، وإِلَّا فَلِنِذارة جميع العالم بَعَثَهُ .

وقوله : [بِالْغَيْبِ] أَي : وهو بحال غيبة عنهم ، إنما هي رسالة ، ثم خصَّص من الأَعمال إقامة الصلاة تنبيهاً عليها وتشريفاً لها .

---

(١) أخرجه مسلم في العِلْم ، وفي الزكاة ، والنسائي في الزكاة ، وأحمد في مسنده (٤–٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١) ، ولفظه كما في صحيح مسلم في كتاب العِلْم ، عن جرير ابن عبد الله ، قال : جاء ناس من الأعراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عليهم الصوف ، فرأى سوءَ حالهم ، قد أصابتهم حاجة ، فحثَّ الناس على الصدقة ، فأبطئوا عنه حتَّى رُؤي ذلك في وجهه ، قال : ثم إن رجلا من الأنصار جاء بصُرَّةٍ من ورق ، ثم جاء آخر ، ثم تتابعوا حتى عُرف السرور في وجهه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فعُمل بها بعده كُتب له مثلُ أجْر من عمل بها ، ولا ينقص من أُجورهم شيءٌ ، ومن سَنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة فعُمل بها بعده كُتب عليه مثْلُ وِزْر من عمل بها ، ولا ينقص من أوزارهم من شيء) .

(٢) فيقال عن كل عمل يعمله الإنسان ولو بغير يده : «كسبت يداه كذا وكذا» ، أو يُلام على ما فعل إن كان سيئاً فيقال له : هذا نتيجة ما كسبت يداك» .

ثم حضَّ سبحانه وتعالى علَى التَّزكّي؛ بأَنْ رجّى عليه غاية الترجية ، وقرأ طلحة : «وَمَنِ ٱزَّكَّى فَإِنَّمَا يزَّكَّى لِنَفْسِهِ» . ثم توعّد تعالى بعد ذلك بقوله : ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكل عبارة مُقَصِّرةٌ عن تَبْيينِ فصاحة هذه الآية ، وكذلك كتابُ الله كلُّه ، ولكن يظهر الأَمر لنا نحن في مواضع أَكثر منه في مواضع بحسب تقصيرنا .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

مضمون هذه الآية طعن على الكفرة ، وتمثيل لهم بالعُمْي والظلمات ، وتمثيل المؤمنين - بإزائهم - بالبصراءِ والأَنوار ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا

ٱلنُّورُ﴾ ودخول [لَا] فيها وفيما بعدها إنما هو على نيَّة التكرار ، كأنه قال : «ولا الظلمات والنور ، ولا النور والظلمات» ، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني ، ودلَّ مذكور الكلام على متروكه (١) .

و [ٱلْحَرُورُ] شدة حرِّ الشمس ، قال رؤبة بن العَجَّاج : الْحَرُور بالليل والسَّموم بالنهار ، وليس كما قال ، وإنما الأمر كما حكى الفراءُ وغيره : إن السموم تختص بالنهار ، والحرور يقال في حرِّ الليل وفي حرّ النهار (٢) ، وتأَول قوم الظِّلَّ في هذه الآية : الجنة ، والحرور : جهنم.

وشبه المؤمنين بالأَحياءِ ، والكفرة بالأَموات ، من حيث لا يفهمون الذكر ولا يُقبلون عليه ، ثم ردَّ الأَمر إلى مشيئة الله تعالى بقوله :

---

(١) عقَّب أبو حيان الأندلسي في « البحر المحيط » على كلام ابن عطية هذا بعد أن نقله بقوله : « وما ذكر غير محتاج إلى تقديره ؛ لأنه إذا نفى استواءَ الظلمات والنور فأيُّ فائدة في تقدير نفي استوائهما ثانياً وادعاءُ محذوفين ؟ وأنت تقول : ما قام زيد ولا عمرو ، فتؤكد بـ (لا) معنى النفي فكذلك هنا » . وكأن هذا الاعتراض منصب على التقدير ، لأن أبا حيان عاد بعد قليل فقال : « وكرر (لا) لتأكيد المنافاة ، فالظلمات تنافي النور وتضاده ، والظل والحرور كذلك ، والأعمى والبصير ليسا كذلك ؛ لأن الشخص الواحد قد يكون بصيراً ثم يعرض له العمى ، فلا منافاة إلا من حيث الوصف ، والمنافاة بين الظل والحرور دائمة ، ولهذا أكدها بالتكرار ، وكذلك المنافاة بين الأحياءِ والأموات أتَمُّ ، من حيث أن الجسم الواحد يكون محلا للحياة ثم يصير محلا للموت ، أما الأعمى والبصير فقد يشتركان في إدراك شيءٍ ما » ، ومعنى هذا أن أبا حيَّان يعلل تكرار (لا) بتأكيد المنافاة .

(٢) يرى أبو حيان أن هذا الاعتراض على كلام رؤبة مرفوض ، قال : « لأنه تؤخذ منه اللغة ، فأخبر عن لغة قومه » .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي ٱلْقُبُورِ﴾ . وهذا تمثيل بما يحسُّه البشر ويشاهدونه ، فهم يرون أن الميت الذي في القبر لا يسمع ، وأمّا الأرواح فلا تَرِدُ ؛ إذ تتضمن الأحاديث أن أرواح المؤمنين في شجر عند العرش في قناديل وغير ذلك (١) ، وأن أرواح الكفرة في سجّين ونحوه ، وفي بعض الأخبار أن الأرواح عند القبور ، فربما سمعت ، وكذلك أهل قليب بدر إنما سمعت أرواحهم ، وكذلك سماع الميّت خفق النِّعال ، إنما هو بردّ روحه عليه عند لقاءِ ٱلْمَلَكَيْن (٢) ،

---

(١) من هذه الأحاديث ما رواه الدارمي في سُنَنه ، عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن أرواح الشهداء — ولولا عبد الله لم يحدثنا أحد — قال : أرواح الشهداءِ عند الله يوم القيامة في حواصل طير خُضْر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح في أيّ الجنة حيث شاءت ، ثم ترجع إلى قناديلها ، فيشرف عليهم ربهم فيقول : ألَكُم حاجة ؟ تريدون شيئاً ؟ فيقولون : لا ، إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أُخرى .

(٢) حديث أن الميت يسمع خفق النعال أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، عن أنس رضي الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (العبد إذا وضع في قبره ، وتولّى وذهب أصحابه ، حتّى لَيَسْمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فأقعداه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : انظر إلى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعداً من الجنّة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : فيراهما جميعاً ، وأما الكافر والمنافق فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربةً بين أُذنيه ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه — إلا الثّقلين) .

فهذه الآية لا تعارض حديث القليب ؛ لأَن الله تبارك وتعالى ردَّ على أُولئك أَرواحهم في القليب ليُوبِّخهم ، وهذا على قول عُمَر وابنه عبد الله رضي الله تعالى عنهما – وهو الصحيح – : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما أَنتم بأَسمع منهم) ، وأَما عائشة رضي الله عنها فمذهبها أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُسْمعهم ، وإنما قصد توبيخ الأَحياءِ من الكفرة ، وجَعَلَتْ هذه الآية أَصلًا ، واحتجت بها ، فمثَّل الله تعالى في هذه الآية الكفرة بالأَشخاص التي في القبور (١) – وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : ﴿بِمُسْمِـعِ مَنْ﴾ على الإضافة .

ثم سلَّى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ، أَي : ليس عليك غير ذلك ، والهداية والإضلال إلى الله تعالى .

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (٦–٢٧٦) ، عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتلى أن يطرحوا في القَليب ، فطرحوا فيه ، إلا ما كان من أُمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملأها ، فذهبوا يحركوه فيتزايل فأقرُّوه ، وألْقَوْا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة ، فلما ألقاهم في القليب وقف عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (يأهل القليب ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقـاً ؟ فإنِّي قد وجدت ما وعدني ربِّي حقـاً) ، قال : فقال له أصحابُه : يا رسول الله ، أتكلم قوماً موتى ؟ قال : فقال لهم : (لقد علموا أن ما وعدتّهم حق) ، قالت عائشة : والناس يقولون : لقد سمعوا ما قلتُ لهم ، وإنما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لقد علموا) . وهذه الرواية عن عائشة تلتقي مع هذه الآية كما ذكر ابن عطية .

و [بشِيراً] معناه : بالنعيم الدّائم لمن آمن ، [ونذِيراً] معناه : من العذاب الأليم لمن كفر . وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ معناه : إن دعوة الله قد عمّت جميع الخَلق ، وإن كان فيهم من لم تباشره النِّذارة فهو ممّن بلَغَته ؛ لأن آدم عليه السلام بُعث إلى بنيه ، ثم لم تنقطع النِّذارة إلى وقت محمد صلى الله عليه وسلم ، والآيات التي تتضمن أن قريشاً لم يأْتِهم نذيرٌ معناه (١) : نذيرٌ مباشر ، وما ذكره المتكلمون من فرض أصحاب الفترات ونحوهم فإنما ذلك بالفرض لا أنه يوجد أُمّة لم تعلم أن في الأرض دعوة إلى عبادة الله تعالى .

ثم سلّى نبيّه صلى الله عليه وسلم بما سلف من الأُمم لأنبيائهم ، و [ٱلْبَيِّنَات] و [ٱلزُّبُر] و [ٱلْكِتَاب ٱلْمُنِير] شيءٌ واحد ، لكنه أكّد أوصافه بعضها ببعض ، وذكره بجهاته(٢) . و «الزُّبُر» من : زبرْتُ الْكِتَابَ إذا كتبته . ثم توعّد قريشاً بذكره أَخْذ الأُمم الكافرة .

---

(١) يريد : معنى ما ورد من الآيات ، أو معنى ما تضمنته الآيت .

(٢) وقيل : (البيِّنَات) : الآيات والعلامات . وأما (الزُّبُر) و (ٱلكِتَاب ٱلمُنِير) فهما بمعنى واحد .

قوله عزّ وجلّ :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

الرُّؤْية في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تر ﴾ رُؤْية القلب ، وكل توقيف في القرآن على رُؤْية فهي رؤية القلب ؛ لأَن الحُجَّة بها تقوم ، ولكن رُؤْية القلب لا تتركَّب البتَّة إلَّا على حاسَّة ، فأَحياناً تكون بحاسة البصر ، وقد تكون عِبْرة ، وهذا يُعرف بحسب الشيءِ المُتَكَلَّم فيه . و [أَنَّ] سادَّة مسدَّ المفعولين اللَّذيْن للرُؤْية ، هذا مذهب سيبويه ؛ لأَن [أَنَّ] مع ما دخلت عليه جملة ، ولا يلزم ذلك في قولك : رأَيت أَو ظننت ذلك ؛ لأَن قولـك ذلك ليس بجملة كما هي [أَنَّ] ، ومذهب الزجَّاج أَن المفعول الثاني محذوف ، تقديره : أَلم تَرَ أَن اللهَ أَنزلَ منَ السماءِ ماءً حقًّا ؟ ورجع من خطاب بذكر الغائب إلى المتكلم بنون العظمة لأَنه أَهْيَب في العبارة .

قوله تعالى: [أَلْوَانُهَا] يحتمل أَن يريد الصُّفْرة والحُمْرة والبياض والسواد وغير ذلك، ويؤيد هذا اطِّراد ذكر هذه الأَلوان فيما بعد، ويحتمل أَن يريد الأَنواع، والمعتبر فيه - على هذا التأْويل - أَكثر عدداً.

و [جُدَدٌ] جمع جُدَّة، وهي الطريقة تكون من الأَرض والجبل كالقطعة العظيمة المتصلة طولًا، ومنه قول امرئ القيس:

كَأَن سَرَاتَهُ وَجُدَّةَ ظَهْرِهِ كَنَائِنُ يَجْرِي بَيْنَهُنَّ دَلِيصُ (١)

وحكى أَبو عبيدة في بعض كتبه أَنه يقال: «جُدَدٌ» في معنى «جديد»، ولا مدخل لمعنى الجديد في هذه الآية، وقرأَ الزهري: [جَدَدٌ] بفتح الجيم.

---

(١) هذا البيت من قصيدة رواها أبو عَمر الشيباني، وفيها أبيات يصف فيها جَمَلَه، ويشبهه بحمار الوحش الذي يطارد أُتُناً - جمع أتان وهي الحمارة - حَمَلْن فَرَبَتْ من حملهن البطون، وهذا الحمار ضامر البطن، كأن سَرَاتَهُ... الخ البيت. وسَرَاتُه: ظَهْرُه، وجُدَّة ظَهْرِه هي الخطة في ظهر الحمار تخالف لونه، والكنائن: جمع كنانة، وهي جعبة السهام تصنع من الجلد أو الخشب، والدَّليص: ماءُ الذهب، يشبه ظهر الحمار وما فيه من خُطَّة تختلف في اللون عن بقية لونه كله بجعاب السهام التي وشيت بالذهب. والشاهد هنا هو كلمة جُدَّة وما تحمل من المعنى. وقد ورد أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس رضي الله عنهما: أخبرني عن قوله تعالى: (جُدَدٌ)، فقال: طرائق، طريقة بيضاءُ وطريقة خضراءُ، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نَعَم، أما سمعت الشاعر وهو يقول:

قد غَادَرَ السَّبعُ في صَفَحَاتِهَا جُدَداً كأنها طرُقٌ لاحَتْ عَلَى أَكَمِ

وقوله تعالى : ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ لَفْظَان لمعنى واحد ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّ الله يُبْغض الشيخ الغِرْبيب)(١) ، أي الذي يخضب بالسواد ، وقدم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر ، وكذلك هو في المعنى ، لكن كلام العرب الفصيح يأتي كثيراً على هذا النحو .

وقوله تعالى : ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ قَبْلَهُ محذوف إليه يعود الضمير ، تقديره : «والأنعامِ خَلْق مختلف ألوانه» ، والدوابُّ نَعَم الناس ، ولكن ذُكِرَا تَنْبِيهاً منهما . وقوله : [كَذَلِكَ] يحتمل أن يكون من الكلام الأول فيجيءُ الوقف عليه حسناً ، وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين ، ويحتمل أن يكون من الكلام الثاني ، يخرج مخرج السبب ، كأنه قال : كما جاءت القدرة في هذا كله إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ، أي المحصلون لهذه العِبَر ، الناظرون فيها . وقال بعض المفسرين : الْخَشْيَة رأس العلم ، وهذه عبارة وعظية لا تثبت عند النقد ، بل الصحيح المطرد أن يقال : العِلْمُ رأس الخشية وسببُها ، والذي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (خشية الله رأسُ

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه ضعيف .

كلِّ حكمة)(١) ، وقال : (رأسُ الحكمة مخافة الله)(٢) ، فهذا هو الكلام المنير ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : «كفى بالزهد علماً» ، وقال مسروق : «كفى بالمرءِ علماً أن يخشى الله» ، وقال تعالى : ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾(٣)، وقال عليه الصلاة والسلام : (أَعْلمكُمْ بالله أَشدكم له خشية)(٤)، وقال الربيع بن أَنس : «من لم يخش الله فليس بعالم» ، ويقال : إن فاتحة الزَّبور : رأْس الحكمة خشية الله» ، وقال ابن مسعود : «كفى بخشية الله علماً ، وبالاغترار به جهلاً» ، وقال مجاهد والشعبي : «إنما العالم من يخشى الله» ، و [إِنَّمَا] في هذه الآية لتخصيص العلماءِ لا للحصْر ، وهي لفظة تصلح للحصر ، وتأْتي أَيضاً دونه ، وإنما يُعلم ذلك بحسب المعنى الذي جاءَت فيه ، فإذا قلتَ : إِنَّما الشُّجاعُ

(١) أخرجه القضاعي عن أنس رضي الله عنه ، ولفظه كما جاء في (الجامع الصغير) : (خشية الله رأس كل حكمة ، والورع سيِّد العمل) .

(٢) أخرجه الحكيم ، وابن لال ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ورمز له الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) بأنه صحيح .

(٣) الآية (١٠) من سورة (الأعلى) . وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ، وقال عزَّ من قائل : ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ، وقال : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ ، وقال : ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ .

(٤) أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن صالح أبي الخليل رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال : (أَعلمهم بالله أَشدهم له خشية) ، هكذا ذكره في (الدر المنثور) .

عنترة ، وقلت : إنما الله إلهٌ واحدٌ ، بان لك الفرقُ بينهما فتأمله .

وهذه الآية بجملتها دليل على الوحدانية والقدرة ، والقصد بها إقامة الحجة على كفار قريش .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

قال مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير : « هذه آية القُرَّاءِ » ، وهذا على أن [يَتْلُونَ] بمعنى : يقرءُون ، وإن جعلناها بمعنى : يتَّبعون ، صحَّ معني الآية (١) ، وكانت في القُرَّاءِ وغيرهم ممن اتصف بأوصاف الآية ، و « كِتَابُ ٱللَّهِ » هو القرآن ، و « إِقَامة الصَّلَاةِ » إقامتها بجميع شروطها ، و « النَّفَقَة » هي الصدقات ووجوه البرِّ ، فالسِّرُّ من ذلك هو التطوع ، والعلانية هو المفروض ، و [يَرْجُونَ] جملة في موضع

(١) في بعض النسخ : « صحَّ معنى القراءة » .

رفع خبر [إنَّ] ، و [تَبُور] معناها : تكسد ويتعذَّر رِبْحها ، ويقال : «نعوذ بالله من بوار الأَيِّم» (١) .

واللام في [لِيُوَفِّيَهُمْ] متعلِّقة بفعل مضمر يقتضيه لفظ الآية ، تقديره : وعدهم بألَّا تبور إن فعلوا ذلك كلَّه وأَطاعوه ، ونحو هذا من التقدير . وقوله : [وَيَزِيدَهُمْ] قالت فرقة : هو تضعيف الحسنات من العشر إلى السبعمائة ، وتوفية الأُجور - على هذا - هي المجازاة مقابلة . وقالت فرقة : إن التضعيف داخل في توفية الأُجور ، وأَما الزيادة من فضله فهي : إما النَّظرُ إلى وجهه الكريم وإمَّا الشفاعة في غيرهم ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (٢) ، و [غَفُورٌ] معناه : متجاوز عن الذنوب ساتر لها ، و [شَكُورٌ] معناه : مُجَازٍ على اليسير من الطاعة ، مُقَرِّب لعبده به .

---

(١) الأيِّم : المرأة التي لا زوج لها وهي مع ذلك لا يرغب فيها أحد ، وبَوَارُها : كسادُها ، بمعنى أن تبقى في بيتها لا يخطبها خاطب ، من قولهم : بارت السُّوق إذا كسدت . والبُور : الأرض التي لم تزرع والمعامي المجهولة والأغفال ونحوها ، وفي كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لأُكَيْدِرِ دومَةَ : (ولكُم البَوْرُ والمعامي وأغفال الأرض) ، وهو بالفتح مصدر وُصف به ، ويروى بالضم وهو البوار ، أي الأرض الخراب .

(٢) من الآية (٢٦) من سورة (يونس) .

ثم ثبَّت تعالى أمر نبيِّه بقوله : ﴿وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية ، و [مُصَدِّقاً] حال مؤكِّدة ، والذي بين يدي القرآن هو التوراة والإنجيل ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ وعيد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾

[أَوْرَثْنَا] معناه : أَعطيناه فرقة بعد موت فرقة ، والميراث ـ حقيقةً ومجازاً ـ إنما يقال فيما صار لإِنْسانٍ بعد موت آخر ، والمراد بالكتاب هنا معاني الكتاب وعلمه وأَحكامه وعقائده ، فكأَن الله تعالى لما أَعطى أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم القرآن ـ وهو قد تضمَّن معاني الكتب المُنزَّلة قبله ـ فكأَنه ورَّث أُمة محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب الذي كان في الأُمم قبلهم .

و ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ يريد بهم أُمة محمد عليه الصلاة والسلام ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ، وكأَن اللفظ يحتمل أَن يريد

جميع المؤمنين من كل أُمة إِلَّا أَن عبارة توريث الكتاب لم تكن إِلَّا لأُمة محمد صلى الله عليه وسلم ، والأُوَل لم يُوَرَّثوه . و [ٱصْطَفَيْنَا] : اخترنا وفضلنا ، و «العِبَادُ» عامٌّ في جميع العالم مُؤمنهم وكافرهم .

واختلف الناسُ في عود الضمير من قوله تعالى : [فَمِنْهُمْ] - فقال ابن عباس ، وابن مسعود رضي الله عنهم ما مُقتضاه أَن الضمير عائد على [ٱلَّذِينَ] ، والأَصنافُ الثلاثة هي كلها في أُمة محمد صلوات الله وسلامه عليه ، «فالظَّالم لنفسه» : العاصي المُسْرف . و «المقتصد» : مُتَّقي الكبائر ، وهو الجمهور من الأُمَّة ، و«السَّابِقُ» : المُتَّقي على الإِطلاق ، وقالت هذه الفرقة : الأَصناف الثلاثة في الجنة ، وقاله أَبو سعيد الخدري رضي الله عنه ، والضمير في [يَدْخُلُونَهَا] عائد على الأَصناف الثلاثة ، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها : دخلوا الجنة كلهم ، وقال كعب الأَحبـار : اسـتوت مساكنهم وربِّ الكعبـة وتفاضلوا بأَعمالهم ، وفي رواية : تحاكَّت مناكبهم ، وقال أَبو إِسحق السبيعي (١) : أَما الذي سمعت منذ ستِّين سنة ، فكلُّهم ناج ،

---

(١) هو عمرو بن عبد الله ، من بني ذي يحمد بن السَّبيع الهمذاني الكوفي ، أبو إسحق ، من أعلام التابعين ، كان شيخ الكوفة في عصره ، أدرك الإمام علياً رضي الله عنه ، ورآه يخطب ، قال : رأيته أبيض الرأس واللحية ، قيل : سمع من ثمانية وثلاثين صحابياً ، وكان من الغزاة المشاركين في الفتوح ، وغزا الروم في زمن زياد ست غزوات ، وعمي في كبره . (تاريخ التهذيب ، تاريخ الإسلام الذهبي ، الأعلام) .

وقال ابن مسعود : هذه الأُمة يوم القيامة أثلاث : ثُلُث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة ، وثلث يجيئون بذنوب عظام ، فيقول الله : من هؤلاءِ ؟ ـ وهو أَعلم بهم ـ فتقول الملائكة : هم مذنبون إِلَّا أَنهم لم يشركوا ، فيقول عزَّ وجلَّ : أَدخلوهم في سعة رحمتي ، وقالت عائشة رضي الله عنها في كتاب الثعلبي : السَّابق من أَسلم قبل الهجرة ، والمقتصد من أَسلم بعدها ، والظالم نحن . وقال الحسن : السَّابق من رجحت حسناته ، والمقتصد من استوت بسيئاته ، والظالم من خفَّت موازينه ، وقال سهل بن عبد الله(١) : السابق العالِمُ ، والمقتصد المتعلِّم ، والظالم الجاهل . وقال ذو النُّون(٢): الظَّالم الذَّاكرُ الله بلسانه فقط ، والمقتصد الذَّاكرُ بقلبه ، والسابق الذي لا ينساه . وقال الأَنطاكي : الظالم صاحبُ

(١) هو سهل بن عبد الله بن يونس التَّستَرُي ، أبو محمد ، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم ، له كتاب مختصر في تفسير القرآن (طبقات الصوفية) .

(٢) هو ذو النون المصري ، ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري ، أبو الفياض ، أحد الزُّهاد العُبَّاد المشهورين ، من أهل مصر ، نوبيُّ الأصل ، كانت له فصاحة وحكمة ، وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ، توفي بالجيزة . (الأعلام) ، وقد حدَّد القرطبي أنه ذو النون المصري هذا ، وإلا فهناك آخرون يحملون نفس اللقب ولكنهم غير مقصودين .

الأَقوال ، والمقتصد صاحب الأَفعال ، والسابق صاحب الأَحوال ، وروى أُسامة بن زيد رضي الله عنه أَن النبي صلى الله عليه وسلم قرأَ هذه الآية وقال : (كلُّهم في الجنة) (١) ، وقرأَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفورٌ له) (٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (أَنا سابق العرب ، وسلمان سابق الفرس ، وصُهيب سابق الروم ، وبلال سابق الحبشة) (٣) ، أَراد عليه الصلاة والسلام أَن هؤلاء رؤُوس السابقين ، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : «سابقنا أَهل

---

(١) أخرجه الطبراني ، والبيهقي في البعث ، عن أُسامة بن زيد رضي الله عنه ، وأخرج مثلَه الطيالسي ، وأحمد ، وعبْد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وفي لفظه زيادة ، حيث قال : (كلُّهم بمنزلة واحدة ، وكلُّهم في الجنة) . (الدر المنثور) . وقال ابن كثير عن حديث أبي سعيد الخدري : «هذا حديث غريب ، وفي إسناده من لم يُسَمَّ» ، ثم قال : «ومعنى قوله : (بمنزلة واحدة) أي : في أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة» .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه . (الدر المنثور) .

(٣) أخرجه الحاكم في مستدركه ، عن أنس رضي الله عنه ، قال ذلك الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» ، ورمز بأنه حديث حسن .

جهاد ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وظالمنا أهل بدونا ، لا يشهدون جماعة ولا جمعة »(١) .

وقال عكرمة ، وقتادة ، والحسن ما مقتضاه أن الضمير في [مِنهُمْ] عائد على « العباد » ، والظَّالم لنفسه : الكافر والمنافق ، والمقتصد : المؤمن العاصي ، والسابق : التَّقي على الإطلاق ، قالوا : وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً﴾(٢) ، والضمير في قوله تعالى : [يَدْخُلُونَهَا] ـ على هذا القول ـ خاص على الفرقتين : المقتصد والسابق ، والفرقة الظالمة في النار ، قالوا : وبعيد أن يكون ممن اصْطُفي ظالمٌ كما يقتضي التأْويل الأَول ، ورُوي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال بعض العلماءِ : قُدِّم الظَّالم لأَنه لا يتكل إلَّا على رحمة الله ، والمقتصد هو المعتدل في أُموره ، لا يُسرف في جهة من الجهات ، بل

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه . ذكر ذلك في (الدر المنثور) الإمامُ السيوطي .

(٢) الآية (٧) من سورة (الواقعة) ، قال مجاهد موضحاً أن آية فاطر نظير آية الواقعة : « ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أَصحاب المشأمة ، ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ أصحاب الميمنة ، ﴿ومِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ السابقون من الناس كلِّهم » .

يلزم الوسط . وقال عليه الصلاة والسلام : (خير الأُمور أوساطها) (١) .

وقالت فرقة ـ لا معنى لقولها ـ : إن قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ هم الأَنبياءُ ، والظالم لنفسه منهم من وقع في صغيرة ، وهذا قول مردود من غير ما وجه .

وقرأ الجمهور : ﴿سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ﴾ ، وقرأ أبو عمران الجوني : «سبَّاقٌ» .

وقوله تعالى : ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ معناه : بأَمره ومشيئته فيمن أَحبَّ من عباده ، وقوله : ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إشارة إلى الاصطفاءِ وما يكون من الرحمة .

وقال الطبري : السُّبوق بالخيرات هو الفضل الكبير ، قال في كتاب الثعلبي : جمعهم في دخول الجنة لأَنه ميراثٌ ، والبَّارُ والعاقُّ

---

(١) وقيل : إن التقديم في الذكر لا يقتضي تشريفاً ، وهو كقوله تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ، وقوله : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ ٱلذُّكُورَ﴾ ، وقيل : قدَّم الظالم لتأكيد الرجاءِ في حقِّه ؛ إذ ليس له شيءٌ يتكل عليه إلا رحمة ربه ، واتكل المقتصد على حسن ظنه ، والسابق على طاعته ، وقيل : قدم الظالم ليخبر أنه لا يَتَقَرَّب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه ، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفائية إذا كانت ثَمَّ عناية ، ثم ثنَّى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاءِ ، ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكر الله ، وكلهم في الجنة بحرمة كلمة الإخلاص : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

سواءٌ في الميراث مع صحة النسب ، فكذلك هؤلاءِ مع صحة الإيمان .

وقرأ الجمهور : [جَنَّاتُ] بالرفع على البدل من [ٱلْفَضْل] ، وقرأ الجحدري : [جَنَّاتِ] بالنصب بفعل مضمر يُفَسِّرُهُ [يَدْخُلُونَهَا] ، وقرأ زِرُّ بن حُبيْش : ﴿جَنَّةُ عَدْنٍ﴾ على الإفراد ، وقرأ أبو عمرو : [يُدْخَلُونها] على بناءِ الفعل للمجهول ، ورويت عن ابن كثير ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء .

و «ٱلْأَساوِرُ» جمع أَسْوِرة ، وأَسْوِرة جمع سُوار ، بضم السين وكسرها ، وفي حرف أُبَيٍّ «أَسَاوِير» ، وهو جمع أَسْوار ، وقد يقال ذلك في الحليِّ ، ومشهور أَسْوار أنه الجيِّد الرَّمْي من جند الفرس ، و[يُحلَّوْن] معناه : نساءً ورجالاً . وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر[1] - : [ولُؤْلُؤاً] بالنصب عطفاً على موضع [أساوِر] ، وكان عاصم - في رواية أَبي بكر - يقرأُ : [ولُوْلُؤاً] بسكون الواو الأُولى دون همزٍ ويهمز الثانية ، ورُوي عنه ضد هذا ، وقرأ الباقون : [وَلُؤْلُؤٍ] بالهمز والخفض عطفاً على [أَساوِرَ] .

و [ٱلْحَزَن] في هذه الآية عام في جميع الأَحزان ، وخصَّص المفسرون ها هنا ، فقال أبو الدرداءِ رضي الله عنه : حزن أهوال يوم القيامة وما يُصيب هنالك من ظلم نفسه من الغم والحزن ، وقال

(١) وكذلك في قراءة حفص .

ابن عباس رضي الله عنهما : حزن جهنم ، وقال عطية : حزن الموت ، وقال قتادة : حزن الدنيا في الخوف أَلَّا تُتقبَّل أَعمالهم ، وقيل غير هذا مِمَّا هو جزءٌ من الحزن ، ولا معنى لتخصيص شيءٍ من هذه الأَحزان ؛ لأَن الحزن أَجمع قد ذهب عنهم ، وقولهم : ﴿لَغفُورٌ شَكُورٌ﴾ وصفوه بأَنه تبارك وتعالى يغفر الذنوب ، ويجازي على القليل من الأَعمال الصالحة بالكثير من الثواب ، وهذا هو شكره لا ربَّ سواه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

[ٱلْمُقَامَة] : الإِقامة ، من : أَقام ، والمَقَامة – بفتح الميم – : القيام ، وهي من : قام ، و «دَارُ ٱلْمُقَامَة» : الجنَّة . و «ٱلنَّصَبُ» تعب البدن ، و «ٱللُّغُوب» تعب النفس اللازم من تعب البدن ،

وقال قتادة : اللُّغوب : الوجع ، وقراءة الجمهور [لُغُوبٌ] بضم اللّام ، وقرأ علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، والسُّلَمي : [لَغُوبٌ] بفتح اللام ، أَي : شيءٌ يُعْيِينا ، ويحتمل أَن تكون مصدراً كالوَلُوغ والوَضوء (١) .

ثم أَخبر تعالى عن حال الذين كفروا معادلًا بذلك الإِخبار قبلُ عن الذين اصطفى ، وهو يؤيد تأْويل من قال : إن الثلاثة الأَصناف هي كلُّها في الجنة ؛ لأَن ذكر الكافرين إنما جاءَ ها هنا . وقوله تعالى : ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾ معناه : لا يُجْهَزُ ؛ لأَنهم لو ماتوا لبطلت حواسهم فاستراحوا . وقرأَ الحسن البصريُّ ، والثقفيُّ : «فَيَمُوتُونَ» ، ووجْهُها العطف على [يُقْضَي] ، وهي قراءَةٌ ضعيفة (٢) .

---

(١) الوَضوءُ ــ بالفتح ــ الماءُ الذي يُتوضأُ به ــ كالفَطور والسَّحور لما يُفْطر عليه ويُتَسَحَّر به ، والوَضوء ــ بالفتح أيضاً ، المصدر من توضأت للصلاة ، والوُضوءُ ــ بالضم ــ المصدر . (جاء ذلك في اللسان ــ وَضَأَ) ، واللغويون مختلفون ، ولكن أكثرهم يرون أن صيغة الفتح تدل على الشيءِ الذي يتم به الفعل ، وصيغة الضم تدل على نفس الفعل . (راجع اللسان والتاج) .

(٢) أما قراءة الجمهور (فَيَمُوتُوا) فهي بحذف النون نصباً في جواب النفي في قوله سبحانه : ﴿لايُقْضَى عَلَيْهِمْ﴾ ، وهو على أحد مَعْنَيَي النصب ، فالمعنى : انتفى القضاءُ عليهم فانتفى المُسَبَّب عنه ، أي : لا يُقضى عليهم ولا يموتون ، كقولك : ما تأتينا فَتحَدِّثَنا ، أي : ما يكون حديث ، انتفى الإتيان فانتفى الحديث ، ولا يصح أن يكون النصب على المعنى الثاني للنصب ، أي : ما تأتينا مُحَدِّثاً ، إنما تأتي ولا تحدِّث ، وكذلك في الآية ليس المعنى : لا يُقضى عليهم ميِّتين ، إنما يقضى عليهم ولا يموتون . (راجع البحر المحيط) .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ لا يعارضه قوله : ﴿كُلَّما خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾(١) ؛ لأن المعنى : لا يُخَفَّف عنهم نوعُ عذابهم ، والنوع في نفسه يدخله أن تخبو وأن تسعر ، ونحو ذلك . وقرأ الجمهور : [نَجْزِي] بنونٍ [كُلَّ] بالنصب ، وقرأ أبو عمروٍ ـ بخلاف ـ : [يُجْزَى] بياءٍ مضمومة على الفعل المجهول [كُلُّ] رفعاً .

و [يَصْطَرِخُونَ] يفتعلون ، من الصُّراخ ، أصله «يَصْتَرِخُونَ» فأُبدلت التاءُ طاءً لقرب مخرج الطاءِ من الصاد ، وفي الكلام محذوف تقديره : فيقال لهم : ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ﴾ ؟ على جهة التوقيف والتوبيخ . و [ما] في قوله سبحانه : ﴿مَا يَتَذَكَّرُ﴾ ظرفية ، واختلف الناس في المدة التي هي للتذكير(٢) ـ فقال الحسن بن أبي الحسن : «البلوغ» ، يريد أنه أول حالِ التذكير ، وقال قتادة : ثمانِ عشرة سنة ، وقالت فرقة : عشرون سنة ، وحكى الزجاج سبع عشرة سنة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أربعون سنة ، وهذا قول حسن ورويت فيه آثارٌ ، ورُوي أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان على وجهه ،

---

(١) من الآية (٩٧) من سورة (الإسراء) .

(٢) في بعض النسخ : التي هي حدٌّ للتذكير ، وهذا يتفق مع تعبير ابن عطية بعد ذلك في نقله عن العلماء : «الحدُّ هو كذا» .

وقال : وجه لا يُفلح ، وقال مسروق بن الأَجدع : من بلغ أَربعين سنة فليأْخذ حذره من الله ، ومنه قول القائل :

إِذَا الْمَرْءُ وَفَّي الْأَرْبَعِينَ وَلم يَكُن لهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءُ وَلَا سِتْرُ
فَدَعْهُ وَلَا تَنْفِسْ عَلَيْهِ الَّذي ارْتَأَى وَإِن جَرَّ أَسْبَابَ الحياةِ لهُ الدَّهْرُ (١)

وقال قومٌ : الحدُّ خمسون ، ومنه قول القائل :

أَخُو الْخَمْسِينَ مُجْتَمِعٌ أَشُدِّي وَنَجْدٌ فِي مُدَاوَرَةِ الشُّئُونِ (٢)

وقال آخر :

وإِنَّ امْرَءًا قد عاشَ خَمْسِينَ حِجَّةً إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وِرْدِهِ لَقَرِيبُ (٣)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : الحدُّ في ذلك ستُّون ، وهي

---

(١) وفَّى الأربعين : أَكملها وأَتمَّها . لا تَنْفِس عليه : لا تَحْسُدْهُ عليه ، وارْتَأَى : اعتقد في الأمر رأياً ، يقول : إذا بلغ الإنسان الأربعين ولم يخجل من الأعمال القبيحة التي يرتكبها فاتركه وشأنه ، ولا تحسده على ما يراه ويعتقده وإن مدَّ له الدهر في أسباب الغنى والجاه .

(٢) الأَشُدُّ : مبلغ الرجل الحُنْكَة والمعرفة ، قال تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ ، قال أبو عبيدة : واحدها شَدٌّ في القياس ، وقال سيبويه : واحدها شِدَّةٌ كنِعْمَةٍ وأَنْعُمٍ ، وقيل : هو جمع لا واحد له . والنَّجْدُ : الشجاع يعين المحتاج ويساعده ، والمراد هنا أنه إذا بلغ الخمسين فقد بلغ مبلغ المعرفة والحنكة ، ووصل إلى الخبرة التي تساعده على حسن التصرف في مواجهة المشكلات .

(٣) الحِجَّةُ : السَّنَةُ ، والمنهل في الأصل : المَوْرِد ، أي : الموضع الذي فيه المشرب ، والمراد بالوِرْد هنا نهاية الأجل ، يقول : إذا عاش المرءُ خمسين سنة فقد صار قريباً من النهاية ، وسيشرب من كأسها سريعاً .

سنُّ الإعذار ، وهذا أيضاً قولٌ حسنٌ مُتَّجه ، وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا كان يوم القيامة نودي : أين ابن السِّتِّين ؟ وهو العمر الذي قال الله فيه : ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ . (١) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (من عمَّره الله ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر)(٢) . وقرأ الجمهور : ﴿مَا يَتَذَكَّرُ﴾ ، وقرأ الأعمش : ﴿مَا يَذَّكَّرُ﴾ ، (من اذَّكَّرَ) (٣) .

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » ، والبيهقي في سننه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في (الدر المنثور) : (قيل : أين أبناء السِّتِّين؟) بدلا من : (نودي : أين ابن الستين) .

هذا وقد اختار القرطبي القول الذي يجعل الأربعين حدّ التذكير ، قال : « لأن في الأربعين يتناهى عقل الإنسان وفهمه ، وما قبل ذلك وما بعده منتقص عن كماله في حال الأربعين » .

وقال القرطبي : « ولهذا القول وجهٌ ، وهو صحيح ؛ والحُجَّة له قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ، » ، وقال مالك : « أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا والعلم ويخالطون الناس ، حتى يأتي لأحدهم أربعون سنة ، فإذا أتت عليهم اعتزلوا الناس واشتغلوا بالقيامة حتى يأتيهم الموت » .

(٢) أخرجه الرَّامَهُرْمزي في الأمثال ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد ذكر السيوطي في آخره في الدرِّ المنثور تكملةً تقول : (يريد ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ ، وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، والنسائي ، والبزار ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَعْذَرَ اللهُ إلى امرئٍ أخَّر عمره حتى بلغ الستين) . ذكر ذلك في الدرِّ المنثور . قال الخطَّابيُّ : « أعذر إليه » أي بلغ به أقصى العذر ، والمعنى أن من عمَّره الله ستين سنة لم يبق له عذر ، لأن الستين سنُّ الإنابة والخشوع .

(٣) أي : بالإدغام واجتلاب همزة الوصل ملفوظاً بها في الدَّرْج . قاله في البحر المحيط .

و [ٱلنَّذِيرُ] في قول الجمهور : الأَنبياءُ ، كل نبيٍّ نذير أُمته ومعاصريه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم نذير العالَم في غابر الزمن ، قال الطبريُّ : «وقيل : النذيرُ الشَّيْبُ» ، وهو قول حسن إلَّا أَن الحُجَّة إنما تقوم بالنِّذارة الشرعية ، وباقي الآية بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾

هذا ابتداءُ تذكير بالله تعالى ، ودلائل على وحدانيته وصفاته التي لا تبتغَى الأُلوهية إلَّا معها ، و «الغَيْبُ» ما غاب عن البشر ،

و «ذاتُ الصُّدورِ» ما فيها من المعتقدات والمعاني ، ومثله قول أَبي بكر رضي الله عنه : «ذو بطن بنت خارجة» ، ومنه قول العرب : «الذئب مغبوط بذي بطنه» (١) ، أَي بالنفخ الذي فيه ، فمن رآه ظنَّه رآه سابغاً (٢) قريب عهد بأَكل .

و [خَلَائِف] جمع خليفة ، كسفينة وسفائن ومدينة ومدائن ، وقوله تعالى : ﴿فعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فيه حذف مضاف تقديره : فعليه وبال كفره وضرره، و «الْمَقْتُ» احتقارك الإنسان من أَجل معصية ، أَو بغضه لدينه الذي يأْتيه ، فإن كان الاحتقار تعسُّفاً منك فلا يُسمى مقتاً ، و «الْخَسَار» مصدر : خسِر الرجل يخسر ، أَي : خسروا آخرتهم ومعادهم بأَن صاروا إلى النار والعذاب .

---

(١) هذا مثَل عن العرب ، ويروى : «الذئب يُغبط بغير بِطنة» ، قال أبو عبيدة : وذلك أنه ليس يُظن به أبداً الجوع ، إنما يُظَنّ به البِطنة ؛ لأنه يعدو على الناس والماشية ، قال الشاعر :

ومَنْ يسكُن البَحرَين يَعْظُمْ طِحَاله ويُغْبَط ما في بَطْنِه وهُوَ جائِعُ

وقال غيره : إنما قيل في الذئب ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً ، لا يَبِينُ عليه الضمور وإن جهَدَهُ الجوع ، قال الشاعر :

لَكَالذِّئْبِ مَغْبُوطُ الْحَشَا وَهُوَ جائِعُ

(٢) يقال : سبغ بمعنى تَمَّ واتَّسَع وطال .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ الآية ، احتجاج على الكفار في بطلان أمر أَصنامهم ، وقفَهم النبي صلى الله عليه وسلم ـ بأَمر ربهم ـ على حجتهم التي يزعمون أنها حقٌّ ، ثم وَقَفَهم ـ مع اتضاح عجزهم عن خلق شيءٍ ـ على السموات ، هل لهم فيها شِرْك ؟ وظاهرٌ بُعْدُ هذا أَيضاً ، ثم وَقَفَهم هلْ عندهم كتاب من الله تعالى يُبَيِّن لهم فيه ما قالوه ؟ أي : ليس ذلك كله عندهم ، ثم أَضرب بعد هذا الجحد المقدَّر فقال : إنما يَعِدون أَنفسهم غروراً .

و [أَرَأَيْتُمْ] تتنزَّل عند سيبويه منزلة «أَخبروني» ، ولذلك لا تحتاج إلى مفعولين ، وأَضاف الشركاءَ إليهم من حيث هم جعلوهم شركاءَ لله ، أَي : ليس للأَصنام شركة بوجه إلَّا بقولكم ، فالواجب إضافتها إليكم ، و [تدْعونَ] معناه : تعبدون . و «الرُّؤْية» في قوله تعالى : [أَرُونِـي] رؤْية بصر ، و «الشِّرْكُ» : الشَّركة ، مصدر أَيضاً ، وقرأَ نافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وأَبو بكر عن عاصم : [بَيِّنَاتٍ] بالجمع ، وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، وحمزة ، والأَعمش ، وابن وثاب ، ونافع ـ بخلاف عنه ـ : [بَيِّنَةٍ] بالإِفراد ، والمراد به الجمع[١] ، ويحتمل أَن يراد به الإِفراد . كما تقول : أَنا من هذا الأَمر على واضحة ، أَو على جلِيَّة . و «الْغُرُورُ» الذي كانوا يتعاطونه قولهم : الأَصنام تُقَرِّب من الله زُلفي ، ونحوه ممَّا يغيظهم .

---

(١) وهي أيضا قراءة عاصم في رواية حفص عنه .

ولمَّا ذكر الله تعالى ما يُبَيِّن فساد أَمر الأَصنام ، ووقف على الحُجَّة على بُطلانها ، عقَّب ذلك بذكر عظمته وقدرته ، ليتبيَّن الشيءُ بضده ، وتتأَكد حقارة الأَصنام بذكر الله تعالى ، فأَخبر عن إِمساكه السموات والأَرض بالقدرة ، وقوله : ﴿أَنْ تَزُولَا﴾ معناه : كراهةَ أَن تزولا ، ولئلا تزولا ، ومعنى الزوال هنا التنَقُّلُ من مكانها ، والسقوط من عُلُوِّهَا ، وقال بعض المفسرين : معناه : أَن تزولا عن الدوران ، ويظهر من قول ابن مسعود أَن السماءَ لا تدور وإِنما تجري فيها الكواكب ، وذلك أَن الطبري أَسند أَن جُندباً البَجَلِيَّ رحل إِلى كعب الأَحبار ثم رجع ، فقال له ابن مسعود : حدِّثنا ما حدَّثك ، فقال : حدثني أَن السماءَ في قطب كقطب الرَّحى ، وهو عمود على منكب ملَك ، فقال ابن مسعود : لوددت أَنك افتديت رحلتك بمثل راحلتك ورَحْلك ، ما تَنْتكِتُ اليهودية في قلب عبد فكادت أَن تفارقه ، ثم قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ ، وكفى بها زوالًا أَن تدور ، ولو دارت لكانت قد زالت . وقوله : ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا﴾ قيل : يوم القيامة عند طيِّ السموات ونسف الجبال ، فكأَنه قال : ولئن جاءَ وقت زوالهما ، وقيل : بل ذلك على جهة التوهُّم والفرض ، ولئن فرضنا زوالهما ، وكأَنه قال : ولو زالتا ، وقال بعضهم : [لَئِنْ]

في هذا الموضع بمعنى (لو) ، وهذا قريب من الذي قبله ، وكذا قرأ ابن أبي عبلة : «وَلَوْ زالَتَا» . وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره : من بعد تركه الإمساكَ . وقالت فرقة : اتِّصافه تعالى بالحلم والغفران في هذه الآية إنما هو إشارة إلى أن السماءَ كادت تزول والأرض كذلك لإشراك الكفرة ، فيمسكهما الله تعالى حِلْماً منه عن المشركين ، وتربُّصاً ليغفر لمن آمن منهم ، كما قال : ﴿تَكادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ الآية (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

---

(١) من الآية (٩٠) من سورة (مريم) ، وقد حكى القرطبي عن الكلبي قال : لما قالت اليهود : عُزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، كادت السموات والأرض أن تزولا عن أمكنتهما ، فمنعهما الله ، وأنزل هذه الآية : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ، تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾ .

الضمير في قوله تعالى : [وَأَقْسَمُوا] لكفار قريش ، كانت قبل الإسلام تأخذ على اليهود والنصارى في تكذيب بعضهم بعضاً ، وتقول : لو جاءنا نحن رسول لكنا أهدى من هؤلاءِ وهؤلاءِ . و ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ منصوب على المصدر ، أي : بغاية اجتهادهم ،و ﴿إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ يريدون اليهود والنصارى ، و «النُّفُور» : البُعْد عن الشيءِ والفزع منه والاستبشاع له .

و [ٱسْتِكْبَاراً] قيل فيه : بدل من النُّفُور ، وقيل : مفعول من أجله ، أي : نَفَروا من أَجل الاستكبار ، وأَضاف «المكْر» إلى «السَّيِّىءِ» وهو صفة ، كما قيل : «دار الآخرة ، ومسجد الجامع ، وجانب الغربي» ، وقرأَ الجمهور بكسر الهمزة من [ٱلسَّيِّىءِ] ، وأَسكنها حمزة وحده (١) ، وهو في الثانية يرفع الهمزة كالجماعة ، ولحَّنَ هذه القراءة الزَّجاجُ ، وَوَجَّهَها أَبو عليٍّ الفارسي بوجوه ، منها أَن يكون قد أَسكن لتوالي الحركات (٢) ، كما قال :

. . . . . قُلْتُ صاحِبْ قَوِّمِ . . . . (٣)

---

(١) وقرأ بها الأعمش أيضاً كما قال أبو حيان في البحر المحيط ، أما قول ابن عطية : «وأسكنها حمزة وحده» فإن مقصده : وحده من السبعة .

(٢) ومنها أنه أجرى الوصل مجرى الوقف ، ومنها أنه أجرى المنفصل مجرى المتصل .

(٣) هذا جزءٌ من بيت قاله أبو نُخَيْلة الراجز ، والبيت بتمامه :

إذا اعوَجَجْنَ قلتُ صاحِبْ قَوِّمِ بالدَّوِّ أمثالَ السَّفِينِ العُوَّمِ =

على أَن المُبَرِّد روى هذا : « قلتُ صاحِ قَوِّمِ » . وكما قال امرؤُ القيس :

فالْيَومَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إِثْماً مِنَ اللهِ وَلَا واغِلِ (١)

على أَن المبَرِّد قد رواه : « فاليوم فاشْرَبْ » ، وكما قال جرير :

سِيرُوا بَنِي ٱلْعَمِّ فالْأَهْوازُ مَنْزِلُكُمْ وَنَهْرُ تِيرَى فَلَنْ تَعْرِفْكُمُ الْعَرَبُ (٢)

=وأبو نُخَيْلة اسمه يَعْمَر ، وكُني « أبا نخيلة » لأن أُمَّه ولدته إلى جانب نخلة ، وهو من بني كعب بن سعد ، والبيت في اللسان (عوَم) ، وفي شرح السيرافي (باب ما يحتمل الشعر) ، وانظر الخصائص لابن جني . وقد استشهد به سيبويه في الكتاب ، (باب الإشباع في الجرّ والرفع وغير الإشباع والحركة كما هي) ، قال : « ومما يسكن في الشعر وهو بمنزلة الجرَّة ، إلا أنَّ من قال (فخْذ) لم يسكِّن ذلك ، قال الراجز : إذا اعوججْن قلْتُ البيت ، فسألتُ من ينشد هذا البيت من العرب فزعم أنه يريد : صاحبي » . والدَّوُّ : الصحراءُ ، وأمثال السَّفين : الرواحل المحملة التي تقطع الصحراء كما تقطع السفينُ البحر ، والعُوَّم : العائمة . وقد قيل ردّاً على أبي عليّ في استشهاده بهذا البيت بأن سيبويه لم يُجزْه وإنما حكاه ، والمبَرِّد رواه بحذف الباء فلاشاهد فيه .

(١) قال امرؤ القيس هذا البيت حينما أدرك ثأر أبيه فتحلَّل من نذره ألا يشرب الخمر حتى يثأر له . واستحقب : اكتسب ، وأصل الاستحقاب حملُ الشيءِ على الحقيبة ، والواغل : الداخل على القوم في شرابهم ولم يُدْعَ إليه ، والشاهد تسكين الباء من (أشْرَبْ) في حال الرفع والوصل ، وقد رُوي البيت : « فاليوم أُسْقَى » ، و « فاليَوْم فاشْرَبْ » ، وعلى هاتين الروايتين لا شاهد فيه ، وقد ذكر ابن عطية الرواية الثانية وهي رواية أبي العباس المُبَرِّد .

(٢) قال جرير هذا البيت من ثلاثة أبيات قالها يهجو بني العمّ وأعانوا عليه الفرزدق ، وقبله يقول :

ما لِلْفَرَزْدَقِ مِنْ عِزٍّ يَلُوذُ بِهِ إلا بَنُو العَمِّ في أيْدِيهِمُ الخُشُبُ

ونهر تيرى : بلد من نواحي الأهواز ، والشاهد فيه تسكين الفاء من (تَعْرِفْ) بعد (لن) ، على أن البيت قد رُوي بالميم ، أيْ : (فَلَمْ تَعْرِفْكُم العَرَبُ) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه .

هذا والزجاج يقول : إن هذه القراءة نوع من اللحن ؛ لأن القارئ بها قد حذف الإعراب .=

وقرأ ابن مسعود : «وَمَكْراً سَيِّئاً» ، قال أبو الفتح : يعضده تنكير ما قبله من قوله : [ٱسْتِكْبَاراً][1]. و [يَحِيقُ] معناه : يُحيط ويَحِلُّ وينزل ، ولا يُستعمل إلا في المكروه ، وقوله : ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ معناه أنه لابُدَّ أن يحيق بهم إما في الدنيا وإلَّا ففي الآخرة ، فعاقبته الفاسدة لهم ، وإن حاق في الدنيا بغيرهم أحياناً فعاقبة ذلك على أهله ، وقال كعب الأحبار لابن عباس رضي الله عنهما : إن في التوراة : «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها» ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : «أنا أُوجدك هذا في كتاب الله ، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.»[2]

= وقال المبرِّد : إن هذا لا يجوز في كلام ولا في شعر ؛ لأن حركات الإعراب لا يجوز حذفُها ؛ لأنها دخلت للفرق بين المعنى . وقد أعظم بعض النحويين (وهو أبو جعفر النحاس) أن يكون الأعمش على جلالته ومحله يقرأ بهذا ، قال : إنما كان يقف عليه ، فغلط من سمع منه ، والدليل على هذا أنه تمام الكلام ، وأن الثاني لما لم يكن من تمام الكلام أُعرب باتفاق ، والحركة في الثاني أثقل منها في الأول لأنها ضمة بين كسرتين .

(١) قال أبو الفتح في المحتَسَب : «يشهد لتنكيره تنكير ما قبله من قول الله سبحانه : ﴿ٱسْتِكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ، وقراءة العامة أقوى معنى ؛ وذلك أن (ٱلْمَكْر) فيها معرفة لإضافته إلى المعرفة ، وحسُن تنكير الاستكبار لأنه أدنى إلى «نفور» مما بعده ، وقد يحسن مع القرب فيه مالا يحسن مع العبد ، واعتُمد ذلك لقوة معناه بتعريفه ، والإخبار عنه بأن مثله لا يخفى لعظمه وشناعته» .

(٢) روى الزهريُّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا تمكر ، ولا تُعِن ماكراً ، فإن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ﴾ ، ولا تَبْغِ ، ولا تُعِنْ بَاغياً ، فإن الله تعالى يقول : ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ .

و [يَنْظُرُونَ] معناه : ينتظرون . و «السُّنَّةُ» : الطريقة والعادة . وقوله تعالى : ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾ أي : لتعذيبه الكفرة المكذبين ، وفي هذا وعيدٌ بيِّن .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

لمَّا توعدهم تعالى في الآية قبلها بسُنَّة الأوَّلين ، وأنه لايُبَدِّلها ولا يُحَوِّلها في الكفرة ، وقفهم في هذه الآية على رؤيتهم لِمَا رَأَوْا من ذلك في طريق الشام وغيره ، كديار ثمود ونحوها ، و «يُعْجِزه» معناه يفوته ويُفْلِته ، و [مِنْ] في قوله : ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ زائدة مؤكدة ، و ﴿عليماً قَديراً﴾ صفتان لائقتان بهذا الوضع ؛ لأنه معهما لا يتعذر شيءٌ .

ثم بيَّن الوجه في إمهاله من أَمهل من عباده ، إن ذلك إنما هو لأَن الآخرة من وراءِ الجميع ، وفيها يُسْتوفى جزاءُ كلٍّ أَحد ، ولو كان عزَّ وجلَّ يجازي على الذنوب في الدنيا لأَهلك الجميع . وقوله : ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ مبالغة ، والمراد بنو آدم لأَنهم المجَازَوْن ، وقيل : المراد معهم الجن ، وقيل : كل ما دبَّ من الحيوان إذْ أَكثره إنما هو لمنفعة بني آدم وبسببهم . والضمير في [ظَهْرِها] عائدٌ على الأَرض المتقدم ذكرها ، ولو لم يتقدم لها ذكر لأَمكن في هذا الموضع لبيان الأَمر ، ولكانت كقوله تعالى : ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[1] ونحوه ، و «ٱلْأَجَلُ ٱلْمُسَمَّى» يوم القيامة ، وباقي الآية توعُّدٌ ، وفيه وعدٌ للمؤمنين .

كمل تفسير سورة فاطر والحمد لله ربِّ العالمين

(١) من الآية (٣٢) من سورة (ص) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على أَشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(٣٦) سورة يس مكية
وآياتها ثلاث وثمانون

هذه السُّورة مكِّيَّةٌ بإجماع ، إِلَّا أَنَّ فرقة قالت : إن قوله تعالى : ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ نزلت في بني سَلِمَة من الأَنصار حين أَرادوا أَن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهم : (دِيَارَكُم تُكْتَبْ آثَارُكم) ، وكره عليه الصلاة والسلام أَن يُعْرُوا المدينة(١) ، فعلى هذا فهي مدنية ، وليس الأَمر كذلك ، وإنما نزلت الآية بمكة ، ولكنه احتج عليهم في المدينة ، ووافقها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في المعنى ، فمِنْ هنا قيل ذلك(٢) ، وروى

---

(١) أي أن يتركوها خالية عارية .

(٢) في الترمذي عن أبي سعيد الخدري ، قال : كانت بنو سَلِمة في ناحية المدينة فأرادوا النُّقْلَة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن آثاركم تُكْتَب) فلم ينتقلوا ، وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : أراد بنو سَلِمة أن يتحولوا إلى قرب =

أَنس بن مالك رضي الله عنه أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن لكل شيءٍ قلباً ، وإن قلب القرآن يٓسن)[١] ، وروت عائشة رضي الله عنها أَنه عليه الصلاة والسلام قال : (إِنَّ في القرآن لَسُورة تَشفع لِقَارئها ، ويُغفر لمستمعها ، وهي يٓسن)[٢] ، وقال يحي بن أَبي كثير : «بلغني أَنَّ من قرأَ سورة يٓسن ليلاً لم يزل في فرح حتَّى يصبح ، وكذا في النهار »[٣] ، ويُصَدِّق ذلك التجربة .

= المسجد ، قال : والبقاع خالية ، قال : فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (يا بني سَلِمة ، ديارَكُم تُكتَب آثارُكم ، ديارَكُمْ تُكتَب آثارُكُم) ، وابن عطية يرى أن الآية مكيَّة ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم احتج عليهم في المدينة ، واتفق قوله صلى الله عليه وسلم مع الآية في المعنى ، وهذا هو السبب في أن بعض الناس قالوا : الآية مدنية . والمراد بالآثار الخُطَى إلى المساجد .

(١) أخرجه الدارمي ، والترمذي ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أنس ، وفي آخره (ومن قرأ يسن كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات) ، وأخرج مثله البزَّار عن أبي هريرة ، (الدرُّ المنثور) . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لكل شيءٍ قلْب ، وقلْب القرآن يسن ، ومن قرأ يسن فكأنما قرأ القرآن عشر مرات) .

(٢) أخرجه أبو نصر السجزي في الإبانة وحسَّنه ، عن عائشة رضي الله عنها ، ولفظه كما جاء في الدرِّ المنثور : قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن في القرآن لسورة تُدْعى العظيمة عند الله ، يُدْعى صاحبها الشريف عند الله ، يشفع صاحبها يوم القيامة في أكثر من ربيعة ومضر ، وهي سورة يسن) . (الدرُّ المنثور) .

(٣) هو يحيى بن أبي كثير الطائي ، مولاهم ، أبو نصر اليماني ، ثقة ، ثبت ، قال عنه خاتمة الحفَّاظ أحمد بن حجر العسقلاني : « لكنَّه يُدلِّس ويرسل » ، من الخامسة ، مات سنة اثنتين وثلاثين ، وقيل قبل ذلك . وزاد القرطبي في آخر العبارة التي نقلها عن يحيى بن أبي كثير قوله : « وقد حدَّثني من جرَّبها » ، وابن عطية يؤيد ذلك ويقول : « ويُصَدِّقُ ذلك التجربة » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ ﴾

أمالَ حمزة والكسائي الياءَ في ﴿ يسٓ ﴾ غير مفرطين ، والجمهور يفتحونها ، ونافع يتوسط في ذلك ، وقوله تعالى [يسٓ] يدخله من الأَقوال ما تقدم في الحروف المقطَّعة في أوائل السُّور ، ويختصُّ هذا بأَقوال : منها أَن سعيد بن جبير قال : إنه اسم من أَسماءِ محمد صلى الله عليه وسلم ، ودليله ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وقال السيد الحميري (١) :

(١) هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن مفرغ الحميري ، شاعر إمامي متقدم . قال أبو عبيدة : أَشعر المُحدَثين السَّيد الحميري وبشَّار ، ولكن أَخمل ذكر الحميري وصرَف الناسَ عن رواية شعره إفراطُه في النَّيْل من بعض الصحابة وأَزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ولد في (نعمان) وهو وادٍ قريب من الفرات على أرض الشام ، ونشأ بالبصرة ، ومات ببغداد ، وكان يُشار إليه في التَّصوف والورع ، وقد جمع الكثير من أخباره المستشرق الفرنسي (باربيي دي مينار) ، ولأبي بكر الصولي كتاب (أَخبار السَّيد الحميري) ، وكتب عنه كثيرون غيرهما كابن الحاشر ، وابن أبان والجلودي . (الأغاني ، وضوءُ المشكاة ، والأعلام) .

يا نَفْسُ لا تَمْحَضي بالنُّصْحِ مُجْتَهِداً عَلَى المَـوَدَّةِ إلَّا آلَ يَاسِينَا (١)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : «يا إنسانُ» بالحبشية ، وقال أَيضاً في الثعلبي : هو بِلُغَة طَيِّئٍ ، يقولون : «إِيسان» بمعنى إنسان ، ويجمعونه على «أَياسين» ، فهذا منه . وقالت فرقة : الياءُ حرف نداءٍ ، والسِّين أُقيمت مقام «إنسان» انتزع منه حرف فأُقيم مقامه . ومن قال «هو اسم من أَسماءِ السورة أَو القرآن» فذلك مُشترك في جميع السُّوَر .

وقرأَ الجمهور : [يٓسٓنْ] بسكون النون وإظهارها ، وإن كانت النون الساكنة تخفى مع حروف الفم فإِنَّما هذا على الانفصال وأَن حقَّ هذه الحروف المقطعة في الأَوائل أَن تظهر . وقرأَ عاصم ، وابن عامر ـ بخلاف عنهما ـ بإِدغام النُّون في الواو على عُرف الاتصال ، وقرأَ ابن أَبي إسحق ـ بخلاف ـ بنصب النون ، وهي قراءَة عيسى بن عمر ، ورواها عن الغنوي . وقال قتادة : [يٓسِنِ] قَسَمٌ ، وقال أَبو حاتم : قياسُ هذا القول نصب النون ، كما تقول : اللهَ لأَفعلن كذا ، وقرأَ الكلبي بضمها وقال : هي بلغة طَيِّئٍ : يا إنسان ، وقرأَ أَبو السّماك ، عن ابن أَبي إسحق (٢) ـ بخلاف ـ بكسرها ، وهذه الوجوه الثلاثة هي

(١) ويروى : «لا تمحضي بالنصح جاهدة» ، ومَحَض فلاناً النُّصحَ أو الودَّ : أخلصه إياه ، وأمحضه النُّصْحَ أيضاً مثل مَحَضَه ، والمَحْض من كلّ شيءٍ : الخالص ، وفي حديث الوسوسة : (ذلك محض الإيمان) . وآل ياسين هم آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو الشاهد في البيت .

(٢) في بعض النسخ : «وقرأَ أَبو السّماك ، وابن أَبي إسحق» .

للالتقاءِ ، قال أَبو الفتح : ويحتمل الرفعُ أَن يكون اجتزاءً بالسين من : يا إِنسان [١] ، وقال الزجاج : النصب كأَنه قال : اتْلُ يٓسٓ ، وهذا مذهب سيبويه على أَنه اسمٌ للسُّورة . و [يٓسٓ] تُشبه الجملة من الكلام فلذلك عُدَّت آيةً ، بخلاف [طسٓ] [٢] ، فلم تنصرف [يسٓ] للعجمة والتعريف .

و [ٱلْحَكِيمِ] : المُحْكَمْ ، فيكون بمعنى : مفعول ، أَي أُحْكِمَ في مواعظه وأَوامره ونواهيه ، ويحتمل أَن يكون بناءَ فاعِلٍ ، أَي ذو الحكمة .

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يجوز أَن يكون جملة في موضع رفع على أَنها خبر بعد خبر ، ويجوز أَن يكون في موضع

(١) معنى أن الوجوه الثلاثة للالتقاء ، أنها حُرِّكت لالتقاء الساكنين ، وذلك أن الكلام مبني على الإدراج ، لا علَى وقف حروف المعجم ، فحرِّك لذلك ، فمن فتَح هربَ إلى خفَّة الفتحة ، ومن كسر جاء على الأصل في الحركة عند التقاء الساكنين ، ومن ضمَّ احتمل أن يكون لالتقاء الساكنين أيضاً ، واحتمل أن يكون اجتزاءً بالسين ، قال أبو الفتح : « أراد يا إنسان ، إلا أنه اكتفى من جميع الاسم بالسين ، فقال : ياسينُ ، فـ (يا) فيه – على هذا – حرف نداءٍ ، كقولك : يا رجُلُ ، ونظير حذف بعض الاسم قول النبي صلى الله عليه وسلم : (كفى بالسيف شا) ، أي : شاهداً ، فحذف العين واللام ، وكذلك حُذف من (إنسان) الفاءُ والعين » ، وهناك احتمال ثالث في حالة الرفع ، قال عنه أبو الفتح : « أن يكون على ما ذهب إليه الكلبي ، وروينا فيه عن قطرب :

فَيَالَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ مَاطَافَ أَهْلُهَا هَلَكْتُ ولَمْ أَسْمَعْ بِهَا صَوْتَ إِيسَانِ

ومعناه : صوت إنسان » . وكذلك أن (الإيسَان) لغة في الإنْسان ، وهي لغة طائية ، هذا والبيت لعامر بن جرير ، وهو في اللسان (أنس) .

(٢) من الآية (١) من سورة (النمل) .

نصب على أَنها في موضع الحال من [ٱلْمُرْسَلِينَ]، و «الصِّرَاطُ» : الطريق ، والمعنى : على طريق هدًى ومَهْيَع [١] رشاد .

وقرأَ ابن كثير ، ونافع ، وأَبو عمرو : [تَنْزِيلُ] بالرفع على خبر الابتداءِ ، وهي قراءَة أَبي جعفر ، وشيبة ، والحسن ، والأَعرج ، والأَعمش . وقرأَ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : [تَنْزِيلَ] بالنصب على المصدر ، واختلف عن عاصم ، وهي قراءَة طلحة ، والأَشهب ، وعيسى بن عمر ، والأَعمش ، بخلاف عنهما .

قوله تعالى : ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ ، اختلف المفسرون في [مَا] – فقال عكرمة : [مَا] بمعنى الذي ، والتقدير : الشيءَ الذي أُنْذِرَه الآباءُ من النار والعذاب ، ويحتمل أَن تكون [مَا] مصدرية ، أَي : ما أُنْذِرَ آبَاؤُهم [٢] ، والآباءُ – على هذا – هم الأَقدمون على مرِّ الدهر [٣] ، وقوله : [فَهُمْ] – مع هذا التأْويل – بمعنى : فإِنَّهُمْ ، دخلت الفاءُ لقطع الجملة من الجملة . وقال قتادة : [مَا] نافية ، أَي إِن آباءَهم لم يُنْذَروا ، فالآباءُ – على هذا – هم القريبون منهم ،

(١) المَهْيَعُ من الطرق : البَيِّن ، والجمع : مهايع ، والمعنى : طريق واضح للرشاد .

(٢) المراد أن [ما] مع الفعل مصدر ، والمعنى : لِتُنْذر قوماً إِنْذار آبائهم .

(٣) نقل صاحب (البحر المحيط) كلام ابن عطية هنا ، وفيه زيادة عن الأصول التي معنا حيث قال : « هم الأقدمون من ولد إسماعيل عليه السلام ، وكانت النِّذارة فيهم ، و [فَهُمْ] – على هذا التأويل – بمعنى : فإنَّهم ، دخلت الفاءُ لقطع الجملة من الجملة الواقعة صلة ، فتتعلق بقوله : ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ، كما تقول : أرسلتك إلى فلان لِتُنْذر فإنه غافل ، أو فهو غافل » .

وهذه الآية كقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾(١)، وهذه النِّذارة المنفيَّة هي نذارة المباشرة والأَمر والنهي ، وإلَّا فدعوة الله تعالى لم تنقطع من الأَرض قط ، وقوله : [فَهُمْ] ـ على هذا ـ الفاءُ واصلة بين الجملتين ورابطةٌ الثانية بالأُولى (٢) .

و ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ معناه : وجب العذابُ وسبق القضاءُ به ، وهذا فيمن لم يؤمن مِنْ قريش ، كمن قُتل ببدرٍ وغيرهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾

قال مكِّيّ : هي حقيقية في أَحوال الآخرة إذا دخلوا النار ، وقوله تعالى : [فَأَغْشَيْنَاهُمْ] الآية ـ يُضْعف هذا القول ؛ لأَن بصر الكافر بعد القيامة إنما هو حديد ، يرى قُبْح حاله (٣) . وقال الضحاك :

(١) من الآية (٤٤) من سورة (سبأ) .

(٢) قال أبو حيان في (البحر المحيط) : «وقوله تعالى : ﴿مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ في موضع الصفة ، وقوله : ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ متعلق بالنفي ، أي : لم يُنْذروا فهم غافلون ، على أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم ، وباعتبار الآباء في القِدَم والقُرْب يزول التعارض بين الإنذار ونفيه» .

(٣) علَّق أبو حيان على رأي ابن عطية في ضعف هذا القول بما يأتي : «ولا يضعف هذا ، ألا ترى إلى قوله : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً﴾ ،=

معناه : منعناهم من النفقة في سبيل الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾(١). وقال ابن عباس ، وابن إسحق : هي استعارة لحال الكفرة الذين أرادوا محمداً صلى الله عليه وسلم بِسُوءٍ ، فجعل الله تعالى هذه مثلًا لهم في كفِّ أذاهم عنه حين بيَّتوهُ . وقال عكرمة : نزلت حين أراد أبو جهل ضربه بالحجر العظيم فمنعه الله منه ، وفي غير ذلك من المواطن . وقالت فرقة : الآية مستعارة المعنى من مَنْع الله إياهم وحَوْلِهِ بينه وبينهم . وهذا أرجح الأقوال ؛ لأنه لمَّا ذكر أنهم لا يُؤْمنون لِمَا سبق لهم في الأزل عقَّب ذلك بأن جعل لهم من المنع وإحاطة الشقاوة ما حالُهم معه حال المغلوبين .

و « الغُلُّ » ما أحاط بالعُنُق على معنى التَّضْييق والتثبيت والتعذيب والأَسْر ، ومع العُنق اليدان أو اليد الواحدة ، هذا معنى التَّغليل ، وقوله : [فَهِـيَ] يحتمل أن يعود على الأَغْلَال ، أي : هي عريضة تبلغ بحرفها الأذقان ، والذَّقْن مجتمع اللَّحْيَيْن(٢) ، فيضطر المغلول إلى رفع وجهه نحو السماء ، وذلك هو الإِقْمَاحُ ، وهو نحو الإقناع في الهيئة ، ونحوُه ما يفعله الإنسان والحيوان عند شرب الماءِ البارد

= وقوله: ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى ﴾ ، وأما قوله : ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ فكناية عن إدراكه ما يؤُول إليه حتَّى كأنه يبصره » .

(١) من الآية (٢٩) من سورة (الإسراء) .

(٢) اللَّحْيُ : منبت اللِّحْية من الإنسان وغيره ، وهما لَحْيان ، وهما أيضاً العظمان اللذان فيهما الأسنان من كل ذي لَحْي .

وعند الملوحات والحموضة القوية ونحوه . ويحتمل ـ وهو قول الطبري ـ أن تعود [هِيَ] على الأيدي ـ ولم يتقدم لها ذكر ـ لوضوح مكانها في المعنى ، وذلك أن الغُلَّ يكون في العُنق مع اليدين . ورُوي في مصحف ابن مسعود وأُبيٍّ : «إنا جعلنا في أَيمانِهِمْ» ، وفي بعضها «في أَيديهم» ، وقد ذكرنا معنى الإقماح .

وقال قتادة : المُقْمَح الرافعُ رأْسه ، وقال أَيضاً : [مُقْمَحُونَ] : مُغَلَّلُون عن كلِّ خير ، وأَرَى عليُّ بن أَبي طالب رضي الله عنه الناسَ الإقماح ، فجعل يديه تحت لَحْيَيْه وأَلصقهما ورفع رأْسه (١) .

وقرأَ الجمهور : [سُدًّا] برفع السين فيهما . وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وابن مسعود ، وطلحة ، وابن وثَّاب ، وعكرمة ، والنَّخَعي ، وابن كثير بفتحها فيهما . قال أَبو عليٍّ : قال قوم : هما بمعنى واحد ، أَي : حائِلًا يسُدُّ طريقهم ، وقال عكرمة : ما كان مما يفعله البشر فهو بالضم ، وما كان خِلْقة فهو بالفتح ، و «السَّدُّ» ما سَدَّ وحالَ ، ومنه قول الأَعرابي في صفة سحاب : «طَلَع سُدٌّ مع

---

(١) قال الأصمعي : يقال : أَقْمَحْتُ الدابَّةَ إذا جذبتَ لجامها لترفع رأسها ، قال النحاس : والقاف مبدلة من الكاف لقربها منها ، كما يقال : قَهَرْتُه وكَهَرْتُه ، وعلى هذا جاءَ قول ذي الرُّمَّة :

تَمُوجُ ذِراعاها وَتَرْمِي بِجَوْزِهَا حِذاراً من الإبعادِ وَالرَّأسُ مُكْمَحُ

انتشار الطفل»(١)، أي: سحابٌ سدَّ الأُفق، ومنه قولهم: «جرادٌ سُدٌّ»(٢)، ومعنى الآية أن طريق الهُدى سُدَّ دونهم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ منقوطة، أي: جعلنا على أعينهم غشاوة. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وابن يَعْمر، وعمر ابن عبد العزيز، والنَّخَعي، وابن سيرين بالعَيْن مهملة، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي من العَشَاءِ أي: أضعفنا أبصارهم(٣)، والمعنى: فهم لا يُبْصرون رشداً ولا هدًى. وقرأ يزيد اليزيدي: «فَأَغْشَيْتُهُم» بياءٍ دون ألف وبالغين منقوطة.

---

(١) جاءَ في اللسان (سَدَدَ): «أبو زيد: السُّدُّ من السحاب: النَّشْءُ الأسود، من أيِّ أقطار السماء نشأ، والسُّدُّ واحد السُّدود، وهي السحائب السُّود. ابن سِيدَه: والسُّدُّ: السحابُ المرتفع السَّادُّ الأفق، والجمع سُدُود، قال:

قَعَدْتُ لَهُ وَشَيَّعَنِي رِجَالٌ ... وَقَدْ كَثُرَ الْمَخَايِلُ والسُّدُودُ

وفيه أيضاً (طفل): «طَفَلُ العَشِيِّ: آخره عند غروب الشمس واصفرارها، يقال: أتيتُه طَفَلا، وطَفَلَت الشمسُ: دنت للغروب».

(٢) قال في اللسان (سَدَدَ): «والسُّدُّ: القطعة من الجراد تَسُدُّ الأفق، قال الراجز:

سَيْلُ الْجَرَادِ السُّدِّ يَرتادُ الْخُضَرْ

ويقال: جاءَنا سُدٌّ من جراد، وجاءَنا جرادٌ سُدٌّ إذا سَدَّ الأفُق من كثرته».

(٣) ومن هذا المعنى قال الحطيئة:

مَتَى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِهِ ... تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

هذه مخاطبة لمحمد عليه الصلاة والسلام ، مُضَمَّنها تسليته عنهم ، أي : إنهم قد حتم عليهم بالكفر ، فسواءٌ إنذارك وتركه ، والألف في قوله تعالى [أَأَنْذَرْتَهُمْ] أَلِف التسوية ؛ لأَنها ليست باستفهامٍ ، بل المستَفْهِم والمستَفْهَم مستويان في عِلْم ذلك .

وقراءة الجمهور : [آنْذَرْتَهُمْ] بالمدِّ ، وقرأ ابن محيصن ، والزهري : [أَنْذَرْتَهُمْ] بهمزة واحدة على الخبر(١) ، و [سَوَاءٌ] رفع بالابتداء ، وقوله : ﴿ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ﴾ جملةٌ من فعلين متعادلين يُقَدَّران

---

(١) قال أبو الفتح عثمان بن جني في (المحتسَب) : « الذي ينبغي أن يعتقد في ذلك أن يكون أراد الاستفهام كقراءة العامة [أَأَنْذَرْتَـهمْ] إلا أنه حذف الهمزة تخفيفاً وهو يريدها ، كما قال الكميتُ :

طَرِبْتُ وَمَا شَوقاً إلى البِيضِ أَطْرَبُ ... وَلا لعباً مِنِّي ، وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ ؟

قالوا : معناه : أوَ ذو الشيب يلعبُ ؟ تناكُراً لذلك وتَعَجُّباً ، وكبيت الكتاب :

لَعَمْرُكَ مَا أَدرِي وَإن كُنْتُ دَارِيَـا ... شُعَيْثُ ابْنُ سَهْم أَم شُعَيْثُ ابنُ مِنْقَرِ؟

يريد : أَشُعيث ابنُ سَهْم أَم شُعَيْثُ ابنُ مِنْقَرٍ ؟ . ويدل على إرادة الهمزة بقاءُ (أَم) بعدها ، ولو أراد الخبر لقال : « أَو لَمْ تُنْذِرهم » ، (راجع المحتسب ٢ـ٢٠٥) .

تقدير فعل واحد هو خبر الابتداء ، كأَنه قال : وسواءٌ عليهم جميعُ فِعْلكَ ، ففسّر هذا الجميع بـ «أَنْذرت أَمْ لم تُنْذر» ، ومثله قولك : سواءٌ عندي قمتَ أَم قعدتَ ، هكذا ذكر أَبو علي في تحقيق الخبر ، والخبر هو الابتداءُ . وقوله ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ﴾ ليس على جهة الحصر بإِنَّمَا ، بل على جهة تخصيص من ينفعه الإِنذار . و «اتِّباعُ الذِّكْر» هو العملُ بما في كتاب الله تبارك وتعالى والاقتداءُ به ، قال قتادة : الذكرُ القرآن . وقوله [بِالْغَيْبِ] أَي : بالخلوات عند مغيب الإِنسان عن عيون البشر ، ثم قال : [فَبَشِّرْهُ] فوحَّد الضمير مراعاة لِلَفْظ [مَنْ] . و «الأَجر الكريم» كل ما يأْخذه الأَجير مقترناً بحمدٍ على الإِحسان وتكرمة ، وكذلك هي الجنة للمؤمنين .

ثم أَخبر تعالى بإِحيائه الموتى ردًّا على الكفرة ، ثمَّ توعَّدهم بذكره كتب الآثار وإِحصاءَ كلِّ شيءٍ . وكلُّ ما يصنعه الإِنسان فداخل فيما قدم ويدخل في آثاره ، ولكنه تبارك وتعالى ذكر الأَمر من الجهتين ، وليُنَبِّه على الآثار التي تبقى وتُذكر بعد الإِنسان من خيرٍ أَو شرٍّ ، وإِلَّا فذلك كله داخل فيما يقدِّم ابن آدم . وقال قتادة : ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ معناه : من عمل ، وقاله ابن زيد ، ومجاهد . وقد يبقى للمرءِ أَن يُسْتَنَّ به بعد موته فيؤجر أَو يأْثم ، ونظير هذه الآية : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾(١) . وقرأَت فرقة : [وَآثَارَهُمْ] بالنصب ، وقرأَ مسروق بالرفع .

---

(١) الآية (٥) من سورة (الانفطار) .

وقال ابن عباس ، وجابر بن عبد الله ، وأَبو سعيد الخدري : إن هذه الآية نزلت في بني سَلِمة حين أَرادوا النُّقلة إلى جانب المسجد ، وقد بيَّنا ذلك في أَول السُّورة . وقال ثابت البُنَاني [١] : مشيتُ مع أَنس بن مالك إلى الصلاة فأَسرعتُ فحبسني ، فلما انقضت الصلاة قال لي : مشيت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة فأَسرعت فحبسني ، فلما انقضت الصلاة قال : (أَما علمتَ أَن الآثار تُكْتب) ؟ فهذا احتجاج بالآية ، وقال مجاهد ، وقتادة ، والحسن : الآثار في هذه الآية الخُطَا ، وحكى الثعلبي عن أَنس أَنه قال : الخُطَا إلى الجمعة [٢] .

وقوله [وَكُلَّ] نصب بفعل مضمر يدل عليه [أَحْصَيْنَاهُ] ، كأَنه قال : أَحصينا كل شيءٍ أَحصيناه ، و «الإمامُ» : الكتاب المقتدى به الذي هو حجَّة ، وقال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : أَراد اللَّوح المحفوظ ، وقالت فرقة : أَراد صحف الأَعمال .

(١) هو ثابت بن أسلم البُنَاني – بضم الموحَّدة وبنونين مُخَفَّفتين ، أبو محمد البصري ، ثقة ، عابد ، من الرابعة ، مات سنة بضع وعشرين ، وله ستٌّ وثمانون . (تقريب التهذيب) .

(٢) روى الترمذي في (جامعه) عن أَوس بن أَوس الثقفي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من غسَّل يوم الجمعة واغتسل ، وبكَّر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يلْغُ ، كان له بكل خطوة يخطوها عمل سنة ، أجر صيامها وقيامها) ، وقال : حديث حسن ، ورواه النسائي ، وابن ماجه ، وأبو داود ، والحاكم وصحَّحه ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ، وهو حديث صحيح ، وقال الإمام السيوطي في (الدر المنثور) : «أخرج ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم﴾ قال : هذا في الخطو يوم الجمعة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾

ضرب المثل مأْخوذ من الضرب أي المُشْبِه في النوع ، كما تقول : هذا ضرب هذا ، واختُلف ، هل يتعدي فعل ضرب المثل إلى مفعولين أو إلى واحد ؟ فمن قال إنه يتعدى إلى مفعولَيْن جعل في هذه الآية [مَثَلًا] و [أَصْحَابَ] مفعولَيْن لقوله : [اضْرِبْ] ، ومن قال إنه يتعدى إلى مفعول واحد جعله [مَثَلًا] ، وجعل [أَصْحَابَ] بدلًا منه . ويجوز أن يكون المفعولُ [أَصْحَابَ] ، ويكون قوله [مَثَلًا] نصباً على الحال ، أي : في حال تمثيل منك .

و [ٱلْقَرْيَة] ـ على ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، والزهري ـ أنطاكية . واختُلف في المرسلين ـ فقال قتادة وغيره : كانوا من الحواريين الذين بعثهم عيسى عليه السلام حين رُفع وصُلب الذي أُلقي عليه شبهه ، فافترق الحواريُّون في الآفاق ، فقصَّ الله هنا قصة الذين نهضوا إلى أنطاكية . وقالت فرقة : بل هؤلاءِ أنبياءُ

مِنْ قِبَل الله تبارك وتعالى ، وهذا يرجِّحه قول الكفرة : ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ ، فإنها محاورة إنما تقال لمن أَدَّى الرسالة من الله ، والآخر محتمل . وذكر النقاش في قصص هذه الآية شيئاً يطول ، وصحَّته غير مُتَيَقَّنة فاختصرته .

واللازم من الآية أن الله بعث إليها رسولين فَدَعَوَا أهل القرية إلى عبادة الله وحده وإلى الهدى والإيمان فكذبوهما ، فشدَّد الله أمرهما بثالث ، وقامت الحجة على أهل القرية ، وآمن منهم الرجل الذي جاءَ يسعى ، وقتلوه في آخر أمره وكفروا ، فأصابتهم صيحة من السماءِ فخمدوا .

وقرأ جميع القراءِ : [فَعَزَّزْنَا] بتشديد الزاي الأُولى ، على معنى : قوَّينا وشدَّدنا ، وبهذا فسَّر مجاهد وغيره ، وقرأ عاصم – في رواية المفضل عن أبي بكر – بالتَّخفيف للزَّاي ، على معنى : غلبناهم أمرهم (١) وفي حرف ابن مسعود : «بالثالث» بألف ولام .

(١) قيل : القراءتان بمعنى واحد ، وقد جاء في اللسان (عزز) : «وعَزَزْتُ القومَ وأَعْزَزْتُهم وعَزَّزْتُهم : قَوَّيتهم وشدَّدتهم ، وفي التنزيل العزيز ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي : قوَّينا وشدَّدنا ، وقد قُرِئت (فَعَزَزْنَا) بالتخفيف ، كقولك : شَدَدْنَا » . وقال الأصمعي : «أنشدني أبو عمرو بن العلاءِ للمتلمِّسِ :

أَجُدٌ إذا ضَمَرَت تَعَزَّزَ لَحْمُهَا وإذَا تُشَدُّ بِنِسْعِهَا لا تَنْبِسُ

أي : لا ترغو» . وقيل : التخفيف بمعنى : غَلَبْنا وقهرنا ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ .

وهذه الأُمَّة أَنكرت النُّبُوَّات بقولها : ﴿وَمَا أَنْزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، وراجعتهم الرُّسل بأَن رَدُّوا العلم إلى الله ، وقنعوا بعلمه ، وأَعلموهم أَنهم إنما عليهم البلاغ فقط ، وما عليهم من هُداهم وضلالهم ، وفي هذا وعيدٌ لهم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾
قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ
رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا
وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾

قال بعض المتأَوِّلين : إن أَهل القرية أَسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم المرسلين ، فلذلك قالوا : ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ ، وقال مقاتل : احتبس عنهم المطر فلذلك قالوه ، ومعناه : تشاءَمنا بكم ، مأْخوذ من الحكم بالطَّيْر ، وهو معنى متداولٌ في الأُمم ، وقلَّما يستعمل «تَطَيَّرْتُ» إلَّا في الشُّؤْم ، وأَما حكم الطير عند مستعمليه ففي التَّيمُّن والشُّؤْم ، والأَظهر أَن تطيُّرَ هؤلاءِ إنما كان بسبب ما دخل قريتهم من اختلاف الكلمة وافتتان الناس ، وهذا على نحو تطيُّر قريش

بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى نحو ما خوطب به موسى عليه السلام . وقال قتادة : قالوا : إن أَصابنا شرٌّ فإنما هو من أَجلكم ، و [لَنَرْجُمَنَّكُمْ] معناه : بالحجارة . قاله قتادة رضي الله عنه . وقولهم عليهم السلام : ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ معناه : حظكم وما صار لكم من شرٍّ أَو خيرٍ معكم ، أَي : من أَفعالكم وبكسباتكم ، ليس هو من أَجْلنا ولا بِسَبَبِنَا ، بل ببغيكم وكفركم ، وبهذا فسَّر النَّاسُ . وسُمِّي الحظ والنصيب طائراً استعارة ، أَي هو مما يحصل عن النظر في الطائر ، وكَثُرَ استعمال هذا المعنى حتى قالت المرأَة الأَنصارية : «طار لنا حين اقتُسِم المهاجرون عثمانُ بن مظعون»(١) ، ويقول الفقهاءُ : طار لفلان في المحاصَّة كذا .

وقرأَ ابن هُرمز ، والحسن ، وعمرو بن عبيد : [طَيْرُكُمْ] ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، وابن عامر : [أَئِنْ] بهمزتين الثانية مكسورة ، على معنى : أَئِن ذُكِّرتم تتطيَّرون ؟ وقرأَ نافع وأَبو

---

(١) حديث المرأة الأنصارية أخرجه البخاري في الجنائز والتعبير ، وأحمد في مسنده (٦-٤٣٦) ، ولفظه كما في البخاري ، عن خارجة بن زيد بن ثابت أن أُم العلاء امرأة من الأنصار بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ، أخبرته أنه اقتُسِم المهاجرون قرعة ، فطار لنا عثمان بن مظعون ، فأنزلناه في أبياتنا ، فوَجِع وَجَعَه الذي توفي فيه ، فلمَّا توفي وغُسِّل وكُفِّن في أثوابه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يُدريك أن الله أكرمه ؟ فقلت : بأبي أنت يا رسول الله ، فمن يُكْرِمُه الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أَما هو فقد جاءه اليقين ، والله إني لأرجو له الخير ، والله ما أدري – وأنا رسول الله – ما يُفْعل بي ، قالت : فوالله لا أُزكِّي أحداً بعده أبداً .

عمرو ، وابن كثير بتسهيل هذه الهمزة الثانية وردِّها ياءً ﴿ أَيِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ ، وقرأ الماجشون(١) : [أَنْ] بفتح الأَلف(٢) ، وقرأ الحسن بن أَبي الحسن : ﴿ إِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ بكسر الأَلف ، وقرأ أَبو عمرو - في بعض ما رُوي عنه - وزِرُّ بن حبيش أَيْضاً : [أَأَنْ] بهمزتين مفتوحتين ، وشاهده قول الشاعر :

أَأَنْ كنتَ ذَا بُرْدَيْن أَحْوَى مُرَجَّلًا فَلَسْتَ بِرَاعٍ لابنِ عَمِّكَ مَحْرَمَا(٣)

وقرأ أَبو جعفر بن القعقاع ، والأَعمش : [أَيْنَ] بسكون الياءِ [ذُكِرْتُمْ] بتخفيف الكاف ، فهي (أَيْنَ) المنقولة في الظرف ، وهذه قراءَة خالد ، وطلحة ، وقتادة ، والحسن في تخفيف الكاف فقط(٤) .

ثُمَّ وصفهم تعالى بالإِسراف والتَّعدِّي .

---

(١) هو أبو سلمة يوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سَلَمة المدني ، قال عنه في (تقريب التهذيب) : ثقة ، من الثامنة ، مات سنة خمس وثمانين ، وقيل قَبْل ذلك .

(٢) وعلى هذا تكون ﴿ أَن ذُكِّرتُم ﴾ منصوبة الموضع بقوله تعالى : ﴿ طَائِرُكُم مَعَكُمْ ﴾ ، وذلك أنهم لما قالوا : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ أي : تشاءمنا ، قالوا لهم جواباً عن ذلك : بل ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ ، أي : بل شُؤْمكم معكم ﴿ أَنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ ، أي : هو معكم لأنْ ذكِّرتم فلم تذكروا ولم تنتهوا ، فاكتُفي بالسبب وهو التذكير عن المسبب الذي هو الانتهاءُ .

(٣) البُرْد : كساءٌ مُخطَّط يلتحف به ، وجمعه أبرادٌ وأَبْرُدٌ وبُرُودٌ ، والأحْوَى : ما خالط حمرتَه سوادٌ أوخُضْرتَه سوادٌ ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ ، ورجَّل الشَّعْرَ : سوَّاه وزيَّنه وسرَّحه ، والشاهدأن الهمزتين مفتوحتين في قوله : (أَأَنْ كُنْتَ) .

(٤) ومعنى ﴿ أَيْنَ ذُكِرْتُمْ ﴾ : أَيْنَ حَلَلْتم وكُنتم وَوُجِدْتم فذُكِرتُم ، فاكتُفي بالمسبَّب الذي هو الذكر من السبب الذي هو الوجود ، و [أَيْنَ] هنا شرطٌ ، وجوابها محذوف لدلالة قوله : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ عليه ، فكأنه قال : أَيْنَ ذُكِرتم أو أين وُجدتم وُجد شُؤْمكم معكم ، وهذا كقولك : سيفُك معكَ أين حَلَلْتَ .

وأَخبر تبارك وتعالى ذكره عن حال رجل جاءَ من أَقصى المدينة ، سمع المرسلين وفهم عن الله فجاءَ يسعى على قدميه وسمع قولهم ، فلما فهمه رُوي أَنه تعقَّب أَمرهم وسَبَرَه(١) بأَن قال لهم : أَتطلبون أَجراً على دعوتكم هذه ؟ قالوا : لا ، فدعا عند ذلك قومه إلى اتباعهم والإِيمان بهم إذ هو الحق ، ثم احتجَّ عليهم بقوله : ﴿ٱتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ، أَي : وهم على هدًى من الله . وهذه الآية حاكمة بنقص من يأْخذ أُجرة على شيءٍ من أَفعال الشرع التي هي لازمة له كالصلاة ونحوها ، فإِنها كالتبليغ لمن بعث ، بخلاف ما لا يلزمه كالإِمارة والقضاءِ ، وقد ارتزق أَبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه .

ورُوي عن أَبي مجلز ، وكعب الأَحبار ، وابن عباس أَن اسم هذا الرجل حبيب ، وكان نجاراً ، وكان - فيما قال وهب بن مُنَبِّه - قد تجذَّم ، وقيل : كان في غار يعبد ربَّه ، وقال ابن أَبي ليلى : «سُبَّاق الأُمم ثلاثة لم يكفروا قطُّ طرفة عين : علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وصاحب يٰسٓ ، ومؤمن آل فرعون» ، وذكر الناسُ في أَسماءِ الرسل : صادق ومصدوق وشلوم ، وغير هذا ، والصِّحَّة معدومة فاختصرتُ .

---

(١) أي : اختَبَرَهُ ، يقال : سَبَرْتُ فلاناً بمعنى : اختبرتُه لأَعرف ما عنده .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَالِىَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغۡنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِى يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قرأ الجمهور : ﴿وَمَا لِيَ﴾ بفتح الياء ، وقرأ الأعمش ، وحمزة بسكون الياء ، وقد تقدم مثل هذا .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا لِيَ﴾ تقرير لهم - على جهة التوبيخ - في هذا الأَمر الذي يشهد العقل بصحته ، إنَّ من فَطَر واخترع وأَخرج من العدم إلى الوجود فهو الذي يستحق أَن يُعبد ، ثم أَخبرهم بأَنهم محشورون إليه يوم القيامة . ثم وقفهم أَيضاً - على جهة التوبيخ - على اتخاذ الآلهة من دون الله ، وهي لا ترُدُّ عنهم المقادير التي يريدها الله بهم ، لا بقوَّة منها ولا بشفاعة . وقرأ طلحة السَّمان ، وعيسى الهمْداني (١) : [يُرِدْنيَ] بياءٍ مفتوحة ، ورُويت عن عاصم ، ونافع ، وأَبي عمرو .

---

(١) هو عيسى بن عمر الأسدي ، الهَمْداني - بسكون الميم - أبو عمرو ، الكوفي ، القارئ ، ثقة ، من السابعة ، مات سنة ستٍّ وخمسين ، (تقريب التهذيب) .

ثم صَدَع بإيمانه وأَعلن فقال : ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ ، واختلف المفسرون – فقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وكعب ، وَوَهْب : خاطب بها قومه على جهة المبالغة والتَّنْبيه ، وقيل : خاطب بها الرُّسل على جهة الإِشهاد بهم(١) ، والاستحفاظ للأَمر عندهم . وقرأَ الجمهور بكسر النون على نيَّة الياءِ بعدها ، وروى أَبو بكر عن عاصم فَتْحها ، قال أَبو حاتم : هذا خطأٌ لا يجوز ؛ لأَنه أَمْرٌ ، فإِما حذف النون أَو كسرها على نيَّة الياءِ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهنا محذوف تواترت به الأَحاديث والروايات ، وهو أَنهم قتلوه ، واخْتُلف ، كيف ؟ قال قتادة وغيره : رجموه بالحجارة ، وقال ابن مسعود : مشَوْا عليه بأَقدامهم حتى خرج قُصْبُه (٢) من دُبُره ، فقيل له عند موته : ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ ، وذلك – والله أَعلم – بأَن عُرِض عليه مقعده منها ، وتحقَّق أَنه من سكانها برؤْيته ما أَقَرَّ عينه ، فلما تحصَّل له ذلك تمنَّى أَن يعلم قومه بذلك ، فقيل : أَراد بذلك الإِشفاق والنُّصح لهم ، أَي : لو علموا ذلك لآمنوا بالله ، وقيل :

(١) يقول لهم : اشهدوا لي ، أو كونوا شهودي بالإيمان .
(٢) القُصْب – بضم القاف وسكون الصاد – المِعَى ، والجمع : أقصاب .

أَراد أَن يندموا على فعلهم به ويحزنهم ذلك ، وهذا موجود في جِبِلَّة البشر ، إِذا نال خيراً في أَرض غربة ودَّ أَن يعلم ذلك جيرانه وأَترابه الذين نشأَ فيهم؛ ولا سيَّما في الكرامات ، ونحو من ذلك قول الشاعر :

والعِزُّ مَطْلُوبٌ ومُلْتَمَسٌ وأَحَبُّهُ ما كَانَ في الْوَطَنِ

والتأْويل الأَول أَشبه بهذا العبد الصالح ، وفي ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : (نصح قومه حيًّا وميتاً)(١) ، وقال قتادة بن دعامة : نصحهم على حالة الغضب والرضى ، وكذلك المؤمن لا تجده إِلَّا ناصحاً للناس .

و [مَا] في قوله تعالى : ﴿بِمَا غَفَرَ﴾ يجوز أَن تكون مصدرية ، أَي : بغفران ربِّي لي ، ويجوز أَن تكون بمعنى الذي ، وفي [غَفَرَ] ضمير عائد ، قال الزهري : ويجوز أَن تكون استفهاماً ، ثم ضعَّفه (٢) .

---

(١) الذي رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو القشيري ، قال ذلك القرطبي .

(٢) لعلَّ هذا التضعيف كان بما قاله الكسائي : « لو صحَّ هذا لكان (بِـمَ) من غير ألف » . وقال الفراءُ : ولو جعلت (ما) في معنى (أَيّ) كان صواباً ، ويكون المعنى : ليتهم يعلمون بأيِّ شيءٍ غفر لي ربِّي ، ولو كان كذلك لجاز له فيه ، ﴿ بِـمَ غَفَرَ لي رَبِّي ﴾ بنقصان الألف ، كما تقول : سلْ عمَّ شئتَ ، وكما قال : ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِـمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ وقد أَتـمَّها الشاعر وهي استفهام فقال :

إِنَّا قَتَلْنَا بِقَتْلانَا سَرَاتَكُمُ أَهْلَ اللِّوَاءِ فَفِيمَا يُكْثَرُ الْقِيلُ

راجع (معاني القرآن) للفراء .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾
إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم
مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ
أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

هذه مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فيها توعُّد لقريش ، إذ هو المروِّع لهم من المثال أَنْ ينزل بهم من عذاب الله ما نزل بقوم حبيب النجار ، فنفى عزَّ وجلَّ أَنه أَنزل على قوم هذا الرجل جنداً من السماءِ ، قال مجاهد : أَراد أَنه لم يرسل رسولًا ولا استَعْتَبَهُم ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أَراد أَنه لم يحتج في تعذيبهم إلى جُند من جُنْد الله كالحجارة والغرق والريح وغير ذلك ، بل كانت صيحة واحدة ؛ لأَنهم كانوا أَيسر وأَهون من ذلك ، قال قتادة : والله ما عاتب اللهُ قومه بعد قتله حتى أَهلكهم .

واختلف المتأَولون في قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ـ فقالت فرقة : [مَا] نافية ، وهذا يجري مع التأْويل الثاني في قوله سبحانه : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِه مِنْ جُنْد﴾ . وقالت فرقة : [مَا] عطفٌ

على [جُنْدٍ] ، أَيْ : «مِن جُنْد ومِنَ الذي كنَّا منزلين على الأُمم مثلهم قبل ذلك» (١)

وقرأ الجمهور : ﴿إِلَّا صَيْحَةً﴾ بالنصب على خبر (كان) ، أي : ما كان عذابهم إِلَّا صيحةً واحدةً ، وقرأ أبو جعفر ، ومعاذ بن الحارث(٢) : ﴿إِلَّا صَيْحَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ بالرفع ، وضعفها أبو حاتم (٣) ، والوجه فيها

---

(١) نقل أبو حيَّان هذا التقدير في (البحر المحيط) ، ثم علَّق عليه بقوله : «وهو تقدير لا يصحُّ ؛ لأن [مِنْ] في ﴿مِنْ جُنْدٍ﴾ زائدة ، ومذهب البصريين – غير الأخفش – أن لزيادتها شرطيْن : أحدهما أن يكون قبلها نفي أو نهي أو استفهام ، والثاني أن يكون بعدها نكرة ، وإن كان كذلك فلا يجوز أن يعطف معرفةٌ على النكرة ، لا يجوز مثلا : ما ضربتُ من رجل ولا زيد ، ولا يجوز : ولا من زيد ، وهو – يعني ابن عطية – قدَّر المعطوف بـ (الذي) ، وهو معرفة ، فلا يصح أن يعطف على النكرة المجرورة بمن الزائدة» .

(٢) هو معاذ بن الحارث الأنصاري ، النجاري ، القارئ ، قيل : هو أبو حليمة أحد من أقامه عُمَر رضي الله عنه بمصلى التراويح ، ويقال : هو آخر يكنى أبا الحارث ، صحابي صغير ، استشهد بالحرة سنة ثلاث وستين . (تقريب التهذيب) .

(٣) ضعَّفها أبو حاتم لوجود التاء في [كانَتْ] ؛ إذ الأصل ألَّا تلحق التاءُ الفعل في مثل هذا التركيب ، فلا تقول مثلا : ما قامَتْ إلا هند ، وإنما المختار في اللغة أن تقول : ما قام إلا هند ، وذلك أن الكلام محمول على معناه ، والمعنى : ما قام أحدٌ إلا هند ، وقد جوَّز بعضهم مجيءَ التاء هنا ، وقال : هي جائزة في الشعر ، وفي الكلام أيضاً ، أما في الشعر فقد جاءت في قول ذي الرُّمَّة :

بَرَى النَّحزُ والأجْرَالُ مَا في غُرُوضِهَا ... ومَا بَقِيَتْ إلا الضُّلُوعُ الجَرَاشِعُ

وقال غيره :

مَا بَرِئَتْ من ريبَةٍ وذَمٍّ ... في حَرْبِنَا إلا بَنَاتُ العَمِّ

وقد قرأ الحسن ، والجحدري ، ومالك بن دينار ، وقتادة ، وأبو حيوة ، وأبو رجاء ، وابن أبي عبلة قوله تعالى : ﴿لا تُرَى إلا مَسَاكِنُهُمْ﴾ بالتاء ، والقراءة المشهورة بالياء ، وقراءة =

أَنها ليست (كان) التي تطلب الاسم والخبر ، وإنما التقدير : ما وقعت أَو حدثت إِلَّا صيحةٌ واحدةٌ . وقرأَ ابن مسعود ، وعبد الرحمن بن الأَسود[1] : «إِلَّا زَقْيَةً وَاحِدَةً» ، وهي الصيحة من الديك ونحوه من الطير [2] . و [خَامِدُونَ] : ساكتون موتى لاطون بالْأَرض[3] ، شُبِّهوا بالرماد الذي خمدت ناره وطُفئت .

وقوله تعالى : ﴿يَا حَسْرَةً﴾ نداءٌ لَها على معنى : هذا وقتُ حضوركِ وظُهوركِ ، هذا تقدير نداءِ مثلِ هذا عند سيبويه ، وهو معنى قويم

= التاءِ تؤيد جواز التأنيث . وقد أجاز أبو الفتح قراءة التاءِ ، وقال: «ولكن لما كان محصول الكلام — في آيتنا هذه — «قد كانت صيحةٌ واحدةٌ» جيء بالتأنيث إخلاداً إليه ، وحملا لظاهر اللفظ عليه» ، وابن عطية يوافق أبا عثمان بن جني في اتجاهه حين يقول : إنّ (كان) هنا ليست هي الناقصة التي تحتاج إلى اسم وخبر ، بل هي التامة ، والمعنى : «ما وقعت إلا صيحةٌ واحدةٌ» .

(١) عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة الزهريُّ ، ولد على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومات أبوه في ذلك الزمان ، ولذلك عُدَّ في الصحابة ، وقال العجلي : «هو من كبار التابعين» . (تقريب التهذيب) .

(٢) ضعف العلماءُ هذه القراءة لسببين : أولهما أنها مخالفة للمصحف ، وثانيهما أن الفعل (زَقَا) واوي ، يقال : زقا يزقو ، ومنه المثل «أَثْقَلُ من الزواقي» ، فكان يجب أن تكون هذه القراءة: (زقْوة) لا (زَقْيَة) . قال ذلك النحاس ، ونقله عنه القرطبي ، ولكن الفراءَ قال : إن (زَقْيَة) بالياء صحيحة ، واستشهد على ذلك بقول الشاعر :

تَلِدْ غُلاماً عارماً يُودِيكِ ولَوْ زَقَيْتِ كَزُقَاءِ الدِّيكِ

وقال : يقال : زقَوْتُ وزَقَيْتُ .

(٣) لاط بالأرض : لصق بها ، يقال : لاط الشيءُ بقلبي ، أي : لصق به وأَحببته ، فالمعنى هنا أنهم ساكتون موتى لاصقون بالأرض .

في نفسه ، وهو منادى منكور على هذه القراءة[١] . وقال الطبريُّ : المعنى : يا حسْرَةَ العبادِ على أنفسهم ، وذكر أنها في بعض القراءات كذلك ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : يا ويلاً للعباد . وقرأ ابن عباس ، والضحاك ، وعلي بن الحسين ، ومجاهد ، وأُبيٌّ ابن كعب : ﴿يَا حسْرَةَ ٱلْعِبَادِ﴾ بالإضافة [٢] . وقولُ ابن عباس حَسَنٌ مع قراءته ، وتأْويل الطبري ذلك في القراءة الأُولى ليس بالبَيِّن ، وإنما يتجه أَن يكون المعنى تلهُّفاً على العباد كان الحالُ يقتضيه ، وطباعُ كل بشر تُوجب عند سماعه حالهم وعذابهم على الكفر وتَضْييعَهم أَمر الله تعالى أَن يُشفق ويتحسر على العباد . وقال أَبو العالية : المراد بالعباد الرسل الثلاثة ، فكأَن هذا التحسُّر من الكفار ، حين رأَوْا عذاب الله تلَهَّفُوا على ما فاتهم ، وقوله تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ الآية ، يدافع هذا التأْويل .

والحسرة : التَّلَهُّفَات التي تترك صاحبها حسيراً ، وقرأَ الأَعرج ، ومسلم بن جندب[٣] ، وأَبو الزناد[٤] : [يَا حَسْرَهْ] بالوقف على الهاءِ ،

(١) يريد أنه منادى نكرة .

(٢) وعلى هذه القراءة يجوز أن تكون الحسرة منهم على مافاتهم ، وتكون كلمة [الْعِبَادِ] فاعلا في المعنى ، ويجوز أن تكون الحسرة من غيرهم عليهم لِمَا فاتهم من اتباع الرُّسل ، وتكون كلمة [الْعِبَادِ] مفعولا في المعنى .

(٣) مسلم بن جُندب الهُذَلي ، المدني ، القاصّ ، ثقة فصيح قارئ ، من الثالثة ، مات سنة ستٍّ ومائة . (التقريب) .

(٤) عبد الله بن ذكوان القرشي ، أبو عبد الرحمن ، المدني ، المعروف بأبي الزِّناد ، ثقة ، فقيه ، من الخامسة ، مات سنة ثلاثين ، وقيل : بعدها ، (التقريب) .

وذلك على الحرص على بيان معنى الحسرة وتقريره للنفس ، والنطقُ بالهاءِ في مثل هذا أَبلغ في التشفيق وهزِّ النفس ، كقولهم : أَوَّهْ ونحوه[١]. وقوله : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ الآية ، تمثيل لفعل قريش .

ثم عَنَاهم بقوله : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ ، و [كَمْ] هنا خبرية ، و [أَنَّهُمْ] بدلٌ منها ، و « الرُّؤْيَة » رُؤْيَة البصر ، وفي قراءَة ابن مسعود : « أَولم يَرَوْا مَن أَهلكنا » ، وقرأَ الجمهور [أَنَّهُمْ] بفتح الأَلف ، وكَسَرَهَا الحسن البصريُّ . وقرأَ الجمهور : [لَمَا] بتخفيف الميم ، وذلك على زيادة (ما) للتأْكيد ، والمعنى : « لَجَمِيعٌ » ، وشدَّدها الحسن ، وابن جُبَيْر ، وعاصم ، وقالوا : هي بمنزلة (إِلَّا)[٢] ، وقيل : المراد : (لَمِمَّا) حذفت إِحداهما ، وفيه ضعف ، وفي حرف أُبَيٍّ : « وَإِنَّ منهم إِلَّا جميعٌ لدينا محضرون » ، قال قتادة : محشورون يوم القيامة .

---

(١) قال أبو الفتح : في هذه القراءة نظر ، وذلك أن قوله تعالى : ﴿عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ متعلق بالحسرة ، أو صفة لها ، وعلى كلا الأمرين لا يحسن الوقوف عليها دونه . ثم وجَّه الوقوف في كلام طويل يمكن الرجوع إليه في المحتسب ٢-٢٠٨ وما بعدها .

(٢) ذكر أبوعبد الله الرازي تعليلا مناسباً في كون (لَمَّا) بمعنى (إلا) ، قال : « إنَّ (لَمَّا) كأنها حرفا نفي جميعاً ، وهما (لَمْ) و (مَا) ، فتأكَّد النفي ، وكذلك (إلا) كأنها حرفا نفي ، وهما (إنْ) و (لا) ، فاستعمل أحدهما مكان الآخر » ، وقد أخذ هذا من قول الفراء في (إلا) في الاستثناء ، وأنها مركَّبةٌ من (إنْ) و (لا) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن
ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا
مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

[آيَةٌ] معناه : علامة على الحشْر وبعث الأَجساد ، والضمير في [لَهُمْ] يراد به كفار قريش ، وقرأَ نافع ، وشيبة ، وأَبو جعفر : [ٱلْمَيِّتَةَ] بكسر الياءِ وشدها ، وقرأَ أَبو عمرو ، وعاصم بسكون الياءِ خفيفة ، وإِحياؤُها بالمطر .

وقرأَ الجمهور : [ثَمَرِهِ] بفتح الثاءِ والميم ، وقرأَ طلحة ، وابن وثاب ، وحمزة ، والكسائي بضمهما ، وقرأَ الأَعمش بضم الثاءِ وسكون الميم ، والضمير فيه قالت فرقة : هو عائد على الماءِ الذي يتضمنه قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ ؛ لأَن التقدير : (ما) ، وقالت فرقة : هو عائد على جميع ما تقدم مُجْمَلًا ، كأَنه قال : «من ثَمَر ما ذكرنا» ، وقال أَبو عبيدة : هو من باب أَن يذكر الإِنسان شيئَيْن أَو ثلاثة ثم يعيد الضمير على واحد ويكني عنه ، كما قال الأَزرق

ابن طرفة بن العمرّد الفراصيُّ الباهليُّ :

رَمَاني بـأَمْرٍ كنْتُ منْهُ وَوَالِدِي بَريئاً ، ومِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَاني (١)

وهذا الوجه في الآية ضعيف .

و [مَا] في قوله تعالى : ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ، قال الطبريُّ : هي اسم معطوف على «الثمر» ، أي : ويقع الأَكلُ من الثَّمر وممَّا عملته الأَيدي بالغرس والزراعة ونحوه . وقالت فرقة : هي مصدرية ، وقيل : هي نافية ، والتقدير : إنهم يأْكلون من ثمره وهو شيءٌ لم تعمله أَيديهم ، بل هي نعمة من الله تبارك وتعالى عليهم . وقرأَ جمهور القراءِ : [عَمِلَتْهُ] بالهاءِ الضمير ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ـ في رواية أَبي بكر ـ ، وطلحة ، وعيسى : [عَمِلَتْ] بغير ضمير .

(١) البيت في (الكتاب) لسيبويه ، وفي اللسان (جوَل) ، وقد نُسب فيهما إلى ابن أَحمر ، وقد ذكر في اللسان نسبته للأزرق ، وقد كان بين الشاعر وبين خصم له حكومة في بئر ، فقال خصمه : إنه لصٌّ ابن لِصٍّ ، فقال الشاعر قصيدته ، وبعد البيت يقول :

دَعَانِيَ لِصّاً في لُصُوصٍ وَمَا دَعَـا بِـهَا وَالِـدِي فيما مَضَى رَجُـلاَنِ

ورماني معناها : قذفني بأَمْر كريه ، والطَّوِيُّ : البئْر التي طُوِيَت بالحجارة ، قال في اللسان : «وهي مُذَكَّر ، فإن أُنِّث فعلى المعنى» ، وفي حديث قتلى بدر : (فقُذفوا في طويٍّ من أَطواء بدر) ، وعلى هذا فجمع طويٍّ : أَطواءٌ . ويروى البيت كما في اللسان (جول) : «ومِنْ جُولِ الطويِّ رماني» ، والجولُ : جدارُ البئْر أَو كلُّ ناحية من نواحي البئر . والشاهد أَنه ذكر نفسه ووالده ثم أَعاد الضمير مفرداً في قوله : (بريئاً) ، قال سيبويه في الكتاب : «فوضع في موضع الخبر لفظ الواحد ؛ لأنه قد علم أن المخاطب سيستدلُّ به على أن الآخر في هذه الصفة» . وانظر شرح المرزوقي للحماسة .

ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن كل ما يُلحد به ملحد ، أَو يشرك به مشرك . و «ٱلْأَزْوَاج» : الأَنواع من كل شيءٍ ، وقوله : ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ نظيره قوله : ﴿وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ﴾ (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

هذه الآيات جعلها الله تعالى أَدلة على القدرة ووجوب الأُلوهية له ، و [نَسْلَخُ] معناه : نكشِطُ ونَقْشر ، فهي استعارة ، و [مُظْلِمونَ] : داخلون في الظلام ، واستدل قوم من هذه الآية على أَن اللَّيل أَصل والنهار فرع طارئٌ عليه ، وفي ذلك نظر .

و «مُسْتَقَرُّ الشَّمْسِ» - على ما روي في الحديث عن النبي عليه الصلاةُ والسلام من طريق أَبي ذرٍّ رضي الله تعالى عنه - بيْن يدي العرش ، تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها(٢) ، وفي حديث آخر أَنها تسجد

(١) من الآية (٨) من سورة (النحل) .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، والبخاري ، والترمذي ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في (العظمة) ، وابن مردويه ، والبيهقي في (الأسماء والصفات) ، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه ،=

في عين حمئة ولها وجبة عظيمة . وقالت فرقة : مُسْتَقَرُّهَا هو في يوم القيامة حين تُكوَّر ، فهي تجري لذلك المستَقَرِّ . وقالت فرقة : مُسْتَقَرُّهَا كناية عن غيوبها ؛ لأنها تجري كل وقت إلى حدٍّ محدود تَغْرُب فيه . وقيل : مُسْتَقَرُّهَا آخر مطالعها في المنقلبَيْن لأنهما نهايتا مطالعها ، فإذا استقر وصولها كرَّت راجعة ، وإلَّا فهي لا تستقر عن حركتها طرفة عين ، ونحا إلى هذا ابن قُتَيْبَة . وقالت فرقة : مُستقرها وقوفها عند الزوال في كل يوم ، ودليل استقرارها وقوف ظلال الأشياء حينئذ .

وقرأ ابن عباس ، وابن مسعود ، وعكرمة ، وعطاءُ بن أبي رباح ، وأبو جعفر محمد بن علي ، وجعفر بن محمد عليهم السلام: ﴿لَا مُسْتَقَرَّ لَهَا﴾ .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرٍو ، والحسن ، والأعرج : [وَٱلْقَمَرُ] بالرفع عطفاً على [ٱللَّيْلُ] ، عطف جملة على جملة ، ويصح وجه آخر ، وهو أن يكون ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ﴾ ابتداءٌ وخبره محذوف ، كأنه قال : في الوجود والمشاهدة ، ثم فسَّر ذلك بجملتين من ابتداءٍ

= قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد عند غروب الشمس ، فقال : يا أبا ذرٍّ ، أتدري أين تغرب الشمس ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله : ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ، قال : مُسْتَقَرُّها تحت العرش ، والحديث أيضاً في مسلم ، وقد قال الترمذي : « حديث حسن صحيح » ، وقال الإمام النووي في شرح مسلم : « اختلف المفسرون في سجودها ، فقال جماعةٌ بظاهر الحديث » ، وقال ابن العربي : « أنكر قوم سجودها ، وهو صحيح ممكن ، وتأوَّله قوم على ما هي عليه من التسخير الدائم » .

وخبر وابتداءٍ وخبر ، الليلُ واحدة ، والقمر ثانية . وقرأ الباقون بنصب «القمر» على إضمار فعل يُفَسِّره [قَدَّرْنَاهُ] ، وهي قراءة أبي جعفر ، وابن محيصن ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ . و [مَنَازِلَ] نصب على الظرف ، وهذه المنازل هي المعروفة عند العرب ، وهي ثمانية وعشرون منزلة ، يقطع القمر منها كل ليلة أَقلَّ من واحدة فيما يزعمون ، وعودتُه هي استهلاله رقيقاً ، وحينئذ يُشبه العرجون ، وهو الغُصن من النخلة الذي فيه شماريخ الثَّمر ، فإنه ينحني ويصفَرُّ إذا قدم ، ويجيءُ أَشبه شيءٍ بالهلال ، قاله الحسن بن أَبي الحسن ، والوجود يشهد به ، وقرأ سليمان التيميُّ : [كَالْعِرْجَوْنِ] بكسر العيْن ، و [ٱلْقَدِيم] معناه : العتيق الذي قد مرَّ عليه زمن طويل .

و [يَنْبَغِـي] هنا مستعملة فيما لا يمكن خلافه ؛ لأَنها لا قدرة لها على غير ذلك . وقرأ الجمهور : ﴿سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ بالإِضافة ، وقرأ عبادة : ﴿سَابِقُ ٱلنَّهَارَ﴾ بدون تنوين في القاف وبنصب [ٱلنَّهَارَ] ، ذكره الزهراوي وقال : حذف التنوين تخفيفاً . و «الْفَلَكُ» ـ فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ متحرِّك مستدير كفلكة المغزل ، فيه جميع الكواكب . و [يَسْبَحُونَ] معناه : يجرون ويعومون ، قال مكيٌّ : لما أُسند إليها فعلُ من يعقل جُمعت بالواو والنون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

[وَآيَةٌ] معناه : وعلامةٌ ودليلٌ ، ورفعها بالابتداءِ ، وخبرها في قوله : [لَهُمْ] ، و [أَنَّا] بدلٌ من [آيَةٌ] ، وفيه نظر ، ويجوز أن تكون (أَنْ) مفسِّرة لا موضع لها من الإعراب . و «الحَمْلُ» : منعُ الشيءِ أن يذهب سفلاً ، وذكر الذريَّة لضعفهم عن السفر فالنعمة فيهم أمكن .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، والأعمش : [ذُرِّيَّاتِهِمْ] بالجمع ، وقرأ الباقون بالإفراد ، وهي قراءَة طلحة ، وعيسى ، والضمير المتصل بالذرِّيَّات هو ضمير الجنس ، كأَنه قال : ذريات جنسهم أَو نوعهم ، هذا أَصحُّ ما يتَّجه في هذا ، وخلط بعض الناس في هذا حتى قالوا : الذُّرِّيَّة تقع على الآباءِ ، وهذا لا يُعرف لغةً .

وأما معنى الآية فيحتمل تأْويلين : أَحدهما قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وجماعة ، وهو أَن يريد بالذرِّيَّات المحمولين أَصحابَ

نوح عليه السلام في السفينة ، ويريد بقوله : ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ السُّفُنَ الموجودة في جنس بني آدم إلى يوم القيامة ، وإيَّاها أَراد بقوله : ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ . والتأْويل الثاني قاله مجاهد ، والسدي ، وروي عن ابن عباس أَيضاً ، وهو أَن يريد بقوله : ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية ، السُّفُنَ الموجودة في بني آدم إلى يوم القيامة ، ويريد بقوله : ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ﴾ الآية ، الإِبِلَ وسائر ما يُركب ، فتكون المماثلة في أَنه مركوب مُبلِّغ إلى الأَقطار فقط ، ويعود قوله : ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ على السُّفن الموجودة في الناس ، وأَما من خلط القولين فجعل الذرِّية في الفلك قومَ نوح عليه السلام في سفينته ، وجعل ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ في الإِبل ، فإِن هذا نظر فاسد يقطع به قوله : ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ ،فتأَمله.

و «الفُلْكُ» جمعٌ ، والإِفرادُ على وزنه ، ولكن ليست حركاتُ الجمع حركات الإِفراد . و [ٱلْمَشْحُون] : المُوقَر ، و [مِنْ] في قوله : ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ يتجه على أَحد التأْويلين أَن تكون للتبعيض ، وعلى التأْويل الآخر أَن تكون لبيان الجنس ، فانظره ، ويقال : الإِبل مراكب البر .

و «الصَّريخُ» هنا بناءُ الفاعل ، بمعنى : المُصْرِخ ، وذلك أَنك تقول : صارخ بمعنى مستغيث ، ومُصْرخ بمعنى مُغيث ، ويَجيءُ صريخ مرةً بمعنى هذا ومرة بمعنى هذا ؛ لأَن فعيلا من أَبنية اسم الفاعل ، فمرة : يجيءُ من صَرَخَ إذا استغاث ، ومرة : يجيءُ من أَصْرَخَ إذ أَغاث .

وقوله : ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ ، قال الكسائي : نصب على الاستثناء ، كأَنه قال : إلا أَن نرحمهم ، وقال الزجاج : نصب على المفعول من أَجله ، كأَنه قال : إِلَّا لأَجل رحمتنا إِيَّاهم . وقوله : [مَتَاعاً] عطف على قوله : [رَحْمَةً] ، و﴿إِلَى حِينٍ﴾ يريد آجالهم المضروبة لهم .

والكلام تامٌّ في قوله : ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ ، وقوله : ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ استئناف إخبار عن السائرين في البحر ، ناجين كانوا أَم مغرقين ، فهم بهذه الحال لا نجاة لهم إِلَّا برحمة الله . وليس قوله : ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ مربوطاً بالمُغْرقين ، وقد يصح ربطه به ، والأَول أَحسن فتأَمله .

ثم ابتدأَ الإِخبار عن عتُوِّ قريش بقوله : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ الآية . و «مَا بَيْنَ أَيْديهم» قال مقاتل ، وقتادة : هو عذاب الأُمم التي سبقتهم في الزمن ، و «ما خلفهم» هو عذاب الآخرة التي تأْتي بعدهم في الزمن ، وهذا هو النظر ، وقال الحسن : خُوِّفوا بما مضى من ذنوبهم وبما يأْتي منها ، وهذا نحو الأَول في المعنى ؛ لأَن التخويف بالذنب إنما هو من عقابه والمجازاة عليه . وقال مجاهد : «ما بين أَيديهم» هو الآخرة ، و «ما خلفهم» عذاب الأُمم .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فجعل التَّرتيب كأَنهم يسيرون من شيءٍ إلى شيءٍ ، ولم يعتبر وجود الأَشياءِ في الزمن ، وهذا النظر يكره عليه قوله تعالى : ﴿وَمُصَدِّقاً

لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ ﴾(١)، وإنما المُطَّرد أَن يقاس ما بين اليد والخلف بما يسوقه الزمن ، فتـأَمله . وجواب [إِذَا] في هذه الآية محذوف ، تقديره : أَعرضوا ، ويفسره قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ، و «الآيات» : العلاماتُ والدلائل .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [لَهُمْ] لِقُرَيش . وسبب هذه الآية أَن الكفار لما أَسلم حواشيهم من الموالي وغيرهم من المستضعفين ، قطعوا عنهم نفقاتهم وجميع صِلَاتهم ، وكان الأَمر بمكة أَولا فيه بعض الاتصال في وقت نزول آيات المُوَادعة ، فندب أُولئك المؤمنون قرابتهم من الكفار أَن يصلوهم ، وأَن ينفقوا عليهم مما رزقهم الله ،

---

(١) من الآية (٤٦) من سورة (المائدة) .

فقالوا عند ذلك : ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ . قال الرماني : ونسوا ما يجب من التعاطف وتألف الجنس .

وقالت فرقة : سببها أن قريشاً شحّت ـ بسبب أزْمة ـ على المساكين جميعاً من مؤمن وغيره ، فندبهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى النفقة على المساكين ، فقالوا هذا القول .

وقولهم يحتمل معنيين من التأْويل : أَحدهما يخرج على اختبارات لجهال العرب ، فقد رُوي أَن أَعرابياً كان يرعى إبله ، فيجعل السمان في الخصب والمهازيل في المكان الجدب ، فقيل له في ذلك فقال : أُكرم ما أَكرم الله وأُهين ما أَهان الله ، فيخرج قول قريش على هذا المعنى ، كأَنهم رأَوا الإمساك عمَّن أَمسك الله عنه رزقه ، ومن أَمثالهم : «كن مع الله على المدْبِر» . والتأْويل الثاني أَن يكون كلامهم بمعنى الاستهزاءِ بقول محمد صلى الله عليه وسلم : إن ثمَّ إلٰهاً هو الرَّزَّاق ، فكأَنهم قالوا : لم لا يرزقهم إلٰهُكَ الذي تزعم ؟ أَي : نحن لا نطعم من لو يشاءُ هذا الإلٰه الذي زعمت لأَطعمه ، وهذا كما يدَّعي الإنسان أَنه غنيٌّ ثم يحتاج إلى معونتك في مال فتقول له ـ على جهة الاحتجاج والهُزْءِ به ـ : أَتطلب معونتي وأَنت غنيٌّ ؟ أَي : على قولك .

وقوله : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يحتمل أَن يكون من قول الكفرة للمؤمنين ، أَي : في أَمركم لنا بنفقة أَموالنا ، وفي غير

ذلك من دينكم ، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى للكفرة ، استأنف زجرهم بهذا .

ثم حكى عنهم - على جهة التقرير عليهم - قولهم : ﴿مَتَى هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي يوم القيامة الذي تزعم ، وقيل : أرادوا : متى هذا العذاب الذي تتهدَّدُنا به ؟ وسمُّوا ذلك وعداً من حيث تفيد قرائن الكلام أنه في شرٍّ ، والوعد متى وَرَدَ مطلقاً فهو في خير ، وإذا قُيِّد بقرينة الشَّرِّ استعمل فيه ، والوعيد دائماً هو في الشَّرِّ .

و [يَنْظُرُونَ] معناه : ينتظرون ، و [مَا] نافية ، وهذه الصيحة هي صيحة القيامة والنفخة الأُولى في الصُّور ، رُوي ذلك عن عبد الله ابن عمر ، وأبي هريرة رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم(١) ،

---

(١) حديث ابن عُمر رضي الله عنهما أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، قال : « لَيُنْفَخَنَّ في الصُّور والناس في طرقهم وأسواقهم ومجالسهم ، حتَّى أن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان فما يرسله أحدهما من يده حتى يُنفخ في الصُّور فيصعق به ، وهي التي قال الله : ﴿مَا يَنْظُرُونَ إلا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ، فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ، » . وحديث أبي هريرة أخرجه سعيد بن منصور ، والبخاري ، ومسلم ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَتَقُومَنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لَقْحَتِه فلا يَطْعَمه - واللَّقْحَةُ : الناقةُ الحلوب الغزيرة اللبن - ولتقومن الساعة وقد رفع أُكْلته إلى فمه فلا يطعمها) ،=

وفي حديثه أَن بعدها نفخة الصَّعق ، ثم نفخة الحشر ، وهي التي تدوم فما لها من فواق .

وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو ، والأَعرج ، وشبل ، وابن قسطنطين المكي : [يَخَصِّمُونَ] بفتح الياءِ والخاءِ وتشديد الصاد المكسورة ، وأَصلها يَخْتَصِمُونَ ، نقلت حركة التاءِ إلى الخاءِ وأُدغمت التاءُ الساكنة في الصَّاد . وقرأَ نافع ، وأَبو عمرو أَيضاً بفتح الياءِ وسكون الخاءِ وشدِّ الصَّاد المكسورة ، وفي هذه القراءَة جمع بين ساكنين ولكنه ليس بجمع محْض ، ووجَّهها أَبو علي ، وأَصلها : يَخْتَصِمُونَ ، حذفت حركة التاءِ دون نقل وأُدغمت في الصاد . وقرأَ عاصم ، والكسائي ، وابن عامر ، ونافع أَيضاً ، والحسن ، وأَبو عمرٍو - بخلاف عنه - بفتح الياءِ وكسر الخاءِ وشدِّ الصاد المكسورة ، أَصلها : يَخْتَصِمُونَ ، أُعِلَّت كالتي قبلها ثم كسرت للالتقاءِ . وقرأَت فرقة بكسر الياءِ والخاءِ وشدِّ الصاد المكسورة كالتي قبلها ثم أُتبعت كسرة الخاءِ بكسرة الياءِ ، وفي مصحف أُبيِّ بن كعب «يَخْتَصِمُونَ» .

= هكذا ذكرهما السيوطي في (الدر المنثور) ، الأول غير مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والثاني مرفوع ، وذكر السيوطي أيضاً أن عبد الرَّزَّاق ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه أخرجوا عن أبي هريرة رضي الله عنه في هذه الآية قال : «تقوم الساعة والناس في أسواقهم يتبايعون ويذرعون الثياب ويحلبون اللقاح ، وفي حوائجهم ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون» . دون أن يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

ومعنى هذه القراءات كلها أنهم يتحاورون ويتراجعون الأقوال بينهم ويتدافعون في شئونهم . وقرأ حمزة : «يَخْصمُونَ» ، وهي تحمل معنيين : أحدهما ما في القراءات قبلها ، أي : يخصم بعضهم بعضاً ، والثاني أنهم يخصمون أهل الحق في زعمهم ، كأنه قال : تأْخذهم الصيحة وهم يظنون بأنفسهم أنهم خَصَموا أو غَلَبوا ؛ لأَنك تقول : خاصمت فلاناً فخَصَمْتُهُ ، إذا غلبته .

وقوله : ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ عبارة عن إعجال الحال ، و «التَّوْصِيَةُ» مصدر من : وصَّى ، وقوله : ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يحتمل تأْويلات : أحدها : ولا يرجع أحدٌ إلى منزله وأهله لإعجال الأَمر ، بل تقبض نفسه حيثما أخذته الصيحة ، والثاني معناه : ولا إلى أَهلهم يرجعون قولًا ، وهذا أَبلغ من الاستعجال ، وخصَّ بالذكر الأَهل لأَن القول معهم في ذلك الوقت أَهم على الإنسان من الأَجْنَبيِّين وأَوْكد في نفوس البشر ، والثالث تقديره : ولا إلى أَهلهم يرجعون أَبداً ، فخرج هذا عن معنى وصف الاستعجال إلى معنى ذكر انقطاعهم وانبتارهم من دنياهم .

وقرأ الجمهور : [يَرْجِعُونَ] بفتح الياءِ وكسر الجيم ، وقرأ ابن محيصن بضم الياءِ وفتح الجيم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

هذه نفخة البعث ، و « الصُّور » : القَرْنُ في قول جماعة المفسرين ، وبذلك تواردت الأَحاديث [١] ، وذهب أَبو عبيدة إلى أَنه جمع صُورة ، خرج مخرج بُسْر و بُسْرَة ، وكذلك سُورَة البناءِ جَمْعُها سُورٌ [٢] ، والمعنى عنده وعند من قال بقوله : نُفِـخ في صور بني آدم فعادوا

(١) من ذلك ما رواه المبارك بن فضالة عن الحسن ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بين النفختين أَربعون سنة : الأولى يُميت الله بها كل حي ، والأخرى يحيي الله بها كل ميت) . ومنها حديث متفق عليه ، رواه أبو هريرة رضي الله عنه ، ولفظه كما في مسلم ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما بين النفختين أَربعون) ، قالوا : يا أَبا هريرة ، أَربعون يوماً ؟ قال : أَبَيْتُ ، قالوا : أَربعون شهراً ؟ قال : أَبَيْتُ ، قالوا : أَربعون سنة ؟ قال : أَبَيْتُ ، (ثم يُنزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل) قال : (وليس من الإنسان شيءٌ لا يبلى ، إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنَب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة) ، ومعنى قول أَبي هريرة : « أَبَيْتُ » : امتنعت عن الكلام لأني لا أَدري ما هو الصواب .

(٢) وفي ذلك استشهدوا بقول العجَّاج :

ورُبَّ ذي سُرَادِقٍ مَحْجُـورِ سِرْتُ إِلَيْهِ في أَعَالي السُّورِ

أَحياءً . و «الْأَجْدَاثُ» : القبورُ(١) ، وقرأَ الأَعرج : «في ٱلصُّوَرِ» بفتح الواو ، جمع صُورةٍ . و [يَنسِلُونَ] : يمشون مشية الذئب بسرعة ، ومنه قول الشاعر :

عَسَلانَ الذِّئْبِ أَمْسَى قَارِباً بَرَدَ اللَّيْلُ عَلَيْهِ فَنَسَلْ(٢)

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [يَنسِلُونَ] : يخرجون ، وقرأَ الجمهور بكسر السين ، وضمَّها ابنُ أَبي إِسحق ، وأَبو عمرو .

ونداؤُهم بالوَيْل هو بمعنى : هذا وقْتُكَ وأَوَان حضوركَ ، وهو منادى مضاف ، ويحتمل أَن يكون نصبه على المصدر والمنادى محذوف ، كأَنهم قالوا : «يا قومنا وَيْلَنا» ، وقرأَ ابن أَبي ليلى : ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ بتاءِ التأْنيث(٣) . وقرأَ الجمهور : ﴿مَنْ بَعَثَنَا﴾ ؟ على معنى الاستفهام ، وروي عن عليٍّ وابن عباس رضي الله عنهما أَنهما قرآ : ﴿مِنْ بَعْثِنَا﴾ بكسر الميم مِنْ [مِنْ] وبسكون العين وكسر الثاءِ في [بَعْثِنَا] نصباً على المصدر ، وفي قراءَة ابن مسعود : «مَنْ أَهَبَّنَا مِنْ مَرْقَدِنَا» ، وفي

---

(١) الجدثُ ــ بالثاءِ ــ : القبر ، والجمع أجداث ، وقد وردت بالفاء ، يقال : جدفٌ وأجدافٌ ، وقد ذكر الزمخشري أنه قُرِئَ بها ، قال المتنخّل الهذليُّ :

عرَفْتُ بأجْدُثٍ فنِعاف عِرْقٍ علاماتٍ كتَحْبِير النِّمَاطِ

(٢) قيل : هذا البيت للبيد ، وقيل : للنابغة الجعدي ، وهو في اللسان (نسَل) غير منسوب ، وفيه أيضاً (عسَلَ) منسوب إلى لبيد ، وعسَل الذئبُ والثعلبُ يَعْسِل عسَلاً وعسَلاناً : مضى مسرعاً واضطرب في عَدْوه وهزَّ رأسه . والقاربُ : هو الذي يطلب الماء ، وقد حدده الخليل بمن يطلب الماء ليْلاً فقط ، ونسَلَ : أَسْرَعَ ، وهي موضع الشاهد هنا .

(٣) ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ ؟ أصله : يا ويلتي ، أُبدلت الياءُ ألفاً لأنه نداءٌ ، فهو في موضع تخفيف .

قراءة أُبَيٍّ : «مَنْ هَبَّنَا» . قال أبو الفتح : لم أر لها في اللغة أصلًا ، ولا مرَّ بنا «مَهْبُوب» (١) ، ونسبها أبو حاتم إلى ابن مسعود ، وقولهم : ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ يحتمل أَنهم يريدون موضع الرقاد حقيقة ، ويُروى عن أُبَيٍّ بن كعب ، وقتادة ، ومجاهد أَن جميع البشر ينامون نومةً قبل الحشر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا غير صحيح الإسناد ، وإنما الوجه في قولهم : ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ أَنها استعارة وتشبيه ، كما تقول في قتيل : هذا مرقده إلى يوم القيامة ، وفي الثعلبي أَنهم قالوا : ﴿مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ لأَن عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إليه من عذاب جهنم . وقال الزجاج : يجوز أَن يكون [هَذَا] إشارة إلى المرقد، ثم استأْنف بقوله : ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ، ويُضمر الخبر : «حَقٌّ» أَو نحوه ، وقال الجمهور : ابتداءُ الكلام : ﴿هَذَا مَا وَعَدَ﴾ .

واختُلف في هذه المقالة ، من قالها ؟ فقال ابن زيد : هي من قول الكفار لمَّا رأَوْا البعث والنشور الذي كانوا يُكذِّبون به في الدنيا ،

(٢) ومن تتمة كلامه : ما مرَّ بنا مَهْبُوب بمعنى مُوقَظٌ ، وهي — مع حسن الظن بأُبَيٍّ — مقبولة . أمَّا (أَهَبَّنَا) بالهمزة فهي أَقْيَس القراءتَين ، يقال : هبَّ من نومه ، أي : انْتَبَهَ ، وَأَهْبَبْتُهُ أَنا ، أي : أَنْبَهْتُه ، قال الشاعر :

أَلا أَيُّهَا النُّوَّامُ وَيْحَكُمْ هُبُّوا أُسَائِلُكُمْ : هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ الحُبُّ؟

وهذا البيت الذي استشهد به أبو الفتح في المحتَسَب هو واحد من سبعة أبيات قالها جميل ، وتجدها في (سمط اللآلئ) ، وانظر أيضاً الأمالي لأبي عليٍّ القالي .

وقالت فرقة : ذلك من قول الله تبارك وتعالى لهم على جهة التوبيخ والتوقيف ، وقال الفراءُ : هو من قول الملائكة ، وقال قتادة ومجاهد : هو من قول المؤمنين للكفار على جهة التقريع .

ثم أَخبر تعالى أَن أَمر القيامة والبعث من القبور ما هو إِلَّا صيحة واحدة فإِذا الجميع حاضر محشور ، وقرأَت فرقة : ﴿ إِلَّا صَيْحَةً ﴾ بالنصب ، وفرقة بالرفع ، وقد تقدم إِعراب نظيرها .

وقوله : [فَالْيَوْمَ] نصب على الظرف ، يريد يوم الحشر المذكور ، وهذه مخاطبة يحتمل أَن تكون لجميع العالم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾

هذا إِخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عن حال أَهل الجنة بعد ذكره أَهوال القيامة وحالة الكفار . وقرأَ نافع ، وابن كثير ، وأَبو عمرٍو ، وابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وطلحة ، وخالد بن إِلياس :

﴿في شُغْلٍ﴾ بضم الشِّين وسكون الغين ، وقرأ الباقون : ﴿في شُغُلٍ﴾ بالضم فيهما ، وهي قراءة أهل المدينة والكوفة ، وقرأ مجاهد ، وأبو عمرٍو أيضاً بالفتح فيهما ، وقرأ ابن هُبَيْرَة على المنبر بفتح الشِّين وسكون الغَيْن ، وهي كلها بمعنى واحد .

واختلف الناسُ في تعْيين هذا الشغل ، فقال ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن المسيب : افتضاضُ الأبكار ، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما : سماع الأوتار ، وقال مجاهد : معناه نعيم قد شغلهم ، وهذا هو القول الصحيح ، وتعيين شيءٍ دون شيءٍ لا قياس له ، ولمَّا كان النعيم كلُّه نوعاً واحداً من حيث هو نعيم وَحَّدَهُ فقال : ﴿في شُغُلٍ﴾ ، ولو اختلف لقال : في أشغال ، وحكى الثعلبي عن طاوس أنه قال : لو علم أهل الجنة عمَّن شغلوا ما هنأهم ما شُغلوا به ، قال الثعلبي : وسُئل بعض العلماء عن قوله عليه الصلاة والسلام : (أكثر أهل الجنة البُلْهُ)(١) ، فقال : لأنهم شغلوا بالنعيم عن المُنْعم .

وقرأ جمهور الناس : [فَاكِهُونَ] ، ومعناه : أصحابُ فاكهة ، كما يقال : تامِرٌ ولابِنٌ وشاحِمٌ ولاحِمٌ ، وقرأ أبو رجاءٍ ، ومجاهد ، ونافع أيضاً ، وأبو جعفر : [فَكِهُونَ] ، ومعناه : فرحون طربون ، مأخوذ من : الفكاهة ، أي : لاهمَّ لهم ، وقرأ طلحة ، والأعمش ، وفرقة : [فَاكِهِينَ] ، جَعَلَت الخبر في الظرف الذي هو قوله : ﴿في شُغُلٍ﴾ ، ونصبت [فَاكِهِينَ] على الحال .

---

(١) أخرجه البزّارُ عن أنس ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بالضَّعف .

قوله تعالى : ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾ ، [هُمْ] ابتداءٌ ، [وَأَزْوَاجُهُمْ] معطوف عليه ، ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ خبره ، ويحتمل أن يكون [هُمْ] بدلًا من قوله : [فَاكِهُونَ] ، ويكون قوله : ﴿فِي ظِلَالٍ﴾ في موضع الحال ، كأنه قال : مُسْتَظِلِّينَ . وقرأ الجمهور : [ظِلَالٍ] ، وهو جمع (ظِلٍّ) ؛ إذ الجنة لا شمس فيها ، وإنما هواؤُها سَجْسَجٌ[1] كوقت الإسفار قبل طلوع الشمس ، ويحتمل أن يكون جمع (ظُلَّة) ، قال أبو عليٍّ : كَبُرْمَة وبِرَام ، وغير ذلك ، وقال منذر بن سعيد : ظِلَالٌ : جمع ظِلَّة بكسر الظَّاء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهي لغة في ظُلَّة . وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ ، وهي جمع ظُلَّة ، وهي قراءة عبد الله ، وطلحة ، وأبي عبد الرحمن ، وهذه عبارة عن الملابس والمراتب من الحجال والستور ونحوها من الأشياءِ التي تُظِلُّ وهي زينة .

و «الْأَرَائِكُ» : السُّرُرُ المفروشة ، قال بعض الناس : من شروطها أَن تكون عليها حَجَلَةٌ[2] وإلَّا فليست بأَريكة ، وبذلك قيَّدها ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وعكرمة ، وقال بعضهم : الأَريكة : السَّريرُ كان عليه حَجَلَة أَو لم تكن .

(١) يقال : يومٌ سَجْسَجٌ ، أي : لا حرٌّ فيه ولا برد ، وهواءٌ سَجْسَجٌ : معتدلٌ طيب ، وكلام ابن عطية بعد الكلمة يفسِّر معناها .

(٢) الحَجَلَةُ : ساتر كالقبة يزيَّن بالثياب والستور للعروس .

وقوله : ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ بمنزلة : ما يتمنَّون ، قال أبو عبيدة : العرب تقول : « ادَّعِ عليَّ ما شئت » ، بمعنى : تمنَّ عليَّ ، وتقول : « فلانٌ فيما ادَّعى » ، أي : فيما دعا به ؛ لأنه افْتَعَل ، من دعا يدعو ، وأصل هذا الفعل : يَدْتَعِيُون ، نُقلت حركة الياءِ إلى العيْن قبلها ، وحذفت الياءُ لاجتماعها مع الواو الساكنة ، فبقي يَدْتَعُون ، قَلبت التاءُ دالاً وأُدغمت في الأُخرى ، وخُصَّت الدالُ بالبقاءِ دون التاءِ لأَنها حرف جلد والتاءُ حرف همس ، قال الرماني : المعنى : إن من ادَّعى شيئاً فهو له ؛ لأَنه قد هذَّبت طباعهم فهم لا يدعون إلَّا ما يحسنُ منهم .

قوله : [سَلَامٌ] ، قيل : هي صفة لـ [مَا] ، أَي : مُسَلَّم لهم وخالصٌ(١) ، وقيل : هو ابتداءٌ(٢) ، وقيل : خبر ابتداءٍ(٣) ، وقرأَ ابن مسعود ، وعيسى الثقفيُّ ، وأُبيُّ بن كعب ، والغنوي : [سَلَاماً] بالنصب على

---

(١) قال أبو حيان في البحر : « ولا يصحُّ إن كانت (ما) بمعنى الذي ؛ لأنها تكون إذْ ذاك معرفة ، و (سَلَامٌ) نكرة ، ولا تنعت المعرفة بالنكرة ، فإن كانت (ما) نكرة موصوفة جاز ، إلا أنه لا يكون فيه عموم كحالها بمعنى الذي .

(٢) والخبر فعل مُقدَّر ناصبٌ لقوله : (قَوْلا) ، والتقدير : سلامٌ يقالُ قولا من ربٍّ رحيم ، أو يكون : عَلَيْكُم محذوفاً ، والتقدير : سلامٌ عليكم قولا من ربٍّ رحيم .

(٣) يرى الزمخشري أن : ﴿سَلَامٌ قَوْلا﴾ بدلٌ من ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ ، كأنه قال لهم : سلامٌ يقال لهم قولا من جهة ربٍّ رحيم ، والمعنى أن الله تعالى يسلم عليهم بوساطة الملائكة أو بغير وساطة مبالغة في تعظيمهم ، وذلك متمناهم ، ولهم ذلك لا يُمنعونه .

قال أبو حيان : « وإذا كان [سَلَامٌ] بدلا من ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ كان ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ خصوصاً ، والظاهر أنه عموم في كل ما يدَّعون ، وإذا كان عموماً لم يكن [سَلَامٌ] بدلا منه » ، وقيل : [سَلَامٌ] خبرٌ لـ ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ ، و ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ مبتدأٌ ، والمعنى : ولهم ما يدَّعون سلامٌ خالص » .

المصدر ، وقرأ محمد بن كعب القرظي : [سِلْمٌ] وهو بمعنى (سلام) . و [قَوْلًا] نصب على المصدر .

وقوله تعالى : ﴿وَٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ﴾ الآية ، فيه حذف تقديره : ويقول للكفرة ، وهذه معادلة لقوله تعالى لأصحاب الجنة : [سَلَامٌ] ، و [ٱمْتَازُوا] معناها : انفصلوا وانحجزوا ؛ لأن العالم في الموقف إنما هم مختلطون ، ثم خاطبهم بما يميزوا به توبيخاً لهم وتوقيفاً على عهده إليهم ومخالفتهم عهده . وقرأ الجمهور : [أَعْهَدْ] بفتح الهاء ، وقرأ الهُذَلِيُّ ، وابن وثَّاب : ﴿أَلَمِ اعْهَدْ﴾ بكسر الميم والهمزة وفتح الهاء ، وهي على لغة من يكسر أول المضارع سوى الياء ، وروي عن ابن وثَّاب [ٱعْهِدْ] بكسر الهاء ، ويقال : عَهِد وعَهَد . و «عبادة الشيطان» : طاعتُه والانقياد لأعوانه ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، والكسائي : ﴿وَأَنُ ٱعْبُدُونِـي﴾ بضم النون من [أن] ، وأَتْبَعُوا بِهَا ضمة الباء والدال وواو الجماعة أيضاً[١] . وقرأ عاصم ، وأبو عمرٍو ، وحمزة : ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِـي﴾ بكسر النون على أصل الكسر للالتقاء ، وقوله : ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى الشرائع ، فمعنى هذا أن الله عهد إلى بني آدم وقت إخراج نسمهم من ظهره : ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا

---

(١) في بعض الأصول : اتباعاً بضمة الباء والدال ، وهي أقرب ، والأصح أن يقال : لأن الانتقال من الكسرة إلى الضم ثقيل ، فضمت النون ليكون الانتقال منها إلى الضمِّ فيما بعدها سهلا .

ٱلشَّيْطَانَ﴾ وأَن تعبدوا اللهَ ، وقيل لهم : هذه الشرائع موجودة ، وبعث آدم عليه السلام إلى ذرِّيَّته ، ولم تخْل الأَرض من شريعة إلى ختم الرسالة بمحمد صلى الله عليه وسلم . و «الصِّراطُ» : الطريق ، ويقال : إنها دخيلة في كلام العرب وعرَّبَتْها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

هذه أَيضاً من المخاطبة للكفار على جهة التقريع .

و «الجِبِلُّ» : الأُمة العظيمة ، قال النقاش عن الضحاك : أَقلُّها عشرة آلاف ولا حدَّ لأَكثرها ، وقرأَ نافع ، وعاصم بكسر الجيم والباءِ وشدِّ اللام ، وهي قراءَة أَبي جعفر ، وشيبة ، وأَهل المدينة ، وأَبي رجاءٍ ، والحسن - بخلاف عنه - . وقرأَ الأَشهب العقيلي بكسر الجيم وسكون الباءِ والتخفيف . وقرأَ الحسن ، والزهري ، والأَعرج بضم الجيم والباءِ والتَّشديد ، وهي قراءَة ابن أَبي إِسحق ، وعيسى ، وابن وثَّاب ، وقرأَ أَبو عمرٍو ، وابن عامر ، والهذيل بن شرحبيل بضم الجيم وسكون الباءِ[1] والتخفيف ، «وقرأَ ابن كثير ، وحمزة ،

(١) في الأصول : «بضم الجيم والباء والتخفيف» ، والتصويب عن القرطبي والبحر المحيط ، وعن كتب القراءات .

والكسائي : [جُبُلًا] بضم الجيم والباءِ والتخفيف »(١) ، وذكر أَبو حاتم عن بعض الخراسانِيِّين بكسر الجيم وبياءٍ بنقطتين ساكنة . وقرأَ الجمهور : ﴿ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتَّاءِ ، وقرأَ طلحة بالياءِ .

ثم وقفهم على جهنم التي كانوا يُوعدون فَيُكَذِّبُونَ ، و [جَهَنَّم] أَوَّل طبقة من النار ، و [ٱصْلَوْهَا] معناه : باشروها .

ثم أَخبر الله تبارك وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم أَخباراً تشاركه فيها أُمَّتُه بقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ، أَي : في ذلك اليوم يكون ذلك . وروي في هذا المعنى أَن الله يجعل الكفرة يتخاصمون ، فإذا لم يأْتوا بشيءٍ تقوم لهم به حجة رجعوا إلى الإنكار فناكروا الملائكة في الأَعمال ، فعند ذلك يختم الله على أَفواههم فلا ينطقون بحرف ، ويأْمر الله جوارحهم بالشهادة فتشهد(٢) ، وروى

(١) ما بين العلامتين « . . . . » سقط في أكثر النسخ .

(٢) أخرج أحمد ، ومسلم ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في (الأسماء والصفات) ، وابن أبي الدنيا في التوبة ، — واللفظ له — عن أنس رضي الله عنه في قوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ ، قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فضحك حتى بدت نواجذه ، قال : أتدرون ممَّ ضحكت ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، قال : من مخاطبة العبد ربَّه ، فيقول : يا ربِّ ، ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : إني لا أُجيز عليَّ إلا شاهداً مني ، فيقول : كفى بنفسك عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فيُختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي فتنطق بأعماله ، ثم يخلَّى بينه وبين الكلام فيقول : بُعْداً لكُنَّ وسُحْقاً ، فعنكن كنتُ أناضل . وأخرج مسلم ، والترمذي ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي سعيد ، وأبي هريرة : قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يلقى العبد ربَّه فيقول : أَيْ ربِّ ، فيقول : أَفَظننتَ أَنَّك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثاني فيقول مثل ذلك ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : =

عقبة بن عامر أنه عليه الصلاة والسلام قال : (إن أول ما يتكلم من الكافر فخذه اليسرى)(١) ، وقال أبو سعيد الخدري : (اليمنى ثم سائر جوارحه) ، وروي أن بعض الكفرة يقول يومئذ لجوارحه : «تبًّا لكِ وسُحْقاً ، فعنك كنت أُماحك» ونحو هذا من المعنى ، وقد اختلفت فيه ألفاظ الرُّواة ، وروى عبد الرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جده أنه قرأ : «ولِتُكَلِّمُنَا أَيْديهم ولِتَشْهَدَ أَرْجلهم» بزيادة لَام ِ (كي) النصب ، وهي مخالفة لخط المصحف .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

= آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك ، وصلّيت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع ، فيقول : ألا نبعث شاهدنا عليك ؟ فيفكر في نفسه : من الذي يشهد عليَّ ؟ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقي ، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، ما كان ذلك يعذر من نفسه ، وذلك بسخط الله عليه) ، (الدر المنثور) .

(١) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ، ولفظه كما في الدرّ المنثور ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنّ أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرِّجْل الشمال) .

الضمير في [أَعْيُنِهِمْ] مُرادٌ به كفار قريش ، ومعنى الآية يُبَيِّن أَنهم في قبضة القدرة وبروج العذاب إن شاءَهُ الله لهم ، وقال الحسن وقتادة : أَراد الأَعين حقيقة ، والمعنى : لأَعميناهم فلا يَرَوْن كيف يمشون ، ويؤيد هذا محاسبة المسخ الحقيقي ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أَراد أَعين البصائر ، والمعنى : ولو شئنا حتمنا عليهم بالكفر فلم يهتد منهم أَحد . و «الطَّمْسُ» إِذْهَابُ الآثار من المشي والهيئات حتى كأَنه لم يكن ، أَي : جعلنا جلود وجوههم متصلة حتى كأَنْ لم يكن فيها أَعين قط .

قوله : ﴿فَاسْتَبَقُوا ٱلصِّرَاطَ﴾ معناه : على الفرض ، والتقدير : فإِنَّا لو شئنا لأَعميناهم فاحسبْ أَو قدِّرْ أَنهم يستبقون الصِّراط ، أَي : الطريق ، فأَنَّى لهم بالإِبصار وقد أَعميناهم ؟ و (أَنَّى) لفظة استفهام فيه مبالغة ، قدَّره سيبويه : كيف ؟ ومن أَين ؟

و [مَسَخْنَاهُمْ] تقديره : تبديل خِلْقَتِهم لتصير كالقردة والخنازير ونحوه مما تقدم في بني إسرائيل وغيرهم ، وقال الحسن ، وقتادة ، وجماعة من المفسرين : معناه : لجعلناهم مقعدين مبطولين لا يستطيعون تصرفاً ، وقال ابن سلام : هذا التوعُّد كلُّه يوم القيامة . وقرأَ الجمهور : [مَكَانَتِهِمْ] بالإِفراد ، بمعنى المكان ، كما يقال : دارٌ ودارةٌ ، وقرأَ عاصم - في رواية أَبي بكر - [مَكَانَاتِهِمْ] جمعاً ، وهي قراءَة الحسن ،

وابن أَبي إِسحق . وقرأَ الجمهور : [مُضِيًّا] بضم الميم ، وفَتَحَهَا أَبو حيْوَة .

ثم بيَّن تعالى دليلًا في تنكيسه المعمَّرين ، وأَن ذلك ما يفعله إِلَّا الله ، وقرأَ الجمهور : [نَنْكُسُهُ] بفتح النون الأُولى وسكون الثانية وضم الكاف خفيفة ، وقرأَ عاصم – بخلاف عنه – وحمزة بضم الأُولى وفتح الثانية وكسر الكاف مُشَدَّدَة على المبالغة ، وأَنكرها أَبو عمرٍو على الأَعمش . ومعنى الآية : نُحَوِّل خَلْقه من القوة إلى الضعف ، ومن الفهم إلى الْبَلَه ، ونحو ذلك . وقرأَ نافع ، وأَبو عمرٍو – وفي روايةٍ : عباسٌ – : [تَعْقِلُونَ] بالتاء ، على معنى : قل لهم ، وقرأَ الباقون بالياءِ على ذكر الغائب .

ثم أَخبر تعالى عن حال نَبِيِّه صلى الله عليه وسلم ، وردَّ قول من قال من الكفرة : إِنه شاعر ، وإِن القرآن شعر بقوله : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الشِّعر ولا يرويه ولا يَزِنُه ، وكان إِذا حاول إِنشاد بيت قديم متمثِّلًا كسر وزنه ، وإِنما كان يُحْرِزُ المعاني فقط ، من ذلك أَنه أَنشد يوماً بيت طرفة :

سَتُبْدي لكَ الأَيَّامُ ما كُنْتَ جاهِلًا ويَأْتيكَ مَنْ لم تُزَوِّدْ بالأَخْبَارِ (١)

---

(١) والبيت في وزنه الصحيح :

ستُبْدي لكَ الأيَّامُ ما كُنْتَ جاهِلا ويَأْتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وأَنْشَدَ يوماً – وقد قيل له : من أَشعر الناس ؟ – فقال : الذي يقول :

أَلَمْ تَرَيَانِـي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً وَجَدْتُ بها وإِنْ لَمْ تَطَيَّبْ طِيباً ؟ (١)

وأَنشد يوماً :

أَتَجْعَلُ نَهْبِي ونَهْبَ الْعَبِيـ ـدِ بَيْنَ الْأَقْرَع وعُيَيْنَةَ ؟ (٢)

وقد كان عليه الصلاة والسلام ربما أَنشد البيت المستقيم في النادر ، رُوي أَنه أَنشد بيت ابن رواحة :

يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِـهِ إذا اسْتَثْقَلَت بالمشْرِكينَ المَضَاجِعُ (٣)

وقال الحسن بن أَبي الحسن : أَنشد النبي عليه الصلاة والسلام :

. . . . كَفَى بالإِسْلام والشَّيْبِ للمرءِ نَاهِياً

فقال أَبو بكر وعمر رضي الله عنهما : نشهد أَنك رسول الله ، إنما قال الشاعر :

. . . . كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْـلَامُ للمَرْءِ نَاهِيَا (٤)

---

(١) والبيت في وزنه :

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقـاً وَجَدْتُ بِـهَا طِيباً وإن لَمْ تَطَيَّبِ

(٢) وصحة البيت :

أَتَجعَلُ نَهْبِي ونَهْبَ الْعَبِيـ ـدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ والأَقْـرَعِ ؟

(٣) جَفَا الجَنْبُ عن الفراش : نَبَا وبَعُد ولم يطمئن عليه ، وجافَيْتُه فتجافَى . والمعنى أنه يترك فراشه وينهض للعبادة إذا أحب المشركون دفْءَ الفراش ولزموا مضاجعهم ، والبيت لعبد الله بن رواحة رضي الله عنه .

(٤) البيت لسحيم عبد بني الحَسْحَاسِ ، وهو بتمامه :

هُرَيْرَةَ وَدِّعْ إنْ تَجَهَّزْتَ غَادِيَـا كَفَى الشَّيْبُ والإسْلامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

رواه الثعلبي : وإصابته الوزن أَحياناً لا توجب أَنه تعلم الشعر ، ورُوي أَنه عليه الصلاة والسلام أَتى في نثر كلامه أَحياناً ما يدخل في وزن ، كقوله يوم حُنين :

«أَنَـــا النَّبِيُّ لا كَـــذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ» (١)

وكذلك يأْتي في آيات القرآن الكريم(٢) وفي كل كلام ، وليس ذلك بشعر ولا في معناه .

وهذه الآية تقتضي ـ عندي ـ غضاضة على الشِّعر ولا بدّ ، ويؤيد هذا قولُ عائشة رضي الله عنها : كان الشعر أَبغض الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يتمثل بشعر أَخي قيس طرفة فيعكسه ، فقال له أَبو بكر رضي الله عنه : ليس هكذا ، فقال : (ما أَنا بشاعر ولا ينبغي لي) (٣) ، وقد ذهب قوم إلى أَن الشعر لا غضَّ عليه ،

(١) قال أبو الحسن الأخفش : « هذا ليس بشعر » ، وقال الخليل في كتاب العين : « إن ما جاءَ من السجع على جزءَين لا يكون شعرا » ، ورُوي عنه أن هذا من مَنْهوك الرَّجز ، وقد قيل : إنه لا يكون من منهوك الرَّجز إلا بالوقوف على الباءِ في (كَذِبْ) ، و (عبد المطلبْ) . ولا يعرف أحد كيف نَطَقَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، ومن رأي ابن العربي أنه نطقه بالباءِ المرفوعة ، وقال النحاس : قال بعضهم : إنما الرواية بالإعراب . ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم أيضاً :

« هَلْ أَنْتِ إلا إصْبَعٌ دَمِيتِ وفي سَبِـيلِ اللهِ مَـا لَقِيتِ»

ولا يكون شعراً إلا بكسر التاءِ من (دَمِيتِ) ومن (لَقِيتِ) ، فإن سكنت لا يكون شعراً .

(٢) ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ، وقوله : ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق ، وعَبْد بن حَميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة رضي الله عنه ، قال : بلغني أنه قيل لعائشة رضي الله عنها : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثَّل بشيءٍ من الشعر ؟ قالت : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه كان =

وإنما منعه من التَّحَلِّي بهذه الحلية الرفيعة ليجيءَ القرآن من قِبَلِهِ أَعرب ، فإِنه لو كان له إدراك الشِّعر لقيل في القرآن : هذا من تلك القوة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليس الأَمر عندي كذلك ، وقد كان عليه الصلاة والسلام من الفصاحة والبيان في النثر في الرُّتبة العليا ، ولكن كلام الله تبارك وتعالى يبين بإِعجازه ، ويبْرُز برصْفه ، ويُخرجه إحاطة علم الله عن كل كلام ، وإنما منع الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم من الشِّعر ترفيعاً له عمَّا في قول الشعراءِ من التَّخيل وتزويق الكلام ، وأَما القرآن فهو ذكر الحقائق والبراهين ، فما هو بقول شاعر ، وهكذا كان أُسلوب كلامه عليه الصلاة والسلام ؛ لأَنه لا ينطق عن الهوى ، والشِّعر نازل الرتبة عن هذا كله .

والضمير في [عَلَّمْنَاهُ] عائد على محمد صلى الله عليه وسلم قولًا واحداً ، والضمير في [لَهُ] يحتمل أَن يعود على محمد صلى الله عليه وسلم ، أَو يعود على القرآن الكريم وإِن كان لم يذكر لدلالة المجاورة عليه ، ويُبَيِّن ذلك قولُه : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ .

وقرأَ نافع ، وابن عامر : [لِتُنْذِرَ] بالتَّاءِ على مخاطبة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقرأَ الباقون بالياءِ ، أَي : لِيُنْذِرَ القرآن ،

= يتمثَّل ببيت أَخي بني قيس ، يجعل آخره أَوَّله وأَوَّله آخره ، ويقول : « ويأتيك من لم تُزَوِّد بالأخبار » ، فقال له أبو بكر رضي الله عنه : ليس هكذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنِّي والله ما أَنا بشاعرٍ ولا يَنْبَغِي لي) .

أَو لِيُنْذِرَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، واللام متعلقة بـ [مُبِينٌ] ، وقرأَ محمد اليماني : [لِيُنْذَرَ] على الفعل المجهول ، قال أَبو حاتم : ولو قرئ بفتح الياءِ والذَّال ـ أَي : ليتحفظ ويأْخذ بحظِّه ـ لكان جائزاً ، وحكاها أَبو عمرٍو الدَّانيُّ عن محمد اليماني[1] .

وقوله تعالى : ﴿مَنْ كانَ حَيًّا﴾ أَي : حيٌّ القلب والبصيرة ، ولم يكن ميتاً لكفره ، وهذه استعارة ، قال الضحاك : ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ معناه : عاقلًا ، ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ معناه : يتحتَّم العذاب ويجب الخلود ، وهذا كقوله تعالى : ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾[2]

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

---

(١) قراءة : (لِيَنْذَرَ) بفتح الياءِ والذّال هي قراءة أبي السمال وابن السَّمَيْقَع أيضاً . وهي مضارع (نَذِرَ) بكسر الذال إذا علم بالشيء فاستعدَّ له .

(٢) من الآية (٧١) من سورة (الزُّمَر) .

هذه مخاطبة في أمر قريش وإعراضها عن الشَّرع وعبادتها الأَصنام ، فنَبَّهَهُم الله تعالى في هذه الآية على إنعامه عليهم بِبَهيمة الأَنعام . وقوله : [أَيْدِينَا] عبارة عن القدرة ، عبَّر عنها بـ (يَد) وبـ (يَدَيْن) و بـ (أَيْد)(١) ، وذلك من حيث كان البشر إنما يفهمون(٢) القدرة والبطش باليد ، فعبَّر لهم بالجهة التي اقتربت من أَفهامهم ، واللهُ تبارك وتعالى مُنَزَّهٌ عن الجارحة والتَّشبيه كُلِّه . وقوله تعالى : ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ تنبيه على النِّعمة في أَن هذه الأَنعام ليست بعاتية ولا مُبْتَزَّة(٣) ، بل تُقتنى وتقرب منافعها .

وقوله : [ذَلَّلْنَاهَا] معناه : سخَّرناها ذليلةً ، و «الرَّكُوبُ» : المركوب ، وهو فَعُولٌ بمعنى : مَفْعُول ، وليس إلَّا في أَلفاظ محصورة ، كالرَّكُوب ، والحَلُوب ، والقَدُوع(٤) . وقرأَ الجمهور : [رَكُوبُهُمْ] بفتح الراءِ ، وقرأَ بضمها الحسن ، والأَعمش ، وقرأَ أُبَيٌّ بن كعب ،

---

(١) أما التعبير باليد ففي قوله تعالى : ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ، وأما التعبير باليَدَيْن ففي قوله سبحانه : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ، وأما التعبير بالأيدي ففي آيتنا التي هي موضع التفسير

(٢) في بعض النسخ : (يقيمون) بدلا من (يفهمون) .

(٣) يريد أنها ليست مأخوذة بالقهر والجفاء ، من قولهم : بَزَّ الشَّيْءَ : نزعه وأخذه بجفاءٍ وقَهْر .

(٤) الرَّكُوب : المركوب ، والحَلُوب : المحلوب ، والقَدُوع — من النساء — التي تأنف كل شيءٍ ، ومن الخيل : المحتاج إلى القَدْع ليكف عن بعض جريه ، والقَدْعُ : الكَفُّ بالقوة عن الشيء ، يقال : قَدَعَ الفَحْلَ : ضربه على أنفه بشيءٍ ليرتد .

وعائشة رضي الله عنها : [رَكُوبَتُهُمْ] (١) . و «الْمَنَافِـعُ» إشارة إلى الأَصواف والأَوبار وغيرها ، و «الْمَشَارِبُ» : الأَلبانُ .

ثم عنَّفهم في اتخاذ الآلهة طَلَباً للاستنصار بها والتعاضد ، ثم أَخبر أَنهم لا يستطيعون ، ويحتمل أَن يكون الضمير فيه للكفار (٢) ، وفي [نَصْرَهُمْ] للأَصنام ، ويحتمل عكس ذلك لأَنهما صحيحان في المعنى .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ﴾ يحتمل أَن يكون الضمير الأَول للكفار والثاني للأَصنام ، على معنى : وهؤلاءِ الكفار مُجَنَّدون مُتَحَزِّبون لهذه الأَصنام في الدنيا ، لكنهم لا يَسْتطيعون التناصر مع ذلك ، ويحتمل العكس ، أَي : يحضرون لهم في الآخرة عند الحساب ، على معنى التوبيخ والنقمة (٣) ، وسمَّاهم جُنْداً في هذا التأْويل إذ هم

(١) قراءة (رُكُوبُهُم) بضم الراءِ فيها حذف مضاف ، تقديره : «فيها ذُو رُكُوبهم» ، وذو الرُّكُوب هنا هو المركوب ، فتصبح في المعنى مثل قراءَة الفتح في الراءِ . وأما قراءَة : (رَكُوبَتُهُم) فمعناها : مركوبتهم ، مثل : القَتُوبة ، والجَزُوزَة ، والحَلُوبة ، أي : ما يُقْتَب ، ويُجَزّ ، ويُحْلَب ، قال ذلك أبو الفتح ابن جني في كتاب المحتَسَب .

(٢) أي : في قوله تعالى : [يَسْتَطِيعُونَ] ، ويكون المعنى : لا يستطيع الكفارُ نصر الأصنام . والمعنى في العكس : لا تستطيع الأصنام نصر الكفار . والحقيقة أن كلا منهما عاجز عن نصر الثاني .

(٣) ثبت في صحيح مسلم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي الترمذي عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يطلع عليهم ربُّ العالمين ، فيقول : ألا لِيَتَّبِع كل إنسان ما كان يعبد ، فيُمَثَّل لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب التصاوير تصاويره ، ولصاحب النار ناره ، فيتَّبعون ما كانوا يعبدون ويبقى المسلمون ..) والحديث طويل . راجعه في صحيح مسلم .

عُدَّة للنقمة منهم وتوبيخهم ، وجرت ضمائر الأَصنام في هذه مجرى من يعقل إِذْ أُنزلتْ في عبادتها منزلة عقل ، فعوملت في العبارة بذلك .

ثم آنس نَبِيَّه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ ، وتوعَّد الكفار بقوله : ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

قال ابن جُبَيْر : هذه الآيات نزلت بسبب أَن العاص بن وائل السهمي جاءَ إِلى النبي صلى الله عليه وسلم بِعَظْم رميم ، فَفَتَّه وقال : يا محمد ، من يُحْيي هذا ؟ وقال مجاهد وقتادة : إِن الذي جاءَ بالعظم النَّخِر أُمَيَّة بن خلف ، وقاله الحسن ، وذكره الرماني ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : هو عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهو وَهْم مِمَّن نسبه إِلى ابن عباس رضي الله عنهما ؛ لأَن السُّورة مكيَّة ، والآية مكيَّة بإجماع ، ولأَن عبد الله بن أُبَيٍّ لم يجاهر قطُّ

هذه المجاهرة ، واسم (أُبَيٍّ) هو الذي خلط على الرواة ؛ لأَن الصحيح هو ما رواه ابن وهب عن مالك ، وقاله ابن إسحق وغيره : إنَّ أُبيَّ ابن خلف أَخا أُميَّة بن خلف هو الذي جاءَ بالعظم الرميم بمكَّة ففتّه في وجه النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : من يُحيي هذا يا محمد ؟ ولأُبيٍّ هذا مَعَ النبي صلى الله عليه وسلم مقامات ومقالات إلى أَن قتله بيده يوم أُحد بالحربة بجرح في عنقه ، ورُوي أَن النبي عليه الصلاة والسلام قال له حين فتَّ العظم : (الله يُحْييك ويُحييه ويُدخلك جهنم)(١) . ثم نزلت الآيات مُبَيِّنَة الحجة في أَن الإِنسان نطفة ثم يكون بعد ذلك خصيماً مبيناً ، فهل هذا إلَّا إحياءٌ بعد موت وعدم حياة ؟

وقوله : [وَنَسِيَ] يحتمل أَن يكون نسيان الذهول ، ويحتمل أَن يكون نسيان الترك ، و «الرَّميمُ» : البالي المُفَتَّت ، وهو الرفات .

---

(١) أخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والبيهقي في البعث ، عن أبي مالك ، قال : جاءَ أُبَيٌّ بن خلف بعظم نخرة فجعل يَفُتُّه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : من يُحْيي العظام وهي رميم ؟ فأنزل الله : ﴿أَوَ لَمْ يَرَ ٱلإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إلى قوله : ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ . وأخرج مثْلَه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه ، وأخرج ابن أبي حاتم مثْله عن السدي رضي الله عنه ، وكذلك أَخرج عن عكرمة مثْله ، وأخرج أيضاً ابن مردويه مثله عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يبعث الله هذا ويُميتك ثم يدخلك جهنم) . (الدر المنثور) .

ثم دَلَّهم تبارك وتعالى على الاعتبار بالنشأة الأُولى ، ثم عقَّب ذلك بدليل ثالث في إيجاد النار في العود الأَخضر المرتوي ماءً ، وهذا هو زناد العرب ، والنار موجودة في كل عود غير أَنها في المتخلخل المفتوح المسامِّ أَوْجد ، وذلك هو المرْخُ والعَفَار(١) ، وأَعاد الضمير على الشجر مُذَكَّراً من حيث راعى اللفظ فجاءَ كالتَّمر والحصى وغيره .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

هذا تقرير وتوقيف على أَمرٍ تدل صحتُه على جواز بعث الأَجساد من القبور وإعادة الموتى .

---

(١) المَرْخُ : شجر من العضاه من الفصيلة العشارية ينفرش ويطول في السماء ، ليس له ورق ولا شوك ، سريع الوَرْي يُقْتَدح به . والعَفَار : شجرة من الفصيلة الأريكية لها ثمر لُبَّيٌّ أحمر ويتخذ منها الزناد فيسرع الوَرْيَ وفي أمثالهم : « في كل شجر نار ، واستمجد المرْخ والعفَار » .

وجَمَع الضمير جَمْع من يعقل في قوله سبحانه : [مِثْلَهُمْ] من حيث كانتا متضمنتين مَنْ يعقل من الملائكة والثقلين . هذا تأْويل جماعة من المفسرين ، وقال الرماني وغيره : الضمير عائد على الناس .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فهم مثال للبعث ، وتكون الآية نظير قوله تعالى : ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾(١) ، وقرأَ سَلَّام أَبُو الْمُنْذِرِ ، وابن أَبي إِسحق ، ويعقوب ، والأَعرج : [يَقْدِرُ] على الاستقبال ، وقرأَ الجمهور : [بِقَادِرٍ] على اسم الفاعل ، وقرأَ الجمهور : [ٱلْخَلَّاقُ] ، وقرأَ الحسن : [ٱلْخَالِقُ] .

ورفع [فَيَكُونُ] على معنى : فهو يكون ، وهي قراءَة الجمهور ، وقرأَ ابن عباس ، والكسائي : [فَيَكُونَ] بالنصب ، قال أَبو عليٍّ : لا ينصب الكسائي إِذا لم يتقدم (أَن) ، ونصب ابن عامر وإِن لم تتقدم (أَن) ، والنصب هنا قراءَة ابن محيصن . وقوله تعالى : [كُنْ] أَمْرٌ للشيءِ الْمُخْتَرَع عند تعلُّق القدرة به لا قبل ذلك ولا بعده ،

(١) من الآية (٥٧) من سورة (غافر) .

وإنما يؤمر تأْكيداً للقدرة وإشارة بها(١) ، وهي أَوامر دون حروف وأَصوات، بل من الكلام القائم بالذات .

ثمَّ نزَّه الله تبارك وتعالى نفسه تنزيهاً عامًّا مطلقاً ، وقرأَ الجمهور : [مَلَكُوتُ](٢) ، وقرأَ الأَعمش ، والتَّيمي : [مَلَكَةُ](٣) ومعناه : ضبْطُ كلِّ شيءٍ والقدرة عليه .

كمل تفسير سورة يسٓ والحمد لله رب العالمين

(١) هكذا في الأصول ، ولعل الصواب : « وإشادة بها » .

(٢) المَلَكُوت فَعَلُوت من المُلْك ، زادوا الواو والتاءَ للمبالغة بزيادة اللفظ ، ولا يُطلق الملكوت إلا على الأمر العظيم ، ونظيره : الجَبَرُوت ، والرَّغَبُوت ، والرَّهَبُوت .

(٣) وقرئ أيضاً : « مَمْلَكَة » على وزن مفعلة ، وقرئ : « مُلْك » .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين

(٣٧) سورة الصافات مكية
وآياتها اثنتان وثمانون ومائة

هي مكِّيَّة ، وعددها في المدني والشامي والكوفي مائة آية وآيتان وثمانون آية .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴿٧﴾ ﴾

أَقسم الله تعالى في هذه الآيات بأَشياءَ من مخلوقاته ، واختلف الناس في معناها ـ فقال ابن مسعود ، ومسروق ، وقتادة : هي الملائكة التي تصفّ في السماءِ في عبادة الله تعالى وذِكْرِه صفوفاً ، وقالت فرقة : أَراد كل من يصـّف من بني آدم في قتال في سبيل الله ، أَو في

صلاة وطاعة ، والتقدير : والجماعات الصَّافات ، واللفظ يحتمل أَن يعم جميع هذه المذكورات .

و « الزَّاجِرات زجْراً » ، قال مجاهد ، والسدي : الملائكة التي تزجر السحاب وغيره من مخلوقات الله ، وقال قتادة : هي آيات القرآن المتضمنة النواهي الشرعية .

وقوله : ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً﴾ معناه : القارئات ، وقال مجاهد ، والسدي : أَراد الملائكة التي تتلو ذكره ، وقال قتادة : أَراد بني آدم الذين يتلون كُتبه المنزَّلة ، وتسبيحه وتكبيره ، ونحو ذلك .

وقرأَ أَبو عمرٍو ، وحمزة : ﴿وَٱلصَّافَّات صَّفًّا﴾ بالإِدغام [1] ، وهي قراءَة ابن مسعود ، ومسروق ، والأَعمش . وقرأَ الباقون وجمهور الناس بالإظهار ، وكذلك في كُلِّها ، قال أَبو حاتم : « والإِظهار اختيارنا » ، وأَمَّا « الْحَامِلاتِ وِقْراً » و « الجاريات يُسْراً » [2] فلا يجوز فيهما الإِدغام لِبُعْد التاءِ من الحرفين [3] .

(١) أي : بإدغام التاء في الصاد من (صَفّاً) ، وكذلك في الزّاي من (زَجْراً) ، والذّال من (ذِكْراً) ، وقد نفر الإمام أحمد بن حنبل من هذه القراءة حين سمعها ، وقال النحاس : « هي بعيدة عن العربية من ثلاث جهات : أُولاها أن التّاء ليست من مخرج الصاد ، ولا من مخرج الزاي ، ولا من مخرج الذال ، ولا من أخواتهن ، والثانية أن التاء في كلمة وما بعدها في كلمة أخرى ، والثالثة أنك عند الإدغام تجمع بين ساكنين من كلمتين ، وإنما يجوز الجمع بين ساكنين إذا كانا في كلمة واحدة نحو دابَّة وشابَّة » .

(٢) من قوله تعالى في أول سورة الذاريات : ﴿والذّارياتِ ذَرْواً ، فَالْحَامِلاتِ وِقْراً ، فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً﴾ .

(٣) أي بُعْد التّاء من الواو في (وِقْراً) ، ومن الياء في (يُسْراً) .

ثم بيَّن تعالى المَقْسَمَ عليه أَنه توحيده ، وأَنَّه واحد ، أَي : مُتَّحد من جميع الجهات التي ينظر فيها المفكر . ثم وصف تعالى نفسه بِربُوبيَّته جميع المخلوقات ، وذكر «المَشَارِقَ» لأَنها مطالع الأَنوار ، والعيون بها أَكلف ، وفي ذِكْرها غُنْية عن ذِكْر المَغارب ؛ إِذ مُعَادَلتُهَا لها مفهومة عند كل ذي لُبٍّ ، وأَراد تبارك وتعالى مشارق الشمس وهي مائة وثمانون في السَّنة فيما يزعمون ، من أَطول أَيام السَّنة إِلى أَقصرها ، ثم أَخبر عن قدرته بتَزيين السماءِ بالكواكب ، وانتظم في ذلك التَّزيين أَن جعلها حفظاً وحِرْزاً من الشياطين المردة ، وهم مسترقو السمع .

وقرأَ الجمهور بإِضافة «الزِّينَةِ» إِلى «الكواكب» ، وقرأَ حمزة ، وحفصٌ عن عاصم بتنوين [زِينَةٍ] وخَفْض [ٱلْكَوَاكِبِ] على البدل منها ، وهي قراءَة ابن مسعود ، ومسروق — بخلاف عنه — وأَبي زُرْعَة ابن عمرو بن جرير(١) ، وابن وثاب ، وطلحة . وقرأَ أَبو بكر عن عاصم : [بِزِينَةٍ] بالتنوين [ٱلْكَوَاكِبَ] بالنصب ، وهي قراءَة ابن وثاب ، وأَبي عمرٍو ، والأَعمش ، ومسروق ، وهذا في الإِعراب

---

(١) هو أَبو زُرْعة — بضم الزَّاي وسكون الرَّاء — بن عمرو بن جرير بن عبد الله البجلي الكوفي ، قيل : اسمه حرم ، وقيل : عمرو ، وقيل : عبد الله ، وقيل : عبد الرحمن ، وقيل : جرير ، ثقة ، من الثالثة . (تقريب التهذيب) .

نحو قوله تعالى : ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً﴾(١)، وحكى الزهراوي قراءةً بتنوين : [زِينَةٍ] ورفع [ٱلْكَوَاكِب] (٢) .

و «الْمَارِدُ» : المتجرِّد للشَّر ، ومنه : شجرة مرداءُ ، أَي : لا ورق عليها ، ومنه : الأَمْرَدُ . وخصَّ تعالى السماءَ الدنيا بالذكر لأَنها التي تُباشرها أَبصارنا ، وأَيضاً فالحفظ من الشياطين إنما هو فيها وحدها . و [حِفْظاً] نصب على المصدر ، وقيلَ : مفعول من أَجله ، والواو زائدة (٣) .

قوله عز وجلَّ :

﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾

«ٱلْمَلَأُ ٱلْأَعْلَىٰ» : أَهل السماءِ الدنيا فما فوقها ، وسمَّي الكلَّ منهم «أَعْلَى» بالإضافة إلى مَلَإِ الأَرض الذي هو أَسفل ، والضمير

(١) الآية (١٤) ، وجزءٌ من الآية (١٥) من سورة (البلد) .

(٢) هي قراءة زيد بن عليٍّ ، وتخرج على أن [الكواكب] خبر مبتدإ، والتقدير : هي الكواكب ، أو على أن [الكواكب] فاعل بالمصدر الذي هو [زينَة] ، وإن كان هناك خلاف بين علماء النحو في جواز رفع الفاعل بالمصدر المنون .

(٣) إذا نصبت [حِفْظاً] على المصدر كان التقدير : وحفظناها حِفْظاً ، وإذا نصبت على المفعول من أجله كانت الواو زائدة كما قال ابن عطية ، أو كان ذلك على تأخير العامل والتقدير : ولِحِفْظِهَا زَيَّنَّاهَا بالكواكب .

في [يَسَّمَّعُونَ] للشياطين . وقرأ جمهور القراءِ والناس : [يَسْمَعُونَ] بسكون السِّين وتخفيف الميم ، وقرأ حمزة ، وعاصم - في رواية حفص - وابن عباس - بخلاف عنه - وابن وثاب ، وعبد الله بن مسلم ، وطلحة ، والأعمش : ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾ بشدِّ السِّين والميم ، بمعنى : لا يتسمعون ، فينتَفي على القراءَة الأُولى سماعُهم وإن كانوا يَتَسَمَّعون ، وهو المعنى الصحيح ، ويعضده قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(١) ، وينْتَفي على القراءَة الأَخيرة أَن يقع منهم استماعٌ أَو سماعٌ ، وظاهر الأَحاديث أَنهم يستمعون حتى الآن لكن لا يسمعون ، وإنْ سمع أَحدٌ منهم شيئاً لم يفلت(٢) قبل أَن يلقي ذلك السمع إلى الذي يجيئُه ؛ لأَن من وقت محمد عليه الصلاة والسلام مُلِئَت السماءُ حَرساً شديداً وشُهُباً ، وكان الرجم في الجاهلية أَخف ، ورُوي في هذا المعنى أَحاديث صحاحٌ مُضَمَّنُهَا أَن الشياطين كانت تصعد إلى السماءِ فتقعد للسمع واحداً فوق آخر ، يتقدم الأَجْسَرُ نحو السماءِ ، ثم الذي يَلِيه ، ثم الذي يَلِيه ، فيقضي الله تعالى الأَمر من الأُمور في الأَرض فيتحدث به أَهل السماءِ ، فيسمعه منهم ذلك الشيطان الأَدْنى ، فيلقيه إلى الذي تحته ، فربما أَحرقه شهاب وقد أَلْقى الكلام ، وربما لم تحرقه جملة ، فتنزل تلك الكلمة إلى الكُهَّان فيكذبون معها

(١) من الآية (٢١٢) من سورة (الشعراء) .

(٢) في بعض النسخ : « لم يُفلت الشهاب » .

مائة كذبة ، فتصدق تلك الكلمة ، فيصدق الجاهلون الجميع ، فلما جاءَ الله بالإِسلام حُرِسَت السماءُ بشدة فلا يُفْلت شيطان سمع بتَّةً (١) ، ويروى أَنها لا تسمع الآن شيئاً ، والكواكب الراجمةُ هي التي يراها الناس تَنْقَضُّ ، قال النقاش ، ومكي : وليست بالكواكب الجارية في السماءِ ، لأَن تلك لا تُرى حركتها ، وهذه الراجمة تُرى حركتها لأَنها قريبة منَّا ، وفي هذا نظر . و [يُقْذَفُونَ] معناه : يُرْجمون .

و «الدُّحُورُ» : الإِصغار والإِهانة ؛ لأَن الزَّجْرَ الدفعُ بعنف ، قال مجاهد : مَطْرُودين . وقرأَ الجمهور بضم الدال ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السُّلَمي : [دَحُوراً] بفتح الدال (٢) ، و «الْوَاصِبُ» : الدائم ، قاله

(١) أخرج البخاري في تفسير سورة (الحِجْر) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله كالسلسلة على صفوان ، قال عليٌّ وقال غيره : صفوانٍ يَنْفُذُهم ذلك ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال رَبُّكُم ؟ قالوا للذي قال : الحقَّ وهو العليُّ الكبير ، فيسمعها مُسْتَرقو السمع ، ومُسْتَرقو السمع هكذا ، واحد فوق آخر – ووَصَفَ سفيان بيده ، وفرَّج بين أصابع يده اليمنى ، صبهـا بعضها فوق بعض – فربما أدرك الشهابُ المستمعَ قبل أن يَرْمِي بها إلى صاحبه فيُحْرِقُهُ ، وربما لم يدركه حتى يرمِيَ بها إلى الذي يليه ، إلى الذي هو أسفل منه ، حتى يُلقوها إلى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهي إلى الأرض ، فتلقى على فم الساحر ، فيكذب معها مائة كذبة فيصدق ، فيقولون : أَلم يُخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقّاً للكلمة التي سمعت من السماء) .

(٢) قال أبو الفتح ابن جنِّي : «في فتح الدال وجهان : إن شئت كان على ما جاء من المصادر على فَعُول . وإن شئت أراد: ويُقذفون من كلٍّ جانب بِداحِرٍ ، أو بما يَدْحَرُ ، =

مجاهد ، وقتادة ، وعكرمة . وقال السدي ، وأبو صالح : الواصِبُ : المُوجع ، ومنه : الوصب ، والمعنى : هذه الحال الغالبة على جميع الشياطين ، إلّا من شذّ فخطف خبراً أو نبأً فأتبعه شهابٌ فأحرقه .

وقرأ جمهور الناس : [خَطِفَ] بفتح الخاءِ وكسر الطاءِ خفيفة ، وقرأ الحسن ، وقتادة : [خِطِّفَ] بكسر الخاءِ والطَّاءِ وتشديد الطاءِ ، قال أبو حاتم : يقال : هي لغة بكر بن وائل ، وتميم بن مرة ، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما بكسر الخاءِ والطَّاءِ مخففة . و « الثَّاقِبُ » : النافذ بضوئه وشعاعه المنير ، قاله قتادة ، والسدي ، وابن زيد ، و « حَسَبٌ ثاقب » إذا كان شيئاً منيراً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

= وهذا كأنه الثاني من الوجهين ؛ لما فيه من حذف حرف الجر وإرادته ، كما قال الشاعر :

نُغَالي اللَّحْمَ لِلأضْيَافِ نِيئاً وَنُرْخِصُهُ إذا نَضِجَ الْقَدِيرُ

أي : باللحم ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ، أَيْ : أَعْلَمُ بمَنْ يَضِلُّ عن سبيله .

الاستفتاءُ نوعٌ من أَنواع السؤال ، وكأَنه سؤال من يُهْتَبَل بقوله ويجعل حُجَّة ، وكذلك هي أَقوالهم في هذا الفاصل ، لا يمكنهم أَن يقولوا إِلا أَن خَلْق مَنْ سواهم مِنَ الأُمم والملائكة والإِنس والجن والسموات والأَرض والمشارق وغير ذلك ، هو أَشدُّ من هؤلاءِ المخاطَبين ، وبأَنَّ الضمير في [خَلَقْنَا] يُراد به ما تقدم ذكره ، وقال مجاهد وقتادة وغيرهما : وفي مصحف عبد الله بن مسعود : «أَمْ مَنْ عَدَدْنَا» يريد الصَّافَّات وغيرها ، والسموات والأَرض وما بينهما ، وكذلك قرأَ الأَعمش ، وقرأَ أَيضاً : «أَمَنْ» مُخَفَّفة الميم دون (أَمْ) [1] .

ثم أَخبر تعالى إِخباراً جزماً عن خلْقه لآدم الذي هو أَبو البشر ، وأَضاف الخلق من الطين إِلى جميع الناس حيث الأَب مخلوق منه ، وقال الطبري : خُلق ابن آدم من تراب وماءٍ ونارٍ وهواءٍ ، وهذا كله إِذا اختلط صار طيناً لازباً ، وهو اللَّازم ، أَي : يلازم ما جاوره ويلصق به ، وهو الصَّلصال كالفخار ، وعبَّر ابن عباس ، وعكرمة عن اللازب بالحُرِّ ، أَي الكريم الجيِّد ، وحقيقة المعنى ما ذكرناه ، يقال : ضربةَ لازِبٍ ولازمٍ » بمعنى واحد .

وقرأَ الجمهور : [عَجِبْتَ] بفتح التاءِ ، أَي يا محمدُ من إِعراضهم عن الحقِّ وعَمَاهُم عن الهدى ، وأَن يكونوا كافرين مع ما جئتهم به

(١) وتكون (أَمَنْ) هذه استفهاماً ثانياً للتقرير أيضاً ، فهما جملتان مستقلتان في التقرير .

من عند الله . وقرأ حمزة والكسائي بضمِّ التاءِ ، ورُويت عن علي ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وابن وثاب ، والنَّخَعي ، وطلحة ، وسفيان ، والأَعمش ، وذلك على أَن يكون تعالى هو المتعجِّب ، ومعنى ذلك من الله سبحانه أَنه صفة فعل ، كقوله عليه الصلاة والسلام : (تعجب الله إلى قوم يساقون إلى الجنة في السلاسل) (١) ، وقوله : (تعجب الله من الشابِّ ليست له صبوة) (٢) ، فإنما هي عبارة عما يظهره في جانب المتعَجَّب منه من التعظيم أَو التحقير حتى يصير الناسُ متعجبين منه ، فمعنى هذه الآية : بل عجبتُ من ضلالهم وسُوءِ تخيُّلهم ، وجعلتها للناظرين فيها وفيما اقترن معها من شرعي وهداي متعجباً ، ورُوي عن شُريح إنكار هذه القراءَة ، وقال : إن الله لا يعجب ، قال الأَعمش : فذكرتُ ذلك لإبراهيم فقال : إن شُرَيْحاً كان مُعْجَباً بعلمه ، وإنَّ عبد الله أَعلمُ منه (٣) . وقال مكيٌّ ، وعليٌّ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢–٣٠٢ ، ٤٠٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٧ ، ٥–٢٤٩) ، وأخرجه البخاري في الجهاد ، وكذلك أبو داود ، واللفظ في المسند ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : (عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل) ، قال البيهقي : قد يكون هذا الحديث وما ورد من أمثاله أنه يعجِّب ملائكته من كرمه ورأفته بعباده ، حين حملهم على الإيمان به بالقتال والأسر في السلاسل ، حتى إذا آمنوا أدخلهم الجنة .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤–١٥١) ، عن عقبة بن عامر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عزَّ وجلَّ ليعجب من الشاب ليست له صبوة) . والصَّبوة : الميْلُ إلى اللهو ، وفي التنزيل العزيز : ﴿وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ .

(٣) عبد الله المقصود هنا هو ابن مسعود رضي الله عنه . قال أبو زكريا الفراءُ في كتابه (معاني القرآن) : « والرفع أحبُّ إلي ؛ لأنها قراءة عليٍّ ، وابن مسعود ، وعبد الله بن عباس ،=

ابن سليمان في كتاب الزهراوي : هو إخبار من النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه ، كأنه قال : «قل لهم : عجبتُ» ، وقوله : [وَيَسْخَرُونَ] أي : وهم يسخرون من نُبُوَّتك والحقِّ الذي عندك .

وقولِهِ تعالى : [يَسْتَسْخِرُونَ] يريد : بالآية ، وهي العلامة والدلالة ، ورُوي أَنها نزلت في رُكانة ، وهو رجلٌ مكيٌّ مشرك ، لقي النبي صلى الله عليه وسلم في جبل خال وهو يرعى غنماً له ، وكان أَقوى أَهل زمانه ، فقال له : يا ركانة ، إنْ أَنا صرعتك أَتُؤْمن بي ؟ قال : نعم ، فصرعه ثلاثاً ، ثم عرض عليه آياتٍ من دعاءِ شجرة وإقبالها ، ونحو ذلك مما اختلفت فيه أَلفاظ الحديث ، فلما فرغ من ذلك كلِّه لم يُؤْمن ، وجاءَ إلى مكة فقال : يا بني هاشم ، ساحِروا بصاحبكم هذا أَهْل الأَرض(١) ، فنزلت الآية فيه وفي نظرائه . و [يَسْتَسْخِرُونَ] معناه : يطلبون أَن يكونوا ممن يسخر ، ويجوز أَن تكون بمعى : يَسْخَر ، كقوله : «واستغنى الله» ، فيكون فَعِل واسْتَفْعَل بمعى ، بهذا فسَّره مجاهد

= قال شقيق : قرأتُ عند شُرَيْح : ﴿ بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ ﴾ ، فقال : إنَّ الله لا يَعْجَب من شيءٍ ، إنما يَعْجَب من لا يعلم ، قال : فذكرتُ ذلك لإبراهيم النَّخَعي فقال : إن شُرَيْحاً شاعر يعجبه علمُه ، وعبد الله أعلمُ بذلك » . ثم قال الفراءُ : « والعجب وإن أُسند إلى الله فليس معناه من الله كمعناه من العباد ، ألا ترى أنه قال : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وليس السُّخْرِيُّ من الله كمعناه من العباد ، وكذلك قوله : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ ليس ذلك من الله كمعناه من العباد ، ففي ذا بيانٌ لِكَسر قول شريح وإن كان جائزاً ؛ لأن المفسِّرين قالوا : بل عجبتَ يا محمدُ ويسخرون هم ، فهذا وجه النصب » .

(١) أخرجه أبو داود والترمذي في اللباس .

وقتادة ، وفي بعض القراءات القديمة : «يَسْتَسْحِرُونَ» بالحاءِ غير منقوطة ، وهذه عبارة عمَّا قال رُكانة ؛ لأنه استَسْحر النبي عليه الصلاة والسلام .

قوله تعالى : ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ . قرأ بضم الميم أبو جعفر ، وابن أبي إسحق ، وعاصم[١] ، وأبو عمرو ، والعامَّة ، وكسرها الحسن ، والأعرج ، وشيبة ، ونافع . وقرأ أبو جعفر ، وشيبة ، ونافع : ﴿أَوْ آبَاؤُنا﴾ بسكون الواو ، وهي التي للقسمة أو التخيير ، وقرأ الجمهور بفتحها ، وهي واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام .

ثم أمره الله تعالى أن يجيب تقريرهم بـ [نَعَمْ] ويزيدهم في الجواب أنهم - في البعث - في صَغار وذلَّة ، «والدَّاخِرُ» : الصغير الذليل ، وقد تقدم غير مرة ذكر القراءات في الاستفهامين .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

---

(١) يعني في رواية أبي بكر عنه ، أما رواية حفص عنه فهي بكسر الميم كما هو ثابت في المصحف .

هذا استئناف إخبار جرَّه ما قبله ، فأَخبر تعالى أَن بعثهم من قبورهم إنما هي زجرةٌ واحدة ، هي نفخة البعث في الصُّور ، وقوله : [يَنْظُرُونَ] يحتمل أَن يريد : بالأَبصار ، أَي : ينظرون ما هُمْ فيه ، وصدق ما كانوا يُكذِّبون به ، ويحتمل أَن يكون بمعنى : ينتظرون ما يُفْعل بهم ويُؤْمرون به .

ثم أَخبر عنهم أَنهم في تلك الحال يقولون : [يَاوَيْلَنَا] ، يُنادون الويل ، بمعنى : هذا وقتُ حضورك وأَوانُ حُلُولك . ورأَى أَبو حاتم الوقف ها هنا ، وجعل قوله : ﴿هَذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ من قول الله أَو الملائكة لهم ، ورأَى غيره أَن باقي الآية من قول الكفرة . و «ٱلدِّينُ» : الجزاءُ والمقارضة ، كقولهم : «كما تَدين تُدان» ، وأَجمعوا أَن قوله : ﴿هَذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ ليس من قول الكفرة ، وإنما المعنى : يُقَال لهم : هذا يوم الفصل .

وقوله تعالى : [وَأَزْوَاجَهُمْ] يعني : أَنواعهم وضرباءَهم ، قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وابن عباس ، وقتادة ، ومنه قوله : ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً﴾ (١) ، وقوله : ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (٢) أَي : نُوِّعت ، رُوي أَنه يضم عند هذا الأَمر كلُّ شكل إلى شكله ، وكل صاحب من الكفرة إلى صاحبه ، ومعهم ما كانوا يعبدون من

---

(١) الآية (٧) من سورة (الواقعة) .
(٢) الآية (٧) من سورة (التكوير) .

دون الله ، من آدميٍّ رضي بذلك أَو صنم أَوْ وثن توبيخاً لهم وإظهاراً لسوءِ حالهم . قال الحسن : المعنى : وأَزواجهم المشركات من النساءِ ، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورجَّحه الرماني .

وقوله تعالى : [فَاهْدُوهُمْ] معناه : قوموهم واحملوهم على طريق الجحيم ، و [ٱلْجَحِيم] طبقة من طبقات جهنم يقال إِنها الرابعة ، ثم يأْمر الله تعالى بوقفهم ، و [وَقَفَ] يتعدى بنفسه ، تقول : «وقفْتُ زيداً» ، وأَمْرُه بذلك على جهة التوبيخ لهم والسؤال ، واختلف الناس في الشيءِ الذي يُسأَلون عنه ـ فرُوي عن ابن مسعود أَنه قال: يُسْأَلون : هل يحبون شرب الماءِ البارد ؟ وهذا على طريق الهزءِ بهم ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : يسأَلون عن لا إِلٰه إِلَّا الله ، وقال الجمهور من المفسرين : عن أَعمالهم ، ويوقفون على قُبْحها ، وهذا قول مُتَّجه عام في الكفر وغيره ، ورُوي عن أَنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (أَيما رجل دعا إِلى شيءٍ كان لازماً له ، وقرأَ : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾(١)) ، ورَوى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنه قال : (لا تزول قدما عَبْد من بين يدي الله حتى يسأَله عن خمس :

(١) أخرجه البخاري في تاريخه، والترمذي ، والدارمي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه ، ولفظه كما ذكره الإمام السيوطي في (الدرّ المنثور) ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما مِنْ داع دعا إلى شيءٍ إلا كان موقوفاً يوم القيامة ، لازماً به لا يُفارقه ، وإن دعا رجل رجلا ، ثم قرأ : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ .

عن شبابه فِيمَ أَبلاه ، وعن عمره فيم أَفناه ، وعن ماله كيف اكتسبه وفيم أَنفقه ، وعمّا عمل فيما علم)(١) ، ويحتمل عندي أَن يكون المعنى على ما فسَّره بقوله : ﴿مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ ، أَي : تُسْأَلون عن امتناع التَّناصر . وقرأَ بتاءٍ واحدة شيبة ، ونافع ، وقرأَ خالدٌ بتاءَين ، وكذلك في حرف عبد الله ، وقرأَ أَبو جعفر بن القعقاع بإِدغام التَّاءِ في التاءِ من قراءَة ابن مسعود ، وقال الثعلبي : هذا جواب أَبي جهل حين قال في بدر : ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ (٢) .

ثم أَخبر تعالى بجوابهم في ذلك اليوم في حالة الاستسلام والإِلقاءِ باليد.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾

هذه الجماعة التي يقبل بعضها على بعض هي جنٌّ وإِنْس ، قال قتادة : وتَساؤُلهم هو على معنى التقريع واللوم والسخط ، والقائلون :

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة . (٢) من الآية (٤٤) من سورة (القمر)

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ إما أن يكون الإِنْسُ للشياطين، وهو قول مجاهد، وابن زيد، أَو ضَعَفَةُ الإِنْس للكبراءِ والقادة. واضطرب المتأَولون في معنى قولهم: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾، وعبَّر ابن زيد عنه بطريق الجنة والخير، ونحو هذا من العبارات التي تُفَسِّر بالمعنى ولا تختص بنفس اللفظة، وبعضهم نحا في تفسير اللفظة إلى ما يختصُّها، والذي يتحصل من ذلك معان: منها أَن يريد باليمين: القُوَّةَ والشِّدَّةَ، فكأَنهم قالوا: إنكم كنتم تَغْوُونَنَا بقوة منكم، وتحملوننا على طريق الضلالة بمتابعة منكم في شدَّة، فعبَّر عن هذه المعاني باليمين، كقول العرب: «بِيَدَيْنِ مَا أَوْرَدَ»(١)، وكما قالوا: «اليد» - في غير موضع - عن القوَّة، وقد ذهب بعض الناس ببيت الشَّماخ هذا المذهب، وهو قوله:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عرابَةُ بالْيَمِينِ (٢)

(١) المَثَل كما ذكره الميداني في (مجمع الأمثال): «بِيَدَيْنِ ما أَوْردها زائدة»، والمراد باليد هنا: القوَّة والجلادة، يقال: «ما لي به يد، ومالي به يدان» أي: قوَّة. و (ما) صلة، و (زائدة) اسم رجل، والمعنى: بالقوَّة والجلادة أَوْرَدَ زائدةُ إبِلَه لا بالعجز، قال الميداني: «ويجوز أن يريد بقوله: (بِيَدَيْن) أنه أضبط يعمل بكلتا يديه، يضرب في الحث على استعمال الجِدِّ». وقال الزمخشري في (المستقصى في أمثال العرب): «(ما) زائدة، و (زائدة) اسم رجل، والضمير للإبل، يضرب لمن يباشر الأمر بقوة».

(٢) استشهد الفراءُ بهذا البيت في (معاني القرآن)، قال: ﴿تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾، يقول: كنتم تأتوننا من قِبَل الدِّين، أي تخدعوننا بأقوى الوجوه، و [ٱلْيَمِينِ]: القدرة والقوة، كقوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي: بالقوة والقدرة، وقال =

فقالوا : معناه : بقُوَّة وعزيمة ، وإلَّا فكلٌّ أَحد يتلقَّاها بيمينه لو كانت الجارحة ، وأَيضاً فلما استعار الراية للمجد فكذا لم يرد باليمين الجارحة .

ومن المعاني التي تحتملها الآية أَن يريدوا : إنكم كنتم تأْتوننا من الجهة التي يُحَسِّنُهَا تمويهكم وإغواؤُكم ، ويظهر فيها أَنَّها جهة الرشد والصواب ، فتصير عندنا كاليمين الذي نتيمَّن بالسَّانح الذي يجيئُنا من قِبَلِهَا ، فكأَنهم شبَّهوا أَقوال هؤلاءِ المُغْوِين بالسوانح التي هي عندهم محمودة ، كأَن التمويه في هذه الغوايات قد أَظهر فيها ما يوشك أَن يُحمد به .

ومن المعاني التي تحتملها الآية أَن يريدوا : إنكم كنتم تأْتوننا ، أَي تقطعون بنا عن أَخبار الخير واليمين ، فعبَّر عنها باليمين ؛ إذ اليمين هي الجهة التي يُتَيَمَّن بها وبكل ما فيها ومنها (١) .

= الشاعر : إذا ما غايةٌ ... البيت » . والبيت للشماخ يمدح به عرَابة الأوسي ، وقبله يقول :

رأَيْتُ عـرَابَةَ الأوْسِيَّ يَسْمُو إلى الخيْرَاتِ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ

وعرَابة هو ابن أوس بن قيظى ، وقيل : إنه هو الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق : ﴿ إنَّ بيُوتنَا عوْرَةٌ ﴾ ، وقد قيل : إن عرابة الأوْسي من الصحابة ، وقيل : بل كان سيِّداً ولكن ليس له صحبة ، وقد كان أحد الذين عدُّوا من الصغار يوم أُحد ولم يُسْمَح لهم بالاشتراك في الحرب . هذا والبيت في اللسان أيضاً (يمَن) .

(١) استعيرت اليمين لجهة الخير لأن اليد اليمنى أشرف العضوين ، وكانوا يباشرون بها أفضل الأشياء كالمصافحة ، ولهذا جعلت لكاتب الحسنات ، ويأخذ المؤمن بها كتابة .

ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا : إنكم كنتم تجيئُوننا من جهة الشهوات وعدم النظر ؛ والجهة الثقيلة من الإنسان هي اليُمْنى لأَن كبده فيها ، وجهة شماله فيها قلبه ، وهي أَخف ، وهذا معنى قول الشاعر :

تَرَكْنَا لَهُمْ شقَّ الشِّمَالِ . . . . (١)

أَيْ : نزلنا لهم عن موضع الهروب ؛ لأَن المنهزم إنما يرجع على شقِّه الأَيسر ، إِذْ هو أَخَفُّ شِقَّيْه ، وإِذْ قلب الإِنسان في شماله وثَمَّ نظره ، فكأَن هؤلاءِ كانوا يأْتون من جهة الشهوات والثِّقل ، وأَكثر ما يتمكن هذا التأْويل مع إغواءِ الشياطين ، وهو قَلِقٌ مع إغواءِ بني آدم .

وقيل : المعنى : يحلفون لنا ويأْتوننا إِتْيان من إذا حَلَف لنا صدَّقناه ، فاليمين ـ على هذا ـ : القَسَمُ .

وقد ذهب بعض الناس في ذكر إبليس جهات بني آدم في قوله : ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾(٢) إلى ما ذكرناه من جهة الشهوات ، فقال : ما بين يديه هي مغالطته فيما يراه ، وما خَلْفه هي مسارقته في الخفاءِ ، وعن يمينه هو جانب شهواته ، وعن شماله هو نظره بقلبه وتحذيره فقد يغلبه الشيطان فيه ، وهذا فيمن جعله في جهات ابن آدم الحاضرة لديه ، ومنهم من جعلها في جهات أُموره وشئونه فيتَّسع التأْويل على هذا .

---

(١) يقول : تركنا لأعدائنا جانب الشمال ، لأنه جانب الضعفاء الذين يهربون ويتركون المعركة . ولم نقف على بقية البيت ولا على نسبته .

(٢) من الآية (١٧) من سورة (الأعراف) .

ثم أَخبر تعالى عن قول الجِنِّ المجيبين لهؤلاءِ : ﴿لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ كما ذكرتم ، بل كان لكم اكتسابُ الكفر والبصيرة فيه ، وإنما حملناكم على ما حملنا عليه أَنفسنا ، وما كان لنا عليكم حجَّة ولا قوة إلَّا طغيانُكم وإرادتكم الكفر ، فقد حقَّ القولُ على جميعنا ، وتعيَّن العذابُ لنا ، وإنَّا جميعاً لذائقون . والذَّوْق هنا مستعار ، وبنحو هذا فسَّر قتادة وغيره أَنه قول الجنِّ إلى [غَاوِينَ] .

ثم أَخبر الله تعالى أَنهم اشتركوا جميعاً في العذاب وحصلوا فيه ، وأَن هذا فعله بأَهل الجُرْمِ واحْتِقَاب(١) الإثم والكفر .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

هؤلاءِ أَهل الجُرْم الذين جهلوا الله سبحانه ، وعظَّموا أَصناماً وأَوثاناً ، فإذا قيل : ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ـ وهي كلمة الحق والعروة الوثقى ـ

(١) الجُرْم : الذنب ، واحْتَقَبَ الإثم : ارْتَكَبَه .

أَصابهم كِبْرٌ ، وعَظُم عليهم أَن يتركوا أَصنامهم وأَصنام آبائهم ، كما قيل عن أَبي طالب إِذْ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَيْ عمِّ ، قل لا إِله إِلَّا الله أُحاجُّ لك بها عند الله) ، فقال أَبو جهل : أَيرغب عن مِلَّة عبد المطلب ؟ فقال آخر ما قال : أَنا على ملَّة عبد المطلب[1] . وبعرضه عليه الصلاة والسلام قول لا إِله إِلَّا الله جرت السُّنة في تلقين الموتى المحتضرين ليخالفوا الكفرة ويخضعوا لها .

وأَما الطائفة التي قالت : ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ فهي من قريش ، وإِشارتهم بالشاعر المجنون هي لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فردَّ الله تعالى عليهم ، أَي : ليس الأَمر كما قالوا من أَنه شاعر ، بل جاءَ بالحق من عند الله ، وصدَّق الرسلَ المتقدمين له كموسى وعيسى وإِبراهيم عليهم السلام .

ثم أَخبر تعالى مخاطباً لهم ـ ويجوز أَن يكون التأْويل : قل لهم يا محمد ـ : ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ ، وقرأَ قوم بنصب

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار ، وفي تفسير سورة التوبة ، وفي الإيمان ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥-٤٣٣) ، ولفظه كما في البخاري عن سعيد بن المسيَّب عن أبيه ، قال : لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ دخل النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : أي عَمِّ ، قل لا إله إلا الله أُحاجُّ لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُميَّة : يا أبا طالب ، أترغب عن ملَّة عبد المطلب ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك ، فنزلت : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ﴾ .

[ٱلْعَذَابَ] ، وَوَجْهُها أنه أَراد : (لذائقون) ، فحذفت النون تخفيفاً ، وهي قراءَة قد لحنت[١] ، وقرأَ أبو السمال : [لَذَائِقٌ] بالتنوين ، [ٱلْعَذَابَ] بالنصب[٢] . و [ٱلْأَلِيم] : الْمُؤلم .

ثم أَعلمهم أَن ذلك جزاءٌ لهم بأَعمالهم واكتسابهم ، ثم استثنى عبادَ الله استثناءً منقطعاً ، وهم المؤمنون الذين أَخلصهم الله تعالى لنفسه . وقرأَ الجمهور بفتح اللام من [ٱلْمُخْلَصِينَ] ، وقرأَ الحسن ، وقتادة ، وأَبو رجاءٍ ، وأَبو عمرٍو بكسر اللام ، ورُويت هذه التي في الصافَّات عن الحسن بفتح اللام .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

---

(١) يقول النحويون : إن سيبويه أجاز النصب في مثل هذا ، وأنشد دليلا على جوازه :

فَأَلْفَيْتُـه غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ ولا ذاكِرِ اللهَ إلا قَلِيـلا

(٢) قال أبو حيان في (البحر المحيط) : «ويخرج على أن التقدير جمع ؛ وإلا لم يتطابق المفرد وضمير الجمع في [إِنَّكُمْ] . » .

[أُولَئِكَ] إشارةٌ إلى العباد المخلصين ، وقوله : [مَعْلُومٌ] معناه : عندهم ، فقد قرَّت عيونهم بعلم ما يستدرُّ عليهم من الرزق ، وبأَن شهواتهم تأْتيهم لحينها ، وإلَّا فلو كان ذلك معلوماً عند الله فقط لما تخصَّص أَهلُ الجنَّة بشيءٍ ، وقوله : ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ تَتْميمٌ بليغٌ للنِّعم ؛ لأَنه رُبَّ مرزوق غير مُكْرم ، وذلك أَعظم التنكيل .

و «السُّرُرُ» : جمع سرير ، وقرأَ أَبو السَّمال بفتح الراءِ الأُولى ، وفي هذا التأْويل حديث مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنهم في الجنان ترفع عنهم ستور فينظر بعضهم إلى بعض ، ولا محالة أَن أَعظم أَحيانهم هم فيها متحيزون في قصورهم .

و [يُطَافُ] معناه : يطوف الوِلْدان ، حسب ما فسَّرته آية أُخرى ، وَ «الْكَأْسُ» قال الزجاج ، والطبري ، وغيرهما : هو الإِناءُ الذي فيه خمر وما يجري مجراه من الأَنبذة ونحوها ، ولا يُسَمَّى كأْساً حتى يكون فيه هذا المشروب المذكور ، وقال الضحاك : كلُّ كأْس في القرآن هو خمر ، وذهب بعض الناس إلى أَن الكأْس بِنْيَةٌ مخصوصةٌ في الأَواني ، وهو كلُّ ما اتَّسع فمه ولم يكن له مقبض ، ولا يُراعى في ذلك كونه بخمر أَم لا . وقوله : ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ يريد : من جارٍ مطَّرد ، فالميم فيه أَصلية ؛ لأَنه من الماءِ المعين ، ويحتمل أَن يكون من العين فتكون الميم زائدة ، أَي : مِمَّا يُعيَّن بالعين غير مستور ولا في حرز ، وخمر الدنيا إنما هي معصورة مختزنة ، وخمر الآخرة جارية أَنهاراً .

وقوله سبحانه : ﴿ لَا فِيهَا ﴾ يحتمل أن يعود على الكأْس أو على الخمر ، وهو الأَظهر ، قال الحسن بن أَبي الحسن : خمر الجنة أَشد بياضاً من اللَّبن ، وفي قراءة ابن مسعود : « صَفْرَاءَ » ، فهذا موصوف به الخمر وحدها ، و ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أَي : ذات لذَّة ، فوصفها بالمصدر اتساعاً ، وقد استعمل هذا حتى قيل : لذَّة بمعنى : لذيذة ، ومنه قول الشاعر :

بِحَدِيثِكِ اللَّذِّ الذِي لوْ كُلِّمَتْ أُسْدُ الْفَلَاةِ بِهِ أَتَيْنَ سِراعاً (١)

وقوله : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ لم تعمل (لَا) ؛ لأَن الظرف حال بينها وبين ما شأْنها أَن تعمل فيه . و « الْغَوْلُ » : اسم عامٌّ في الأَذى ، تقول : غاله كذا وكذا إِذا ضرَّه في خفاءٍ ، ومنه الغِيلة في القتل ، وقال عليه الصلاة والسلام في الرضاع : (لقد همَمْتُ أَن أَنهى عن الغِيلَةِ) (٢) ،

---

(١) اللَّذُّ هو اللَّذيذ ، قال في اللسان (لَذَذَ) : « واللَّذُّ واللَّذيذُ يجريان مجرى واحداً في النعت ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أيْ : لذيذة ، وشرابٌ لَذٌّ ولذيذٌ ، وكأسٌ لذَّةٌ ، وفي التنزيل : ﴿ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ . ولذَّ الشيءُ صار لذيذاً » . وهذا هو الشاهد في البيت ؛ لأن الشاعر استعمل اللَّذَّ بمعنى اللَّذيذ ، فهو يصف حديثها بأنه لذيذ بحيث يؤثر في أسْد الفلاة .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن جُدامَة بنت وهب ، ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه صحيح ، ولفظه كما ذكره السيوطي : (لقد هممت أن أنهى عن الغيلَةِ حتى ذكرتُ أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضرُّ أولادهم) . وقد فسَّر ابن الأثير معنى الغيلَة في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر) فقال : « الغيلَة بالكسر : الاسم من الغَيْل بالفتح ، وهو أن يجامع الرجل زوجته وهي مرضع ، وكذلك إذا حملت وهي مرضع ، واللَّبن الذي يشربه الولد يقال له الغَيْل » .

ومن اللفظة قول الشاعر :

مَضَى أَوَّلُونا ناعِمِينَ بِعَيْشِهِمْ جميعاً وَغَالَتْني بِمَكَّةَ غُولُ (١)

أَي : عاقتني عوائق ، فهذا معنى من معاني «الغَوْل» ، ومنه قول العرب في مثل من الأَمثال : «ما له عَمل ما غاله» ، يضرب للرجل الحديد الذي لا يقوم لأَمر إِلَّا أَغنى فيه ، أَو للرَّجل يدعى له بأَن يؤدي ما أَدَّاهُ ، وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد : الغَوْلُ وجع في البطن ، وقال ابن عباس أَيضاً ، وقتادة : هو صداع في الرَّأْسِ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والاسم أَعم من هذا كله ، فنفى عن خمر الجنة جميعَ أَنواع الأَذى ، إِذ هي موجودة في خمر الدنيا ، وقد نحا إِلى هذا العموم سعيد ابن جبير ، ومنه قول الشاعر :

وَمَا زَالَتِ الْخَمْرُ تَغْتَالُنَا وتذهب بالأَوَّلِ الأَوَّلِ (٢)

أَي : تؤذينا بذهاب العقل .

(١) يتألم من حياته ، ويقارن ما يلاقيه من العوائق بما كان ينعم به آباؤه فيقول : مضوا جميعاً بحياتهم الناعمة وعيشتهم الهادئة ، وبقيت أنا مع العوائق والمصاعب التي أُعاني منها .

(٢) البيت في اللسان (غَوَلَ) غير منسوب ، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ، والرواية فيه وفي الطبري : (الكأس) بدلا من (الخمر) ، قال أبو عبيدة : «﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ ، مجازُه : ليس فيها غولٌ ، والغول أن تغتال عقولهم» ، وقال الطبري : «وهو أن تغتال عقولهم ، يقول : هذه الخمرة لا تذهب بعقول شاربيها ، كما تذهب بها خمور أهل الدنيا ، ثم ذكر البيت» . وشرح البيت في اللسان فقال : «أيْ : تُوَصِّل إلينا شرّاً وتُعدمنا عقولنا» . فكلهم أجمعوا على أن المعنى هو اغتيال العقل .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرٍو ، وابن عامر : [يُنْزَفُونَ] بفتح الزاي ، وكذلك في الواقعة (١) ، من قولك : نُزِفَ الرجلُ إذا سَكِرَ ، ونَزَفَتْهُ الخمرُ ، والنَّزيفُ : السكرانُ ، ومنه قول الشاعر :

فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرونِهَا شُرْبَ النَّزيفِ بِبَرْدِ ماءِ الْحَشْرَجِ (٢)

وبإذهاب العقل فسَّر ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة [يُنْزِفُونَ] ، وقرأ حمزة ، والكسائي بكسر الزاي ، وكذا في الواقعة ، من : أَنْزَف بمعنيين : أحدُهما سَكِرَ ، ومنه قول الأُبَيْرِدِ الرِّياحيِّ :

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمُ أَوْ صَحَوْتُمُ لَبِئْسَ ٱلنَّدامَى كُنْتُمُ آلَ أَبْجَرَا (٣)

---

(١) في قوله تعالى في الآية (١٩) : ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ﴾ .

(٢) البيت مختلف في نسبته ، قيل : هو لعمر بن أبي ربيعة ، وهو من أبيات يقول فيها :

قالتْ : وعَيْشُ أَبي وحُرْمَةُ إِخْوَتي لأنَبِّهَنَّ الحيَّ إنْ لَمْ تَخْرُجِ
فَخَرَجْتُ خِيفَةَ قَوْلِها فتبَسَّمَتْ فَعَلِمْتُ أنَّ يَمينَهَا لَمْ تُحْرَجِ
فَلَثَمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرُونِهَا شُرْبَ النَّزيفِ بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ

وقال ابن بري : البيت لجميل بن معمر ، وليس لعمر بن أبي ربيعة ، والقَرْنُ : الذُّؤابةُ ، وخصَّ بعضهم به ذُؤابة المرأة وضفيرتها ، والجمع : قُرون ، والنَّزِيف : السَّكْران ، وقيل : هو المحموم الذي منع من الماء ، والحشرج : الكُوز الرقيق النقي ، وقيل : هو الماءُ العذب من ماءِ الحِسْي . ولثَمْتُ فاهَا : قَبَّلْتُه ، ونصبَ الشاعرُ (شُرْبَ) على المصدر المشبَّه به ، فكأنه قال : شربتُ ريقَهَا كشُرْب النَّزيف للماءِ العذب البارد .

(٣) البيت في اللسان (نَزَفَ) ، وفي (مجاز القرآن) لأبي عبيدة ، وقد نسبه الجوهري للأبيرد ، وبعده يقول مخاطباً آل أبجر :

شَرِبْتُمْ ومَدَّرْتُمْ وكانَ أَبُوكُمُ كَذَاكُمْ إذا ما يَشْرَبُ الكَأْسَ مَدَّرَا =

والثاني بَعْدَ شَرَابُهُ(١) ، يقال : أَنْزَفَ الرجل إذا تمَّ شرابُه ، فهذا كله منفيٌّ عن أَهل الجنة ، وقرأَ عاصم هنا بفتح الزاي ، وفي الواقعة بكسر الزاي ، وقرأَ ابن أَبي إِسحق بفتح الياءِ وكسر الزاي .

قوله تعالى : ﴿قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد ، وقتادة : معناه : على أَزواجهن ، لا ينظرن إِلى غيرهم ، ولا يمتد طرف إِحداهنَّ إلى أَجنبي ، فهذا هو قَصر الطَّرْف . و [عِينٌ] : جمعُ عيناءَ ، وهي الكبيرة العين في جَمَال .

وأَما قوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ فقد اختلف الناس — ما هو ؟ فقال السدي ، وابن جُبَير : شبَّه أَلوانهن بلون قشر البيضة الداخلي ، وهو الغِرْقِئُ(٢) ، وهو المكنونُ ، أَي : المصون في كِنٍّ ، ورجَّحه الطبري ، قال : وأَما خارجُ قِشْر البيضة فليس بمكنون ، وقال الجمهور : شبَّه أَلوانهن بلون قشر بيض النعام ، وهو بياض قد خالط صفرةً حسنةً ، قالوا : والبيْضُ نفسه في الأَغلب هو المكنون

= وهو أَبْجَر بن جابر العجليٌّ ، وكان نصرانيّاً ، وأَنْزَفَ : سَكِرَ وَذَهَبَ عقْلُه ، ومَدَّرَ : سَلَح عن نفسه ، يقول : إنكم يا آل أَبجر بئس الندامى سواءٌ شربتم حتى ذهب عقلكم أو كنتم في حال الإفاقة والصحوة ، وشأنكم كأَبيكم إذا ما شربتم سلحتم على أنفسكم . وقد استشهد القرطبي في تفسيره بالبيت ونسبه للحطيئة .

(١) لعله يريد : فني شرابه ولم يجد غيره قريباً منه ، وقد قال الفراءُ : « وأَصحاب عبد الله يقرءُون : (يُنْزِفُونَ) ، وله معنيان : يقال : قد أنزف الرجل إذا فنيت خمرُه ، وأَنزف : إذا ذهب عقله ، فهذان وجهان » .

(٢) الغِرْقِئُ : القشرة الرقيقة الملتزقة ببياض البيض .

بالريش ، ومتى شذَّت به حالٌ فلم يكن مكنوناً خرج عن أن يُشَبَّه به ، وهذا قول الحسن ، وابن زيد ، ومنه قول امرئ القيس :

كَبِكْرِ الْمُقَانَاةِ الْبَيَاضِ بِصُفْرَةٍ غَذَاهَا نَمِيرُ الماءِ غَيْرُ الْمُحَلَّلِ (١)

وهذا المعنى كثير في أشعار العرب . وقال ابن عباس رضي الله عنهما — فيما حكى الطبري — : البيضُ المكنون أراد به الجوهر المصون .

---

(١) البيت من مُعَلَّقة امرئ القيس ، وفيه يواصل الحديث عن محبوبته التي وصفها بأنها بيضة خِدْرٍ ، وبأنها مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غير مُفَاضَة ، وهنا يقول : إنها بكرُ مُقَانَاةٍ ، والبِكرُ من كل صنف : ما لم يسبقه مثلهُ ، والمُقاناة : الخَلْطُ ، يقال : قانَيْتُ بين الشيئين إذا خلطتَ أحدهما بالآخر ، والمقاناة في البيت مصوغة للمفعول دون المصدر ، والنَّمير : الماءُ النَّامي في الجسد ، والمُحَلَّل : ذُكِر أنه من الحلول وذُكِر أنه من الحلِّ ، وللعلماء في توضيح معنى البيت ثلاثة آراء : الأول أن المعنى : مثلُ بِكْرِ البَيْضِ التي قُوني بياضُها بصُفْرة ، أي : خلط بصُفرة يسيرة ، شبه لون الحبيبة بلون بيض النعام في أن في كلٍّ منهما بياضاً خالطته صفرة خفيفة ، يقول : إنها بيضاءُ تُلَوِّن بياضها صفرةٌ خفيفة ، وقد غذَّاها ماءٌ صاف عذب . والمعنى الثاني أنها مثل بِكْر الصدفة ، أيْ دُرَّتها التي ليس لها مثيل ، وقد غَذَّى هذه الدُّرَّة ماءٌ نمير ، وهي غير محلَّلة لمن أرادها ؛ لأنها في قاع البحر لا تصل إليها الأيدي . والمعنى الثالث أنها مثل بكْر البردي التي شابَ بياضَها صفرةٌ ، وقد تغذَّى هذا البرديُّ بماءٍ نمير لم يكثر حلُولُ الناس عليه ، ولهذا فهو صاف خال من الكدر ، وإذا كان كذلك لم يتغير لون البرديِّ . وكل معنى من المعاني الثلاثة قائم على تشبيه الحبيبة في لونها بشيءٍ أبيض اختلطت به صفرةٌ يسيرة ، وهذا اللون هو أحسن ألوان النساءِ عند العرب . وعلى المعنى الأول يكون البيت شاهداً هنا .

ويروى البيت بنصب كلمة (البياض) وخفضها ، وهما واردان ، الخفْض على الإضافة ، والنصب على التشبيه ، ومن دلائل الدقة في التعبير أن الشاعر جعل الماءَ الذي يغذيها — على أي فهم فهمنا — ماءً غير محلَّل لغيرها ، فهو ماءٌ خاصٌّ ، ولهذا فهو ماءٌ صافٍ لم يتغير ولم يتأثر بالناس الآخرين .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما ؛ لأنه تردُّه اللفظة من الآية .

وقالت فرقة : إنما شبَّهَهُنَّ بالبيض المكنون تشبيهاً عامًّا ، جملة المرأة بجملة البيضة ، وأراد بذلك : تناسبت أجزاءُ المرأة ، وكل جزءٍ منها نِسْبته في الجودة إلى نوعه نِسْبة الآخر من أجزائها إلى نوعه ، فنسبة شعرها إلى عينها مستويةٌ إذ هما غايةٌ في نوعيهما ، والبيضة أشدُّ الأشياءِ تناسب أجزاءٍ ؛ لأنك من حيث جئتها فالنظر واحد .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

هذا التساؤُل الذي بين أهل الجنة هو تساؤُل راحةٍ وتنعُّم ، يتذكرون أُمورهم في الجنة وأَمر الدنيا وحال الطاعة والإِيمان فيها ، فأَخبر تعالى عن قول قائل منهم في قصته ، فهو مثال لكل من له قرين سوءٍ ، ويعطي هذا المثال التَّحفظ من قرناءِ السوءِ ، واستشعار

معصيتهم ، وعبَّر عن قول هذا الرجل بالمضي من حيث كان أمراً متيقَّناً حاصلًا لا محالة . فقال ابن عباس وغيره : كان هذا من البشر مؤمن وكافر ، وقالت فرقة : هما اللذان ذكر اللهُ في قوله : ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلًا﴾[1] ، وقال مجاهد : كانا إنسيًّا وجنِّيًّا من الشياطين الكفرة ، والأول أصوب . وقرأ الجمهور : ﴿مِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بتخفيف الصاد ، من التصديق ، وقرأت فرقة بالتشديد للصاد ، من التَّصَدُّق .

وقال فُراتُ بن ثعلبة البهراني في قصص هذين : إنهما كانا شريكين بثمانية آلاف دينار ، فكان أحدهما يعبد الله ويقصِّر من التجارة والنظر ، وكان الآخر كافراً مُقْبلاً على مالِه ، فحلَّ الشركة مع المؤمن وبقي وحده لتقصير المؤمن ، ثم إنه جعل كلما اشترى شيئاً ـ من دارٍ وجاريةٍ وبستان ونحوه ـ عَرَضَه على المؤمن وفَخَر عليه ، فيمضي المؤمن عند ذلك ويتصدق بنحو ذلك الثمن ليشترى به من الله في الجنة ، فكان من أمرهما في الآخرة ما تضمنته هذه الآية . قال الطبريُّ : وهذا الحديث يؤيد قراءة التشديد . و[مَدِينُونَ] معناه : مجازَوْن محاسبون ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدي . والدّين : الجزاءُ ، وقد تقدم .

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الفرقان) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

في الكلام حذف تقديره : فقال لهذا الرجل حاضروه من الملائكة : قرينك هذا في جهنم يُعَذَّب ، فقال عند ذلك : ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾. ويحتمل أن يخاطب بـ [أَنْتُمْ] الملائكة ، ويحتمل أن يخاطب رفقاءه في الجنة ، ويحتمل أن يخاطب خَدَمَتَه ، وكل هذا حكى المهدوي ، وقرأ الجمهور : [مُطَّلِعُونَ] بفتح الطاءِ مشددةً ، وقرأ أبو عمرٍو - في رواية حسين - بسكونها مع فتح النون ، وقرأ أبو البرهسم بسكونها وكسر النون على أنها ضمير المتكلم ، وردَّ هذه القراءة أبو حاتم وغيره ولَحَّنُوها ؛ وذلك أنها جمعت بين نون الإضافة ونون المتكلم ، والوجه أن تقول : «مُطْلِعِيَّ» ، ووجَّه القراءة أبو الفتح ابن جنِّي وقال : أنزل الفاعل منزلة الفعل المضارع ، وأنشد الطبريُّ على هذا :

وَمَا أَدْرِي وَظَنِّي كُلُّ ظَنٍّ أَمُسْلِمُني إِلَى قَوْمِي شَرَاحِي ؟(١)

قال الفراءُ : يريد : شراحيل .

---

(١) استشهد الفراءُ بهذا البيت وبغيره في (معاني القرآن) على وُرُود الجمع بين النون والضمير ، قال : « وقرأ بعض القُرَّاء : ﴿ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونِ ﴾ فكسر النون ، وهو شاذٌّ ؛ لأن العرب لا تختار على الإضافة إذا أسندوا فاعلا مجموعاً أو موحَّداً إلى اسم مكنيٍّ عنه ، فمن ذلك أن يقولوا : أنت ضاربي ، وأنتما ضارباي ، وأنتم ضاربيَّ ، ولا يقولون : أنتما ضاربانني ، ولا أنتم ضاربونني ، وإنما تكون هذه النون في فَعَلَ ويَفْعَل ، مثل ضربوني ويضربني وضربني ، وربما غلط الشاعر فيذهبُ إلى المعنى ، فيقول : أنت ضاربني ، يتوهم أنه أراد : هل تضربني ، فيكون ذلك على غير صحة ، قال الشاعر : « وما أدري ... البيت » . وذكر أبياتاً أخرى ثم قال : « وإنما اختاروا الإضافة في الاسم المكنيِّ لأنه يختلط بما قبله ، فيصير الحرفان كالحرف الواحد ، فلذلك استحبوا الإضافة في المكنيِّ فقالوا : هما ضاربان زيداً ، وضاربا زيداً » .

وقال سيبويه في الكتاب : « واعلم أن حذف النون والتنوين لازمٌ مع علامة المضمر غير المنفصل ؛ لأنه لا يتكلم به مفرداً حتى يكون متَّصلا بفعل قبله أو باسم فيه ضمير ، فصار كأنه النون والتنوين في الاسم ؛ لأنهما لا يكونان إلا زوائد ، ولا يكونان إلا في أواخر الحروف » .

وبعد أن ذكر الفرق بين المضمر والاسم الظاهر قال عن المضمر : « وقد جاء في الشِّعر ، وزعموا أنه مصنوع ، ومنه :

هُمُ القائلُونَ الخيْرَ والآمِرُونَهُ إذا ما خَشَوْا مِن مُحْدَثِ الأمْرِ مُعْظَما

وقال :

ولَمْ يَرْتَفِقْ والنَّاسُ مُحْتَضِرُونَهُ جميعاً وأَيْدِي المعْتَفِينَ رَوَاهِقُــهْ

وقد أنكر أبو حاتم هذه القراءة ، وقال النحاس : « هو لحن لا يجوز » لأنه جمع بين النون والإضافة ، وقال غيرهما : هذا شاذٌّ خارج عن كلام العرب ، وما كان مثل هذا لم يحتَجَّ به في كتاب الله عزَّ وجلَّ ، والذي دافع عن هذه القراءة هو أبو الفتح عثمان بن جني في كتاب المحتسب ، وهو ما ذكره ابن عطية هنا ، ومعنى تنزيل الفاعل منزلة الفعل المضارع أن يجري (مُطْلِعُونِ) مجرى (يُطْلِعُونِ) ، كما قال بعضهم :

أرَيْتَ إنْ جِئْتُ بهِ أمْلُودَا مُرَجَّلا ويَلْبَسُ البُرُودَا

أقَائِلُنَّ أحْضِرِ الشُّهُودَا

فقد أكَّد اسم الفاعل بالنون ، وإنما يأتي ذلك في الفعل .

وقرأ الجمهور : [فَاطَّلَعَ] موصولة الأَلف مشدَّدة الطاءِ المفتوحة ، وقرأ أَبو عمرو في رواية الحسين بضم الأَلف وسكون الطاءِ خفيفة وكسر اللام ، وهي قراءَة أَبي البرهسم . قال الزجاج : هي قراءَة من قرأ : [مُطْلِعُونِ] بكسر النون ، ورُوي أَن لأَهل الجنة كوى وطاقات يشرفون منها على أَهل النار إذا شاءُوا على جهة النعمة والعبرة ؛ لأَن لهم في عذاب أَهل النار وتوبيخهم سروراً وراحةً ، حكاه الرماني عن أَبي عليٍّ .

و «سَوَاءُ الْجَحِيم» وسَطُه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والناس ، وسُمِّي بسواءِ الجحيم لاستواءِ المسافة منه إِلى الجوانب ، والجحيمُ متراكمُ جمْر النار ، ورُوي عن مطرف بن عبد الله ، وخُلَيْد العَصَري[١] أَنه رآه قد تغيَّر حِبَرَهُ وسِبْرَه[٢] ، أَي : تبدَّلت حالُه ، ولولا ما عرَّفه اللهُ إِيَّاهُ لم يميِّزه ، فقال له المؤمن عند ذلك : ﴿تَاللهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ ، أَي : تهلكني بإِغوائك ، والرَّدى : الهلاكُ ، ومنه قول الأَعشى :

أَفي الطَّوْفِ خِفْتِ عَلَيَّ الــرَّدَى وَكَمْ مِنْ رَدٍ أَهْلَهُ لَمْ يَرِمْ[٣]

---

(١) خُلَيْد بن عبد الله العصري ، بفتح العين والصاد ، أبو سليمان البصري ، يقال : إنه مولى لأبي الدرداء ، صدوق ، يرسل ، من الرابعة . (تقريب التهذيب) .

(٢) سِبْرَه : أصله وهيئته ولونه ، وأمَّا حِبَره فلعله أراد بها هيئته وزينته وما هو فيه من نِعْمه .

(٣) البيت من قصيدة قالها الأعشى يمدح قيس بن معديكرب ، والشاعر يخاطب ابنته في البيت ، وقد كانت تخشى عليه الهلاك لطول تطوافه وكثرة أسفاره ، فيقول لها: أتخافين =

وفي مصحف ابن مسعود : «إن كدتَّ لَتُغْوِينِ» بالواو ، من الغَيِّ ، وذكرها أَبو عمرو الداني بالراءِ ، من الإِغراءِ ، والتَّاءُ في هذا كله مضمومة .

ورفع ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالابتداءِ ، وهو إعراب ما كان بعد (لولا) عند سيبويه ، والخبر محذوف تقديره : تداركته ونحوه ، و [ٱلْمُحْضَرِينَ] معناه : في العذاب (١) .

وقولُ المؤمن : ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ إلى قوله : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يحتمل أَن يكون مخاطبة لرفقائه ، لَمَّا رأَى ما نزل بقرينه ونظر حاله في الجنة وحال رفقائه قدَّر النعمة قدرها ، فقال لهم — على جهة التوقيف — ما قال ، ويجيءُ — على هذا التأْويل — قوله : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وما بعده متَّصلًا بكلامه ، خطاباً لرفقائه . ويحتمل أَن تكون ﴿أَفَمَا نَحْنُ﴾ إلى قوله [بِمُعَذَّبِينَ] مخاطبة لقرينه على جهة التوبيخ ، كأَنه يقول : أَين الذي كنت تقول من أَنَّا نموت وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب ؟ ويكون قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا

= عليَّ الموت لذلك ؟ فانظري كم إنسان يناله الردى فيموت وهو مقيم لا يبرح ديار أهله ، إنهم كثيرون . والطَّوْفُ : التطوافُ والسفر الكثير ، والرَّدى : الهلاك ، وهو موضع الشاهد . قال أبو عبيدة : «يقال : أرديْتُه : أهلكته ، ورَدِيَ هو : هَلَكَ» .

(١) قال الفراءُ : معناه : لكنتُ معك في النار مُحْضَراً ، وقال الماوردي : «أُحْضر لا تستعمل مطلقاً إلا في الشَّر» ، قال الله تعالى : ﴿وَإِن كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ، وقال : ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ ، وقال : ﴿شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ وهذا يؤيد كلام الماوردي .

لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إلى قوله : ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون من خطاب المؤمن لقرينه ، وإليه ذهب قتادة ، ويحتمل أن يكون من خطاب الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وأُمَّته ، ويَقْوى هذا لأن قول المؤمن ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُونَ﴾ والآخرة ليست بدار عمل - يقْلَقُ إلَّا على تجوُّز ، كأَنه يقول : لمثل هذا كان ينبغي أن يعمل العاملون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

الأَلف من قوله تعالى : [أَذَٰلِكَ] للتقرير ، والمراد تقرير قريش والكفار ، وجاءَ ﴿خَيْرٌ نُزُلاً﴾ بلفظ التخيير بين شيئين لا اشتراك بينهما من حيث كان الكلام تقريراً ، والاحتجاج يقتضي أن يوقف المتكلم خصمه على قسمين أَحدهما فاسد ، ويحمله بالتقرير على اختيار

أَحدهما ، ولو كان الكلام خبراً لم يَجُزْ ولا أَفاد أَن يقول : الجنَّةُ خير من شجر الزقوم . وأَمَّا قوله تعالى : ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾(١) فهذا على اعتقادهم في أَن لهم مُسْتَقَرًّا خيراً ، وقد تقدم إِيعابُ (٢) هذا المعنى . وفي بعض البلاد الجدبة المجاورة للصحاري شجرةٌ مُرَّة مسمومة لها لبنٌ إِن مسَّ جسم أَحد تورَّم ومات منه في أَغلب الأَمر ، تُسَمَّى شجرة الزَّقُّوم ، والتَّزَقُّم في كلام العرب : البَلْع على شدَّة وجهد .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ ، قال قتادة ، ومجاهد ، والسدي : يريد أَبا جهل ونُظراءَه ، وذلك أَنه لما نزلت الآية قال الكفار : وكيف يخبر محمد عن النار أَنها تُنبت الأَشجار وهي تأْكلها وتُذهبها ؟ ففتنوا بذلك أَنفسهم وجهلةَ أَتباعهم ، وقال أَبو جهل : إِنما الزَّقُّوم التَّمر بالزبد ، ونحن نتزقمه . وقوله : ﴿فِي أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ يعني ملاصق أَساسها الذي لها كالجدران ، وفي قراءَة ابن مسعود : «إِنها شجرة نابتة في أَصل الجحيم» .

قوله : ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ﴾ اختلف الناسُ في معناه ـ فقالت فرقة : شُبِّه بثمر شجرة معروفة يقال لها : رُءُوس الشياطين ، وهي

---

(١) من الآية (٢٤) من سورة (الفرقان) .

(٢) وَعَبَ وأَوْعَبَ واسْتَوْعَبَ الشيءَ : أخذه أجمع ولم يدع منه شيئاً ، والمراد هنا : تَقَدَّم استيفاءُ كلِّ جوانب المعنى .

بناحية اليمن ، يقال لها : أَسْتَن ، وهي التي ذكر النابغة في قوله :

. . . . . من أَسْتَنٍ سُودٍ أَسافِلُهُ . . . . (١)

ويقال : إنه الشجر الذي يقال له : الصَّوْم ، وهو الذي يعني ساعدة ابن جُؤَيَّة في قوله :

مُوَكَّلٌ بِشُدُوفِ الصَّوْمِ يَرْقُبُهَا ... مِنَ المَعَازِبِ مَخْطوفُ الْحَشَا زَرِمُ (٢)

---

(١) هذا جزء من بيت قاله النابغة في ميميَّة مطلعها :

بانَتْ سعادُ وأَمْسَى حَبْلُهَا انْجَذَمَا ... واحْتَلَّتِ الشَّرْعَ فالأجْزَاعَ مِنْ إضمَا

والبيت بتمامه :

تَحيدُ مِنْ أَسْتَنٍ سُودٍ أَسَافِلُهُ ... مَشْيَ الإماءِ الْغَوَادي تَحْمِلُ الحُزُمَا

وهو في وصف أتانٍ ، و (تَحيدُ) معناه : تَتَجَنَّب ، وأَسْتَنٍ : شجريسمَّى كذلك ، واحدها : أَسْتَنَة بفتح التاء ، وهو شجر قبيح الشكل ، وقبيح منظر الثمرة ، ويقال لثمره : رءُوس الشياطين ، وقد شبَّه هذا الشجر الذي تَتَجَنَّبه الأتان بالإماء السود يمشين وهن يحملن أحزمة الحطب الذي جمعنه من الصحراء ، وجملة (مَشْيَ الإماءِ ...) حالٌ من (أَسْتَنٍ) وقد رُوي البيت : (أسافِلُهَا مِثْلَ الإماءِ) ، وقد وقع هذا البيت في هذاا لموضع من القصيدة في ديوان النابغة من رواية الأصمعي ، وفي شرح البطليوسي ، فيكون (تحيد) بالتَّاء راجعاً لكلمة (الحرقاء) في قوله قبل هذا البيت : (وأَقْطَعُ الخَرْقَ بالحرقاءِ) ، ولكنه في رواية أُخرى جاءَ بعد موضعه هذا بثلاثة أبيات ، وعلى ذلك يكون (يحيد) بالياء لأن الكلام يعود على مذكَّر .

(٢) البيت في اللسان (صَوَم) ، قال : « والصَّوْم : شَجَرٌ على شكل شخص الإنسان ، كريهُ المنظر جداً ، يقال لثمره : رءُوس الشياطين ، ويعني بالشياطين الحيَّات ، وليس له ورق ، وقال أبو حنيفة : للصوم هدَبٌ ، ولا تَنْتَشر أفنانه ، ينبت نبات الأثل ولا يطول طوله ، وأكثر منابته بلاد بني شبانة ، قال ساعدة بن جُؤَيَّة : مُوَكَّلٌ ... البيت » . والشُّدوف : الشخوص ، فهو مُوَكَّلٌ بها ، يرقبها من الرعب يحسبها ناساً . ومِنَ الْمَعَازب : من حيث يعزُب عنه الشيءُ ، أي : يتباعد . ومخْطوف الْحَشَا : ضامره ، وزَرِمٌ : لا يثبُتُ في مكان .

وقالت فرقة : شبه برءُوس صنف من الحيَّات يقال له : الشياطين ، وهي ذات أَعراف ، ومنه قول الشاعر :

عَنْجَرِدٌ تَحْلِفُ حِينَ أَحْلِفُ كَمِثْلِ شَيْطَانِ الْحَمَاطِ أَعْرَفُ(١)

وقالت فرقة : شبَّه بما استقر في النفوس من كراهة رءُوس الشياطين وقُبحها وإِن كانت لم تُرَ ، وهذا كما تقول للأَشعث المنتفش الشعر الكريه المنظر : هذا وجه شيطان ، ونحو هذا قول امرئ القيس الكندي :

أَيَقْتُلُني وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ ؟(٢)

فإِنما شبّه بما استقر في النفوس من هيئتها .

(١) هذان البيتان من مشطور الرَّجز ، وهما في اللسان (عَنْجرد) ، واستشهد بهما الفراءُ في (معاني القرآن) ، والعَنْجَرِد : المرأة الخبيثة سيِّئة الخُلُق ، وقيل : السليطة ، والحَمَاطُ : جنسٌ من الحيَّات تسمِّيه العربُ : شيطان الحَمَاط ، يقال : شيطان حماطٌ ، كما يقال : ذئبٌ غضى ، وتَيْسٌ حلب ، وأَعْرَف : له عُرْفٌ . والشاعر يشبِّه هذه المرأة الخبيثة بحَيَّة لها عرفٌ .

(٢) البيتُ من لاميَّته التي يتغزل فيها ويصف مغامراته وصيدَه وسَعْيه إلى المجد ، والحديث في البيت عن بَعْل المعشوقة التي أحبته وهجرت زوجها ، فقال عنها وعنه : « فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بَعْلها عليه القتام ... » ، وهو في البيت يستنكر أن يستطيع هذا الزوج قتله ؛ لأنه يجيد استعمال السيف والنبال ، أما هذا الزوج فكما قال امرؤ القيس بعد ذلك : « ولَيْسَ بِذِي رُمْح ، وليس بذي سيف ، وليس بنَبَّال » . والمشرفي هو السيف ، والمسنونة الزرق : النِّبال ، وقد شبهها بأنياب الأغوال ، والغول غير معروفة ، وهذا النوع من التشبيه يسمَّى التشبيه الوهمي ؛ لأن الشاعر يتوهَّم شيئاً في نفسه ، أو يتصور له صورة وإن كان غير مرئي ، وتصبح هذه الصورة المتوَهَّمة مرسومة في النفوس ، ومن ذلك أن العرب يتصورون كل قبيح في صورة الشيطان ، ويتصورون كل حَسَن في صورة المَلَك ، وقد أخبر سبحانه وتعالى عن صواحب يوسف بقوله : ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَراً إِنْ هَـٰذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ، وقد يسمَّى هذا التشبيه التشبيه التَّخييلي ؛ لأن صورة المشبَّه به متخيلة . والبيت في اللسان (غول) ، و (مجمع البيان) ، و (مختار الشعر الجاهلي) ، و (روح المعاني) ، والديوان .

و «الشَّوْبُ» : المزج والخلْط ، قاله ابن عباس ، وقتادة . وقرأ شيبان النحوي (١) بضم الشين ، قال الزجّاج : فَتْحُها المصْدَرُ وضمُّها الاسمُ . و «الحميم» : السخن جدًّا من الماء ونحوه ، وقد يريد به ها هنا شرابهم الذي هو طينة الخبال وما ينماع منهم ، هذا قول جماعة من المفسرين .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون لهم انتقال أجسادٍ في وقت الأكل والشرب ويرجعون إلى معظم الجحيم ، ذكره الرمانيُّ ، وشبَّهه بقوله تعالى : ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ (٢) ، ويحتمل أن يكون الرجوع إنما هو من حال ذلك الأكل المعذب إلى حال الاحتراق دون أكْل ، وبكلٍّ احتمالٍ قيل . وفي مصحف ابن مسعود : «وأنَّ مُنْقَلَبَهم لَإِلَى ٱلْجَحِيم» ، وفي كتاب أبي حاتم عنه : «مَقِيلَهُمْ» ، من القائلة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ إلى آخر الآية تمثيل لقريش ، و [يُهْرَعُونَ] ، قال قتادة ، والسدي ، وابن زيد : معناه : يسرعون كأنهم يساقون بِعَجَلَةٍ ، وهذا تكسُّبهم للكفر وحرصهم عليه ،

---

(١) هو شيبان بن عبد الرحمن التميمي ، مولاهم ، النحوي ، أبو معاوية ، البصري ، نزيل الكوفة ، وقد نُسب إلى نحو بن شمس الأزْدي ، ثقة ، صاحب كتاب ، ويقال إنه منسوب إلى «نحوة» بطن من الأزْد ، وليس إلى علم النحو ، من السابعة ، مات سنة ١٦٤هـ. (تقريب التهذيب ، واللباب ، والاشتقاق) .

(٢) الآية (٤٤) من سورة (الرحمن) .

والإِهْراعُ : سيْرٌ شديد ، قال مجاهد ، كهيئة الهرولة وفيه شبه رعدة ، وكأنه أيضاً سير الفارغ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

مثَّل تعالى لقريش في هذه الآية بالأُمم التي ضلَّت قديماً ، وجاءها الإِنذارُ ، وأهلكها الله تعالى بعدله ، وقوله : ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ يقتضي الإِخبارُ بأنه عذَّبهم ، ولذلك حسُن الاستثناءُ في قوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ .

ونداءُ نوح عليه السلام قد تضمن أشياءَ : منها الدعاءُ على قومه ، وسؤال النجاة ، وطلب النُّصرة ، وفي جميعها وقعت الإِجابة . وقوله تعالى : ﴿ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ يقتضي الخبر بأن الإِجابة كانت على أكمل ما أراد نوح عليه السلام . وَ « الكَرْبُ العَظِيمُ » ، قال السُّدي :

هو الغرق ، ومن الكرب تكذيب الكفرة ، وركوب الماءِ وهَوْله ، قال الرُّماني : الكربُ : الخبر الثقيل على القلب .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ، وقتادة : أَهل الأَرض كلهم من ذرية نوح ، وقال الطبري : العربُ من أَولاد سام ، والسودانُ من أَولاد حام ، والتُّرك والصَّقْلب وغيرهم من آل يافث . ورُوي عن سَمُرة بن جندب أَن النبي صلى الله عليه وسلم قرأَ هذه الآية وقال : (سام وحام ويافث)(١) ، وقالت فرقة : إن الله أَبقى من ذرية نوح ، ومَدَّ نسْلَه ، وبارك في ضِئْضِئِهِ(٢) ، وليس الأَمر أَن أَهل الدنيا انحصروا إلى نسله ، بل

---

(١) أخرجه الترمذي وحسَّنه ، وابنُ جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه . وأخرج ابن سعد ، وأحمد ، والترمذي وحسَّنه ، وأبو يَعْلى ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصحَّحه ، عن سَمُرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم) . (الدر المنثور) .

(٢) الضِّئْضِئُ : الأصل والمعدن ، وفي الحديث الشريف أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُقَسِّم الغنائم ، فقال له : اعْدِلْ فإنَّكَ لم تعدل ، فقال : (يخرج من ضِئْضِئِي هذا قومٌ يقرءُون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة) ، أي : من أصله ونَسْله ، وقال الكميت :

وَجَدْتُكَ في الضِّنْءِ مِنْ ضِئْضِئي أَحَلَّ الأكابِرُ مِنْهُ الصِّغَارَا

وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال : أَعطيتُ ناقة في سبيل الله ، فأردتُ أن أشتري من نَسْلها ــ أَوْ قال : مِنْ ضِئْضِئِهَا ــ فسألتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : (دَعْها حتى تجيءَ يوم القيامة هي وأولادها في ميزانك) .

في الأُمم من لا يرجع إليه ، والأَول أَشهر عن علماءِ الأُمة ، وقالوا : نوح هو آدم الأَصغر .

وقوله تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ معناه : ثناءً حسناً جميلاً باقياً آخر الدهر ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد ، والسدي ، وقوله : [سَلَامٌ] - على هذا التأْويل - رفع بالابتداءِ مستأْنف ، سلَّم الله به عليه ليقتدي بذلك البشر ، قاله الطبريُّ : هذه أَمَنَةٌ لنوح في العالمين أَن يذكره أَحد بسوءٍ .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

هذا جزاءُ ما صبر طويلاً على أَقوال الكفرة الفجرة .

وقال الفراءُ وغيره من الكوفيِّين : قوله : [سَلَامٌ] الآية ، جملةٌ في موضع نصب بـ [تَرَكْنَا] ، وهذا هو المتروك عليه ، فكأَنه قال : وتركنا على نوح تسليماً ، يُسلَّم عليه إلى يوم القيامة ، وفي قراءَة عبد الله (١) : [سَلَاماً] نصباً بـ [تَرَكْنَا] ، صلَّى الله على نوح وعلى آله وسلَّم تسليماً ، وشرَّف وكرَّم ، وعلى جميع أَنبيائه .

و ﴿فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ معناه : في الباقين غابر الدهر ، والقراءَة بكسر الخاءِ ، وما كان من إهلاكٍ فهو بفتحها .

---

(١) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

قوله تعالى: [كَذَٰلِكَ] إشارة إلى إنعامه على نوح بالإجابة كما اقترح ، وأثنى تعالى على نوح بالإحسان لصبره على أذى قومه ومطاولته لهم ، وغير ذلك من عبادته وأفعاله صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ يقتضي أنه أغرق قوم نوح وأُمَّته ومكذِّبيه ، وليس في ذلك نصٌّ على أن الغرق عمَّ جميع أَهل الأَرض ، لكن قد قال به جماعة من العلماءِ ، وأُسندت به أَحاديث أَنه لم يبق إلَّا من كان معه في السفينة ، وعلى هذا يترتب القول بأَن الناس اليوم من ذريته ، وقالوا : لم يكن الناس يومئذ بهذه الكثرة ؛ لأَن عهد آدم عليه السلام كان قريباً ، وكانت دعوة نوح عليه السلام ونبوته قد بلغت جميعهم لطول المدة واللُّبث فيهم ، وكان الجميع كفرة عَبَدَة أَوثان لَمْ يَنْسُبهم الحقُّ إلى نفسه ، فلذلك أَغرق جميعهم .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ شيعَتِه ﴾ ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي : الضمير عائد على نوح عليه السلام ، والمعنى : في الدِّين والتوحيد ، وقال الطبري وغيره عن الفراءِ : الضمير عائد على محمد صلى الله عليه وسلم ، والإِشارة إِليه . وذلك كلُّه محتمل ؛ لأَن «الشِّيعة» معناها : الصنف الشائع الذي يُشبه بعضه بعضاً ، والشِّيَعُ : الفِرَق ، وإِن كان الأَعرف أَن المتأَخر في الزَّمن هو شيعة للمتقدم ، ولكن قد يجيءُ في الكلام عكس ذلك ، قال الشاعر :

وَمَالِيَ إِلَّا آلُ أَحْمَدَ شِيعَــــةً وَمَالِيَ إِلَّا مَشْعَبُ الْحَقِّ مَشْعَبُ(١)

فجعلهم شِيعَةً لنفسه ، وقوله : ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيم ﴾ ، قال المفسرون : يريد : من الشَّكِّ والشرك وجميع النقائص التي تلحق قلوب بني آدم كالغِلِّ والحسد والكِبْر ونحوه ، قال عروة بن الزبير : لم يلعن شيئاً قَطُّ .

قوله تعالى : ﴿ أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ ٱللهِ تُرِيدُونَ ﴾ ، [أَئِفْكاً] استفهامٌ بمعنى التقرير ، أَي : أَكَذِباً ومُحالاً آلهةً دون الله تريدون ؟ ونصب

---

(١) البيت للكُمَيْت ، وهو من قصيدته المشهورة : «طربتُ وما شَوْقاً إلى البيضِ أَطْرَبُ» ، وأَحمد هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، والشيعة : جماعة الرجل وأهله وأنصاره وأتباعه ، والكميت جعل آل أحمد شيعة له وهم متقدمون عليه ، فعكس المعنى المتعارف عليه من أن يكون المتأخر شيعة للمتقدم ، والمتأخر هنا هو الشاعر ، والمَشْعَب : الطريق ، ومشْعب الحق : طريقه المفرِّق بينه وبين الباطل ، وقد استشهد صاحب اللسان بهذا البيت على معنى المَشْعَب في (شَعَبَ) .

[آلِهَةً] على البدل من [إِفْكاً] ، وسهلت الهمزة الأَصلية من الإِفك .
﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾ توبيخٌ وتحذيرٌ وتوعُّدٌ .

ثم أَخبر تعالى عن نظرة إبراهيم عليه السلام في النجوم ، رُوي أَن قومه كان لهم عيد يخرجون إليه ، فدعوا إبراهيم عليه السلام للخروج معهم ، فنظر حينئذ واعتذر بالسقم ، وأَراد البقاءَ خلافهم إلى الأَصنام ، وقال ابن زيد ، عن أَبيه : أَرسل إليه ملكُهم أَن غداً عيدٌ فاحضر معنا ، فنظر إلى نجم طالع فقال : إن هذا يطلع مع سقمي ، فقالت فرقة : معنى ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ أَي : فيما نَجَم إليه من أَمر قومه وحاله معهم ، وقال الجمهور : نظر في نجوم السماءِ ، ورُوي أَن علم النجوم كان عندهم منظوراً فيه مُستَعملاً ، فأَوهمهم هو من تلك الجهة ، وذلك أَنهم كانوا أَهل رعاية وفلاحة ، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إلى نظر في النجوم .

واختلف في قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ـ فقالت فرقة : هي كذبة في ذات الله ، أَخبرهم عن نفسه أَنه مريض ، وأَن الكوكب أَعطاه ذلك ، قال ابن عباس وغيره : أَشار لهم إلى مرض وسقم يُعدي كالطاعون ، ولذلك تَوَلَّوْا مُدْبرين ، أَي : فارِّين منه . وقال بعضهم : بل تَوَلَّوْا مُدْبرين لكفرهم به واحتقارهم لأَمره ، وعلى هذا التأْويل ـ في أَنها كذبة ـ يجيءُ الحديث : (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث

كذبات : قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ (١) ، وقوله في سارَةَ : هي أُخْتي) (٢) .

وقالت فرقة : ليست بكذبة ، ولا يجوز الكذب عليه ، ولكنها من المعاريض ، أَخبرهم بأَنه سقيم في المال ، أَو على عرف ابن آدم ؛ لأَن ابن آدم لا بُدَّ أَن يسقم ضرورة . وقيل – على هذا – : أَراد : إِني سقيم النفس من أُموركم وكفركم ، فظهر لهم من كلامه أَنه

(١) من الآية (٦٣) من سورة (الأنبياء) .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء والنكاح ، ومسلم في الفضائل ، وأبو داود في الطلاق ، والترمذي في تفسير سورة الأنبياء ، وأحمد ٢–٤٠٣ ، ولفظه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قطُّ إلا ثلاث كذبات ، ثنتين في ذات الله ، قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، وقوله : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ، وواحدة في شأن سارَة ، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة ، وكانت أحسن الناس ، فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك ، فإن سألك فأخبريه أنك أُختي ، فإنك أُختي في الإسلام ، فإني لا أعلم أحداً في الأرض مسلماً غيري وغيرك ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار ، أتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأةٌ لا ينبغي لها أن تكون إلا لك ، فأرسل إليها ، فأتى بها ، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة ، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها ، فقُبضت يده قبضة شديدة ، فقال لها : ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ، ففعلت ، فعاد فقبضت أشدَّ من القبضة الأولى ، فقال لها مثل ذلك ففعلت ، فعاد فقُبضت أشدَّ من القبضتين الأوليَيْن ، فقال : ادعي الله أن يطلق يدي ، فلَكِ الله ألاَّ أضرَّك ، ففعلت وأُطلقت يده ، ودعا الذي جاء بها فقال له : إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان ، فأخرجها من أرضي وأعْطِها هاجَرَ ، قال : فأقبلت تمشي ، فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف فقال لها : مَهْيَمْ ؟ قالت : خيراً ، كفَّ الله يد الفاجر ، وأخْدَم خادماً . قال أبو هريرة : فتلك أُمُّكم يا بني ماء السماء) اهـ . وقوله : (مَهْيَم) معناه : ما شأنك وما خبرك ؟ وقولها : (وأخْدَمَ خادماً) معناه : وهبني خادماً ، وهي هاجر . و (بني ماء السماء) هم العرب ، قيل لهم ذلك لخلوص نسبهم وصفائه .

أَراد سقماً بالجسم حاضراً ، وهكذا هي المعاريض . وهذا التأْويل لا يردُّه الحديث وذكر الكذبات ؛ لأَنه قد يقال لهذا كَذِبٌ على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر والكذبُ الذي هو قصد قول الباطل والإِخبارُ بِضِدٍّ ما في النَّفْس بغير منفعة شرعية هو الذي لا يجوز على الأَنبياءِ عليهم الصلاة والسلام .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

« رَاغَ » معناه : مالَ ، ومنه قول عدِيٍّ بن زيد :

حَيْثُ لا يَنْفَعُ الرِّيَاغُ وَلَا يَنْـ ـفَعُ إِلَّا الْمُصَادِقُ النِّحْرِيرُ (١)

(١) البيت من قصيدته المعروفة باسم « عبرة الدهر » ، والتي قالها وهو في السجن ، وتحدث فيها عن صروف الدهر والموت الذي لا تؤجِّلُه قوة ، والتي بدأها بقوله : « أَرْوَاحٌ مُودِّعٌ أَمْ بُكُورُ لَكَ ... » ، ويروى البيت : « يوم لا ينفع الرَّوَاغُ » بالواو ، وهي الأَصْلُ ، وفي اللسان (رَوَغَ) أنه يقال : رَوَاغَة ، ورِيَاغَة ، وأَصْلها رِوَاغة صارت الواو ياءً للكسرة قبلها ، ومعنى الرِّيَاغ : المَيْلُ ، وهي موضع الشاهد ، والنِّحْرير : الحاذق الماهر العاقل المجرِّب ،=

وقوله : ﴿أَلَا تَـأْكُلُونَ﴾ هو على جهة الاستهزاءِ بِعَبَدَة تلك الأَصنام ، ورُوي أَن عبادتهم كانت ترك الطعام في بيوت الأَصنام ، ويعتقدون أَنها تصيب منه شميماً ، ونحو هذا من المعتقدات الباطلة ، ثم كان خدمة البيت يـأْكلونه . فلما دخل إِبراهيم عليه السلام وقف على الأَكل والنطق والمخاطبة للأَصنام بقصد الاستهزاءِ بعابديها ، ثم مال عند ذلك إِلى ضرب تلك الأَصنام بفـأْسٍ حتى جعلها جُذَاذاً .

واختلف في قوله : [بِالْيَمِينِ] - فقال ابن عباس رضي الله عنهما : يُمنى يديه ، وقيل : أَراد : بِقُوَّته ؛ لأَنه يجمع يديه بالفـأْس ، وقيل : أَراد بيمين القسم في قوله : ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾(١) ، و [ضَرْباً] نصب على المصدر بفعل مضمر من لفظه ، وفي مصحف عبد الله : «صَفْقاً بِالْيَمِينِ» .

والضمير في قـوله : [فَأَقْبَلُوا] لكفار قومه ، وقـرأَ الجمهور : [يَزِفُّونَ] بفتح الياءِ ، من : زَفَّ إِذا أَسْرَع ، وزفَّت الإِبل إِذا أَسرعت ،

= وقيل : هو الرجل الفَطِن المُتْقِن البصير في كل شيءٍ . ويروى البيت : «وَلا يُقْدِمُ إلا المُشَيَّعُ النِّحْرير» بدلا من «ولا ينفع إلا المصادقُ النِّحرير» . ومعنى البيت : في ذلك اليوم العصيب ، يوم يأتيني الموت والهلاك لا تنجعُ الحيلة والمراوغة ، ولا يصمد إلا الشجاع الفطن الصادق ، في حين يتخاذل الجبان الفاقد للعزم .

(١) من الآية (٥٧) من سورة (الأنبياء) .

ومنه قول الفرزدق :

فَجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ قَبْلَ إِفَالِهَا يَزِفُّ وجاءَتْ خَلْفَهُ وَهِيَ زُفَّفُ(١)

ومنه قول الهذليِّ :

وزَفَّتِ الشَّولُ مِنْ بَرْدِ الْعَشِيِّ كَمَا زَفَّ النَّعامُ إِلى حَفَّانِهِ الرُّوحُ (٢)

وقرأ حمزة وحده : [يُزِفُّونَ] بضم الياءِ ، من : أَزَفَّ إِذا دخل في الزَّفيف ، وليست بهمزة تعدية ، هذا قول ، وقال أَبو عليٍّ : معناها :

---

(١) هذا البيت من قصيدة الفرزدق التي مطلعها: «عـزَفْـتَ بأعْشاش وما كدتَ تعزف» ، وهو في الديوان ، وفي اللسان (قـرَعَ) ، والقـرِيعُ من الإبل : الفـحْلُ الذي تصوّى للضراب ، وقيل : الذي يأخذ بذراع الناقة فيُنيخها ، وسُمِّي قريعاً لأنه يقرع الناقة ، والشَّوْل : الناقة التي قَلَّ لبنها وخفت بطنها من الأولاد ، والإفالُ: جمع أَفيلٍ وأَفيلَةٍ ، وهو الفَصيلُ ، وقال أبو عبيدة : الإفالُ : نباتُ المخاض ، والزَّفيف : سُرْعة المشي مع تقاربٍ وسكون ، وقيل : هو أوّل عَدْو النعام ، والبيتُ يصف قطيعاً من الإبل ، في أوله الفحل الذي أَقبل مُسْرِعاً قبل الإفال، وجاءت هي بعده تُسرع في المشي مثل سرعته .

(٢) البيت من قصيدة له يقول في مطلعها مصوِّراً الهموم التي جاءته بالليل ، وجعلت أشجار الصَّاب كأنها مشقوقةٌ في عينه :

نامَ الخَلِيُّ وبِتُّ اللَّيْلَ مُشْتَجِراً كأنَّ عَيْني فيها الصَّاب مَذْبـوحُ

والزفيف : مشيٌ سريع في تقارب خطْوٍ ، والشَّوْل : الإبل التي شالَ لبنها ، أي : خَفَّ أو قَلَّ ، وخفَّت بطونها من الأولاد ، وحفَّانُ النَّعام : فراخُه ، وكلمة (الرُّوحُ) صفة للنَّعام ، وتقدير الكلام : كما زفَّ النَّعامُ الرُّوحُ إلى فراخه ، يقال : في النَّعامة رَوَحٌ ، وهو سَعَةٌ بين الرجلين ومَيْل إلى الخارج ، وكل نعامة رَوْحاءُ . يقول : إن الناقة الشَّوْلَ أسرعت من برد العَشِيِّ إلى مكان تستدفئُ فيه ، وإنها في سرعتها كالنَّعام الرُّوح الذي يُسرع إلى فراخه ، وخص الشَّوْلَ بقلَّة الصبر على البرد لخفَّة بطونها من أولادها ، ولو كانت بطونها ممتلئة بالحمل لكانت أصبر ، وقال الأخفش : «الرَّوَحُ: ميْلٌ إلى الجانب الوحشيِّ ، حُكي عن عمر رضي الله عنه أنه كان أَرْوَحَ ، يُحسب راكباً والرجال يمشون ، كأنه من رجال بني سَدُوسٍ» . والشاهد في البيت أن (زَفَّ) بمعنى : أسْرَع .

يحملون غيرهم على الزَّفيف ، وحكاه عن الأَصمعي ، وهي قراءَة مجاهد ، وابن وثَّاب ، والأَعمش . وقرأَ مجاهد ، وعبد الله بن زيد : [يَزِفُونَ] بفتح الياءِ وتخفيف الفاءِ من : وَزَفَ يَزِفُ ، وهي لغة منكرةٌ ، قال الكسائي : والفراءُ لا يعرفها بمعنى : زَفَّ . وقال مجاهد : الوَزِيفُ : السيلانُ .

وذهبت فرقة إِلى أَن [يَزِفُّونَ] معناه : يَتَمَهَّلُونَ في مشيهم كزفاف العروس ، والمعنى أَنهم كانوا على طمأْنينةٍ من أَن ينالَ أَحدٌ آلهتهم بسوءٍ لِعِزَّتهم ، فكانوا لذلك مُتَمَهِّلين . وزَفَّ بمعنى أَسْرَعَ هو المعروف .

ثم إِنَّ إِبراهيم عليه السلام قال لهم في محاورة طويلة قد تضمنتها الآية : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ، أَي : أَتجعلون إِلٰهاً مُعَظَّماً شيئاً صنعتموه من عود وحجر ، وعملتموه بأَيديكم ؟ وأَخبرهم بخبر لا يمكنهم إِنكاره وهو قوله : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ ، واختلف المتأَولون في قوله : ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ـ فذهب جماعة من المفسرين إِلى أَن [ما] مصدرية ، والمعنى : وأَعمالكُم ، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أَفعال العباد ، وذلك موافق لمذهب أَهل السُّنَّة في ذلك(١) . وقالت

(١) ومذهبُهُم أن الأفعال خَلْقٌ لله عزَّ وجلَّ واكتسابٌ للعباد ، وفي هذا إبطال مذاهب الجَبْرِية والقَدَرية ، وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن الله خالق كل صانع وصنعته) ، ذكر ذلك الثعلبي ، وخرَّجه البيهقي من حديث حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله عزَّ وجلَّ صنع كلَّ صانع وصنعته ، فهو الخالق ، وهو الصانع سبحانه) .

فرقة : هي بمعنى الذي ، وقالت فرقة : [ما] استفهام ، وقالت فرقة : هي نفيٌ ، بمعنى : وأنتم لا تعملون شيئاً في وقت خلقكم ولا قبله ، ولا تقدرون على شيءٍ ، والمعتزلة مضطرة إلى الزوال عن أن تجعل [ما] مصدرية .

و «البُنْيَانُ» قيل : كان في موضع إيقاد النار ، وقيل : بل كان للمنجنيق الذي رمي عنه ، وقد تقدم قصص نار إبراهيم عليه السلام ، وجعلهم الله الأَسْفَلِين بأَن غُلِبوا وذلُّوا ونالتهم العقوبات .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

قالت فرقة : إنَّ قول إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ كان بعد خروجه من النار ، وأنه أَشار بذهابه إلى هجرته من أَرض بابل حيث كانت مملكة نمروذ ، فخرج إلى الشام ، ويُرْوى : إلى بلاد مصر . وقالت فرقة : إن قوله : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ ليس مرادُه به الهجرة كما في آية أُخرى ، وإنما مراده لقاءُ الله بعد الاحتراق ؛ لكنَّه ظن أن النار

سيموت فيها ، فقال هذه المقالة قبل أَن يُطرح في النار ، فكأَنه قال : إني سائر بهذا العمل إلى ربِّي ، وهو سيهديني إلى الجنة ، نحا إلى هذا المعنى قتادة ، وللعارفين بهذا الذهاب تمثيل واحتجاج في الصفاءِ ، وهو مَحْمَلٌ حسن في ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ وحده ، والأَول أَظهر في نمط الآية عمَّا بعده ؛ لأَن الهداية معه تَتَرَتَّب ، والدعاءُ في الولد كذلك ، ولا يصح مع ذهاب الفناءِ .

قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ ، [مِنْ] للتَّبعيض ، أَي : ولداً يكون في عداد الصالحين ، وقوله : [فَبَشَّرْنَاهُ] ، قال كثير من العلماءِ ، منهم العباس بن عبد المطلب - وقد رفعه - وعليٌّ ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وكعب ، وعبيد بن عميرة : هي البشارة المعروفة بإِسحق ، وهو الذبيح ، وكان أَمر ذبحه بالشام ، وقال عطاءٌ ، ومقاتل : كان ببيت المقدس ، وقال بعضهم : بل بالحجاز ، جاءَ مع ابنه على البراق ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : والبشارة التي بعد هذه في هذه الآية هي بشارة نُبُوَّته ، كما قال في موسى عليه السلام : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[1] ، وهو كان قد وهبه له قبل ذلك ، وإِنما أَراد النُبُوَّة ، فكذلك هذه . وقالت هذه الفرقة في قول الأَعرابي : «يابْنَ الذَّبِيحَيْنِ» : أَراد إِسْحَقَ ، والعمُّ أَبٌ ، وقيل : إِنه أُمر بذبحه

(١) الآية (٥٣) من سورة (مريم) .

بعد ما وُلد له يعقوب ، فلم يتعارض الأَمر بالذبح مع البشارة بولده وَوَلَدِ وَلَدِه .

وقالت فرقة : هذه البشارة هي بإسماعيل عليه السلام ، وهو الذبيح ، وأَمْرُ ذبحه كان بالحجاز وبمنى ، وثَمَّ رمى إبراهيم عليه السلام الشيطانَ بالجمرات ، وقَبِل الكبش وسنَّ السُّنَن ، وهذا قول ابن عباس أَيضاً ، وابن عمر رضي الله عنهما ، وروي عن الشَّعبي ، والحسن ، ومجاهد ، ومعاوية بن أَبي سفيان ـ ورفعه معاوية إلى النبي صلى الله عليه وسلم ـ ومحمد بن كعب ، وبه كان أَبي رضي الله عنه يقول ، ويستدل بقول الأَعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم : « يابن الذبيحَيْن » وبقوله عليه الصلاة والسلام : (أَنا ابن الذبيحين) ، يعني إسماعيل وعبد الله أَباه ، ويَسْتَدِلُّ بأَن البشارة اقترنت من ورائه بيعقوب ، فلو قال له في صباه : اذبحه ، لَنَاقَضَ ذلك البشارةَ بيعقوب عليهم السلام ، ويَسْتَدِل بظاهر هذه الآية أَنه بُشِّر بإسماعيل وانقضى أَمْرُ ذبحه ، ثم بُشِّر بإسحق بعد ذلك ، وسمعتُه يقول : كان إبراهيم يجيءُ من الشام إلى مكَّة على البراق زائراً ويعود من يومه . وقد ذكر ذلك الثعلبي عن سعيد بن جبير ، ولم يذكر أَن ذلك على البراق ، وذكر القصة عن ابن إسحق وفيها ذكر البراق كما سمعت أَبي يحكي .

وذكر الطبري أَن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الذبيح إسماعيل ، وتزعم اليهود أَنه إسحق ، وكذبت اليهود ، وذكر أَيضاً أَن عمر بن

عبد العزيز رضي الله عنه سأَل عن ذلك رجلا يهوديًّا كان أَسلم وحسُن إسلامه فقال : الذبيح إسماعيل عليه السلام ، وإن اليهود تعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أَن تكون هذه الآيات والفضل واللهِ في أَبيكم .

و « السَّعْي » في هذه الآية العمل والعبادة والمعونة ، هذا قول ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد . وقال قتادة : السَّعْيُ على القدم ، يريد سعياً متمكناً ، وهذا في المعنى نحو الأَول ، وقرأَ الضحاك : « معه السَّعي وأَسر في نفسه حزناً » ، قال : وهكذا في حرف ابن مسعود ، وهي قراءَة الأَعمش ، وقوله : ﴿إِنِّي أَرَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ يحتمل أَن يكون رأَى ذلك بعينيه ، ورؤْيا الأَنبياءِ وحيٌ ، وعيَّن له وقت الامتثال ، ويحتمل أَنْ أُمر في نومه بذبحه فعبَّر هو عن ذلك ، أَي : إِني رأَيت في النوم ما يوجب أَن أَذبحك .

وقرأَ جمهور الناس : ﴿مَاذَا تَرَى﴾ بفتح التَّاءِ والرَّاءِ ، وقرأَ حمزة والكسائي : ﴿مَاذَا تُرِي﴾ بضم التاءِ وكسر الرَّاءِ ، على معنى : ما يظهر منك من جَلَد أَو جزع ، وهي قراءَة ابن مسعود ، والأَسود ابن يزيد ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش ، ومجاهد . وقرأَ الأَعمش ، والضحاك بضم الياءِ وفتح الراءِ ، على الفعل المجهول . فأَما الأُولى فهي من رؤْية الرأْي ، وهي رؤْية تتعدى إلى مفعول واحدٍ ، وهو ـ في هذه الآية ـ إما [ماذا] تحملهما على أَن تجعلهما بمنزلة

اسم واحد ، وإمَّا [ذَا] على أَن تجعلها بمعنى الذي ، وتكون [مَا] استفهاماً ، وتكون الهاءُ محذوفة من الصلة (١) . وأما القراءَة الثانية فيكون تقدير مفعولها كما مرَّ في هذه ، غير أَن الفعل فيها منقول من : رأى زيد الشيءَ ، وأَرَيْتُهُ إِيَّاه ، إِلَّا أَنه من باب أَعطيت ، فيجوز أَن يقتصر على أَحد المفعولين . وأَما القراءَة الثالثة فقد ضعفها أَبو علي ، وتَتَّجه على تحامل ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «افْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

قرأَ جمهور الناس : [أَسْلَمَا] أَي : أَنفسهما ، واستسلما لله . وقرأَ علي ، وعبد الله ، وابن عباس ، ومجاهد ، والثوري : [سَلَّمَا] ، والمعنى : فوَّضا إِليه في قضائه وقَدَره ، وانحملا على أَمره ، فأَسلم إِبراهيم ابنه ، وأَسلم الابن نفسه .

(١) ويكون التقدير : ما الذي تراه ؟

واختلف النحاة في جواب [لَمّا] – فقال الكوفيون : الجواب [نَادَيْنَاهُ] والواو زائدة . وقالت فرقة : الجواب : [تَلَّهُ] والواو زائدة كزيادتها في ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ (١) ، وقال البصريون : الجواب محذوف ، تقديره : فَلَمَّا أَسْلَمَا سَلَّمَا وتَلَّهُ ، هذا قول سيبويه والخليل ، وهو عندهم كقول امرئ القيس :

فَلَمَّا أَجزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وانْتَحَى   بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ (٢)

والتقدير : فلمَّا أَجزنا ساحة الحيِّ أَجَزْنا وانْتَحَى . وقال بعض البصريِّين

---

(١) من الآية (١٩) من سورة (النبأ) . والآية أُثبتت هكذا في الأصول ، والصواب أن يكون الاستشهاد بقوله تعالى في الآية (٧٣) من سورة الزُّمَر : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ﴾ فإنها هي التي قيل فيها : إن الجواب هو ﴿قَالَ لَهُمْ﴾ والواو زائدة ، كقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ﴾ ، أي : أَوْحَيْنَا ، وقوله تعالى : ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ﴾ ، أي : اقترب ، ونعتقد أن الخطأ من النساخ .

(٢) البيت من المعلَّقة ، وفيه مع ما قبله وبعده من أبيات يصور امرؤ القيس كيف خرج مع محبوبته من الحيِّ إلى حيث رتب أن يكونا وحدهما ، وأَجزتُ المكان وجُزْتُه إذا قطعتَه ، والسَّاحة : المكان الواسع ، أو الذي يقع بين الدُّور ، والحيُّ : القبيلة ، ولكن المراد هنا الحلَّة ، والانتحاءُ : الاعتماد على شيءٍ ، والبطن : مكان منخفض حوله أماكن مرتفعة ، والخبت : أرض مطمئنة ، والحِقْف : رملٌ مشرف معوج ، وجمعه أحقاف ، والعَقَنْقَل : الرمل المنعقد المتلبد . وقد أسند فعل الانتحاء إلى بطن خَبْت ، وهو في الحقيقة له ولمحبوبته ، وهذا ضرب من الاتساع في الكلام ، ومعنى البيت : فلمَّا خرجنا من بين بيوت القبيلة وصرنا إلى هذه الأرض طاب حالُنا وراق مجلسنا . وهذا على أن جواب (لَمَّا) محذوف مقدر ، وهو مذهب البصريين ، ولكن الكوفيين يرون أن الواو في (وَانْتَحَى) زائدة ، وكلمة (انْتَحَى) هي جواب (لَمَّا) . ولهذا استشهد المؤلف بالبيت .

الجواب محذوف ، وتقديره : فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِين أَجْزَلَ أَجْرهما ، أَو نحو هذا مما يقتضيه المعنى .

وقوله تعالى : [وَتَلَّهُ] معناه : وضعه بقوة ، ومنه الحديث (فَتَلَّهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده)(١) ، أَي : وضعه بقوَّة ، والتَّلُّ من الأَرض مأْخوذ من هذا ، كأَنه تُلَّ في ذلك الموضع ، و [لِلْجَبِينِ] معناه : لتلك الجهة وعليها ، كما يقولون في المثل : لليديْن وللفم ، وكما تقول : سقط لِشِقِّه الأَيسر ، وقال ساعدة بن جُؤَيَّة :

فَظَلَّ تَلِيلاً لِلْجَبِينَيْنِ (٢)

وهما ما اكتنف الجبهة من هُنا وهنا .

ورُوي في قصص هذه الآية أَن الذبيح قال لأَبيه : اشدُدْ رباطي بالحبل لئَلَّا أَضطرب ، واصرف بصرك عني لئلا ترحمني ، ورُدَّ وجهي نحو الأَرض ، قال قتادة : كبَّه لِفيه وأَخذ الشفرة ، والتَّلُّ

---

(١) الحديث في صحيح مسلم ، عن سهل بن سعد الساعدي ، وقد ذكره ابن الأثير في (النهاية) ، واستشهد به صاحب اللسان (تَلَلَ) ، ولفظه كما في مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُتِي بشراب فشرب منه ، وعن يمينه غلامٌ وعن يساره أشياخ ، فقال للغُلام: أتأذن لي أن أُعطي هؤلاء ؟ فقال الغلام : لا والله ، لا أُوثر بنصيبي منك أحداً ، قال : فتلَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده ، يريد : جعله في يده .

(٢) التَّلِيلُ كالمَتْلُول : الصريع ، يقال : تَلَّهُ يَتُلُّهُ تَلاًّ فهو متْلُولٌ وتَلِيلٌ : صَرَعَه ، والجبين : فوق الصُّدغ ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها ، وقال ابن سيدة : الجبينان حرفان مُكْتَنِفا الجبهة من جانبيها فيما بين الحاجبين مُصْعِداً إلى قصاص الشعر . والجَبِين مذكر لا غير .

للجبين ليس يقتضي أَن الوجه نحو الأَرض ، بل هي هيئة من ذُبح للقبلة على جنبه . وقوله : ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ مفسِّرة ولا موضع لها من الإِعراب .

وقوله تعالى : ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا﴾ يحتمل أَن يريد : بقلبك ، على معنى : كانت عندك رُؤْيا صادقة حقًّا من الله ، فعملت بحسبها حين آمنت بها واعتقدتَ صدقها ، ويحتمل أَن يريد : صدَّقت بعملك ما حصل عن الرؤْيا في نفسك ، كأَنه قال : قد وفَّيتها حقها من العمل . والرُّؤْيا اسم لما يُرى من قِبَل الله في المنام ، والحُلْم اسم لما يُرى مِن قِبَل الشيطان ، ومنه الحديث الصحيح (الرُّؤْيا من الله والحُلْم من الشيطان) (١) .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما عمل إبراهيم ، كأَنه يقول : إنا بهذا النوع من الإخلاص والطاعة نجزي المحسنين ، وقوله : ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يحتمل أَن يشير إلى ما في القصة من امتحان واختبار وستر معتقد ، فيكون [ٱلْبَلَاءُ] ـ على هذا المعنى ـ الاختبارُ بالشِّدَّة ، ويحتمل أَن يشير إلى ما في القصة من سرور بالفدية وإنقاذ من تلك الشدة في إنفاذ الذبح ، فيكون البلاءُ بمعنى النعمة ، وإلى كل احتمال

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير وبدء الخلق والطب ، ومسلم في الرؤيا ، وأبو داود في الأدب ، والترمذي في الرؤيا ، وابن ماجه ، والدارمي ، ومالك في الموطأ ، كلُّهم في الرؤيا ، والإمام أحمد في المسند (٥ـ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٠) . عن أبي قتادة .

قد أشارت فرقة من المفسرين ، ورُوي في الحديث أن الله تعالى أوحى إلى إسحق أني قد أعطيتك بصبرك لأمري دعوةً أُعطيك فيها ما سألت ، فَسَلْني ، فقال : يا ربِّ أَيُّمَا عبد لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً فأَدْخله الجنة (١) .

والضمير في [فَدَيْنَاهُ] عائد على الذبيح ، و « الذِّبْحُ » اسمٌ لما يذبح ، ووصفه بالعظم لأنه مُتَقَبَّل يقيناً ، قاله مجاهد ، وقال عمرو بن عبيد : الذِّبْحُ الكَبْشُ ، والعظيمُ لِجَرْي السُّنَّة به وكونه ديناً باقياً آخر الدهر ، وقال الحسن بن الفضل : عظيم لأنه من عند الله كان ، وقال أبو بكر الورَّاق : لأنه لم يكن عن نَسْل بل عن التكوين ، وروي عن ابن عباس ، وابن جُبَيْر أن كونه عظيماً هو أنه من كباش الجنة رَعَى فيها أربعين خريفاً ، وقال ابن عباس : هو الكبش الذي قَرَّب ولد آدم (٢) ، وقال ابن عباس ، والحسن : كان وعْلاً أُهبط عليه من ثَبير (٣) ، وقول الجمهور : إنه كبش أبيض أقرن أعين وجده ورآه

---

(١) أخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، عن عطاء بن يسار رضي الله عنه حديثاً طويلا ـ لم يرفعه عطاءٌ ـ وفي آخره أن إبراهيم عليه السلام قال : يا بني ، إن الله قد أعطاك بصبرك اليوم ، فَسَلْ ما شئت تُعطى ، قال : فإني أسأل الله ألا يلقاه له عبد مؤمن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلا غفر له وأدخله الجنة . (الدر المنثور) . وأخرج ابن جرير مثله ، ولكن اللفظ في آخره يقول : وأوحى الله إلى إسحق : إني قد أعطيتك ... الخ ما ذكره المؤلف هنا .

(٢) يعني الكبش الذي قرَّبه هابيل لله وتقبَّله الله منه .

(٣) الوَعْل : التَّيْس البَرِّي أو تَيْس الجَبَل ، أي : ذَكَر الأرْوَى ، وهو جنس من المَعِز الجبلية ، له قرنان قويان منحنيان كَسَيْفَيْن أحْدَبين ، وجمعه : أوعال ووعول ، وثبيرٌ : جبلٌ بمكة ، يقال : أشْرِقْ ثَبيرُ كيما نُغير .

مربوطاً بِسَمُرة ، وروي أنه انفلت فاتّبعه ورماه بحصيات في مواضع الجمرات ، فبذلك مضت السُّنَّة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : رجم الشيطان عند جمرة العقبة وغيرها ، وقد تقدم هذا ، وأهل السُّنَّة على أن هذه القصة نُسخ فيها العزم على الفعل ، والمعتزلة تقول : إنه لا يصح نسخٌ إلا بعد وقوع الفعل ، وافترقت في هذه الآية على فرقتين : فقالت فرقة : وقع الذَّبح والتَأم بعد ذلك ، وهذا كذبٌ صراحٌ ، وقالت فرقة منهم : بل كان إبراهيم لم ير في منامه إلَّا إمْرار الشَّفْرة فقط فظن أنه ذبح مجهز ، فنفَّذ لذلك ، فلما وقع الذي رآه وقع النسخ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإذاً لا اختلاف أن إبراهيم أَمَرَّ الشَّفرة على حلق ابنه فلم تقطع .

ورُوي أن صفحة نحاس اعترضته بحرفها ، والله أعلم كيف كان ، فقد كثَّر الناس في القصص بما صحته معدومة فاختصرته . وقد تقدم تفسير مثل قوله : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ . وقوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ معناه : بمثل هذا الفعل ، وباقي الآية بيِّن .

ومِمَّا يستغرب في هذه الآية أن عُبَيْد بن عُمَيْر[1] قال : ذُبح في المقام ، وذكر الطبري عن جماعة لم يُسَمِّها أنها قالت : كان الأمر وإراعة

(١) هو عُبَيْد بن عُمَيْر بن قتادة الليثي ، أبو عاصم المكي ، وُلد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله مسلم ، وعدَّه غيره في كبار التابعين ، وكان قاصَّ أهل مكة ، مُجْمَع على ثقته ، مات قبل ابن عمر . (تقريب التهذيب) .

الذبح والقصة كلها بالشام ، وقال الجمهور : ذُبح بمنى ، وقال الشعبي : رأَيْت قَرْنَيْ كبش إبراهيم معلَّقين في الكعبة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

من قال إن الذبيح هو إسماعيل جعل هذه البشارة بولادة إسحق ، وهي البشارة المترددة في غير ما سورة ، ومن جعل الذبيح إسحق جعل هذه البشارة لنفس النبوة فقط .

والمِنَّة على موسى وهارون هي في النبوة وسائر ما جرى معها من مكانتهما عند الله ، و « الكَرْبُ العظيم » هو تعبُّد القبط لهم ، ثم جيش فرعون حين قالت بنو إسرائيل : « إنَّا لمُدْرَكُونَ » ، ثم البحر بعد ذلك ، والضمير في [وَنَصَرْنَاهُمْ] عائد على الجماعة المتقدم ذكرها ، وهم موسى وهارون وقومهما . وقال قوم : أَراد موسى وهارون عليهما السلام

ولكن أَخرج ضميرهما مخرج الجمع تفخيماً ، وهذا ما تفعله العرب ، تكني عمن تُعَظِّم بكناية الجماعة . و « الكتاب المستبين » : التوراة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

« الصراط المستقيم » يريد به في هذه الآية طريقَ الشرع والنبوَّة المؤدِّي إلى الله تعالى ، وقد تقدم القول في مثل قوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ .

وإِلْيَاس نبيٌّ من أَنبياءِ الله تعالى ، قال قتادة ، وابن مسعود : هو إدريس عليه السلام ، وقال الطبري : هو إلياسُ بن ياسين ، بن فنحاص ، بن العيزار ، بن هارون ، بن عمران . وقالت فرقة : هو من ولد هارون عليه السلام . وقرأَ جمهور القراءِ : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ ﴾ بهمزة مكسورة ، وهو اسم ، وقرأَ ابن عامر ، وابن محيصن ، وعكرمة ،

والحسن ، والأعرج : ﴿وَإِنَّ ٱلْيَاسَ﴾ بغير همزٍ وَبِصِلَة الألف ، وهذا يتجه على أحد وجهين : إما أن يكون حذف الهمزة ، كما حذفها ابن كثير في قوله : ﴿إِنَّهَا لَحْدَى ٱلْكُبَرْ﴾(١) ، أراد : لَإِحْدَى ، فنَزَّل المنفصل منزلة المتصل ، كما قد ينزل في كثير من الأُمور ، وإما أن يجعلها الألف التي تصحب اللام للتعريف ، كالْيَسَعْ ، وفي مصحف أُبيٍّ بن كعب : «وَإِنَّ إِيلِيسَ» بألف مكسورة وياءٍ ساكنة بعدها وسين مفتوحة ، وكذلك فيه : «سَلَامٌ عَلَى إِيلِيسَ» ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ﴾ ، وقرأ الباقون : ﴿عَلَى إِلْيَاسِينَ﴾ بألف مكسورة ولام ساكنة ، وجعلها الحسن ، وأبو رجاءٍ موصولة ، فوجه الأُولى أنها - فيما يزعمون - مفصولة في المصحف ، فدلَّ ذلك على أنها بمعنى (أَهْل) ، و (ياسين) اسم أيضاً لإِلْيَاسَ ، وقيل : هو اسم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وَوَجْه الثانية أنه جمع إِلْيَاسِيٍّ ، كما قالوا : أَعْجَمِيٌّ وأَعْجَمِيُّون ، قال أبو علي : والتقدير : إِلْيَاسِيِّينَ ، فحذف كما حذف من أَعجميِّينَ ، ومن الأَشعريِّين والنُّمَيْرِيِّين والمُهَلَّبِيِّين(٢) ، ونحوه . وحكى أبو عمرو أن منادياً نادى يوم الكلاب : هلك اليزيدون(٣)

---

(١) الآية (٣٥) من سورة (المدثر) .

(٢) فقيل فيها : الأعْجَمون والأشْعَرون والنُّمَيْرون والمُهَلَّبُون .

(٣) يعني يزيد بن عبد المدان ، ويزيد بن هوبر ، ويزيد بن مَخْرَمة الحارثيُّون . حكى ذلك أبو عمرو بن العلاء .

ويُرْوَى قول الشاعر :

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبِينَ قَدِي . . . . (١)

بكسر الباءِ الثانية ، نسبة إلى أبي خُبَيْب . ويقال : سمَّى كل واحد من آلِ إلياسِينَ إلْيَاسَ ، كما قالوا : شابت مفارقُه ، فسُمِّي كل جزءٍ من المَفرِق مَفْرِقاً ، ومنه قولهم : «جَمَلٌ ذو عَثَانينَ»(٢) ، وعلى هذا أَنشد ابن جِنِّي :

مَرَّتْ بِنَا أَوَّلَ مِنْ أُمُوسِ — تَمِيسُ فِينَا مِشْيَةَ الْعَرُوسِ(٣)

---

(١) هذا صدر بيت من أُرجوزة لحميد الأرقط يمدح عبد الملك بن مروان ، ويُعَرِّض بعبد الله بن الزبير ، إذ يرميه بالبخل والإلحاد في الْحَرَم ، وقيل : إن البيت لأبي بحدلة ، والبيت بتمامه :

قَدْنِيَ مِنْ نَصْرِ الْخُبَيْبِينَ قَدِي لَيْسَ الإمَامُ بالشَّحِيحِ الْمُلْحِدِ

وقَدْنِي وقَدِي بمعنى : حَسْبي ، وأراد بالخُبَيْبِينَ عبد الله بن الزبير فجمعه على أن من كان على مذهبه داخلٌ معه ، وهذا هو الشاهد هنا ، قال الفراءُ في (معاني القرآن) : « وإن شئت ذهبت بالياسين إلى أن تجعله جمعاً ، فتجعل أصحابه داخلين في اسمه ، كما تقول للقوم رئيسهم المهلَّب : قد جاءتكم المهالبة والمهلَّبون ، فيكون بمنزلة قولك : الأشْعَرِينَ والسَّعْدينَ » ، ويروى البيت (الخُبَيْبَيْن) بالتثنية ، والمراد بهما عبد الله بن الزبير وابنه خُبَيْبا ، وقيل : أراد عبد الله وأخاه مُصْعَباً ، والمراد بالإمام في البيت عبد الملك بن مروان ، نفى عنه الشحَّ والإلحاد تعريضاً بابن الزبير .

(٢) العَثَانين : جمع عُثْنُون ، وهو شعيرات طوالٌ عند مَذْبح البعير . وتوجد كذلك في التَّيْس وتحت منقار الديك ، ومثل هذا قولهم : « امرأةٌ واضحةُ اللَّبَّات » ، جعَلوا كل جزءٍ يجاور اللَّبَّة لَبَّة ، واللَّبَّة موضع القلادة من الصدر .

(٣) البيت في اللسان (أَمَسَ) غير منسوب . و (أُمُوس) : جمع أَمْسِ ، ومن المعروف أنَّ (أَمْسِ) مبني على الكسر إذا كان معرفة أو بغير الألف واللام ، أو غير مضاف — على خلاف في ذلك — ، فإذا كان نكرة ، أو عُرِّف بالألف واللام أو أُضيف أُعرب ، وكذلك إذا جُمِعَ ، وقد ذكر صاحب اللسان هذا البيت شاهداً على إعراب (أَمْس) لأنها مجموعة على (أُمُوس) ، وتميس : تتبختر وتختال ، ومشية العروس فيها تهادٍ وتَبَخْتر .

فسمِّي كلَّ جزءٍ من أَمْسِ أَمْساً ، ثم جَمَع . وقال أَبو عُبَيْد : لم يُسَلَّم على آلِ أَحد من الأَنبياءِ المذكورين قَبْلُ ، فلذلك تُرَجَّح قراءَةُ من قرأَ : [إِلْيَاسِينَ] إِذْ هو اسمٌ واحدٌ له . وقرأَ ابن مسعود ، والأَعمش : «وإِنَّ إِدْرِيسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِين» و «سَلَامٌ عَلَى إِدْرَاسِينَ» ، وهي لغة في (إِدْريس) كإِبراهيم وإِبراهام .

وقوله : [أَتَدْعُونَ] معناه : أَتعبدون ؟ و «الْبَعْلُ» : الرَّبُّ بلغة اليمن ، قاله عكرمة ، وقتادة. وسمع ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً يَنْشُد ضالة ، فقال له آخر : أَنا بَعْلُها ، فقال ابن عباس : الله أَكبر ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ . وقال الضحاك ، وابن زيد ، والحسن : البَعْلُ اسم صنم كان لهم ، ويقال له : بَعْلُ بَكْ ، وإِليه نَسَب الناسُ ، وذكر ابن إِسحق عن فرقة أَن [بَعْلاً] اسم امرأَة كانت أَتَتْهُمْ بضلالة . وقوله : ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ﴾ من حيث قيل للإِنسان على التَّجوز : إِنه يخلق ، وجب أَن يكون تعالى أَحسَن الخالقين ؛ إِذْ خلْقُه اختراع وإِيجاد من عدم ، وخَلْق الإِنسان مجاز ، كما قال الشاعر :

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْـ ـضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي (١)

---

(١) قال زهير بن أبي سُلْمى هذا البيت من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان ، ومطلعها :

لِمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الحِجْـــــرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ ومِنْ شَهْرِ

وتفري معناها : تقطع ، قال في اللسان بعد أن ذكر البيت في (فَرَى) : «معناه : تُنَفِّذ ما تعزِمُ عليه وتقدره ، وهو مثل» ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في عمر بن الخطاب =

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

قرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم بنصب الجميع على البدل من قوله : [أَحْسَنَ] ، وقرأ الباقون وعاصم أيضاً برفعهم على القطع والاستئناف . والضمير في [فَكَذَّبُوهُ] عائد على قوم إِلْيَاس . و « مُحْضَرُونَ » معناه : مجموعون لعذاب الله ، وقد تقدم تفسيرُ مثل ما بقي من الآية ، وتقدم أيضاً القول في قوله تعالى : ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ﴾ .

= رضي الله عنه ، ورآه في منامه ينزع عن قليب بغَرْب: (فلم أرَ عبقريّاً يفري فريَّه) ، ويقال : فلانٌ يفري الفريَّ إذا كان يأتي بالعجب في عمله . وخلَقْتَ : قدَّرْتَ وهيَّأت للقطع ، وفي اللسان (خلَق) أن الخَلْق على ضربين في كلام العرب : أحدهما الإنشاءُ على مثال أبدعه ، والآخر التقدير . وفي حديث أخت أُمَيَّة بن أبي الصلت قالت : فدخل عليَّ وأنا أخلُق أديماً ، أي : أُقَدِّرُه لأقطعه ، وعلى هذا فالثاني هو المراد هنا ، وفيه الشاهد ، حيث أن الخلق الذي ينسب للناس مجاز ، ومعناه أنهم يقدرون الأديم قبل قطعه ، أما خلق الله تبارك وتعالى فاختراعٌ وإيجاد من عدم ، وحقيقة كبرى ، وتبارك الله أحسن الخالقين .

ولوطٌ ، قيل : هو ابن أُخته ، وقد تقدمت قصته بكمالها ، وامرأَتُه هي العجوزُ المهْلَكَةُ ، وكانت كافرة ، فإما كانت مستترةً منه وإِمَّا كانت مُعْلنةً ، وكان نكاح الوثنيات والإقامة عليهن جائزاً ، و «الْغَابِرُونَ» : الباقون ، وغَبَرَ بمعنى : بَقِيَ ، ومعناه ها هنا : بقيت في الهلاك .

ثم خاطب الله تعالى قريشاً ، أَو هو على معنى : قُل لهم يا محمد : وإنكم لتمرُّون عليهم في الصباح وبالليل ، فواجب أَن يقع اعتباركم ونظركم ، ثم وبَّخهم بقوله : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ؟ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾

هو يونس بن متَّى عليه السلام ، وهو من بني إِسرائيل ، رُوي أَنه تنبَّأَ ابن ثمانية وعشرين سنة فتفسَّخ تحت أَعباءِ النبوَّة كما يتفسخ الربع تحت الحمل ، وقد تقدم شرح قصته ، ولكن نذكر منها ما يُتَفَهَّم به هذه الأَلفاظ .

فرُوي أَن الله تعالى بعثه إلى قومه ، فدعاهم مرَّة فخالفوه فوعدهم بالعذاب ، وأَعلمه الله تعالى بيوم العذاب فحدَّده لهم يونس ، ثم إن قومه لما رأَوا مخايل العذاب قبل أَن يباشرهم تابوا وآمنوا فتاب الله عليهم وصرف العذاب عنهم ، وكان في هذا تجربة ليونس عليه السلام ، فلحقت بيونس غضبة ، ويُروى أَنه كان في سيرتهم أَن يقتلوا الكذاب إذا لم تقم له بيِّنة ، فخافهم يونس وغضب مع ذلك ، فأَبقَ إلى الفُلْك ، أَي أَراد الهروب ودخل في البحر ، وعَبَّر عن هروبه بالإِباق من حيث هو عبد لله فرَّ عن غير إذن مولاه ، فهذه حقيقة الإِباق ، و «الفُلْكُ» في هذا الموضع واحد ، و «المشْحُون» : المُوقَر ، وهنا قصص محذوف إيجازاً واختصاراً . ورُوي عن ابن مسعود أَنه لما حصل في السفينة وأَبْعَدَت وَكَدَت[1] ولم تجر والسُّفن تجري يميناً وشمالاً ، فقال أَهل السفينة : إن فينا لصاحب ذنب وبه يحبسنا الله ، فقالوا : لنقترع ، فأَخذوا لكل واحد سهماً ، ثم قالوا : اللّهم ليَطْفُ سهم المذنب وليغْرق سهم الغير ، فطفا سهم يونس ، ففعلوا نحو هذا ثلاثاً ، وفي كل مرة تقع القرعة عليه ، فأَزمعوا معه أَن يطرحوه ، فجاءِ إلى ركن من أَركان السفينة ليقع منه فإِذا بدابَّة من دوابِّ البحر ترقبه وترصده ، فدفع إلى الركن الآخر فوجدها كذلك ، حتى استدار بالمركب وهي لا تفارقه ، فعلم أَن ذلك من عند الله ، فترامى إليها فالتقمته ، ويُروى أَنها إنما التقمته بعد أَن وقع في الماءِ ، ورُوى أَن الله تعالى أَوحى

(١) وَكَدَ في المكان : أقام فيه ولم يبرحه .

إلى الحوت أني لم أجعل لك يونس رزقاً ، وإنما جعلت بطنك له حِرْزاً وسجناً ، فهذا معنى [فَسَاهَمَ] ، أي : قارَعَ ، وكذلك فسَّر ابن عباس ، والسُّدي . و «المُدْحَض» : الزَّاهق المغلوب في مُحاجَّة أو مُساهمة أو مُسابقة . ومنه : الحُجَّة الداحضة ، و «المُلِيمُ» : الذي أَتَى ما يُلام عليه ، يقال : أَلام الرجلُ إذا دخل في اللوم ، وبذلك فسَّر مجاهد ، وابن زيد ، ومنه قول الشاعر :

سَفَهاً عَذَلْتِ ولُمْتِ غَيْرَ مُلِيم وهَذَاكِ قَبْلَ الْيَوْم غَيْرُ حكِيم(١)

ثم استنقذه الله تبارك وتعالى من بطن الحوت بعد مدة اختلف الناس فيها ـ فقالت فرقة : بعد سبع ساعات ، وقال مقاتل بن حيَّان : بعد ثلاثة أيام ، وقال عطاءُ بن أبي رباح : بعد سبعة أيام ، وقالت فرقة : بعد أربعة عشر يوماً ، وقال أبو مالك ، والسدي : بعد أربعين يوماً ، وهو قول ابن جريج أنه بلغه . وجعل تعالى علَّة استنقاذه

---

(١) هذا البيت للبيد ، وهو مطلع قصيدة من الكامل ، والرواية في الديوان :

سَفَهاً عذَلْتِ وقُلْتِ غيْرَ مُلِيمِ وبُكَاكِ قِدْماً غَيْرُ جِدٍّ حَكِيمِ

وقال شارح الديوان : ويروى : وهداكِ قِدْماً ، ويُرْوى : وهداك بعد النوم . ورواية اللسان (لَوَمَ) مثل رواية ابن عطية هنا ، وقد ضبط المحققون البيت في اللسان بفتح التاء في (عذلتَ ، وقلتَ) والكاف في (هداكَ) ، وضبطت هذه كلها بالكسر في الديوان وهو أصحُّ ؛ لأنه يخاطب من أسماها بعد ذلك : «أمَّ الوليد» ، والبيت في تفسير الطبري مضبوطاً كما في اللسان .

والمُليمُ : الذي جاء بما يلامُ عليه ، وقوله : «وهداك بعد اليوم غيرُ حكيم» دعاءٌ عليها ، يقول فيه : لازلت يهديك ويرشدك امرؤٌ غير حكيم . وهذا على رواية (بعد اليوم) ، أما على رواية (قبل اليوم) فالكلام خبر ، يقول لها : لقد أرشدك في هذا اللوم إنسانٌ غير حكيم .

مع القدرة السابقة تسبيحه ، واختلف الناس في ذلك ـ فقال ابن جبير : هو قوله في بطن الحوت : سبحان الله ، وقالت فرقة : بل التسبيح هو الصَّلاةُ التطوع ، واختلفت هذه الفرقة ـ فقال قتادة ، وابن عباس ، وأَبو العالية : صلاته في وقت الرخاءِ نفعته في وقت الشدَّة ، وقال هذا جماعة من العلماءِ ، وقال الضحاك بن قيس (١) على منبره : اذكروا الله في الرَّخاءِ يذكركم في الشِّدَّة ، إن يونس كان عبداً لله ذاكراً ، فلمَّا أَصابته الشِّدَّة نفعه ذلك ، ثم تلا هذه الآية ، وإِن فرعون كان طاغياً باغياً ، فلمَّا أَدركه الغرق قال : آمَنْتُ فلم ينفعه ذلك ، فاذكروا الله في الرخاءِ يذكركم في الشِّدَّة . وقال قتادة في الحكمة : إن العمل يرفع صاحبه إذا عثر ، فإذا صُرع وجد مُتَّكَأً ، وقال الحسن بن أَبي الحسن : كان تسبيحه صلاةً في بطن الحوت ، ورُوي أَنه كان يرفع لحم الحوت بيديه ويقول : يا ربِّ لَأَبْنِيَنَّ لك مسجداً حيث لمْ يَبْنِهِ أَحد قَبْلي ، ويُصَلِّي ، وروى أَنسٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إن يونس حين نادى في الظلمات ارتفع نداؤُه إلى العرش ، فقالت الملائكة : هذا صوت ضعيف من موضع غربة ، فقال : هذا عبدي يونس ، فأَجاب الله دعوته ...)

---

(١) هو الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب الفهري ، أبو أنيس ، الأمير المشهور ، صحابي صغير ، قُتل في وقعة مرج راهط سنة أربع وستين ، ومرج راهط هذه بنواحي دمشق . (تقريب التهذيب) .

وذكر الحديث (١) . وقال ابن جُبير : الإشارة بقوله : ﴿مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ إلى قوله : ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ (٢) . وكتب الناس في القصص بما اختصرناه لعدم الصحة ، ورُوي أن الحوت مشى به البحار كلها حتَّى قذفه في نصيبين من ناحية الموصل ، فنبذه الله في عراءٍ من الأَرض ، وهو الأَرض الفيحاءُ التي لا شجر فيها ولا مَعْلَم ، ومنه قول الشاعر :

وَرَفَعْتُ رِجْلاً لا أَخَافُ عِثَارَهَا ... وَنَبَذْتُ بِالْبَلَدِ الْعَرَاءِ ثِيَابِي (٣)

---

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه ، ولفظه كما في ابن جرير : (عن يزيد الرَّقاشي قال : سمعتُ أنس بن مالك قال — . ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم — إن يونس النبيَّ حين بَدَا له أن يدعُوَ الله بالكلمات حين ناداه وهو في بطن الحوت ، فقال : اللَّهم لا إله إلا أنت سبحانك إنِّي كنتُ من الظَّالمين ، فأقبلت الدعوة تحت العرش ، فقالت الملائكة : يا ربِّ هذا صوتٌ ضعيفٌ معروفٌ في بلاد غريبة ، قال : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يا ربِّ ومن هو ؟ قال : ذلك عبدي يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزَل يُرفع له عملٌ مُتقَبَّلٌ ودعوةٌ مُستَجابَةٌ ، قالوا : يا ربِّ أولا يُرْحَمُ بما كان يصنع في الرخاء فتُنَجِّيه من البلاء ؟ قال : بَلَى ، فأمر الحوت فطرحَه بالعراءِ) .

(٢) من الآية (٨٧) من سورة (الأنبياء) .

(٣) البيت في اللسان (عرَا) غير منسوب ، وفي (مجاز القرآن) لأبي عُبَيْدة ، وقد نسبه إلى رجل من خُزَاعة ، وهو أيضاً في تفسير الطبري ، وتفسير القرطبي ، والعَرَاءُ : الذي لا يُواريه شيءٌ من شجر أو غيره ، وقيل : العراءُ : وجه الأرض الخالي ، ونَبَذَ ثيابه : طرحها وألقاها عنه . ومن المألوف في كلام العرب أن يقال : (نبذته بالعراء) ، بمعنى : ألقيتُه في الأرض الفضاء .

وقال السدي ، وابن عباس في تفسير قوله تعالى : ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ : إنه كان كالطفل المنفوس ، بَضْعَةُ لَحْم [١] ، وقال بعضهم : كاللحم النِّيءِ [٢] إلا أَنه لم ينقص من خلقته شيءٌ ، فأَنعشه الله تعالى في ظلِّ اليقطينة بِلَبَن أُرْوِيَة كانت تغاديه وتُرَاوحه [٣] ، وقيل : بل كان يتغذى من اليقطينة ، ويجد منها أَلوان الطعام وأَنواع شهواته .

واختلف الناسُ في اليقطين – فقالت فرقة : هي شجرة لا نعرفها ، سمَّاها الله باليقطين ، وهي لفظة مأْخوذة من : قَطَنَ إذا أَقام بالمكان . وقال سعيد بن جُبَيْر ، وابن عباس ، والحسن ، ومقاتل : اليقطين : كلٌّ ما لا يقوم على ساق من عودٍ كالبقول والقرع والحنظل والبطيخ ونحوه مما يموت من عامه ، ورُوي نحوه عن مجاهد ، وقال ابن عباس ، وأَبو هريرة ، وعمرو بن ميمون : اليقطين : القرع خاصة ، وعلى هذين القولين فإما أَن يكون قوله تعالى : [شَجَرَةً] تجوُّزاً ، وإما أَن

---

(١) البَـضْعة – بفتح الباء وكسرها – : القطعة ، ويقال : هو بَـِضْعةٌ مِنِّي ، أيْ : هو في قرابته كأنه جزءٌ مِنِّي .

(٢) النِّيءُ : كلُّ شيءٍ شأنه أن يعالج بطبخ أو شيٍّ فلم ينضج ، يقال : لحْمٌ نِيءٌ ، ويقال : لَبَن نِيءٌ بمعنى : مَحْضٌ .

(٣) الأَرْوِيَةُ : أُنثى الوعول ، والجمع أراويُّ . ومعنى تغاديه وتراوحه أنها كانت تأتي له في الصباح وفي المساء ليطعم من لبنها .

يكون أنبتها عليه ذات ساقٍ خرْقاً للعادة ؛ لأَن الشجر في كلام العرب إنما يقال لما كان على ساق من عود ، وحكى بعض الناس أنها كانت قرعة وهي تجمع خصالاً بَرْدَ الظلِّ والملمس وعِظَم الورق وأَن الذباب لا يقربها ، حكى النقاش أَن ماءَ ورق القرع إذا رُشَّ به مكان لم يقربه ذبابٌ ، ومشهور اللغة أَن اليقطينَ : القرعُ ، وقد قال أُمية ابن أَبي الصلت في قصة يونس عليه السلام :

فَأَنْبَتَ يَقْطِينـاً عَلَيْهِ بِرَحْمَـةٍ مِنَ اللهِ ، لَوْلا اللهُ أُلْفِيَ ضَاحِيَا (١)

فنبت يونس عليه السلام وصحَّ وحسُن جسمه ؛ لأَن ورق القرع أَنفع شيءٍ لمن تَسَلَّخَ جسده كيونس . ورُوي أَنه كان يوماً نائماً فأَيبَس الله تلك اليقطينة ، وقيل : بعث عليها الأَرضة فقطعت عروقها ، فانتبه يونس لِحَرِّ الشمس ، فعزَّ عليه شأْنها وجزع له ، فأَوحى الله تعالى إليه : يا يونس ، جزعت ليُبْس اليقطينة ولم تجزع لإِهلاك مائة أَلف أَو يزيدون تابوا فتبت عليهم .

---

(١) البيت كما قال ابن عطية لأُمَيَّة بن أبي الصلت ، وهو في الطبري منسوب لأُمَيَّة أيضاً ، واليقطين ــ كما قال في اللسان (قَطَنَ) : كل شجر لا يقوم على ساق ، نحو الدُّبَّاء والقرع والبِطِّيخ والحنظل . وفي التهذيب : اليقطين شجر القرع . وأُلْفِيَ : وُجِدَ ، وضَحِيَ فلانٌ ضَحْواً : أصابه حرُّ الشمس ، وفي الكتاب الكريم : ﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ ، وقيل : إن ضاحياً تعني : ظاهراً ، والمعنى واحد أو قريب .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾
فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ
شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾
أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾
أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

قال الجمهور : هذه الرسالة إلى مائة ألف هي الرسالة الأُولى التي أَبَقَ بعدها ، ذكرها الله تعالى في آخر القصص تنبيهاً على رسالته ، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى : ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ ، وتمتيع هذه الأُمة هو الذي أَغضب يونس عليه السلام حتى أَبَقَ ، وقال قتادة ، وابن عباس أَيضاً : هذه الرسالة أُخري بعد أَن نُبِذَ بالعراءِ ، وهي إلى أَهل نِينَوَي من ناحية الموصل .

وقرأَ جعفر بن محمد رضي الله عنه : ﴿وَيَزِيدُونَ﴾ بالواو ، وقرأَ الجمهور : ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : [أَوْ] بمعنى (بَلْ) ، وكانوا مائة أَلف وثلاثين أَلفاً ، وقال أُبي بن كعب ،

عن النبي صلى الله عليه وسلم : (كانوا مائة وعشرين ألفاً) [(١)] ، وقال ابن جُبَيْر : كانوا مائة وسبعين ألفاً ، ورُوي عن ابن عباس أنه قرأ : «بَلْ يَزِيدُونَ» ، وقالت فرقة : [أَوْ] هنا بمعنى الواو ، وقالت فرقة : هي للإبهام على المخاطب ، كما تقول : «ما عليك أنتَ ، أنا أُعطي فلاناً ديناراً أو ألف دينارٍ» ، ونحو هذا قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ [(٢)] ، وهذا المعنى قليل التمكُّن في قوله سبحانه : ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ . وقال المُبَرِّد وكثير من البصريين : المعنى على نَظَر البشر وحذرهم ، أي : من رآهم قال : هم مائة ألف أو يزيدون .

ورُوي في قوله تعالى : ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ أنهم خرجوا بالأطفال وأولاد البهائم ، وفرَّقوا بينها وبين الأُمَّهات ، وناحوا وضجُّوا وأخلصوا ، فرفع الله عنهم [(٣)] ، والتَّمتيع هنا هو بالحياة ، والحينُ : آجالُهم السابقة في الأزل ، قال قتادة ، والسدي ، وقرأ ابن أبي عبلة : «حَتَّى حِينٍ» ، وفي قوله تعالى : ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه ، ولفظه كما في (الدر المنثور) : (قال : سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ، قال : يزيدون عشرين ألفاً) .

(٢) من الآية (١٢٨) من سورة (آل عمران) .

(٣) في بعض النسخ : «فدفع الله عنهم» بالدال بدلا من الرَّاء .

إِلَى حِينٍ﴾ مثالٌ لقريش : أَي : إِن آمنوا أَمِنُوا كما جرى لهؤلاءِ ، ومن هنا حَسُن انتقال القول والمحاورة إِليهم بقوله تعالى : [فَاسْتَفْتِهِمْ] ، فإِنَّما يعود على ضميرهم على ما في المعنى من ذكرهم (١) .

و «الاسْتِفْتَاءُ» : السؤال ، وهو هنا بمعنى التوبيخ والتقريع على قولهم البهتان على الله ، وجعلهم البنات لله تعالى عن ذلك . وأَمره بتوقيفهم على جهة التوبيخ أَيضاً – هل شاهدوا أَن الملائكة إِناثٌ فيصح لهم القولُ به .

ثم أَخبر تعالى عن فرقة منهم بلغ بها الإِفك والكذب إِلى أَن قالت : ولَد اللهُ الملائكة لأَنه نكح في سروات الجن ، وهذه فرقة من بني مدلج فيما روي .

وقرأَ الجمهور : [أَصْطَفَى] بأَلف قطع هي للاستفهام ، وهذا على جهة التقرير والتوبيخ على نسبتهم إِليه تعالى اختيار الآدمي عندهم ، وقرأَ نافع في رواية إِسماعيل : [ٱصْطَفَى] بأَلف وصل على الخبر ، كأَنه سبحانه يحكي شنيع قولهم ، ورواها إِسماعيل عن أَبي جعفر ، وشيبة .

ثم قَرَّرَ وَوبَّخ وعرَّض للتذكير والنظر واستفهم عن البُرهان والحُجَّة على جهة التقرير وضمِّهم إِلى الاستظهار بكتاب أَو أَمْر يُظهر صدقهم . وقرأَ الجمهور : [تَذَكَّرُونَ] مشددة الذال والكاف ، وقرأَ طلحة بن مصرف بسكون الذال وضم الكاف خفيفة

(١) يريد : فإنما يعود الضمير في [ٱسْتَفْتِهِمْ] عليهم لأنهم مذكورون في المعنى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

الضمير في قوله تعالى : [وَجَعَلُوا] لفرقة من كفار قريش والعرب ، قال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري : إن بعضهم قال : إن الله وإبليس أخوان ، وقال مجاهد : قال قوم لأبي بكر الصِّدِّيق : إنَّ الله نكح سروات الجن(١) ، وقال بعضهم : إن الملائكة بناته ، فـ «الجِنَّة» ـ على هذا القول الأخير تقع على الملائكة ، سميت بذلك لأنها مستجنَّة ، أي : مُستترة .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ . من جعل «الجِنَّة» الشياطين جعل العلامة في [عَلِمَتِ] والضمير في [إِنَّهُمْ] عائد عليهم . أي : جعلوا الشياطين ليست من الله ، والشياطين تعلم

(١) يريد : أشراف الجنّ ، وسَرَوات : جمع سَرِيّ ، وهو الشريف . ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ .

ضدّ ذلك من أنها ستَحْضُر أَمْرَ الله وثوابه وعقابه . ومن جعل [ٱلْجِنَّةَ] الملائكة جعل الضمير في [إِنَّهُمْ] للقائلين هذه المقالة ، أي : علمت الملائكة أن هؤلاءِ الكفرة سيحضرون عذاب الله وعقابه ، وقد يتداخل هذان القولان .

ثم نزَّه تبارك وتعالى نفسه عمَّا يصفه الناسُ ولا يليق به ، ومن هذا استثنى العبادَ المخلصين ؛ لأَنهم يصفونه بصفاته العُلَى ، وقالت فرقة : استثناهم من قوله : [لَمُحْضَرُونَ] ، وهذا يصح على قول من رأَى [ٱلْجِنَّةَ] الملائكة .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ بمعنى : قل لهم يا محمد : إنكم وأَصنامكم ما أَنتم بمضلين أَحداً عليها وبسببها ، إلا من سبق عليه القضاءُ وضمَّه القدر بأَن يصْلى الجحيم في الآخرة ، وليس إليكم إضلال من هدى الله . وقالت فرقة : [عَلَيْهِ] بمعنى « فيه » ، و « ٱلْفَاتِنُ » : المضلُّ في هذا الموضع ، وكذلك فسَّر ابن عباس ، والحسن بن أَبي الحسن ، وقال ابن الزبير على المنبر : « إن الله هو الهادي والفاتن » ، و [مَنْ] في موضع نصب بـ [فَاتِنِينَ] ، وقرأَ الجمهور : ﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ بكسر اللام من (صالِ)، وحذفت الياءُ للإضافة . وقرأَ الحسن بن أَبي الحسن : ﴿صَالُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بضم اللام ، وللنحاة في معناه اضطراب أَقوال ، وأَقواها أَنه (صَالُونَ) حذفت النون للإضافة ،

ثم حذفت الواو للالتقاء ، وخرج لفظ الجمع بعد لفظ الإفراد ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾(١) ، إذْ لَمَّا كانت [مَنْ] وهي من الأَسماءِ التي فيها إبهامٌ ويكنى بها عن أَفرادٍ وعن جمع (٢) .

ثم حكى تعالى قول الملائكة : ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ ، وهذا يؤيد أَن «الْجِنَّةَ» أَراد بها الملائكة ، كأَنه قال : ولقد علمَتْ كذا ، وإنَّ قولنا لكذا ، وتقدير الكلام : وما منَّا مَلَك ، وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إنَّ السماءَ ما فيها موضع قدم إلَّا وعليه جبهة مَلَك أَو قدماه) (٣) ، وقرأَ ابن مسعود : «وَإِنْ كُلُّنَا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ» .

و [ٱلصَّافُّونَ] معناه : الواقفون صفوفاً ، و [ٱلْمُسَبِّحُونَ] يحتمل أَن يريد به الصلاة ، ويحتمل أَن يريد قولَ : «سبحان الله» ، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أَنه كان إذا أُقيمت الصلاة صرف وجهه إلى الناس فقال لهم : عدِّلوا صفوفكم وأَقيموها ، فإن الله إنما يريد بكم هدى الملائكة ، فإنها تقول : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّافُّونَ ، وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ ، ثم يرى تقويم الصفوف ، وعند ذلك

---

(١) من الآية (٤٢) من سورة (يونس) .

(٢) في توجيه قراءة الضم للام في : ﴿صَالُ ٱلْجَحِيمِ﴾ نقل أبو الفتح رأياً عن شيخه أبي علي ، خلاصته أنه يحملها على حذف لام (صال) تخفيفاً ، ثم تعرب اللام بالضم ، وذلك كما حذفت لام (البَالَةِ) من قولهم : «ما باليْتُ بالةً» ، وهي الباليَهْ ، كالعافية والعاقبة ، ولكن التوجيه الذي ذكره ابن عطية أقوى وأسلم ، وهو توجيه قطرب . وقد نقله أبو الفتح أيضا واعترف بحسنه .

(٣) أخرجه الترمذي ، وابن ماجه في الزهد .

ينصرف ويكبِّر ، قال الزهراوي : قيل : إن المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة مذ نزلت هذه الآية ، ولا يصطف أحد من أهل المِلَل غير المسلمين .

ثم ذكر عزَّ وجلَّ مقالة بعض الكفار ، قال قتادة ، والسدي ، والضحاك : فإنهم قبل نُبُوَّة محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : لو كان لنا كتاب أَو جاءَنا رسول لكنَّا من أَتقى عباد الله وأَشدهم إخلاصاً ، فلما جاءَهم محمد صلوات الله وسلامه عليه كفروا فاستوجبوا أَليم العقاب.

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

قولـه تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وعيـدٌ محضٌ ؛ لأَنهم تمنَّـوْا أَمراً فلما جاءَهم الله به كفروا واستهواهم الحسد ، ثم آنس نبيَّه صلى الله عليه وسلم وأَولياءَه بأَن القضاءَ قد سبق ، والكلمة حقت

في الأَزل ، بـأَنَّ رُسُل الله إلى أَرضه هم المنصورون على من ناوأهم ، المُظَفَّرُون بإرادتهم ، المستوجبون الفلاح في الدارين . وقرأ الضحاك : [كَلِمَاتُنَا] بـأَلف على الجمع . و «جُنْدُ الله» هم الغزاة لتكون كلمة الله هي العليا . قال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : جُنْدُ الله في السماء الملائكة ، وفي الأَرض الغُزَاةُ .

وقوله تعـالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ وعْـدٌ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأَمرٌ بالموادعة ، وهذا مِمَّا نسخته آية السيف . واختلف الناس بالمراد بالحين هنا ـ فقال السديُّ : الحين المقصود يومُ بدرٍ ، ورجَّحه الطبري ، وقال قتادة : الحينُ مَوْتُهم ، وقال ابن زيد : الحينُ المقصودُ يومُ القيامة . وقوله تعالى : ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ وعْدٌ للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيدٌ لهم ، أَي : سوف يَرَوْنَ عُقْبى طريقتهـم .

ثـم قرَّرَ الله تعالى نَبيَّه صلى الله عليه وسلم ـ على جهة التوبيخ لهم ـ على استعجالهم عذابَ الله . وقرأ الجمهور : ﴿نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أَي العذاب . وقرأ ابن مسعود : «نُزِلَ» على الفعل المجهول ، و «السَّاحَةُ» : الفِنَاءُ ، والعربُ تستعمل هذه اللفظة فيما يرد على الإنسان من خير أَو شر . و «سُوءُ الصباح» أَيضاً يستعمل في ورود الغارات والرزايا ونحو ذلك ، ومنه قول الصارخ : «يا صَبَاحَاهُ» ، كأَنه يقول : قد سأَلني الصباحُ فأَعينوني ، وقرأ ابن مسعود : «فبئس صباح» .

ثم أعادَ اللهُ تعالى أمْرَ نبيِّه صلى الله عليه وسلم بالتَّوَلِّي تحقيقاً لتأْنيسه والتَّهَمُّم به ، وأعاد سبحانه توعُّدهم أيضاً لذلك ، ثم نَزَّه نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما يمكن أن يصفه به أهل الضلالات .

و «العِزَّة» في قوله تعالى : ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ هي العزَّة المخلوقة الكائنة للأَنبياءِ والمؤْمنين ، ولذلك قال الفقهاءُ : مِنْ أَجل أَنها مربوبة ، وقال محمد بن سُحْنُون : «من حلف بعزَّة الله فإن كان أراد صفته الذاتية فهي يمين ، وإن كان أراد عزَّته التي خلق بين عباده ، وهي التي في قوله : ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ فليست بيمين» (١) .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إذا سلَّمتم عليَّ سلِّموا على المرسلين فإنما أنا أحدهم)(٢) ، وباقي السورة بيِّن .

---

(١) ولكلام ابن سحنون بقية ذكرها القرطبي ، وفيها يقول : «العزَّةُ تكون صفة ذات وصفة فِعْل ، فصفة الذات نحو قوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ ، وصفة الفعل نحو قوله : ﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ ، والمعنى : ربّ العزَّة التي يتعازُّ بها الخلق فيما بينهم ، فهي من خلق الله عزَّ وجلَّ .

(٢) أخرجه ابن مردويه من طريق أبي العوَّام ، عن قتادة ، عن أنس رضي الله عنه ، وذكر في الدرِّ المنثور أن أبا العوَّام رضي الله عنه قال : كان قتادة يذكر هذا الحديث إذا تلا هذه الآية : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ، وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ، وأخرج ابن سعد ، وابن مردويه من طريق سعيد عن قتادة ، عن أنس ، عن أبي طلحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا سلَّمتم على المرسلين فسلِّموا عليَّ فإنما أنا بشرٌ من المرسلين) .

وذكر أَبو حاتم عن صالح بن مينا قال : قرأْتُ على عاصم بن أَبي النجود ، فلما ختمتُ هذه السورة سكَتٌّ ، فقال : إِيهٍ ، اقرأْ ، فقلت : قد ختمتُ ، فقال : كذلك فعلتُ على أَبي عبد الرحمن فقال لي كما قلتُ لك ، وقال لي كذلك قال لي عليٌّ بن أَبي طالب ، وقال : «وقُلْ آذنتكم بإِذانة المرسلين ، لتُسْأَلُنَّ عن النَّبإِ العظيم» ، وفي مصحف عبد الله : «عن هذا النَّبإِ العظيم» (١).

كَمُلَ تفسير سورة (الصافَّات) والحمد لله رب العالمين

(١) أخرج الطبراني ، عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مَنْ قال دُبُرَ كلِّ صلاة : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثلاث مرات فقد اكْتَالَ بالمكيال الأوفى من الأجر) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(٣٨) سُورَةُ صٓ مَكِّيَّة وآياتها ثمان وثمانون

هذه السورة كلُّها مكِّيَّة بإجماع من المفسرين (١) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ (٥) ﴾

قرأ الحَسَنُ ، وأُبَيُّ بن كعب ، وابن أَبي إسحق : «صَادِ» بكسر الدال ، على أنه أَمْرٌ مِنْ : صادَى يُصادِي إذا ضَاهَى ومَاثَلَ ، أي

(١) ويقال لهذه السورة : سورة داود . وعدد آياتها ٨٨ آية ، وقيل : ٨٦ آية .

صار كالصَّدَى الذي يحكي الصياح ، والمعنى : ماثِل القرآنَ بعملك ، وقارِنه بطاعتك ، وهكذا فسَّره الحسن ، أي : انظر أيْن عملُك منه ؟(١)

وقال الجمهور : إنه الحرف المعجم المعروف ، ويدخله ما يدخل سائر أوائل السُّور من الأقوال ، ويختص هذا الموضع بأن قال بعض الناس : معناه : صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وقال الضحاك : معناه : صدق الله ، وقال مجاهد بن كعب القرظي : هو مفتاح أسماء الله (صَمَد ، صَادِق الوعد ، صانع المصنوعات) .

وقرأها الجمهور بسكون الدال ، وقرأ ابن أبي إسحق - بخلاف عنه - بكسر الدال وتنوينها [صَادٍ] ، على القسم ، كما تقول : اللهِ لأفْعَلَنَّ ، وحكى الطبريُّ وغيره عن ابن أبي إسحق دون تنوين ، وألحقه بقول العرب : حاثِ باثِ ، وخازِ بازِ(٢)، وقرأت فرقة منها عيسى بن عمر : [صادَ] بفتح الدال ، وكذلك يفعل في نطقه بكل

(١) المماثلة والمضاهاة فيهما معنى المعَارَضَة ، والمصاداةُ : المعارضة والمقابلة ، فالمعنى : عارِضِ القرآن بعملك وقابِلْه بمثله ، فاعمل بأوامره ، وانْتَهِ عن نواهيه .

وهناك مذهب آخر في توجيه هذه القراءة بكسر الصاد بدون تنوين ، وهو أن الدال مكسورة لالتقاء الساكنيْن ، قال الفراءُ في (معاني القرآن) : « جَزَمَهَا القراءُ إلا الحسن فإنه خَفَضَها بلا نون لاجتماع الساكنين » .

(٢) من كلام العرب : « تركته حاثِ باثِ ، وخَازِ بازِ » ، أما معنى « حاثِ باثِ » فهو : تركتهُ مختلط الأمر ، قال ذلك في التَّاج ، ومن معاني « خازِ بازِ » أنه ذبابٌ يكون في الروض .
والتعليل الذي ذكره الطبري لهذا الذي حكاه الطبري هو أن الكسر هُنَا من أجل أن الذي يلي آخر الحروف (ألفٌ) فيخفضون مع الألف ، وينصبون مع غيرها ، فيقولون : حيْثَ بَيْثَ ، ولأجعلنَّك في حيْصَ بيْصَ ، إذا ضيِّق عليه .

الحروف ، يقول : قافَ ، ونونَ ، ويجعلها كأَيْنَ وليْتَ (١)، قال الثعلبيُّ : «وقيل معناه : صادَ محمدٌ القلوبَ بأَن استمالها للإِيمان» .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلْقُرْآنِ ذِي ٱلذِّكْرِ﴾ قسَمٌ ، وقال السدي ، وابن عباس ، وسعيد بن جُبَيْر : معناه : ذي الشرف الباقي المخلَّد ، وقال قتادة ، والضحاك : ذي التذكرة للناس والهداية لهم ، وقالت فرقة : معناه : ذي الذكر للأُمم والقَصَص والغُيُوب . وأَما جواب القسم فاختلف فيه ـ فقالت فرقة : الجواب في قوله : [صٓ] ؛ إذ هو بمعنى : صدق محمد ، أَو صدق الله ، وقال الكوفيون والزَّجَّاج : الجوابُ قوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ (٢) ، وقال بعض البصريين ـ ومنهم الأَخفش ـ : الجواب في قوله : ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ (٣) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذان القولان بعيدان .

---

(١) قال الطبريُّ : «إن عيسى بن عمر كان يوفِّق بين جمع ما كان قبل آخر الحروف منه ألفٌ ، وما كان قبل آخره واوٌ أو ياءٌ فيفتح جميع ذلك وينصبه ، فيقول : صادَ ، وقافَ ، ونونَ ، ويسنَ ، ويجعل ذلك مثل الأداة ، كقولهم : ليتَ وأينَ ، وما أشبه ذلك» .
ونقل القرطبي في توجيه قراءة عيسى بن عمر ثلاثة مذاهب : الأول أن يكون فتَح لالتقاء الساكنيْن ، واختار الفتح للإتْباع ، ولأنه أخفُّ الحركات ، والثاني أن يكون بمعنى : اتْلُ ، والثالث أن يكون منصوباً على القَسَم بغير حرف قَسَم ، لقولك : اللهَ لأَفْعلَنَّ ، وعلَّل بعضهم هذه القراءة بأن النصب فيها على الإغراء .

(٢) وهي الآية (٦٤) من السُّورة .

(٣) وهي من الآية (١٤) من السُّورة .

وقال قتادة ، والطبري : الجواب مُقَدَّر قبل [بَلْ] ، وهذا هو الصحيح ، تقديره : « والقرآن ما الأَمْرُ كما تزعمون » ، ونحو هذا من التقدير ، فتأَمله . وحكى الزَّجاج عن قوم أَن الجواب قوله تعالى : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ وهذا متكلَّف جداً .

و « العِزَّةُ » هنا : المُعَازَّةُ والمغالبة ، و « الشِّقَاقُ » نحوه ، أَي : هُمْ في شِقٍّ والحقُّ في شِقٍّ .

و [كَمْ] للتكثير ، وهي خبرٌ فيه مثالٌ ووعيد ، وهي في موضع نصب بـ [أَهْلَكْنَا] ، و « القَرْنُ » : الأُمَّة من الناس يجمعها زمن واحد ، وقد تقدم تحديده مراراً ، وقوله تعالى : [فَنَادَوْا] معناه : مستغيثين ، والمعنى أَنهم فعلوا ذلك بعد المعاينة فلم ينفع ذلك ، ولم يكن في وقت نَفْع ، و [لَاتَ] بمعنى : لَيْس ، واسمُها مقدر عند سيبويه ، وتقديره : ولاتَ الحينُ حين مناصٍ ، وهي (لَا) لحقتها تاءٌ ، كما لحقت « رُبَّتَ وثُمَّتَ » ، وقال الزَّجاج : وهي كتاءِ جلَسَتْ وقامَتْ ، تاءُ الحروف كتاءِ الأَفعال دخلت على مالا يُعرب في الوجهين ، ولا تستعمل (لَا) مع التَّاءِ إِلَّا في الحِينِ والزَّمانِ والوقت ونحوه ، ومن ذلك قول الشَّاعر :

. . . . وَلاتَ ساعَةَ مَنْدَمِ (١)

---

(١) هذا جزءٌ من بيت استشهد به النحويون على أن عَمَل (لاتَ) لا يختص بلفظ الحين ، بل تكون مع الأوقات كلها ، وقد استشهد الفراءُ بهذا الجزءِ أيضاً على أن من العرب من يضيف =

وقال الآخر :

تَذَكَّرَ حُبَّ لَيْلَى لاتَ حِينَا ... وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ ٱلْقَرِينَا (١)

وأنشد بعضهم :

=(لات) فيخفض ، ثم قال : ولا أحفظ صدر البيت على أنه لم يرض عن الجرّ بها ، وإنما قرّر أن الوجه هو النصب بها لأنها في معنى (ليس) ، وذكر على ذلك الشاهد الذي ذكره ابن عطية بعد ذلك ، وقال البغدادي في خزانة الأدب : « والبيت الذي قال الفراء : لا أحفظ صدره ، رواه مع صدره ابن السِّكِّيت في كتاب (الأضداد) ، وهو :

وَلَتَعْرِفَنَّ خَلائِقاً مَشْمُولَةً ... وَلَتَنْدَمَنَّ وَلاتَ ساعَةَ مَنْدَمِ

والخلائق المشمولة هي : المشئُومة ، وأخلاق السوء ، وقد يقال أيضاً : رجل مشمولُ الخلائق ، أي : كريم الأخلاق ، قال ذلك ابن الأعرابي في تفسير « مشمولة » . وقد روى هذا الشاهد في الأشموني :

* نَدِمَ البُغَاةُ وَلاتَ ساعَةَ مَنْدَمِ *

وفي كتاب « فرائد القلائد في مختصر الشواهد للعيني » أن هذا جزء من بيت هو بتمامه :

نَدِمَ البُغَاةُ وَلاتَ ساعَةَ مَنْدَمٍ ... وَالْبَغْيُ مَرْتَعُ مُبْتَغِيهِ وَخِيمُ

وقال في شرحه : « وقائلُه محمد بن عيسى بن طلحة بن عُبَيْد الله التَّيْمي ، وقيل : بل مهلهل بن مالك الكناني » ، وابن عطية يستشهد بالبيت هنا على أن (لات) تستعمل مع الحين والزمان والوقت ونحو ذلك ، لا مع الحين فقط كما يدعي بعض النحويين .

(١) هذا الشاهد هو الذي ذكره الفراءُ دليلا على أن (لاتَ) تعمل النصب فيما بعدها ، قال في كتابه (معاني القرآن) : « والكلامُ أن يُنصب بها ؛ لأنها في معنى (لَيْسَ) ، أنشدني المفضَّل : تَذَكَّرَ حُبَّ ليلى ... البيت ، ثم قال : فهذا نصب » . وابن عطية يستشهد بالبيت هنا على أن (لاتَ) تعمل النصب في الحين ، كما تعمله في كل ما يدل على الزمن . والقرين هو الصاحب أو الزوج ، والمراد به هنا ليْلَى ، يقول : إنه تذكَّر حبها في وقت لا ينفع فيه ذلك ؛ إذ علاه الشيب وأبعد عنه الأحبَّة .

طَلَبُوا صُلْحَنَـــا ولاتَ أَوانٍ فَأَجَبْنا أَنْ لَيْسَ حِينَ بَقَاءِ (١)

وأَنْشَدَهُ الزَّجاج بكسر التاءِ ، وهذا كثير ، وقراة الجمهور فتح التاءِ من [لاتَ] والنون من [حِينَ] ، ورُوي عن عيسى كسر التاءِ من [لاتَ] ونصب النون من [حِينَ] ، ورُوي عنه أيضاً كسر النون منها .

واختلفوا في الوقف على [لَاتَ] - فذكر الزَّجَّاج أَن الوقف بالتاءِ ، ووقف الكسائي بالهاءِ ، ووقف قوم - واختاره أبوعُبَيْد - على [لا] وجعلوا التاءَ موصولة بحين ، فقالوا : «لَا تَحِينَ» ، وذكر أبو عبيد أنها كذلك في مصحف عثمان ، ويحتج لهذا بقول أَبي وجزة :

العاطِفُونَ تَحِينَ ما مِنْ عَـــاطِفٍ والمُطْعِمُونَ زمانَ ما منْ مُطْعِمِ (٢)

---

(١) هذا البيت لأبي زُبَيْد المنذر بن حرملة الطائي (وقيل : بل هو حرملة بن المنذر الطائي)، مات على النصرانية وقد أدرك الإسلام ، وكان عثان بن عفّان رضي الله عنه يقرِّبُه ويدني مجلسه ، وهو من قصيدة طويلة من الخفيف ، قال في شرح الشواهد للعيني : «والشاهد في قوله : (ولات أوانٍ) حيث وقع خبره لفظة أوانٍ كالحينِ ، وهي جملة حالية ، أي : ليس الأوان أوان صلح ، فحذف المضاف إليه ، ثم بُني (أَوَانٍ) كما بُني (قبلُ وبعدُ) عند حذف المضاف إليه ، ولكنه بُني على الكسر لشبهه بـ (نَزَالِ) في الوزن ، ثم نُوِّن للضرورة ، و (أنْ) تفسيرية ، وليس للنفي ، واسمها محذوف ، وقوله : (حين بقاء) هو الخبر ، أي : ليس الحين حين بقاءِ الصلح» . وفي (معاني القرآن) قال الفراءُ بعد أن استشهد بقول الشاعر : (تذكَّر حُبَّ ليلى ...) : «وأنشدني بعضهم : طلبوا صلحنا . البيت ، فخفض (أوان)» . ولاحِظ أنه لم يقل : بُني على الكسر كما قال صاحب شرح الشواهد .

(٢) البيت من قصيدة لأبي وجزة السعدي يمدح بها آل الزبير بن العوام ، وأبو وجزة اسمه : يزيد بن عبيد ، شاعر ، محدث ، مقرئ ، ولكن البيت مركّبٌ من مصراعيْ بيتيْن ، وهكذا وقع في صحاح الجوهري فتبعه الشُّرّاح والمحققون ، والذي في الديوان هو : =

يمدح آل الزُّبَيْر . وقرأ بعض الناس : ﴿وَلَاتَ حِينُ﴾ برفع النون على إضمار الخبر .

= وإلى ذَرَا آلِ الزُّبَيْرِ بِفَضْلِهِم | نِعْمَ الذَّرَا في النَّائباتِ لَنَا هُمُ
الْعَاطِفُونَ تَحِينَ ما مِنْ عَاطِفٍ | والمُسْبِغُونَ يَداً إذَا مَا أنْعَمُوا
واللاحِقُونَ جِفَانَهُمْ قَمَعَ الذُّرَى | والمُطْعِمُونَ زمانَ أَيْنَ المُطْعِمُ؟

والذَّرَا – بالفتح – : كلُّ ما استَتَرْتَ به ، والنائبات : شدائد الدهر وحوادثه ، والعَطْف : الشَّفقة والتَّحَنُّن ، وتَحِينَ : ظرف للعطف والتّاءُ فيها زائدة ، أو أنها متصلة بما قبلها على أنها هاءُ السكت وجملة (ما من عاطف) منفية ، و (مِنْ) فيها زائدة ، والمعنى : ما مِنْ عاطفٍ موجود . والمُسْبِغُون : من قولهم : أَسْبَغَ الله النِّعْمَةَ : أفاضها وأتَمَّهَا ، والْيَدُ : النعمة . واللاحقون معناها : المُتبِعُونَ ، والجِفَان بالكسر : جمع جَفْنة بالفتح ، وهي القصعة الكبيرة للطعام ، والقَمَع بفتح القاف والميم : جمع قَمَعَة بالتحريك بالفتح ، وهي رأس السنام من الجَمَل ، والذُّرَى : جمع ذِرْوة ، وهي أعْلى السنام ، وفيها أطْيب لحمه . يمدحهم بأنَّهُم ملجأٌ أمين يلجأُ إليه الناسُ – ومنهم الشاعر وقومه – عند الحوادث والمصائب ، وأنهم يعطفون على الناس إذا اشتدت الأحوال وأجدب الزمان ، وإذا أنعموا وسَّعُوا على الناس إفضالا ونائلا ، وأنهم يطعمون الناسَ في أيام القحط والجدب أفضل اللحم ، يطعمونهم في الزمان الذي يبحث الناس فيه عن المطعمين الطعام ، ورواية المؤلف للبيت فيها إقواءٌ ، والقصيدة كلها بالضم كما رأينا ، والرواية الصحيحة هي التي أثبتناها ، أما رواية ابن عطية فقد نقلها عن أبي عُبَيْد في الغريب المصنف .

وتركيب بيت من بيتين ونحوه في الاستشهاد شائع وكثير عند المصنِّفين ، يفعلونه قصداً لا خطأً ، إما لأن المعنى يكون متفرقاً في أبيات ، وإما لأن في أحد المصراعيْن قَلَقاً في اللغة أو في المعنى ، فيختصرون بأخذ مصراعين .

هذا والبيتُ في (مجالس ثعلب) و (الإنصاف) و (الأشموني) ، واللسان (ليت – حين) ، وفي (خزانة الأدب) ، وقد نقل كثيراً من أقوال النحويين في تخريجه ، وأحسن التخريجات ما قاله ابن السيرافي في (شرح شواهد الغريب المصنف) ، وأبو علي الفارسي في (المسائل المنثورة) ، ونقله ابن جني عنهما في كتابه (سرّ صناعة الإعراب) ، ويتلخص هذا التخريج في أن التاءَ في الأصل هاءُ السكت ، وأنها في (العاطفون) ، وهي – على هذا – (العاطفونَهْ) ، وقد اضطر الشاعر إلى تحريكها فأبدلها تاءً وفَتَحها ، أراد أنْ يجريها في الوصل على ما تكون =

و «الْمَنَاصُ» : الْمَفَرُّ ، ناصَ ينوصُ إذا فاتَ وفرَّ (١) ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : ليس بِحِينِ نَزْوٍ ولا فِرَارٍ ، ضبط القوم .

والضمير في [وَعَجِبُوا] لكفّار قريش ، واستغربوا أَن نُبِّئَ بشرٌ منهم فأَنذرهم وحذَّرهم ، وأَن وحّد الإِلٰه ، وقالوا : كيف يكون إِلٰهٌ واحدٌ يرزق الجميع وينظر في كلِّ أَمرهم ؟

و [عُجَابٌ] بناءُ مبالغة ، كما قالوا : سريع وسُرَّاع ، وهذا كثير ، وقرأَ أَبو عبد الرحمن السلمي ، وعيسى بن عمر : [عُجَّابٌ] بشدِّ الجيم ، ونحوه قال الراجز :

جاءُوا بِصَيْدٍ عَجَبٍ مِنَ الْعَجَبْ أُزَيْرِقِ الْعَيْنَيْنِ طُوَّالِ الذَّنَبْ (٢)

وقد قالوا : رجلٌ كُرَّامٌ ، أَي كريم .

= عليه في الوقف، وذلك أنه يقال في الوقف : هؤلاء مسلمونهْ ، وضاربونَهْ ، فتلحق الهاءُ لبيان حركة النون ، وشبَّه هاءَ الوقف بهاءِ التأنيث ، فلما احتاج لإقامة الوَزْن حرّكَ الهاءَ بِقَلْبها تاءً ، كما تقول في الوقف : هذا طَلْحَهْ ، فإذا وصلْت صارت الهاءُ تاءً ، فقلت : هذا طلْحَتُنا ، وعلى هذا قال : العاطفونَةَ ، وقال ابن مالك : إن التاءَ بقية (لات) ، حذفت (لا) وبقيت التاءُ ، وابن عطية يستشهد بالبيت على هذا الأساس ، (راجع خزانة الأدب للبغدادي — والتسهيل لابن مالك) .

(١) قال الفراءُ : النَّوْصُ في كلام العرب : التَّأخُّر ، والبَوْصُ : التقدم ، قال امرؤ القيس :

أَمِنْ ذِكْرِ سَلْمَى إذْ نَأَتْكَ تَنُوصُ فَتَقْصُرُ عَنْهَا خطْوَةً وَتَبُوصُ

(٢) العَجَب : إنكارُ ما يرد عليك لقلَّة اعتياده ، وجمعه : أَعْجابٌ ، ويقال : أَمْرٌ عُجَابٌ وعُجَّابٌ ، نقل صاحب اللسان (عَجَبَ) عن الفراءِ قوله : «هو مثل قولهم : رجُلٌ كريمٌ وكُرَامٌ وكُرَّامٌ ، وكبيرٌ وكُبَارٌ وكُبَّارٌ ، وعُجَّاب بالتشديد أكثر من عُجَاب» ،=

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾

رُوي في قَصص هذه الآية أن أشراف قريش وجماعتهم اجتمعوا عند مرض أَبي طالب عمِّ النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن من القبيح علينا أن يموت أَبو طالب ونؤذي محمداً بعده فيقول العرب : تركوه مدة عمِّه فلما مات آذوه ، ولكن لنذهب إلى أَبي طالب فلينصفنا منه ، وليربط بيننا وبينه ربطاً ، فنهضوا إليه فقالوا : يا أَبا طالب ، إن محمداً يسبُّ آلهتنا ويُسفِّه آراءَنا وآراءَ آبائنا ، ونحن لا نُقارُّه

= وقال صاحب العَيْن : « بين العَجيب والعُجاب فرْقٌ ، أما العَجيبُ فالعَجَبُ يكون مثلَه ، وأما العُجَابُ فالذي تجاوز حدَّ العَجَب » . وقال ابن جني في (المحتسب) : « قد كثر عنهم مجيءُ الصفة على فَعيل وفُعَال – بالتخفيف – وفُعَّال – بالتشديد – ، قالوا : رجلٌ وَضيءٌ وَوُضَّاءٌ ، وأنشدوا :

والمَرْءُ يُلْحِقُهُ بِفِتْيَانِ النَّدَى خُلُقُ الكَرِيمِ ولَيْسَ بِالوُضَّاءِ

أي : ليس بالوضيء » . وهذا البيت لصدقة الدُّبَيْري . وقد استشهد ابن جني أيضاً بالبيت الذي ذكره ابن عطية هنا ، والرواية هناك : (أُزَيْرِقِ العَيْنِ وَطُوَّالِ الذَّنَبْ) .

على ذلك ، ولكن افصل بيننا وبينه في حياتك ، بأن يقيم في منزله يعبد ربَّه الذي يزعم ، ويدع آلهتنا وسبَّها ، ولا يعرض لأَحد منَّا بشيءٍ من هذا ، فبعث أَبو طالب في محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا محمد ، إن قومك قد دعوْكَ إلى النَّصفة ، وهي أَن تدعهم وتعبد ربَّك وحدك ، فقال : أَوَ غير ذلك يا عم ؟ قال : وما هو ؟ قال : يُعطونني كلمة تدين لهم بها العربُ ، وتؤدي إليهم الجزية بها العجم ، قالوا : وما هي فإننا نبادر إليها ؟ قال : لا إلٰه إلَّا الله ، فنفروا عند ذلك وقالوا : ما يرضيك منا غير هذا ؟ قال : والله لو أَعطيتموني الأَرض ذهباً ومالاً ، وفي رواية : لو جعلتم الشمس في يميني ، والقمر في شمالي ما أَرضاني منكم غيرها ، فقاموا عند ذلك وبعضهم يقول : «أَجعل الآلهة إلٰهاً واحداً إن هذا لشيءٌ عجاب» ؟ ويرددون هذا المعنى ، وعقبة بن أَبي مُعيط يقول : ﴿ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ الآية (١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وجلبت هذا الخبر تامَّ المعنى ، وفي بعض رواياته زيادة ونقصان ، والمعنى متقارب .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والترمذي ـ وقال : هذا حديث حسن صحيح ـ ، وأخرجه الحاكم في (مستدركه) وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وكذلك أخرجه الطبري ، والواحدي ، وذكره السيوطي في (الدر المنثور) وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وكما قال ابن عطية في بعض رواياته زيادةٌ ونقصان .

ولما ذهبوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عم ، قل : لا إلٰه إلَّا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله ، قال : والله لولا أن تكون سُبَّة في بنيَّ بعدي لأقْرَرْتُ بها عينك ، ومات وهو يقول : على مِلَّة عبد المطلب ، فنزلت في ذلك : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (١) .

فقوله تعالى في هذه الآية : ﴿وَٱنْطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ عبارةٌ عن خروجهم عن أَبي طالب ، وانطلاقهم من ذلك الجمع ، هذا قول جماعة من المفسرين . وقالت فرقة : هي عبارة عن إِذاعتهم لهذه الأَقاويل ، فكأَنه كما يقول الناس : انطلق الناس بالدعاءِ للأَمير ، ونحوه ، أَي : استفاضَ كلامهم بذلك ، و [ٱلْمَلَأُ] : الأَشرافُ والرُّؤوس يسدُّون مسدَّ الجميع في الآراءِ ، ونحوه .

وقولهم : ﴿أَنِ ٱمْشُوا﴾ ، [أَن] مفسِّرة لا موضع لها ، ويجوز أَن تكون في موضع نصب بإِسقاط حرف الجر ، أَي : بأَن ، فهي بتقدير المصدر ، كأَنه قال : وانطلق الملأُ منهم بقولهم : امشوا ، ومعنى الآية أَنه قال بعضهم لبعض : امشوا واصبروا على كل أَمر آلهتكم . وذهب بعض الناس إِلى أَن قولهم : [ٱمْشُوا] هو دعاءٌ لكسب الماشية ، وفي هذا ضعف ؛ لأَنه كان يلزم أَن تكون الأَلف مقطوعة ؛ لأَنه يقال : «أَمْشَى الرجُلُ» إِذا صار صاحب ماشية ، فهذا المعنى

---

(١) من الآية (٥٦) من سورة (القَصَص) .

غير متمكن في الآية ، وإنما المعنى : سيروا على طريقتكم ودوموا على سيرتكم ، أَو يكون المعنى أَمْراً من نقل الأَقدام قالوه عند انطلاقهم ، وهي في مصحف ابن مسعود : « وانْطَلَق الملأُ منهم يمشون أَن اصبروا » . وقولهم : ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ يريدون ظهور محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعُلُوَّه بالنبوَّة ، أَي : يراد منا الانقياد له .

وقولهم : ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ يريدون بمثل هذه المقالة من أَن الإِلٰه واحد . واختلف المتأَولون في قولهم : ﴿فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾ ـ فقال مجاهد : أَرادوا ملَّتهم ونِحْلتهم التي العرب عليها ، ويقال لكلٍّ ما تتَّبِعه أُمَّةٌ : مِلَّة . وقال ابن عباس ، والسدي : أَرادوا ملَّة النصارى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذلك مُتَّجه لأَنها ملَّة شهر فيها التثليث وأَنَّ الإِلٰه ليس بواحد . وقالت فرقة : معنى قولهم : ﴿مَا سَمِعْنَا﴾ أَي : ما سمعنا أَنه يكون مثل هذا ، ولا أَنه يقال في الملَّة الآخرة التي كنا نسمع أَنها تكون في آخر الزمان .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وذلك أَنه قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام كان الناس يستشعرون خروج نبيٍّ وحدوث ملَّة ودين ، ويدل على صحة هذا

ما رُوي من أَقوال الأَحبار أُولي الصوامع ، وما رُوي عن شقٍّ وسطيح ، وما كانت بنو إِسرائيل تعتقد من أَنه يكون منهم . وقولهم : ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ﴾ إِشارة إِلى جميع ما يُخبر به محمد صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى .

ثم قالوا على جهة التقرير من بعضهم لبعض ، ومُضَمَّن ذلك الإِنكار – ﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ؟ بمعنى : نحن الأَشراف الأَعلام ، فَلِمَ خُصَّ هو ؟ وكيف يصحُّ هذا ؟ فردَّ الله قولهم بما يقتضيه [بَلْ] ؛ لأَن المعنى لَيْسَ تخصيص الله وإِنعامه جارياً على شهواتهم ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي﴾ ، أَي في ريب أَن هذا التذكير حق . ثم توعدهم بقوله : ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ ، أَي : لو ذاقوه لتحققوا أَن هذه الرسالة حق ، أَي هم لجهالتهم لا يُبَيِّنُ لهم النظرُ ، وإِنما يُبَيِّن لهم مباشرةُ العذاب . وقرأَ ابن مسعود : «أَمْ أُنْزِل» بميم بين الهمزتين .

ثم وَقَفَهم احتجاجاً عليهم ، أَعندهم خزائن رحمة الله التي فيها الهدى والنُّبوَّة وكل فضل ، فيكون لهم تحكُّم في الرسالة وغيرها من نِعَم الله ؟ و [أَمْ] هنا لم تُعادلها أَلف ، فهي المقطوعة التي معناها الإِضراب عن الكلام الأَول واستفهام ، وقدَّرها سيبويه ب «بَلْ والأَلف» ، كقول العرب : «إِنها لإِبلٌ أَمْ شاءٌ» ، والخزائن للرحمة مستعارة ، كأَن المعنى : موضع جمعها وحفظها ، ومن حيث كانت ذخائر البشر

تحتاج إلى ذلك خوطب في الرحمة بما ينحو إلى ذلك ، قال الطبري : يعني بالخزائن المفاتيح . والله تعالى أعلم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾

[أَمْ] في هذه الآية معادلة للألف المقدرة في [أم] الأُولى ، وكأنه تعالى يقول في هذه الآية : أَمْ لهم هذا المُلْك فتكون الرسالة والنبوة على اختيارهم ونظرهم ، ﴿ فَلْيَرْتَقُوا في ٱلْأَسْبَابِ ﴾ إن كان الأَمر كذلك ، أَي : إلى السماءِ ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما . و « الأَسباب » كل ما يُتَوَصَّل به إلى الأَشياءِ ، وهي هنا بمعنى الحبال والسلالم . وقال قتادة : أَراد أَبوابَ السماءِ .

قوله تعالى : ﴿ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ ﴾ ، اختلف المتأَولون في الإِشارة بـ [هُنَالِكَ] إلى ما هي ـ فقالت فرقة : أَشار إلى الارتقاءِ في الأَسباب ، أَي : هؤلاءِ القوم إن راموا ذلك جُنْدٌ مهزوم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قويٌّ .

وقالت فرقة : الإشارة بـ [هُنَالِكَ] إلى حماية الأَصنام وعضدها ، أَي : هؤلاءِ القوم جند مهزوم في هذه السبيل ، وقال مجاهد : الإِشارة بـ [هُنَالِكَ] إلى يوم بدر ، وكان غيْباً أَعلم الله به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم أَنَّ جنداً مشركين يُهْزَمون ، فخرج في بدر ، وقالت فرقة : الإشارة إلى من حضر عام الخندق بالمدينة . وقوله : ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ ، أَي : من جملة الأَحزاب والأُمم الذين تعصبوا في الباطل وكذَّبوا الرُّسل فأَخذهم الله تعالى . و [مَا] في قوله تعالى : ﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ زائدة مؤكدة ، وفيها تخصيص .

واختلف المتأَولون في قوله تعالى : ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ ـ فقال ابن عباس ، وقتادة : سُمِّي بذلك لأَنه كانت له أَوتاد وخشب يُلعب له بها وعليها ، وقال السدي : كان يقتل الناس بالأَوتاد ويشدُّهم في الأَرض بها ، وقال الضحاك : أَراد المباني العظام الثابتة . وهذا أَظهر الأَقوال ، كما يقال للجبال أَوتاد لثبوتها . ويحتمل أَن يقال له : «ذو الأَوتاد» عبارة عن كثرة أَخبِيَتِه وعِظَم عساكره ، ونحوٌ من هذا قولهم : «أَهل العمود» . وقرأَت فرقة : [لَيْكَةِ]، وقرأَت فرقة : [ٱلْأَيْكَةِ]، وقد تقدم .

ثم أَخبر تعالى أَن هؤلاءِ المذكورين هم الأَحزاب ، وضرب بهم المثل لقريش في أَنهم كذَّبوا ، ثم أَخبر أَن عقابه حقٌّ على جميعهم ، فكذلك يحق عليكم أَيها المكذبون بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وفي قراءَة ابن مسعود : « إِنْ كلٌّ لَمَّا » ، وحكى أَبو عمرو الداني أَنَّ فيها : « إِنْ كُلُّهُمْ إِلَّا كَذَّبَ » .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾

[يَنْظُرُ] بمعنى : ينتظر ، وهذا إِخبار من الله تعالى لرسوله صَلَّى الله عليه وسلم ، صدَّقه الوجود ، فالصيحة ـ على هذا التأْويل ـ عبارة عن جميع ما نابهم من قتل أَو أَسر وغلبة ، وهذا كما تقول : صاح فيهم الدَّهر ، وقال قتادة : توعدهم الله بصيحة القيامة والنفخ في الصُّور ، قال الثعلبي : رُوي هذا التفسير مرفوعاً إِلى النبي صلى الله

عليه وسلم(١) . وقالت طائفة : توعدهم تعالى بصيحة يهلكون بها في الدنيا ، وعلى هذين التأويلين فمعنى الكلام أنهم بمدرج عقوبة ، وتحت أمر خطير ما ينتظرون فيه إلا الهلكة ، وليس معناه التوعّد بشيءٍ معين ينتظره محمد صلى الله عليه وسلم فيهم كالتأويل الأول .

وقرأ الجمهور : [فَوَاقٍ] بفتح الفاءِ ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن وثاب ، والأعمش ، وأبو عبد الرحمن : [فُوَاقٍ] بضم الفاءِ . قال ابن عباس ، وغيره : هما بمعنى واحد ، أي : ما لها من انقطاعٍ وعودة ، بل هي متصلة حتى مهلكهم ، ومنه : «فُوَاقُ الْحَلْبة» ،

---

(١) الذي ذكره الإمام السيوطي في الدّرّ المنثور أن عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم أخرجوا عن قتادة رضي الله عنه تفسير هذه الآيات ، ولم يشر إلى أنّ قتادة قد رفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث : ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ﴾ يعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿إلا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ يعني الساعة ، ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ يعني : مالها من رجوع ولا مثوبة ولا ارتداد . وفي تفسير ابن جرير الطبري ، أخرج عن محمد بن كعب القرظي ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنّ الله لما فرغ من خلْق السموات والأرض خلَق الصُّور ، فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه شاخصٌ ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر) ، قال أبو هريرة : يا رسول الله وما الصور ؟ قال : (قرْنٌ) ، قال : كيف هو ؟ قال : (قرْنٌ عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات : نفخة الفزع الأولى ، والثانية : نفخة الصَّعْق ، والثالثة : نفخة القيام لربّ العالمين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول : انفُخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، ويأمره الله فيديمها ويطوّلها ، فلا يفتر ، وهي التي يقول الله : ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إلا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ . فلعلّ هذا هو ما أشار إليه الثعلبي بقوله : « رُوي هذا التفسير مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم » .

المهلة التي بين الشَّخْبَتَيْن(١) ، وجعلوه مثل قَصَاص الشعر وقُصَاصه ، وغير ذلك ، ومنه الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : (من رابط فُوَاق ناقة حرَّم الله جسده على النار) (٢). وقال ابن زيد ، وأبو عبيدة ، ومؤرج ، والفراءُ : المعنى مختلف ، الضَّمُّ كما تقدم من معنى فواق ، والفتح بمعنى الإِفاقة ، أي : ما يكون لهم بعد هذه الصيحة من إفاقة ولا استراحة ، ففَواق مثل جواب من أَجاب .

ثم ذكر عزَّ وجلَّ عنهم أَنهم قالوا : ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ، والقِطُّ : الحَظَّ والنصيب ، والقِطُّ أَيضاً : الصَّكُّ والكتاب من السلطان بِصِلَّةٍ ونحوِه ، ومنه قول الأَعشى :

وَلَا الْمَلِكُ النُّعْمَانُ يَوْمَ لَقِيتَهُ   بِغِبْطَتِهِ يُعْطِي الْقُطُوطَ ويَأْفِقُ (٣)

---

(١) في اللسان (فَوَقَ) : « فُوَاق النَّاقَة وفَوَاقها : رجوع اللبن في ضرعها بعد حلبها ، يقال : لا تنتظره فواق ناقة ، وفُوَاق الناقة وفَوَاقُها : ما بين الحلبتين إذا فتحت يدكَ » . والشَّخْب والشُّخب : ما خرج من الضرع من اللبن إذا احتُلب ، وفي المثل : « شُخْبٌ في الإناء وشُخْبٌ في الأرض » ، والشَّخْبَةُ : الدُّفعة منه .

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث ضعيف .

(٣) البيت من قصيدة له يمدح المحلق بن خنثم بن شداد بن ربيعة ، يقول في مطلعها :

أَرِقْتُ وما هَـٰذَا السُّهَادُ المُؤَرِّقُ   وَمَا بيَ مِنْ سُقْمٍ وَمَا بيَ مَعْشَقُ ؟

وقد أراد بالنعمان : النُّعمان الثالث أبا قابوس ، ويروى البيت (كما في الديوان) ــ بإِمَّتِه ــ بدلا من (بغبطته) ، والإِمَّةُ : النعمة ، أو الدين ، أو غضارة العيش ، والقُطُوط : جمْع قِطٍّ ، وهو الحظ والنصيب والصك بالجائزة ، ويأفِقُ ، يُعطي بعضاً أكثر من بعض ، والشاهد أن كلمة القطوط يراد بها الكتاب من السلطان بالجائزة أو الصِّلَة .

وهو من : قَطَطْتُ ، أَي : قطعتُ . واختلف الناس في «القطِّ» هنا ، ما أَرادوا به ؟ فقال سعيد بن جبير : أَرادوا به : عجِّل لنا نصيبنا من الخير والنعيم في دنيانا ، وقال أَبو العالية ، والكلبي : أَرادوا : عجِّل لنا صحفنا بأَيْمَاننا ، وذلك لمَّا سمعوا في القرآن أَن الصحف تُعْطَى يوم القيامة بالأَيمان والشمائل قالوا ذلك ، وقال ابن عباس ، وغيره : أَرادوا ضِدَّ هذا من العذاب ونحوه ، فهذا نظير قولهم : ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ (١) . وقال السدي : المعنى : أَرنا منازلنا في الجنة حتَّى نبايعك .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وعلى كل تأْويل فكلامهم خرج على جهة الاستخفاف والهزء ، ويدل على ذلك ما عُلم من كفرهم واستمر ، ولفظ الآية يعطي إقراراً بيوم الحساب .

قوله تعالى : ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ، أَي : من هذه الأَقاويل التي يريدون بها الاستخفاف ، ولا تلتفت إليها ، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ في الدين والصَّدْع به ، فتَأَسَّ به وتأَيد كما تأَيد ، و «الأَيْد» : القوة ، وهي في داود متضمنة قوة البدن وقوته على الطاعة . و «الأَوَّابُ» : الرَّجَّاع إلى طاعة الله تعالى ، قاله مجاهد وابن زيد ،

(١) من الآية (٣٢) من سورة (الأنفال) .

وفسَّره السدي بالمُسَبِّح ، وذكر الثعلبي أن أَبا هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الزُّرْقة يُمْنٌ)(١) ، وكان داود أَزرق ، وأَخبر تبارك وتعالى عمَّا وهب لداود من الكرامة في أَن سخَّر الجبال معه تسبِّح ، وظاهر الآية عموم الجبال ، وقالت فرقة : بل هي الجبال التي كان فيها وعندها ، وتسبيح الجبال هنا حقيقة . و «الإِشْرَاقُ» : وقت ضياءِ الشمس وارتفاعها ، ومنه قولهم : «أَشْرِقْ ثبيرُ كيْما نُغِير»(٢) ، أَي : ادخل في الشروق ، وفي هذين الوقتين كانت صلاة بني إسرائيل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : صلاة الضحى عندنا هي صَلاة الإِشراق ، وهي في هذه الآية(٣) .

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه في الضعفاء ، عن عائشة رضي الله عنها ، والحاكم في تاريخه ، والديلمي في مسند «الفردوس» عن أبي هريرة رضي الله عنه . (الجامع الصغير) .

(٢) ذكر هذا المثل الميدانيّ في كتابه «مَجْمَع الأمثال» ، وقال في شرحه : «أشْرِق ، أي : ادخُلْ يا ثبير في الشروق كي نسرع للنحر ، يقال : أغار الثعلبُ ، أي : أسرع ، قال عمر رضي الله عنه : «إن المشركين كانوا يقولون : أشرق ثبير كيْما نُغير ، وكانوا لا يُفيضون حتى تطلع الشمس ، يُضرب في الإسراع والعَجَلَة» . وثبير : جبل بمكة ، قال الحموي في (معجم البلدان) : «كان المشركون إذا أرادوا الإفاضة يقولون : أشرق ثبير كيْما نُغير ، وذلك أنهم في الجاهلية كانوا إذا قضَوْا نُسُكهم لا يجيزهم إلا قومٌ مخصوصون ، وكان منهم رجل يقال له : أبو سيَّارة ، كان يتقدم الحاجَّ على حمار له ، ثم يخطب الناس فيقول : «اللّهم أصلح بين نسائنا ، وعاد بين رعائنا ، واجعل المال بين سُمَحائنا ، أوفوا بعهدكم ، وأكرموا جاركم ، واقْرُوا ضيفكم» ، ثم يقول : «أشرق ثبير كيْما نغير» ، أي نسرع إلى النحر» .

(٣) أخرج ابن جرير ، والحاكم ، عن عبد الله بن الحارث ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، كان لا يصلي الضحى حتى أدخلناه على أمِّ هانئٍ ، فقلنا لها : أخبري ابن عباس رضي الله عنهما بما أخبرتنا به ، فقالت : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتي فصلّى=

وقوله [وَٱلطَّيْرَ] بالنصب عطف على [الْجِبَالَ] ، أي : وسَخَّرْنا الطَّيْرَ ، و [مَحْشُورَةً] نصب على الحال ، ومعناه : مجموعة ، وقرأ ابن أبي عَبْلَة : ﴿وَٱلطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ﴾ بالرفع فيهما ، والضمير في [لَهُ] قالت فرقة : هو عائد على الله تعالى ، فَ [كُلٌّ] - على هذا - يراد به : داودُ ، والجبالُ ، والطيرُ . وقالت فرقة : هو عائد على داود عليه السلام ، و [كُلٌّ] : الجبالُ والطيرُ .

وقوله تعالى : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ عبارة عامة لجميع ما وهبه الله تعالى من قوة وجُنْد ونعمة ، وقد خصص بعض المفسرين في ذلك أشياءَ دون أَشياءٍ ، فقال السدي : بالجنود ، وقال آخرون : بِهَيْبَةٍ جعلها الله له . وقرأ الجمهور : [وَشَدَدْنَا] بتخفيف الدال الأُولى ، ورُوي عن الحسن شَدُّها على المبالغة . و [ٱلْحِكْمَةَ] : الفهم في الدين وجودة النظر ، هذا قول فرقة ، وقالت فرقة : أَراد بالحكمة النُّبُوَّةَ ، وقال أَبو العالية : الحكمة : العلمُ الذي لا تردُّه العقول .

= صلاة الضحى ثمان ركعات ، فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول : لقد قرأتُ ما بين اللوحين فما عرفتُ صلاة الإشراق إلا الساعة : ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ . وأخرج مثله ابن مردويه عن عبد الله بن الحارث ، وأخرج البخاري في تاريخه ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والطبرانيُّ في الأوسط ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أوَّاب ، هي صلاة الأوَّابين) . ورَوى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنهما ، قال : « أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهنَّ حتى أموت : صوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وصلاة الضحى ، ونوم على وتر » ، واللفظ للبخاري .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

هي عقائد البرهان .

واختلف الناس في «فَصْلِ الْخِطَابِ» ـ فقال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي : هو فصل القضاءِ بين الناس بالحق وإصابتُه وفَهْمُه . وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وشُرَيْح ، والشعبي : هو إِيجابُ اليمين على المدَّعَى عليه ، والبَيِّنَة على المدَّعِي ، وقال زياد ، والشعبي أَيضاً : هو قول : «أَمَّا بعد» ، فإِنه أَول من قالها .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والذي يعطيه لفظ الآية أَن الله تعالى آتاه أَنه كان إِذا خاطب في نازلةٍ فصَّل المعنى وأَوْضحه ، لا يأْخذه في ذلك حَصَرٌ(١) ولا ضعف ، وهذه صفةٌ قليلٌ من يدركها ، فكان كلامه عليه السلام فَصْلاً ، وقد قال الله تبارك وتعالى في صفة القرآن : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾(٢) ، ويزيد محمد صلى الله عليه وسلم على هذه الدرجة بالإِيجاز في العبارة ، وجمْع المعاني الكثيرة في اللفظ اليسير ، وهذا هو الذي تَخَصَّص هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ به في قوله : (وأُعْطِيتُ جوامع الْكَلِم)(٣) ،

(١) الحَصَر في الكلام : عدمُ القدرة عليه والعجزُ عن الإبانة .

(٢) الآية (١٣) من سورة (الطارق) .

(٣) أخرجه البخاري في التعبير ، ومسلم في الأشربة ، والترمذي في السير ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، ولفظه كما في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن=

فإنها في الخِلالِ التي لم يُؤْتَها أَحدٌ قبله ، وذكْر «جوامع الكلم» معدودٌ ومُسَلَّم له صلى الله عليه وسلم .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾

هذه مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، واستُفْتِحَت بالاستفهام تعجباً من القصة وتفخيماً لها ؛ لأَن المعنى : هل أَتاك هذا الأَمر العجيب الذي هو عبرة ؟ فكأَن هذا الاستفهام إنما هو تهْيِئَةٌ لنفس المخاطب

= رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فُضِّلْتُ على الأنبياء بستٍّ : أُعطيت جوامع الكلِم ، ونُصرتُ بالرعب ، وأُحِلَّت لي الغنائم ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأُرسلت إلى الخلق كافة ، وخُتم بي النبيُّون) .

وإعدادٌ لها للتَّلَقِّي ، و «الخَصْمُ» - جارٍ مجرى «عَدْل وَزَوْر» - يوصفُ به الواحد والاثنان والجمع ، ومنه قول لبيد :

وخَصْمٍ يَعُدُّونَ الذُّحُولَ كأَنَّهُمْ قُرُومٌ غَيَارَى كلَّ أَزْهَرَ مُصْعَبِ (١)

وتحتمل هذه الآية أن يكون التَّسَوُّر للمحراب من اثنين فقط ؛ لأن نفس الخصومة إنما كانت بين الاثنين ، فتجيءُ الضمائر في [تَسَوَّرُوا] و [دَخَلُوا] و [قَالُوا] على جهة التَّجَوُّز في العبارة عن الاثنين بلفظ الجمع ، وتحتمل أَنه جاءَ مع كل واحد فرقة كالعاضدة أَو المُؤْنسة ، فيقع على جميعهم «خَصْمٌ» ، وتجيءُ الضمائر حقيقية .

و [تَسَوَّرُوا] (٢) معناه : عَلَوْا سُورَهُ ، وهو جمع «سُورَةٍ» ، وهي القطعة من البناءِ ، وهذا كما تقول : تَسَنَّمْتُ الحائط أَو البعيرَ إذا علوتَ سنامه . و «المِحْرَابُ» : الموضع الأَرفع من القصر أَو المسجد ، وهو

---

(١) البيت من قصيدة له يذكر أيامه ومفاخره ومقاماته بين أيدي الملوك ، والرواية في الديوان :

وخَصْمٍ قيامٍ بالعَرَاءِ كأَنَّهُمْ قُرومٌ غيَارَى كلَّ أَزْهَرَ مُصْعَبِ

والخَصْم : الخصوم والأعداءُ ، وهو يقع على الواحد والجمع ، قال ذلك أبو عبيدة في (مجاز القرآن) واستشهد بهذا البيت ، والذُّحول : جمع ذحل ، وهو الثأرُ ، أما على رواية الديوان فالأرض العَرَاءُ هي الأرض الفضاءُ . والقُروم : جمع قرم ، وهو الفحل العظيم من الإبل ، وغيَارى : جمع غيران ، والأزهَرُ : الأبيض ، والمُصْعَب : الشديد القويُّ من الإبل الذي يمتنع من الركوب ، ولهذا فلم يُذَلَّل ، وقد نصب (كلَّ) على تقدير : أخُصُّ . يُشَبِّه الخصومَ الأقوياءَ بالفحول من الإبل . ثم يقول بعد ذلك : إنه ردَّهم كقطيع من البقر الضعيف المتهالك من الإعياءِ وقِسيُّهم مائلة تضطرب مما لقوا من الهزيمة .

(٢) جاءَ في اللسان : «والسُّورُ جمع سُورَةٍ مثل بُسْرَة وبُسْرٍ .

موضع التَّعبُّد ، والعامل في [إِذْ] الأُولى [نَبَأُ] ، وقيل : [أَتَاكَ] ، والعامل في الثانية [تَسَوَّرُوا] ، وقيل : هي بدلٌ من الأُولى (١) .

وقوله تعالى : ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ يحتمل أَن يكون فزعه من الداخلين أَنفسهم لئلا يؤذوه ، وإِنما فزع من حيث دخلوا من غير الباب ودون استئذان ، وقيل: إِن ذلك كان ليلاً ، ذكره الثعلبي . ويحتمل أَن يكون فزعُه من أَن يكون أَهل مُلْكه قد استهانوه حتَّى ترك بعضهم الاستئذان ، فيكون فزعه من فساد السيرة لا من الداخلين ، ويظهر من قولهم : [لَا تَخَفْ] أَنهم فهموا فزعه .

وهنا قَصَصٌ طوَّل الناس فيه ، واختلفت الروايات فيه ، ولا بد أَن نذكر منه مالا يقوم تفسير الآية إِلَّا به ، ولا خلاف بين أَهل التأْويل أَن هؤلاءِ الخصم إِنما كانوا ملائكة بعثهم الله تعالى ضرب مثل لداود عليه السلام ، فاختصموا إِليه في نازلة قد وقع هو في نحوها ،

(١) القول بأن العامل في [إذْ] هو [نَبَأُ] هو قول أبي البقاء ، قال أبو حيان الأندلسي : وهو مردود بأن النبأ الواقع في عهد داود عليه السلام لا يصح أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا أردنا بالنبأ القصة في نفسها لم يكن قوله : [نَبَأُ] ناصباً للظرف . والقول بأن العاملَ في الظرف هو [أَتَاكَ] هو قول الحوفي ، وهو أيضاً مردود ، لأن إتيان النبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقع إلا في عهده ، لا في عهد داود عليه السلام . وقد قال الزمخشري : إن العامل في الظرف محذوف ، تقديره : وهل أتاك تخاصم الخصم ، وقيل : إنه يجوز أن ينتصب الظرف بالخَصْمِ لما فيه من معنى الفعل . أما [إذ] الثانية فهي بدل من [إذْ] الأولى ، كما قال ابن عطية ، وقيل : هي منصوبة بقوله : [تَسَوَّرُوا] .

فأَفتى بِفُتْيا هي واقعة عليه في نازلته ، ولما شعر وفهم المراد خرَّ وأَناب واستغفر ، أَما نازلته التي وقع فيها فروي أَنه عليه السلام جلس في ملإٍ من بني إِسرائيل فأُعجب بعمله ، وظهر منه ما يقتضي أَنه لا يخاف على نفسه الفتنة ، ويقال : بل وقعت له في نحو هذا محاورة مع الملكين الحافظيْن عليه ، فقال : جَرِّباني يوماً ، وإِن غبتما عني فإِني لا أُواقع مكروهاً ، وقال السدي : كان قد قسَّم دهره : يوماً يقضي فيه بين الناس ، ويوماً للعبادة ، ويوماً لشأْن نفسه ، فعُيِّن يومُ خُلُوِّه للعبادة لمَّا تمنى أَن يُعطى مثل فضل إِبراهيم وإِسحق ويعقوب عليهم السلام ، والتزم أَن يُمتحن كما امْتُحنوا ، وقيل : السبب غير هذا مما هو تطويل لا يصح .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إِن داود أَخذ يوماً في عبادته ، وانفرد في محرابه يصلي ويسبِّح ، إِذ دخل عليه طائر من كُوَّة فوقع بين يديه ، فروي أَنه كان طائراً حسن الهيئة ، حمامة ، فمدَّ داود يده إِليها ليأْخذها ، فما زالت تُطْمعه ويتبعها حتى صعدت الكُوَّة التي دخلت منها ، فصعد ليأْخذها فتنحَّى الطائر له ، فتطلَّع داود فإِذا هو بامرأَة تغتسل عريانة ، فرأَى منظراً جميلاً فَتَنَه ، ثم إِنها شعرت به فأَسبَلَتْ شعرها على بدنها فتجلَّلَتْ به فزاده ذلك ولوعاً بها ، ثم إِنه انصرف وسأَل عنها فأُخبر أَنها امرأَة رجل من جنده يقال له : «أُورِيَا» ، وأَنه في بعث كذا وكذا ، فيروى أَنه كتب إِلى أَمير

تلك الحرب أَن قدِّم فلاناً يقاتل عند التابوت ، وهو موضع قلَّما يخلص منه أَحد ، فقدمه فاستشهد هنالك ، ويروى أَن داود كتب أَن يُؤَمَّر ذلك الرجل على جملة من الرجال ، وترمى به الغارات والوجوه الصعبة من الحرب حتى قُتل في الثالثة من نهضاته ، وكان لداود عليه السلام – فيما روي – تسع وتسعون امرأَة ، فلما جاءَه الكتاب بقتل من قُتل في حربه ، جعل كلما سُمِّي رجل يسترجع ويتفجع ، فلما جاءَ اسم الرجل قال : كتب الموت على كل نفس ، ثم إنه خطب المرأَة وتزوجها فكانت أُم سليمان عليه السلام فيما روي عن قتادة ، فبعث الله تعالى إليه الخصم ليُفتي أَن هذا ظلم ، وقالت فرقة : إن هذا كله همَّ به داود عليه السلام ولم يفعله ، والمعاتبة على الهَمِّ ، وقال آخرون : إنما الخطأُ في أَنه لم يجزع عليه كما جزع على غيره من الجند ، إذ كان عنده أَمر المرأَة .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

والرُّواةُ على الأَول أَكثر ، وفي كتب بني إسرائيل في هذه القصة صور لا تليق ، وقد حدَّث بها قُصَّاص في صدر هذه الآية ، فقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه : من حدَّث بما قال هؤلاءِ القُصَّاص جلدتهُ حدَّين لما ارتكب في حُرمة من رفع الله محلَّه .

وقوله تعالى: [خَصْمَانِ] تقديره: نحن خصمان ، وهذا كقول الشاعر :

وَقُولَا إِذَا جَاوَزْتُمَا أَرْضَ عَامِرٍ وَجَاوَزْتُمَا الْحَيَّيْنِ نَهْداً وَخَثْعَمَا

نَزِيعانِ مِنْ جَرْمِ بْنِ زَبَّانَ إِنَّهُمْ أَبَوْا أَنْ يُميرُوا في الهَزاهِزِ مِحْجَمَا(١)

ومثله قول العرب في المثل : «مُحْسِنَةٌ فَهِيلِي»(٢) ، والتقدير : أنت محسنةٌ ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (آيِبُونَ تائبون) (٣) .

---

(١) استشهد الفراءُ بهذين البيتين في كتابه (معاني القرآن) على أن (خَصْمَانِ) في الآية الكريمة خبر لمبتدإٍ محذوف ، وأن التقدير : نحن خصمان ، قال : «والعرب تضمر للمتكلِّم والمكلَّم المخاطب ما يرفع فعله ، ولا يكادون يفعلون ذلك بغير المخاطب أو المتكلِّم ، من ذلك أن تقول للرجل : أذاهب ؟ أو أن يقول المتكلِّم : واصلكم إن شاء الله ومُحْسِنٌ إليكم ، وذلك أن المتكلِّم والمكلَّم حاضران ، فتعرف معنى أسمائهما إذا تُركت ، وأكثره في الاستفهام ، يقولون : أجادٌ ؟ أمُنْطلق ؟ وقد يكون في غير الاستفهام ، فقوله : [خَصْمانِ] من ذلك ، وقال الشاعر : وقولا ... الخ البيتين ، ومثله قول الآخر :

تَقولُ ابْنَةُ الكَعْبِيِّ يَوْمَ لَقِيتُها أَمُنْطَلِقٌ في الْجَيْشِ أَمْ مُتَثَاقِلُ ؟

والشاهد في البيتين قوله : «نَزِيعَانِ» ، أي : نحن نزيعان ، فهو مرفوع على تقدير مضمر قبله وإن لم يكن معه استفهام ، وكذلك الشاهد في بيت ابنة الكعبي قوله : أمنطلقٌ ، أي : أأَنْتَ منطلق ؟ وهذا أكثر لأن في الكلام استفهاماً .

(٢) أصل هذا المثل أن ضيفاً جاء إلى امرأة ومعه جراب دقيق ، فأقبلت المرأة تأخذ من جرابه لنفسها ، فدخل عليها فجأة ، فدهشت وأخذت تفرغ من وعائها في جرابه ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أزيدك من دقيقي ، قال : مُحْسِنَةٌ فَهِيلِي ، أي : أنت مُحْسِنَةٌ فَهِيلِي . ويروى : مُحْسِنةً بالنصب على الحال ، أي : هيلى مُحْسِنَةً ، ويجوز أن ينصب بفعل محذوف تقديره : أراكِ مُحْسِنَةً ، يضرب للرجل يعمل العمل يكون فيه مصيباً . (راجع الأمثال للميداني ، معاني القرآن للفراء) .

(٣) هذا جزءٌ من حديث أخرجه البخاري في العمرة والجهاد والمغازي والدعوات ، ومسلم في الحج ، وأبو داود في الجهاد ، والترمذي في الحج والدعوات ، والدارمي في الاستئذان ،=

و [بَغَى] : اعتدى واستطال ، ومنه قول الشاعر :

وَلَكِنَّ الْفَتَى حَمَلَ بنَ بَـدْرٍ بَغَى والْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَخِيـمُ (١)

وقوله تعالى :﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ إغلاظ على الحاكم ، واستدعاءٌ لعدله ، وليس هذا بارتياب منه ، ومنه قول الرجل للنبي صلى الله عليه وسلم : (فاحكم بيننا بكتاب الله) ، وقرأ الجمهور : [تُشْطِطْ] بضم التاءِ وكسر الطاءِ الأُولى ، ومعناه : ولا تبعد في حكمك ، وقرأ أَبو رجاءٍ ، وقتادة بفتح التاءِ وضمِّ الطاءِ الأُولى ، وهي قراءَة الحسن ، والجحدري ، والمعنى : ولا تَبْعُدْ ، يقال : شَطَّ إذا بَعُدَ ، وأَشَطَّ إذا أَبعد غيره ، وقرأ زِرُّ بن حُبيش : [تُشَاطِطْ] بضم التاءِ وبـأَلفٍ بعد الشين . و «سَوَاءُ الصراط» معناه : وسط الطريق ولاحِبُه (٢)

= ومالك في الموطأ في الحج، وأحمد في مسنده في مواضع كثيرة ، ولفظه كما في مسند أحمد ٢-٥ : (عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من حجٍّ أو غزو فعَلا فَدْفَداً من الأرض أو شرفاً قال : الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيءٍ قدير ، آيبون تائبون ساجدون عابدون لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده) .

(١) البَغْي : الظلم والاستطالة على الناس ، والمرتع : الموضع ترعى فيه الماشية ، والمراد هنا : مَجَال الباغي والدائرة التي يبغي فيها ، والوَخيم : الثقيل والوبيءُ الرديءُ غير الصالح ، يقال : أرض وخيمة ، أي : لا ينجع كَلَؤها ، ويقال : طعام وخيم ، أي : ثقيل غير موافق ، والمعنى في البيت أن العدوان على الناس له نتيجته السيئة الفاسدة التي تضر المعتدي . كالماشية ترعى في أرض غير صالحة فتصاب بالضرر والمرض .

(٢) الطريق اللاحب : الواضح .

وقوله : ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ ، إعرابُ [أَخِي] عطف بيان ، وذلك أَن ما جرى من هذه الأَشياءِ صفة كالخَلْق والخُلُق وسائر الأَوصاف فإنه نعتٌ محضٌ ، والعامل فيه هو العامل في الموصوف ، وما كان منها مما ليس لِيوصَفَ بِهِ البتَّةَ فهو بدلٌ ، والعامل فيه مُكَرَّر ، تقول : «جاءَنِي أَخوك زيد» ، فالتقدير : جاءَني أَخوك ، جاءَني زيد ، فاقتصر على حذف العامل في البدل والمبدل منه ، كما في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾(١) ، وما كان منها مِمَّا لا يوصف به واحتيج إلى أَن يُبَيَّن به ويجري مجرى الصفة فهو عطف بيانٍ ، وهو بيِّن في قول الشاعر :

. . . . يا نَصْرُ نَصْرٌ نَصْرَا (٢)

---

(١) الآية (٣١) من سورة (يسن) .

(٢) هذا جزءٌ من بيت ، وفيه خلاف كبير بين النحويين ، فبعضهم يقول : إنه من التوكيد اللفظي ، وهذا التوكيد حُكْمُه في الأغلب حكم الأول، لكن يجوز إعرابُه رفعاً ونصباً ، وفي هذا البيت شاهد ذلك ، لأن (نَصْرٌ) الثانية رفعت إتباعاً للفظ الأول ، و (نَصْراً) الثالثة نصبت إتباعاً لمحل الأول ، ولا يجوز فيه البدل ولا عطف البيان ، لأنهما يفيدان مالا يفيد الأول من غير معنى التأكيد ، وهذه الألفاظ لا تفيد إلا التأكيد .

وابن عطية يرى أنه من عطف البيان ، ويوافقه أبو حيـان وغيره ، وحجتهم في ذلك أن الثاني من الألفاظ مُنَوَّن والأول ليس مُنَوَّناً ، ولاختلاف اللفظين في التعريف ، فالأول مُعَرَّف بالإقبال عليه ، والثاني معرف بالعلمية ، وهناك جدل كبير بين النحويين تجده موضحاً في كتب النحو .

هذا والبيت لرؤبة ، وهو بتمامه :

إنِّي وأَسْطارٍ سُطِرْنَ سَطْـرَا لَقَائِلٌ : يا نَصْرُ نَصْرٌ نَصْرَا =

فإن الرواية في الثاني بالتنوين تدل على أن النداءَ ليس بمكرر عليه ، فليس ببدل ، ووضح فيه عطف البيان .

وهذه الأُخوة مستعارة ؛ إذْ هما مَلَكان ، ولكن من حيث تصوَّرَا آدميَّيْن تكلَّما بالأُخوة التي بينهما في الدين والإِيمان ، والله أَعلم .

و « النَّعْجَةُ » في هذه الآية عبر بها عن المرأة ، والنعجة في كلام العرب تقع على أُنثى بقر الوحش ، وعلى أُنثى الضأْن ، وتُعبِّر العربُ بها عن المرأَة ، وكذلك بالشَّاة ، قال الأَعشى :

فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شَاتِـهِ فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطِحَالِهَا (١)

=وهو من شواهد سيبويه في الكتاب ، وفي العيني ، وابن يعيش ، والخصائص ، وشرح شواهد المغني للسيوطي ، وهمع الهوامع ، وملحقات ديوان رؤبة ، وخزانة الأدب . ومغني اللبيب لابن هشام ، ونَصْرٌ المراد في البيت هو نصر بن سيَّار أمير خراسان في الدولة الأموية ، وحتى هذا الاسم فيه خلاف ، فبعضهم رواه (نضر) بالضَّاد المعجمة .

(١) البيت من قصيدة له يمدح قيس بن معديكرب ، وقد بدأها بالحديث عن سُمَيَّة التي رحلت غَضْبى . وقبل هذا البيت يقول :

قَدْ بِتُّ رائِدَهَا ، وشاةِ مُحَاذِرٍ حَذَراً يُقِلُّ بِعَيْنِه إغْفَالَهَا
فَظَلِلْتُ أَرْعَاهَا وظَلَّ يَحُوطُهَا حتَّى دَنَوْتُ إذا الظَّلامُ دَنَا لَهَا
فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ فَأصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وطِحَالَهَا

فقد كنى في البيت الأول عن المرأة بالشاة ، وكذلك في البيت الثالث هنا ، ورائدها : طالبها والضمير يعود على الأرض المزهرة التي سبق الحديث عنها في البيت السابق ، والمُحاذِر هو زوج المرأة الذي لا يغفل عنها ، بل يراقبها ، يقول : بت أسعى وراءها وزوجها يحاذر ولا يغفل عنها أبداً ، وظلَّ حالنا كذلك ، هو يحرسُها وأنا أطلبها حتَّى غفل عنها غفلة رميتها فيها =

أَراد : عن امرأته . وفي قراءة ابن مسعود : «وتِسْعُونَ نَعجة أُنثى» ، وقرأَ حفص عن عاصم : [وَلِيَ] بفتح الياءِ ، وقرأَ الباقون بسكونها ، وهما حسنتان ، وقرأَ الحسن والأَعرج : [نِعْجَةً] بكسر النون ، والجمهور على فتحها ، وقرأَ الحسن : ﴿تَسْعٌ وتَسْعُونَ﴾ بفتح التاءِ فيهما ، وهي لغة (١) . وقوله تعالى : [اكْفُلْنِيهَا] ، أَي : رُدَّها في كفالتي ، وقال ابن كيسان : المعنى : اجعلها كفلي ، أَي : نصيبي .

= فأصبتها في الصميم ، والتكنية عن المرأة بالشاة كثيرة في الشعر العربي ، قال عنترة :

يا شاةَ ما قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ حَرُمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ

فَبَعَثْتُ جَارِيَتي فَقُلْتُ لَهَا اذْهَبي فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِيَ واعْلَمِي

قَالَتْ رَأَيْتُ مِنَ الأَعَادِي غِرَّةً والشَّاةُ مُمْكِنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمِ

وقال ابن عونٍ :

أَنَا أَبُوهُنَّ ، ثَلاثٌ هُنَّهْ رَابِعَةٌ في البَيْتِ صُغْرَاهُنَّهْ

وَنَعْجَتِي خَمْساً تُوَفِّيهِنَّهْ أَلا فَتىً سَمْحٌ يُغَذِّيهِنَّهْ

طَيُّ النَّقَا في الْجُوعِ يَطْوِيهِنَّهْ وَيْلُ الرَّغِيفِ وَيْلَهُ مِنْهُنَّهْ

ويرى أبو حيان في (البحر المحيط) إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها ، من كونها أُنثى الضأن ، ولا يكنى بها عن المرأة ، قال : «ولا ضرورة تدعو إلى ذلك لأن ذلك الإخبار كان صادراً من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة والفرض لها مرة غير تلَبُّس بشيءٍ منها ؛ فمثلوا بالقصة ، وهذا التصوير والتمثيل أبلغ في المقصود وأدَلُّ على المراد» . (راجع البحر المحيط ٧-٣٩٢) .

(١) قال أبو الفتح ابن جنّي : «قد كثر عنهم مجيءُ الفَعْل والفِعْل على المعنى الواحد ، نحو : البَزْر والبِزْر ، والنَّفْط والنِّفْط ، والسَّكْر والسِّكْر ، والحَبْر والحِبْر ، والسَّبْر والسِّبْر» . هذا والسَّكْر هو سدّ النهر ، أما السِّبْر فمن معانيه : الهيئة الحسنة .

قوله تعالى : [وَعَزَّنِي] ، أي : غَلَبَنِي ، ومنه قول العرب : «مَنْ عَزَّ بَزَّ»(١) ، أَي: من غَلَبَ سَلَبَ . وقرأ أبو حيوة بتخفيف الزاي ، قال أَبو الفتح : أَراد : عَزَّنِي ، فحذف إِحداهما تخفيفاً ، كقول أَبي زُبَيْدٍ :

. . . . أَحَسْنَ بِهِ فَهُنَّ إِلَيْهِ شُوسُ (٢)

قال أَبو حاتم : ورويت بتخفيف الزاي عن عاصم ، وقرأ ابن مسعود ، وأَبو الضحي ، وعبيد بن عمير : «وَعَازَّني» ، أَي : غَالَبَنِي . ومعنى قوله : ﴿فِي ٱلْخِطَابِ﴾ ، أَي : كان أَوجه منِّي وأَقوى ، فإِذا خاطبته كان كلامه أَقوى من كلامي ، وقوته أَعظم من قوتي ، فيروى أَن

---

(١) معناه كما قال ابن عطية : من غَلَبَ سَلَبَ ، قالت الخنساءُ :

كأنْ لَمْ يَكُونُوا حِمىً يُتَّقَى إِذِ النَّاسُ إِذْ ذاكَ مَنْ عَزَّ بَزَّا

قال المُفَضَّل : أول من قال هذا المثل رجل من طيٍّ اسمه جابر بن رألان ، خرج مع صاحبين له ، حتى كانوا بظهر الحيرَة ، وكان للمنذر بن ماءِ السماءِ يوم يركب فيه فلا يلقى أحداً إلا قتله ، فلقي في هذا اليوم جابراً وصاحبيه ، فلما أخذتهم الخيل ووقفوا بين يديه قال المنذر : اقترعوا ، فأيُّكمُ قَرَعَ خَلَّيْتُ سبيله ، فاقترعوا فَقَرَعهم جابر ، فخلَّى المنذرُ سبيلَه وقتل صاحبيه ، فلما رآهما يقادان للقتل قال : « من عزَّ بزَّ » ، فأرسلها مثلا .

(٢) أبو زبيد هو حرملة بن المنذر الطائي الذي سبق الكلام عنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ في هذه السورة ، وهذا عجز بيت ، وهو بتمامه :

خَلا أنَّ العِتَاقَ مِنَ المَطَايَا أَحَسْنَ بِهِ فَهُنَّ إِلَيْهِ شُوسُ

والعتاق من المطايا : الكريمات السريعات من الإبل أو الخيل ، يقال : عتقت الفرسُ تعتق : سبقت الخيل فنجت ، وفرس عاتق : سابق ، والشَّوَسُ : النظر بمؤخر العين كبراً أو تغيُّظاً ، والشُّوسُ : جمع الأشْوَس ، وفلان يتشاوسُ في نظره : إذا نظر نظرة ذي نخوة وكبر .

والشاهد في البيت أنه قال : أَحَسْنَ ، والأصل أحْسَسْنَ ، قال أبو الفتح ابن جني : « يقال في حَسِسْتُ : حَسْتُ ، وفي ظَلِلْتُ : ظَلْتُ ، وذلك كله على تشبيه المضاعف بالمعتل العين » .

داود عليه السلام لمَّا سمع هذه الحُجَّة قال للآخر : ما تقول ؟ فأَقرَّ وأَلَدَّ(١) ، فقال له داود : لئن لم ترجع إلى الحق لأكسرن الذي فيه عيناك ، وقال للثاني : ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ ، فتبسَّما عند ذلك ، وذهبا ولم يرهما لحينه ، فشعر حينئذ للأَمر ، ورُوي أَنهما ذهبا نحو السماء بِمَرْأًى منه ، وقيل: بل بيَّنا عليه فعله في تلك المرأة وزوجها ، وقالا له : إنما نحن مثال لك . وقال بعض الناس : إن داود قال : ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ قبل أَن يسمع حجة الآخر ، وهذه كانت خطيئته ، ولم تنزل به هذه النازلة المروية قط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف من جهات ؛ لأَنه خالف متظاهر الروايات ، وأَيضاً فقوله : ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ معناه أَن ظهر صدقك ببَيِّنَة أَو باعتراف ، وهذا من بلاغة الحاكم التي تردُّ المعوج إلى الحق ، وتفهمه ما عند القاضي من الفطنة . وقال الثعلبي : كان في النازلة اعتراف من المُدَّعى عليه حذف اختصاراً ، ومن أَجله قال داود عليه السلام : ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ .

وقوله عليه السلام : ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ ، أَضاف المصدر إلى المفعول . و «الْخُلَطَاءُ» : الأَشراك والمتعاقبون في الأَملاك والأُمور ، وهذا القول من داود وعْظٌ وبَسْط لقاعدة حق ؛ ليحذر من الوقوع

(١) أي : اشْتَدَّ في خصومته .

في خلاف الحق ، و [مَا] في قوله : ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ زائدة مؤكدة .

وقوله : ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾ معناه : شعر وعَلِم ، وقالت فرقة : [ظَنَّ] هنا بمعنى : أَيْقَنَ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظن أبداً في كلام العرب إنما حقيقته توقف بين معتقدين يغلب أَحدهما الآخر ، وتُوقِعُه العربُ على العلم الذي ليس عن الحواس ، ولا له اليقين التام البَتَّة ، ولكن يخلط الناس في هذا ويقولون : «ظَنَّ» بمعنى : أيقن ، ولسنا نجد في كلام العرب شاهداً يتضمن أَن يقال : رأَى زيدٌ كذا وكذا فظنَّه ، وانظر إلى قوله تعالى : ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا﴾(١) ، وإلى قول دريد بن الصِّمَّة :

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمُ في الفَارِسِيِّ المُسَرَّدِ (٢)

(١) من الآية (٥٣) من سورة (الكهف) .

(٢) البيت من قصيدة قالها دُرَيْد يرثي أخاه عبد الله ، ومطلعها :

أَرَثَّ جديدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ بِعَاقِبَةٍ وَأَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

والقصيدة مذكورة في الأصمعيات ، والجمهرة ، والحماسة ، والخزانة ، وكثير من أمهات كتب التراث ، مع زيادات أو نقص في كل كتاب . والرواية في الأصمعيات : (علانيةً : ظُنُّوا ...) ، أي : قلت لهم علانية ، (وهم قوم من بني عارض) ، وظُنُّوا : أيقنوا ، أوْ كونوا على ثقة ، أو معناه : ما ظنكم بألفي مُدَجَّجٍ ؟ والمدَجَّجُ : التامُّ السلاح ، وسَرَاتُهم : أشرافهم ورؤساؤهم ، وهي جمع سَرِيٍّ ، والفارسيُّ : الدرع الذي يصنع بفارس ، والمُسَرَّد : المحكم النسج ، وقيل : هو الدقيق الثقب . هذا وكثير من أبيات القصيدة (ومنها بيتنا هنا) في اللسان (ظَنَنَ) ، قال بعد أن ذكر البيت : «استيقنوا ، وإنما يُخَوِّفُ عدوَّه باليقين لا بالشك» .

وإلى هذه الآية : ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾ ، فإِنَّكَ تجد بينها وبين اليقين درجة ، ولو فرضنا أَهل النار قد دخلوها وباشروها لم يقل : [فَظَنُّوا] ، ولا استقام ذلك ، ولو أَخبر جبريل داود بهذه الفتنة لم يعبر عنها بـ [ظَنَّ] ، فإنما تُعَبِّر العربُ بها عن العلم الذي يقارب اليقين وليس به ، ولم يخرج بعد إلى الإحساس .

وقرأَ جمهور الناس : [فَتَنَّاهُ] بفتح التاءِ وشدِّ النون ، أَي : ابتليناهُ وامْتَحَنَّاهُ ، وقرأَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأَبو رجاءٍ ، والحسن - بخلاف عنه - : [فَتَّنَّاهُ] بشدِّ التاءِ والنون ، على معنى المبالغة ، وقرأَ أَبو عمروٍ - في رواية علي بن نصر - : [فَتَنَاهُ] بتخفيف التاءِ والنون ، على أَن الفعل لِلْخَصْمين ، أَي : امْتَحَنَاهُ عن أَمرنا ، وهي قراءَة قتادة ، وقرأَ الضحاك : [افتتناه] .

قوله تعالى : ﴿خَرَّ رَاكِعاً وأَنَابَ﴾ ، أَي : أَلْقى بنفسه نحو الأَرض متطامناً متواضعاً ، والركوعُ والسجود : الانخفاض والتَّرَامِي نحو الأَرض ، وخصَّصَتْهُما الشرائع على هيئات معلومة ، وقال قوم : يقال : « خَرَّ ثم ركع » وإن كان لم ينته إلى الأَرض ، وقال الحسين بن الفضل : المعنى : خرَّ من ركوعه ، أَي : سَجَدَ بعد أَن كان راكعاً ، وقال أَبو سعيد الخدري «رأَيتني أَكتب سورة صٓ ، فلما بلغت هذه الآية سجد القلم ، ورأَيتني في منامٍ آخر وشجرة تقرأُ سورة صٓ ، فلما بلغت هنا سجدت ، وقالت : اللَّهم اكتب لي بها أَجراً ، واحطط عني

بها وِزْراً ، وارزقني بها شكراً ، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (وَسجَدْتَ أَنت أَنت يا أَبا سعيد) ؟ فقلت : لا ، فقال : أَنت كنت أَحق بالسجدة من الشجرة ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات حتى بلغ [وأَنَابَ] فسجد ، وقال كما قالت الشجرة»(١) . و [أَنَابَ] معناه : رجع وتاب .

ويُروى عن مجاهد أَن داود عليه السلام بقي في ركعته تلك لاصقاً بالأَرض يبكي ويدعو أَربعين صباحاً حتى نبت العشب من دمعه ، ويروى غير هذا مما لا تثبت صحته ، ويُروى أَنه لما غفر الله له أَمْر المرأَة قال : يا رب ، كيف لي بدم زوجها إذا جاءَ يطلبني يوم القيامة ؟ فأَوحى الله إليه : إني سأَستوهبه لك يا داود ، وأَجعله أَن يَهَبَه راضياً بذلك ، فحينئذ سُرَّ داود عليه السلام واستقرت نفسه ، وروي عن عطاءٍ الخرساني ، ومجاهد أَن داود عليه السلام نقش خطيئته في كفه ، فكان يراها دائماً ويعرضها على الناس في كل حين من خُطبه وكلامه وإشارته وتصرفه تواضعاً لله وإقراراً ، وكان يسيح في الأَرض ويصيح :

---

(١) أخرجه أبو يعلى ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وأخرج مثله الترمذي ، وابن ماجه ، والطبراني ، والحاكم وصحَّحه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : جاءَ رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني رأيت في هذه الليلة فيما يرى النائم كأنّي أُصلّي عند شجرة ، وكأني قرأت سورة السجدة فسجدت فرأيت الشجرة سجدت بسجودي ... الخ الحديث) ، هذا ولم يُسَمَّ الرجل (الدر المنثـور) .

«إلٰهي ، إذا ذكرتُ خطيئتي ضاقت علي الأَرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدَّ إلى روحي ، سبحانك إلٰهي ، أَتيت أَطباءَ الدين لِيُدَاووا علَّتي فكلُّهم عليك دلَّني» ، وكان يُدخل في صدر خطيئته الاستغفار للخطَّائين ، وما رفع رأْسه إلى السماءِ بعد خطيئته حياءً حتَّى قُبض ، صلَّى الله تعالى على نبيِّنا وعليه وعلى جميع النبيِّين وسلَّم

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ معناه : سترنا ، و [ذَلِك] إشارة إلى الذنب المتقدم ، و «الزُّلْفَى» : القُربى والمكانة الرفيعة . و «المَآبُ» : المرجع في الآخرة ، من : آب يؤوب إذا رجع . وبعد ذلك حذفٌ

يدلُّ عليه ظاهر الكلام ، تقديره : وقلنا له : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ ، واستدل بعض أَهل الظاهر من هذه الآية على احتياج الأَرض إلى خليفة من الله تعالى .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وليس هذا بلازم من الآية ، بل لزومه من الشرع والإِجماع ، ولا يقال : «خليفة الله» إِلَّا لرسوله ، وأَما الخلفاءُ فكل واحد منهم خليفة الذي قبله ، وما يجيءُ في الشِّعر من تسمية أَحدهم خليفة الله فذلك تجوُّز وغلوٌّ ، كقول ابن قيس الرقيات :

خَلِيفَةُ اللهِ في بَرِيَّتِهِ جَفَّتْ بِذَاكَ الأَقْلَامُ وَالْكُتُبُ (١)

أَلا ترى أَن الصحابة رضي الله عنهم حرَّروا هذا المعنى ، فقالوا لأَبي بكر الصديق : خليفة رسول الله ، فبهذا كان يدعى مدته ، فلما ولي عمر بن الخطاب قالوا : يا خليفة خليفة رسول الله ، فطال الأَمر ، ورأَوْا أَنه في المستقبل سيطول أَكثر فدعوه : أَمير المؤمنين ، وقصر هذا الاسم على الخلفاءِ .

---

(١) البيت في مدح عبد الملك بن مروان ، وقبله يقول :

إنَّ الْفَنِيقَ الَّذي أَبُوهُ أبو الْـ ـعاصي ، عَلَيْهِ الْوَقَارُ والحُجُبُ

والرواية في الديوان : (خليفة الله فَوْقَ مِنْبَرِهِ) . والفَنِيقُ : الفحل المكرَّم من الإبل ، الذي لا يركب ولا يُهان ، وأبو العاصي هو جدُّ عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاصي ، والبَرِيَّةُ : الخلق ، أصلها : البريئة بالهمزة ، وترك الهمزة أولى ، والجمع : برايا ، ومعنى (جفت بذاك الأقلام والكتب) : قَضَى اللهُ بذلك وكتبه في اللوح والمحفوظ ولا مَرَدَّ له .

وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ اعتراضٌ بين الكلامين من أمر داود وسليمان ، وهو خطابٌ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعِظَةٌ لأُمَّته ، ووعيدٌ للكفرة به . وقرأ أبو حيوة : [يُضِلُّونَ] بضم الياء ، و [نَسُوا] معناه ـ في هذه الآية ـ : تركوا .

وأخبر تبارك وتعالى أن الذين كفروا يظنون أن خلق السموات والأرض وما بينهما إنما هو باطلٌ لا معنى له ، وأن الأمر ليس يؤول إلى ثواب وعقاب ، وأخبر تعالى عن كذب ظنِّهم ، وتوعَّدهم بالنار . ثم وَقَفَ على الفرق ـ عِنْده ـ بين المؤمنين العاملين بالصالحات ، وبين المفسدين الكفرة ، وبين المتَّقين والفُجَّار . وفي هذا التوقيف حضٌّ على الإيمان وترغيب فيه ، ووعيد للكفرة .

ثم أحال في طلب الإيمان والتقوى على كتابه العزيز بقوله : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ ، والمعنى : هذا كتاب لمن أراد التمسُّك بالإيمان والقُربة إلينا ، وفي هذه الآية اقتضابٌ وإيجازٌ بديع ، كإعجاز كل القرآن العزيز . ووصفه بالبركة لأن أجمعها فيه ؛ لأنه يُورث الجنة ، ويُنقذ من النار ، ويحفظ المرءَ في حال الحياة الدُّنيا ، ويكون سبب رفعة شأنه في الحياة الآخرة . وقرأ الجمهور : [لِيَدَّبَّرُوا] بالياء وشدِّ الدال والباء ، والضمير للعالَم ، وقرأ حفصٌ عن عاصم : [لِتَدَّبَّرُوا]

بالتاءِ على المخاطبة(١) ، وقرأَ أَبو بكر عنه بتخفيف الدال ، أَصله : تتدبروا ، وظاهر هذه الآية يقتضي أَنَّ التَّدَبُّر من أَسباب إِنزال القرآن ، فالتَّرتيل إِذاً أَفضل لهذا ؛ إِذ التَّدَبُّر لا يكون إِلَّا مع الترتيل ، وباقي الآية بيِّنٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾

الهِبَةُ و العَطِيَّة بمعنى واحد ، فوهب الله تعالى سليمان لداود عليهما السلام ولداً ، وأَثنى عليه بأَوصاف من المدح تضمَّنها قوله تعالى :

(١) الثابت في المصحف المطبوع والمتداول أن قراءة حفص عن عاصم هي قراءة الجمهور : [لِيَدَّبَّرُوا] بالياءِ وشدّ الدالِ والباءِ ، وفي القرطبي أن قراءة : [لِتَدَبَّرُوا] بالتاءِ والدال الخفيفة مع الباء المشددة هي قراءة أبي جعفر وشيبة ، وفي (البحر المحيط) أنها قراءة أبي جعفر ، ثم قال : « وجاء كذلك عن عاصم والكسائي بخلاف عنهما » ، ولم ينصّ أحد على أن قراءة التاءِ مع تشديد الدال والباء هي لحفص عن عاصم غير ما ذكر هنا وفي الطبريّ .

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ ، و [أَوَّابٌ] معناه : رجَّاع ، ولفظة [أَوَّاب] هي العامل في [إِذْ] ؛ لأَن أَمر الخيل مُقْتضٍ أَوبةً عظيمةً .

واختلف المتأَوِّلون في قصص هذه الخيل المعروضة ـ فقال الجمهور : إِن سليمان عليه السلام عرضت عليه آلاف من الخيل تركها أَبوه له ـ وقيل : أَلف واحد ـ فأُجريت بين يديه عشاءً ، فتشاغل بحسنها وجريها ومحبتها حتى فاته وقت صلاة العشاءِ ، ـ قال قتادة : صلاة العصر ، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ـ فأَسف لذلك ، وقال : رُدُّوا عليَّ الخيلَ ، قال الحسن : فطفق يضرب أَعناقها وعراقيبها بالسيف عقراً لها لمَّا كانت سبب فوت الصلاة ، فأَبدله الله تعالى أَسْرعَ منها الريحَ ، وقال قوم ـ منهم الثعلبي ـ : كانت بالناس مجاعة ، ولحوم الخيل لهم حلال ، فإِنما عقرها لتؤكل على وجه القربة بها ، كالهدْي عندنا ، ونظير هذا ما فعله أَبو طلحة الأَنصاري بحائطه (١) ؛ إِذْ تَصدق به لمَّا دخل عليه الدُّبْسِي (٢) وهو في الصلاة فشغله .

و «الصَّافِنُ» : الفرس الذي يرفع إِحدى يديه ويقف على طرف سُنْبُكِه (٣) ، وقد يفعل ذلك برجله ، وهي علامة الفَرَاهَة (٤) ، وأَنشد الزَّجَّاج :

(١) الحائط : البستان ، وجمعه حوائط وحيطان .
(٢) الدُّبْسِيُّ : نوع من الحمام ، والجمع دَبَاسِيٌّ .
(٣) السُّنْبُك : طرف الحافر .
(٤) الفَرَاهَةُ والفَرَاهِيَةُ في الدابة : النشاط والحيوية مع الجمال والحسن في المنظر .

أَلِفَ الصُّفُونَ فَلَا يَزَالُ كَأَنَّهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيراً (١)

وقال أَبو عبيدة : الصَّافِن : الذي يجمع يديه ويُسوِّيهما ، وأَما الذي يقوم على طرف السُّنْبك فهو المخيم ، وفي مصحف ابن مسعود : «الصَّوافن الجياد» ، و «الجِيادُ» : جمع جَوْدٍ ، كثَوْبٍ وثياب ، وسُمِّي به لأَنه يجود بجريه .

وقال بعض الناس : «الْخَيْرُ» هنا أَراد به : الخيلَ ، والعرب تسمِّي الخيلَ الخيرَ ، وكذلك قال عليه الصلاة والسلام لزَيْد الخيل : (أَنتَ زيدُ الخير)(٢) ، و [حُبَّ] مفعول به نصب لذلك عند فرقة ، كأَن [أَحْبَبْتُ] بمعنى : آثرتُ . وقالت فرقة : المفعول بـ [أَحْبَبْتُ]

---

(١) البيت في اللسان (صَفَنَ) ، قال : «صَفَنَت الدابَّةُ تَصْفِن صُفوناً : قامت على ثلاث وثَنَت سُنْبكَ يدها الرابع ، وفي التنزيل العزيز ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ ... وأنشد ابن الأعرابي في صفة الفرس : أَلِفَ الصُّفُون ... البيت ، وقوله : مِمَّا يقوم ، لم يُرِدْ من قيامه ، وإنما أراد : من الجنس الذي يقوم على الثلاث ، وجَعَلَ (كسيراً) حالا من ذلك النوع الزَّمِنِ ، لا مِنَ الفرس المذكور في أول البيت» .

(٢) هو زيد بن مُهَلْهِل بن زيد بن مُنْهِبِ الطائي ، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم في سنة تِسْع ، وسمَّاه النبي صلى الله عليه وسلم زيْدَ الخير ، روى ابن شاهين من طريق بشير مولَى بني هاشم ، عن عبد الله ، قال : كنَّا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقبل راكب حتى أناخ ، فقال : يا رسول الله ، إنِّي أَتيتُك من مسيرة تِسْع ، أسألك عن خَصْلتين ، فقال : ما اسمك ؟ قال : أنا زيد الخيل ، قال : بل أنت زيد الخير ، سَلْ ، قال : أسألك عن علامة الله فيمن يريد ، وعلامته فيمن لا يريد ... الحديث ، وأخرجه ابن عديٍّ في ترجمة بشير ، وضعَّفه ، قال أبو عمر : مات زيد الخيل مُنْصَرَفَه من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن إسحق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ازيد الخيل : ما وُصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته دون الصفة ، غيرك ، وسمَّاه زيد الخير .

محذوف ، و [حُبَّ] نصب على المصدر ، أي : أَحببتُ هذه الخيل حُبَّ الخير ، ويكون [الْخَيْر] ـ على هذا التأْويل ـ غير الخيل ، وفي مصحف ابن مسعود : «حُبَّ الخَيْلِ» باللام . وقالت فرقة : [أَحْبَبْتُ] معناه : سقطتُ إلى الأَرض لذنبي ، مأْخوذٌ من : أَحبَّ البعيرُ إذا أَعْيا وسَقَطَ هُزالاً (١) ، و [حُبَّ] ـ على هذا ـ مفعول من أَجله .

والضمير في [تَوَارَتْ] للشمس وإن كان لم يجر لها ذكرٌ صريح ، إلَّا أن المعنى يقتضيها مذكورة ويتضمنها ؛ ولأَن العشيَّ يقتضي لها ذِكراً إذْ هو مُقَدَّر متوهم بها . وقال بعض المفسرين في هذه الآية : ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ يريد به الخيل ، أَي : دخلت اصطبلاتها .

وقال ابن عباس ، والزهراوي : إن مَسْحَه بالسُّوق والأَعناق لم يكن بالسيف ، بل بيده تكريماً لها ومحبَّة ، ورجحه الطبريُّ ، وقال بعضهم : بل غسلاً بالماءِ ، وقد يقال للغسل مسحٌ لأَن المسح بالأَيدي يقترن به . وهذه الأَقوال عندي إنما تترتب على نحو من التفسير في هذه الآية ، ورُوي عن بعض الناس . وذلك أَنه رأَى

---

(١) قال في اللسان (حَبَبَ) : «أحبَّ البعيرُ بَرَكَ ، وقيل : الإحبابُ في الإبل كالحِرَان في الخيل ، وهو أن يَبْرُكَ فلا يثور ، قال أبو محمد الفَقْعَسِيُّ :

حُلْتَ عَلَيْهِ بالْقَفِيلِ ضَرْبا ضَرْبَ بَعِيرِ السَّوْءِ إذْ أَحَبَّا

والقَفِيلُ : السَّوْط . وقال أبو عبيدة في قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي : لَصِقْتُ بالأرض لِحُبِّ الخيل حتى فاتتني الصلاة ، وهذا غير معروف في الإنسان بل معروف في الإبل» اهـ .

أَن هذه القصة لم يكن فيها فوت صلاة ، ولا تضَمّن أمر الخيل أَوْبةً ولا رجوعاً . فالعامل في [إذْ] فعلٌ مضمر تقديره: اذكر إذْ عُرض ، وقالوا : عُرض على سليمان الخيل وهو في الصلاة ، فأشار إليهم ، أي : إني في الصلاة ، فأزالوها عنه حتى أدخلوها الاصطبلات ، فقال هو لمَّا فرغ من صلاته : ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ ، أي الذي عند الله في الآخرة ، بسبب ذكر رَبِّي ، فكأنه يقول : فشغلني ذلك عن رؤْية الخيل ، حتى أُدخلت اصطبلاتها ، ردُّوها عليَّ ، فطفق يمسح أَعناقها وسُوقها محبَّةً لها . وذكر الثعلبي أن هذا المسح إنما كان وسْماً في السُّوق والأَعناق بِوَسْم حَبْس في سبيل الله تعالى . وجمهور الناس على أَنها كانت خيلاً موروثة . قال بعضهم : قتلها حتى لم يبق منها أكثر من مائة فرس ، فمن نسل تلك المائة كل ما يوجد اليوم من الخيل . وهذا بعيد . وقال بعضهم : كانت خيلاً أَخرجها الشيطان له من البحر ، وكانت ذوات أَجنحة ، ورُوي عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنها كانت عشرين فرساً ، و [طَفِقَ] معناه : دام يفعل ، كما تقول : جعل يفعل .

وقرأ الجمهور : [بِالسُّوقِ] بواو ساكنة ، وهو جمع ساقٍ ، وقرأ ابن كثير وحده بالهمز ، قال أَبو عليٍّ : وهي ضعيفة ، ولكن وجهها

في القياس أن الضمة لمَّا كانت تلي الواو (١) ، قُدِّر أنها عليها فهمزت كما يفعلون بالواو المضمومة ، وهذا نظير إمالتهم ألف « مقلات »(٢) من حيث وَلِيَت القاف الكسرة قدَّروا أن القاف هي المكسورة .

وَوَجْهُ همز (السُّوق) هي أن أبا حيَّةَ النُّمَيْري كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة ، وكان يُنْشِد :

أَحَبُّ ٱلْمُؤْقِدَانِ إِلَيْكَ مُؤْسَى .... (٣)

---

(١) هكذا في الأصول ، ويظهر أن النساخ أخطئوا ، لأن الواو هي التي تلي الضمة هنا ، ويؤكد هذا قوله بعد ذلك : « إنَّ أبَاحيَّةَ النُّمَيرِي كان يهمز كل واو ساكنة قبلها ضمة » .

(٢) المِقْلات : التي لا يعيش لها ولد ، وقيل : هي التي تلد واحداً ثم لا تَلِدُ ، وقد رَوَوْا في ذلك قول كُثَيِّر أو غيره ، (كما قال في اللسان) :

بُغَاثُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاخـاً وأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَـزُورُ

وأنشد الليث في هذا المعنى :

تَنَا أُمٌّ بِهَا قَلَتٌ وَنَـزْرٌ كَأُمِّ الأسْدِ كَاتِمَةُ الشَّكَاة

وأنشد كذلك :

وَجْدي بها وَجْدُ مِقلاتٍ بِوَاحِدِها وَلَيْس يَقْوى مُحِبٌّ فوْقَ ما أجِدُ

(٣) هذا صدر بيت قاله جرير ، وهو يمدح ولديه (موسى وجعدة) ، وهو في الديوان : (لَحَبَّ الواقدان) ، وفي مخطوطة أنساب الأشراف : (أحَبَّ الموقدين) ، وذكره ابن جني في كتابيه : (الخصائص وسرّ الصناعة) ، وقال الشيخ الشنقيطي في تعليق بخط يده على مخطوط للديوان : « وأنشده الزمخشري في كشّافه » ، وأنشده أبو عليٍّ الفارسي في كتابه (الحُجَّة) شاهداً على همز الواو في مُوسى ، وقال : « قال الأخفش : كان أبو حية النميري يهمز كلَّ واو ساكنة قبلها ضمة ، وينشد :

لَحُبَّ المُؤْقدان إليَّ مُؤْسَى .... »

وفي تصريف ذلك قالوا : « إن الساكن إذا جاور المتحرك فكثيراً ما تقدِّرُ العربُ أن تلك الحركة كأنها في الساكن، فكأن ضمة (مُوسَى) مثلا في الواو ، وهي إذا ضمت ضمّاً لازماً فهمزها =

وقرأ ابن محيصن : [بالسُّؤُوق] بهمزة بعدها واو . وقوله : ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ على كل تأْويل فإن [عَنْ] هنا للمجاوزة من شيءٍ إلى شيءٍ ، فتدبَّرْهُ فإنه مطَّرد .

ثم أخبر تعالى عن فِتْنَته لسليمان ، وامتحانه إياه بزوال مُلْكه ، ورُوي في ذلك أَن سليمان عليه السلام قالت له حَظِيَّةٌ من حظاياه[1] : إن أَخي له خصومة ، فأَرغبُ أَن تقضي له بكذا وكذا ، لشيءٍ غير الحق ، فقال سليمان عليه السلام : أَفعل ، فعاقبه الله تعالى بأَن سلَّط على خاتمه جنيًّا ، وذلك أَن سليمان عليه السلام كان لا يدخل الخلاءَ بخاتم ملكه توقيراً لاسم الله تعالى ، فكان يضعه عند امرأَة من نسائه ، ففعل ذلك يوماً ، فأَلقى الله تعالى شَبَهَهُ على جني اسمه صخر - فيما

= جائز . والبيت بتمامه كما هو في الديوان :

لَحَبَّ الوَاقِدَانِ إليَّ مُوسَى وَجَعْدَةُ لَوْ أَضَاءَهُمَا الوُقُود

و (حَبَّ) فعل ماض ، أصله : حَبُبَ - على وزن كَرُمَ - ومعناه : صار محبوباً ، فأُدغمت الباءُ الأولى في الثانية ، إما للقلب ، وإما بنقل الحركة إلى الحاءِ قبلها ، فلهذا روي بفتح الحاءِ وبضمِّها . واللام في (لَحَبَّ) جواب قسم محذوف ، وأراد بالموقدان مُوقِدَيْ نار القِرَى ، على عادة العرب ، وبخاصة لأنه في مقام المدح بالكرم وبالوضاءة ، فكنى عن الكرم بإيقاد النار ، وعن الوضاءة بإضاءة الوقود لهما . والوُقود : مصدر بمعنى الإيقاد - إذا كان بضم الواو - وإذا كانت مفتوحة فهو ما يوقد به من الحطب ونحوه ، وقد صحَّ عن الزمخشري أن الوُقود هنا بالضم على أنه مصدر ، والمعنى : لما أَضاءَ إيقاد النار موسى وجعدة ورأيتهما من ذوي الوضاءة والنور والبهجة صارًا محبوبين . هذا وقد سبق الاستشهاد به عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ من سورة القصص .

(١) الحَظِيَّةُ والمَحْظِيَّةُ : الأثيرة من النساء عند الرجل ، يُفَضلها على غيرها في المحبة .

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ وقيل غير هذا مما اختصرناه لعدم الصحة ، فجاءَ إلى المرأة فدفَعَتْ إليه الخاتم ، فاستولى على ملك سليمان وبقي فيه أَربعين يوماً ، وطرح خاتم سليمان في البحر ، وجعل يعبث في بني إسرائيل وشَبَهُ سليمان عليه السلام عليه ، حتَّى أَنكروا أَفعاله ، ومكَّنه الله تعالى من جميع الملك ، قال مجاهد : إلَّا من نساءِ سليمان فإنه لم يكشفهن ، وكان سليمان عليه السلام خلال ذلك قد خرج فارًّا على وجهه مُنْكَراً ، لا ينتسب لقوم إلَّا ضربوه ، وأَدركه جوعٌ وفاقة ، فمرَّ يوماً بامرأةٍ تغسل حوتاً ميتاً ، فسأَلها منه لجوعه ، وقيل : بل اشتراه فأَعطته حوتين ، وجعل يفتح أَجوافهما ، وإذا خاتمه في جوف أَحدهما ، فعاد إليه مُلكه ، وسُخِّرت له الجنُّ والريح من ذلك اليوم ، وفرَّ صخر الجنيُّ ، فأَمَرَ به سليمان فسِيقَ إليه ، فأَطبق عليه في حجارة ، وسجنه في البحر إلى يوم القيامة ، فهذه هي الفتنة التي فتن سليمان عليه السلام وامْتُحِن بها .

واختلف الناس في الجسد الذي أُلقي على كرسيه ـ فقال الجمهور : هو الجني المذكور ، سمَّاه «جَسَداً» لأَنه كان قد تمثَّل في جسد سليمان عليه السلام ولُبِّس به (١) ، وهذا أَصحُّ الأَقوال وأَبْيَنُها معنىً . وقالت فرقة : بل أُلقي على كرسيه جسد ابن له ميِّت ، وقالت فرقة : بل شِقُّ الولد الذي وُلد له حين أَقسم ليطوفَنَّ على نسائه ولم يستثن في قَسَمه ، وقال

(١) المراد أن شكله اختلط بشكل سليمان وأشكل على الناس .

قوم : مرض سليمان عليه السلام مرضاً كالإغماءِ حتَّى صار على كرسيِّه جسداً كان بلا روح .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا كلُّه غير متصل بمعنى هذه الآية .

وقوله تعالى : [أَنَابَ] معناه : ارعوى وانثنى وأَجاب إلى طاعة ربه ، ومعنى هذا : من تلك الحَوْبة (١) التي وقعت الفتنة بسببها .

ثم إن سليمان عليه السلام استغفر ربَّه ، واستوهبه مُلْكاً ، واختلف المتأَولون في معنى قوله : ﴿لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ ــ فقال الجمهور : أَراد أَن يفرده به بين البشر لتكون خاصة له وكرامة ، وهذا هو الظاهر من قوله عليه الصلاة والسلام في خبر العفريت الذي ظهر له في صلاته ، فأَخذه وأَراد أَن يُوثقه بساريةٍ من سواري المسجد ، قال : (ثم ذكرت قول أَخي سليمان : ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ فَأَرسلْتُه) (٢) ، وقال قتادة ، وعطاءُ بن أَبي رباح : إنما أَراد سليمان

---

(١) من معاني الحَوْبَة : الحالة .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ، والبخاري في العمل والأنبياء وتفسير سورة (ص) ، وأحمد في مسنده (٢ــ٢٩٨ ــ ٥ــ١٠٤ ، ١٠٥) ، ولفظه كما في البخاري ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (إن عفريتاً من الجن تَفَلَّت عليَّ البارحة ــ أو كلمة نحوها ــ ليقطع عليَّ الصلاة ، فأمكنني الله منه ، وأَردتُ أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ ، قال روح : فردَّه خاسئاً . (ورَوْحٌ هذا واحدٌ في سلسلة رواة الحديث) .

عليه السلام : لا ينبغي لأَحد من بعدي مدة حياتي ، أَي : لا أُسْلَبه ويصير إلى أَحدٍ كما صار الآن إلى الجني .

ورُوي في مثالب الحَجَّاج بن يوسف أنه لما قرأَ هذه الآية قال : «لقد كان حسوداً» ، وهذا من فسق الحَجَّاج ، وسليمان عليه السلام مقطوع أَنه إنما قصد بذلك قصداً برًّا جائزاً ؛ لأَن للإِنسان أَن يرغب من فضل الله فيما لا يناله أَحد ، لاسيَّما بحسب المكانة والنبوَّة ، وانظر أَيضاً إلى قوله عليه السلام : [لَا يَنْبَغِي] ، فإنما هي لفظة محتملة وليست بقطع في أَنه لا يعطي الله تعالى نحو ذلك الملك لأَحد ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لو ربط الجني لم يكن ذلك نقصاً لما أُوتيه سليمان عليه السلام ، لكن لما كان فيه بعض الشبه تركه جرْياً منه عليه الصلاة والسلام على اختياره أَبداً أَيْسر الأَمرين وأَقربهما إلى التواضع .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

قرأَ الحسن ، وأَبو رجاءٍ : [ٱلرِّيَاحَ] ، والجمهور على الإِفراد ، وسخَّر الله تعالى الريح لسليمان عليه السلام ، وكان له كرسيٌّ عظيم ،

يقال: إنه يحمل أَربعة آلاف فارس، ويقال: أَكثر، وفيه الشياطين، وتُظِلُّه الطير، وتـأْتي عليه الريح الإِعصار فتُقِلُّه من الأَرض حتى يحصل في الهواءِ، ثم تتولَّاه الرخاءُ ـ وهي اللَّيِّنَة القوية (١) المتشابهة لا تـأْتي فيها دُفَعٌ مفرطة ـ فتحمله، غُدُوُّهَا شهر، وَرَواحُها شهر ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أَي: أَراد، قاله وهبٌ وغيره، وأَنشد الثعلبي:

أَصَابَ الْكَـــلَامَ فَلَمْ يَسْتَطِـعْ فَأَخْطَا الْجَوَابَ لَدَى الْمِفْصَلِ(٢)

ويُشبه أَنَّ [أَصابَ] مُعَدًّى: صابَ يَصوبُ، أَي: حيث وجَّه جنوده وجعلهم يصوبونَ صوبَ السحاب والمطر. وقال الزَّجاج: معناه: قَصَد، كذلك قولك للمتكلم: «أَصَبْتَ» معناه: قصدتَ الحقَّ.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ بدلٌ من [ٱلشَّيَاطِينِ]، والمعنى: كلَّ من بنى مصانعه للحروب. و [مُقَرَّنِينَ] معناه: مُوثَقين، قد قُرِن بعضهم ببعض، و [ٱلْأَصْفَادِ]: القيودُ والأَغْلالُ.

واختلف الناس في المشار إليه بقوله: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا﴾ ـ فقال قتادة: إشارةٌ إلى ما فعله بالجن، فامْنُنْ عَلَى مَن شِئْتَ منهم، وأَطْلقه من

---

(١) في بعض النسخ: القريبة.

(٢) يستشهدون بهذا البيت على أن (أَصَابَ) بمعنى: أَرَادَ، والعرب تقول: «أصابَ الصوابَ وأَخطأَ الجواب»، أي: أراد الصواب وأخطأ الجواب. ورُوي عن رؤبة أن رجليْن من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة، فخرج إليهما، فسألهما: أين تُصيبان فقالا: هذه طِلْبَتُنَا. والمفصل ـ بفتح الميم أو بكسرها ـ من معانيه: اللسان. قال الزمخشري في أساس البلاغة: «وتقول: رُبَّ كلام بالمِفْصَلِ أشدُّ من كلام بالمِقْصَل».

وثاقه وسرَّحه من خدمته ، أَوْ أَمْسِكْ أَمْرَهُ كما تريد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : أشار إلى ما وهبه من النساء وأقدره عليهن من جماعهن ، وقال الحسن : أشار إلى ما أعطاه من المُلْك ، وأمره بأن يَمُنَّ على من يشاءُ ويُمْسك عمَّن يشاءُ ، فكأنه وقَفَه على قدر النعمة ثم أباح له التصرف فيه بمشيئته ، وهو تعالى قد علم بأن مشيئته إنما تتصرف بحكم طاعة الله . وهذا أصحُّ الأقوال وأجمعها لتفسير الآية . وباقي الآية بيِّنٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

أَيوب هو نبي من بني إسرائيل ، من ذرية يعقوب عليهما السلام ، وهو المُبْتَلَى في جسده وماله وأهله ، وسَلِمَ معتقده ودينه .

ورُوي في ذلك أن الله تعالى سلَّط الشيطان عليه ليفتنه عن دينه ، فأَصابه في ماله ، وقال له : إن أَطعتني رجع مالك ، فلم يطعه ،

فأَصابه في أَهله وولده فهلكوا عن آخرهم ، وقال له : إن أَطعتني رجعوا ، فلم يطعه ، فأَصابه في جسده ، فثبت أَيوب على أَمر الله تعالى سبع سنين وسبعة أَشهر . قاله قتادة ، وروى أَنسٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم أَن أَيوب عليه السلام بقي في محنته ثماني عشرة سنة يتساقط لحمه حتَّى ملَّه العالم ، ولم يصبر عليه إلَّا امرأَته (١). ورُوي أَن السبب الذي امتحنه الله تعالى من أَجله أَنه دخل على بعض الملوك فرأَى منكراً فلم يغَيِّره ، ورُوي أَن السبب أَنه ذبح شاةً وطبخها وأُكلت عنده وجاره جائع لم يعطه منها شيئاً ، ورُوي أَن أَيوب لمَّا تناهى بلاؤُه وصبره مَرَّ به رجلان مِمَّن كان بينه وبينهما معرفة فقَرَّعَاهُ وقالا لَه : لقد أَذنبت ذنباً ما أَذنب أَحد مثله ، وفهم منهما شَمَاتاً به (٢) ، فعند ذلك دَعَا ونادى ربَّه .

وقوله عليه السلام : ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ﴾ يحتمل أَن يشير إلى مسِّه حين سلَّطه الله عليه حسبما ذكرنا ، ويحتمل أَن يريد مَسَّه إياه

---

(١) الحديث طويل ، وقد أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وفي أوّله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن نبيَّ الله أيوب لبث به بلاؤُه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلان من إخوانه ، كانا من أخص إخوانه به ، كان يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلَمُ والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالَمين ، قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : من ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتّى ذكر ذلك له ، فقال أيوب : لا أدري ما تقول ...) الخ الحديث .

(٢) يقال : شَمِت به شَماتاً وشَماتَةً : فرح بما أصابه .

حين حمله أول الأمر على أن يواقع الأمر الذي من أجله كانت المحنة ؛ إما ترْك التغيير عند الملك ، وإما ترك مواساة الجار ، وقيل : أشار إلى مَسِّه إياه في تعرضه لأهله ، وطلبه منه أن يشرك بالله ، وكان أيوب قد تشكى هذا الفعل ، وكان أشدَّ عليه من مرضه .

وقرأ الجمهور : [أَنِّي] بفتح الهمزة ، وكسرها عيسى بن عمر ، وهي في موضع نصب بإسقاط حرف الجرِّ ، وقرأ جمهور الناس : [بِنُصْبٍ] بضم النون وسكون الصاد ، وقرأ هبيرة(١) عن حفص عن عاصم بفتحهما ، وهي قراءَة الجحدري ، ويعقوب ، ورويت عن الحسن ، وأبي جعفر ، وقرأ أبو عمارة عن حفص عن عاصم : [بِنُصُبٍ] بضم النون والصاد ، وهي قراءَة أبي جعفر بن القعقاع ، والحسن - بخلاف عنه - وروَى أيضاً هبيرة عن حفص عن عاصم بفتح النون وسكون الصاد . وذلك كله بمعنى واحد ، معناه : المشَقَّة ، وكثيراً ما يستعمل «النَّصَبُ» في مشقة الإعياء. وفَرَّق بعضُ الناس بين هذه الألفاظ ، والصواب أنها لغاتٌ من قولهم : «أَنْصَبَني الأَمْرُ ونَصَبَني» إذا شَقَّ علي ، فمن ذلك قول الشاعر :

---

(١) هُبَيْرَة بن يَرِيم - على وزن عظيم - الشيباني ، الخارفيّ ، أبو الحارث الكوفي ، لا بأس به ، وقد عيب بالتشيع . (تقريب التهذيب) . وفي طبقات ابن سعد أنه من أصحاب المختار ، وأنه في الطبقة الأولى من التابعين ، وقيل : إن الشيباني تحريف (الشبامي) ، توفي سنة ست وستين . (الأعلام) .

تَعَنَّاكَ نَصْبٌ مِنْ أُمَيْمَةَ مُنْصِبٌ .... (١)

ومنه قول النابغة :

كِلِينِــي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ .... (٢)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد قيل في هذا البيت : إن «ناصبا» بمعنى «مُنْصِب» ، وإنه على النَّسب ، أي : ذا نصب .

وهنا في الآية محذوف كثير ، تقديره : فاستجاب له وقال له : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ ، والرَّكْضُ : الضرب بالرجل ، والمعنى : اركض

---

(١) هذا صدر بيت قاله بشر بن أبي خازم ، وهو من شواهد أبي عُبيدة في (مجاز القرآن) ، والبيت بتمامه :

تَعَنَّاكَ نَصْبٌ مِنْ أُمَيْمَةَ مُنْصِبٌ كَذِي الشَّجْوِ لَمَّا يَسْلُهُ وَسَيَذْهَبُ

وقال في اللسان (نَصَبَ) : «وهَمٌّ ناصِبٌ مُنْصِبٌ : ذو نَصَبٍ ، مثل تامِرٍ ولابِنٍ» . وقد علَّق أبو عبيدة على هذا البيت الذي بعده بقوله : «تقول العرب : أنْصَبَنِي ، أي عذَّبني وبرح بي ، وبعضهم يقول : نصبني» . وتَعَنَّاه : كلَّفه ما يشُقُّ عليه ، والشَّجْو : الهَمّ والحُزن والحاجة ، لَمَّا يَسْلُه : لم يَبْرَأ منه .

(٢) هذا صدره ، وهو بتمامه مطلع قصيدة قالها النابغة يمدح عمرو بن الحارث ، وفيه يقول :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ

وكِلِينِي : اتركيني أو دعيني ، واللام في (لِهَمٍّ) بمعنى : إلى ، واتفق الرواة على أنَّ أُمَيْمَةَ روي مفتوحاً ، واعتذر أبو عبيدة والأصمعي بأن عادة العرب أن ينادوا اسم المرأة بالترخيم ، وإذا كان الحرف الذي قبل هاءِ التأنيث مفتوحاً أبداً واحتاج الشاعر إلى إبقاء هاءِ التأنيث لأجل صحة الوزن تكلم بها على عادة الترخيم ففتحها كما يفتح آخر المنادى المؤنث المرخم ، وناصب : ذي نَصَب ، أي : تعب . وبطيءِ الكواكب : كناية عن الطول ، وذلك لأن الشاعر كان قَلِقاً مهموماً . وموضع الشاهد في البيت أن (ناصب) تفيد معنى التعذيب ، وهي مثل (مُنْصِب) أي : ذا نَصَب .

الأَرض ، ورُوي عن قتادة أَن هذا الأَمر كان في الجابية من أَرض الشام ، ورُوي أَن أَيوب عليه السلام أُمر بركض الأَرض فركض فيها فنبعت له عينُ ماءٍ صافية باردةٍ ، فشرب منها فذهب كل مرض في داخل جسده ، ثم اغتسل فذهب ما كان في ظاهر بدنه ، ورُوي أَنه ركض مرَّتين ، ونبع له عينان شرب من إِحداهما واغتسل في الأُخرى . وقرأَ نافع ، وشيبة ، وعاصم ، والأَعمش : ﴿وَعَذَابٍ ٱرْكُضْ﴾ بضم نون التنوين ، وقرأَ عامَّة قراءِ البصرة بكسرها . و [مُغْتَسَلٌ] معناه : موضع غسل ، وماءٌ غُسْلٌ ، كما تقول : هذا الأَمر مُعْتَبر ، وهذا الماءُ مُغْتَسل مثله .

ورُوي أَن الله تعالى وهب له أَهله وماله في الدنيا ، وردَّ من مات منهم وما هلك من ماشيته ، ثم بارك في جميع ذلك ، وَوُلِدَ له الأَولاد حتى تضاعفت الحال ، وروي أَن هذا كله وعد في الآخرة ، أَي : يفعل الله له ذلك في الآخرة . والأَول أَكثر في قول المفسرين . و [رَحْمَةً] نصب على المصدر ، وقوله تعالى : [وَذِكْرَى] معناه : موعظة وتذكرة يعتبر بها أُولو العقول ، ويتأَسَّوْنَ بصبره في الشدائد ، ولا ييْأَسُون من رحمة الله تعالى على كل حال . ورُوي أَن أَيوب كانت زوجته مُدَّة مرضه تختلف إِليه فيلقاها الشيطان في صورة طبيب ، ومرَّة في هيئة ناصح ، وعلى غير ذلك ، فيقول لها : لو سجد هذا المريض للصنم

الفلاني لبرئَ ، ولو ذبح عناقاً(١) للصنم الفلاني لبرئَ ، ويعرض عليها وجوهاً من الكفر ، فكانت ربما عرضت ذلك على أيوب ، فيقول لها : أَلقيتِ عدوَّ الله في طريقك ؟ فلما أَغضبته بهذا ونحوه حلف لئن برئ من مرضه ليضربنَّها مائة سوط ، فلما برئَ أمره الله تعالى أن يأْخذ ضغثاً فيه مائة قضيب . و « الضِّغْثُ » : القبضة الكبيرة من القضبان ونحوها من الشجر الرطب ، قاله الضحاك وأهل اللغة ، فيضرب به ضربة واحدة فتبرّ يمينه ، ومنه قولهم : « ضِغْثٌ عَلَى إِبَّالَة »(٢) ، والإِبَّالة : الحُزْمة من الحطب ، قال الشاعر :

وَأَسْفَلَ مِنِّي نَهْدَةٌ قَدْ رَبَطْتُهَا وَأَلْقَيْتُ ضِغْثاً مِنْ خَلاً مُتَطَيِّبِ(٣)

(١) العَناقُ : الأنثى من أولاد المعيز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول .

(٢) معنى المثل : بليّةٌ على أخرى ، والضغث : الحزمة من الحشيش ، أو القبضة منه مختلطة الرطب واليابس ، والإبَّالة : الحُزمة من الحطب ، ويروى : إيبالة ، وبعضهم يقول : إبَالة مخففاً ، قال ذلك كله الميداني في كتابه (مجمع الأمثال) ، وزاد في اللسان (أَبَلَ) أنه يُنْشد لأسماء بن خارجة :

لي كُلَّ يَوْمٍ مِنْ ذُؤَالَـهْ ضِغْثٌ يزيدُ عَلَى إبَالَـهْ

وقال الزمخشري في (المستقصى في أمثال العرب) : « يُضرب لِمَنْ حَمَّلَكَ مكروهاً ثم زادك عليه » .

(٣) البيت في التاج ، وفي معجم الشعراء ، وهو للشاعر الجاهلي عَوْف بن عطية بن الخَرِع ، وقد استشهد به أبو عبيدة في (مجاز القرآن) ، قال : « الضِّغث : ملءُ الكف من الشجر أو =

وهذا حكم قد ورد في شرعنا عن النبي صلى الله عليه وسلم مثلُه في حدٍّ رجل زَمِنٍ بالزِّنى ، فأَمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعذق فيه مائة شمراخ أَو نحوها ، فضُرب به ضربة ، ذكر الحديث أَبو داود (١) ، وقال به بعض فقهاءِ الأُمة ، وليس يرى ذلك مالك وأَصحابه ، وكذا جمهور العلماءِ على ترك القول به ، وأَن الحدود والبرَّ في الأَيْمان لا يقع إلا بتمام عدد الضربات .

=الحشيش والشماريخ وما أشبه ذلك . قال عوف بن الخَرِع : وأسفل مني» البيت . وفي اللسان (ضَغث) أن الضغث قبضةٌ من قضبان مختلفة يجمعها أصل واحد ، مثل الأسل ، والكرات ، والثُّمامِ » . والنَّهْدة : الفرس ، قال في اللسان (نَهَدَ) : « وفرسٌ نَهْدٌ : جسيم مشرف ، نقول منه : نَهُدَ الفرس – بالضَّمِّ – نُهودةً ... والأنثى : نهدة » . والخلا : الرَّطب من الحشيش ، أو من البرسيم .

(١) احتج الشافعي بهذا الحديث ، وقال : إذا حلف ليضربن فلاناً مائة جلدة ، ولم يقل : ضرباً شديداً ، ولم ينو ذلك في قلبه ، يكفيه مثل هذا الضرب المذكور في الآية ، والحديث أخرجه أبو داود في سُنَنه ، عن أبي أُمامة بن سهل بن حُنَيْف أنه أخبره بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار ، أنه اشتكى رجلٌ منهم حتى أَضْنَى ، فعاد جلدةً على عظم ، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهشَّ لها فوقع عليها ، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك وقال : استفتوا لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنِّي قد وقعتُ على جارية دخلت علي ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : ما رأينا بأحد من الناس من الضُّرِّ مثل الذي هو به ، لو حملناه إليك لتفسَّخت عظامه ، ما هو إلا جلدٌ على عظم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة ، اهـ . ولكن الإمام مالك لم يأخذ بهذا الحديث حيث تُكُلِّم في إسناده ، ورأى التمسك بالآية الكريمة : ﴿ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ . وهذا مذهب أصحاب الرأي . ونلحظ أن الإمام الشافعي لم ينقل عنه أنه أخذ به في حدِّ الزنى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَاذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

قرأ ابن كثير : ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ على الإفراد ، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما وأهل مكة ، وقرأ الباقون : ﴿وَٱذْكُرْ عِبَادَنَا﴾ على الجمع ، فأما على هذه القراءة فدخل الثلاثة في الذكر وفي العبودية ، وأما على قراءة من قرأ : [عَبْدَنَا] فقال مكيٌّ وغيره : دخلوا في الذكر ، ولم يدخلوا في العبودية إلَّا من غير هذه الآية ، وفي هذا نظر ، وتأول قوم من المتأولين من هذه الآية أن الذبيح إسحق ، من حيث ذكر الله تعالى بعقب ذكر أيوب أنبياءَ امتحنهم بمحن كما امتحن أيوب ، ولم يذكر إسماعيل لأنه مِمَّن لم يُمْتَحن .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا ضعيف كلُّه .

وقرأَ الجمهور : ﴿أُولِي ٱلْأَيْدِي﴾ ، وقرأَ الحسن ، والثقفي ، والأَعمش ، وابن مسعود : ﴿أُولِي ٱلْأَيْدِ﴾ بحذف الياءِ ، وأَمَّا (أُولُو) فهو جمع (ذُو) ، وأَما القراءَة الأُولى ف [ٱلْأَيْدِي] فيها عبارة عن القوة في طاعة الله ، قاله ابن عباس ، ومجاهد . وقالت فرقة : بل معناه : أُولي الأَيدي والنِّعَم التي أَسداها الله تعالى إِليهم : من النبوة والمكانة . وقال قوم : المعنى : أَيدي الجوارح ، والمراد الأَيدي المتصرفة في الخير ، والأَبصار الثاقبة فيه ، لا كالتي هي مهملة في جلِّ الناس . وأَما من قرأَ : [ٱلْأَيْدِ] بغير ياءٍ فيحتمل أَن تكون كالتي بالياءِ وحذفت تخفيفاً ، ومن حيث كانت الأَلف واللام تعاقب التنوين وجب أَن تحذف معها كما تحذف مع التنوين . وقالت فرقة : [ٱلْأَيْد] معناها : القوة ، والمراد : في طاعة الله تعالى . وقوله تعالى : [وَٱلْأَبْصَارِ] عبارة عن البصائر ، أَي : يُبْصِرُونَ الحقائق ، وينظرون بنور الله تعـالى ، وبنحو هـذا فسَّر الجميع .

وقرأَ نافع وحده (١) : ﴿بِخَالِصَةِ ذِكْرَى﴾ على الإِضافة ، وهي قراءَة أَبي جعفر ، والأَعرج ، وشيبة . وقرأَ الباقون : ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى﴾

---

(١) يريد وحده من السبعة ، وإلا فقد قرأ بها أيضاً أبو جعفر ، والأعرج ، وشيبة ، كما ذكر .

منوناً ، وقرأ الأعمش : ﴿بِخَالِصَتِهِمْ ذِكْرَى﴾ ، وهي قراءة طلحة ، ويحتمل أَن تكون [خَالِصَة] اسم فاعل ، كأَنه عبَّر بها عن مَزِيَّة أَو رُتْبة ، فأَما من أَضافها ف [ذِكْرَى] مخفوض بالإِضافة ، وأَما من نَوَّنَ ف [ذِكْرَى] بدلٌ من [خَالِصَةٍ] ، ويحتمل أَن تكون [خَالِصَة] مصدراً كالعافية ، وكخَائِنَة الأَعْين ، وغيرها ، ف [ذِكْرَى] - على هذا - إما أَن يكون في موضع نصب بالمصدر على تقدير : إِنَّا أَخلصناهم بأَن أَخْلَصْنَا لهم ذِكْرَى الدار ، وتكون [خَالِصَةٍ] مصدراً ، من : أَخْلَصَ ، على حذف الزوائد ، وإما أَن يكون [ذِكْرَى] في موضع رفع بالمصدر ، على تقدير : إِنَّا أَخلصناهم بأَن خَلَصَتْ لهم ذكرى الدار ، وتكون [خَالِصَة] من : خَلَص . و [الدَّار] في كل وجه في موضع نصب بـ [ذِكْرَى] ، و [ذِكْرَى] مصدر . وتحتمل الآية أَن يريد بالدارِ الدَّارَ الآخرة ، على معنى : أَخلصناهم بأَن خَلَص لهم التذكير بالدار الآخرة ، ودعَا الناسَ إِليها وحضَّهم عليها ، وهذا قول قتادة ، أَو على معنى : خَلَص لهم ذِكْرُهم للدار الآخرة ، وخوفُهم لها ، والعملُ بحسب ذلك ، وهذا قول مجاهد ، وقال ابن زيد : المعنى : إِنَّا وهبناهم أَفضل ما في الدار الآخرة ، وأَخلصناهم به ، وأَعطيناهم إِيَّاه . ويحتمل أَن يريد بالدار دار الدنيا ، على معنى ذكر الثناءِ والتعظيم من الناس ، والحمد الباقي الذي هو الخُلد المجازي

به ، فتجيءُ الآية في معنى قوله تعالى : ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾(١) ، وفي معنى قوله : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾(٢) .

و [ٱلْمُصْطَفَيْنَ] أَصله : المصطفَيِيْن ، تحركت الياءُ ، وما قبلها مفتوح فانقلبت أَلفاً ، ثم اجتمع سكون الأَلف وسكون الياءِ التي هي علامة الجمع فحذفت الأَلف . و [ٱلْأَخيارِ] جمع خيْرٍ ، وخيْرٌ مخفف من خَيِّر ، كَمَيْتٍ ومَيِّت .

وقرأ حمزة والكسائي [وَٱللَّيْسَعَ] ، كأَنه(٣) أَدخل لام التعريف على (لَيْسَع) فأَجراه مجرى ضيْغَم ونحوه ، وهي قراءَة علي بن أَبي طالب - رضي الله عنه - والكوفيين . وقرأ الباقون : [وَٱلْيَسَعَ] ، قال أَبو علي : الأَلف واللام فيه زائدتان غير معروفتين ، كما هي في قول الشاعر :

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤاً وَعَسَاقِلاً ولقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ الْأَوْبَرِ(٤)

(١) من الآية (٥٠) من سورة (مريم) .
(٢) تكررت في الآيات : (٧٨ ، ١٠٨ ، ١٢٩) من سورة (الصَّافات) .
(٣) هكذا في جميع الأصول ، ولعله يريد : كأن القارئ .
(٤) البيت من الكامل ، وهو مجهول القائل ، واستشهد به ابن عقيل ، والأشموني ، والواو في أوَّله للقسم ، واللام للتأكيد ، وقد للتحقيق ، وجَنَيْتُك : جَنَيْتُ لك ، من قولهم : جَنَيْتُ الثمرة ، فحذف الجار توسُّعاً ، وأكْمُؤاً - بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم الميم : جمع كَمْءٍ على وزن فَلْس ، والعساقل : جمع عُسْقول ، وأصله : عساقيل فحذفت الياءُ للضرورة ، وهو نوعٌ من الكمأة ، وبَنَات الأوبر : كمأة صغيرة مزغبة على لون التراب ، وهي أردأُ أنواع الكمآت ، والشاهد فيها حيث زاد الشاعر الألف واللام للضرورة .

و «بناتُ أَوْبَر» : ضربٌ من الكمأَة . واختلف في نبوة (ذِي ٱلكِفْلِ) ، وقد تقدم تفسير أَمره .

وقوله تعالى : ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ يحتمل معنيَيْن : أَحدهما أَن يُشير إلى مدح من ذكر وإبقاءِ الشرف له ميتاً فيتأَكد بهذا التأْويل قولُ من قال آنفاً : إن (الدَّار) يرادُ بها الدار الدنيا ، والثاني أَن يشير بـ [هَذَا] إلى القرآن ، أَيْ : هو ذكر للعالم . و «المآب» : المرجع حيث يؤوبون ، و [جَنَّاتِ] بدل من [حُسْنَ] ، و [مُفَتَّحَةً] نعت للجنَّات ، و [ٱلْأَبْوَبُ] مفعول لم يُسمَّ فاعلُه ، والتقدير عند الكوفيين : مُفَتَّحة لهم أَبوابُها ، ولا يجوز ذلك عند أَهل البصرة ، والتقدير عندهم : الأَبواب منها ، وإنما دعا إلى هذا الضمير أَن الصفة لابد أَن يكون فيها عائد على الموصوف .

و ﴿قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ، قال قتادة : معناه : على أَزواجهن ، و [أَتْرَابٌ] معناه : أَمثالٌ ، وأَصله في بني آدم أَن تكون الأَسنان واحدة ، أَي : مَسَّت أَجسادهم التراب في وقت واحد . وقرأَ ابن كثير ، وأَبو عمرو : [يُوعَدُونَ] بالياءِ من تحت ، واختلفا في سورة [قٓ] ، فقرأَ أَبو عمرو بالتاءِ من فوق[1] ، وقرأَ الباقون في السورتين بالتاءِ ، و «النَّفَادُ» : الفناءُ والانقضاءُ .

---

(١) في قوله تعالى في الآية (٣٢) من سورة (قٓ) : ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾
هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ
مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا
بِكُمْۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ
عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾

التقدير : الأَمر هذا ، ويحتمل أَن يكون التقدير : هذا واقع ، أَو نحوه ، و « الطَّاغي » : المُفرِط في الشَّرِّ ، مأْخوذ من : طغى يطغى ، والطغيان هنا في الكفر ، و « المآبُ » : المرجع ، و [جَهَنَّمَ] بدل من قوله : ﴿لَشَرَّ مَآبٍ﴾ ، و [يَصْلَوْنَهَا] معناه : يباشرون حرَّها وحرقها ، و [ٱلْمِهَادُ] : ما يفرشه الإِنسان ويتصرف به .

وقوله تعالى : ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ يحتمل أَن يكون [هَذَا] ابتداءً ، والخبر [حَمِيمٌ] ، ويحتمل أَن يكون التقدير : الأَمر هذا فليذوقوه ، ويحتمل أَن يكون [هَذَا] في موضع نصب بفعل يدلُّ عليه [فَلْيَذُوقُوهُ] ، و [حَمِيمٌ] ـ على هذا خبر ابتداءٍ مضمر . قال ابن زيد : الحميم : دموعهم تجتمع في حياض فيسقونها . وقرأَ الجمهور : [وَغَسَاقٌ]

بتخفيف السين ، وهو اسم بمعنى السائل ، وروي عن قتادة أَنه ما يسيل من صديد أَهل النار ، ويُروى عن السدي أنه ما يسيل من عيونهم ، ويُروى عن كعب الأَحبار أَنه ما يسيل من حمة عقارب النار ، وهي - يُقَالُ - مجتمعة في عين هنالك ، وقال الضحاك : هو أَشدُّ الأَشياءِ برداً ، وقال عبد الله بنُ بُريدة : هو أَنتن الأَشياءِ ، وروى ذلك أَبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : [وَغَسَّاقٌ] بتشديد السين ، بمعنى : سيَّال ، وهي قراءَة قتادة ، وابن أَبي إِسحق ، وابن وثاب ، وطلحة . والمعنى فيه على نحو ما قدمناه من الاختلاف ، غير أَنها قراءَة ضعف ؛ لأَن «غَسَّاقاً» إِمَّا أَن يكون صفة فيجيءُ في الآية حذف الموصوف وإِقامة الصفة مقامه ، وذلك غير مستحسن هنا ، وإِما أَن يكون اسماً فالأَسماءُ على هذا الوزن قليلة في كلام العرب كالقيَّاد ونحوه .

وقرأَ جمهور الناس : [وَآخَرُ] بالإِفراد ، وهو رفع بالابتداءِ ، واختلف في تقدير خبره - فقالت طائفة : تقديره : ولهم عذاب آخَر ، وقالت طائفة : خبره [أَزْوَاجٌ] ، و ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ في موضع الصفة ، ومعنى ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ : من مثله وضَرْبه ، وجاز - على هذا القول - أَن يُخْبر بالجميع الذي هو [أَزْوَاجٌ] عن الواحد من حيث ذلك الواحد درجاتٌ ورُتبٌ من العذاب ، وقويٌّ وأَقل منه ، وأَيضاً فمن جهة أُخرى على أَن يُسَمَّى كل جزءٍ من ذلك باسم الكلِّ ، كما

قالوا : «شابت مفارقُه» ، فجعلوا كل جزءٍ من المَفْرِق مَفْرِقاً ، وكما قالوا : «جمل ذو عَثَانين»(١) ، ونحو هذا ، أَلا ترى أَن جماعةً من المفسرين قالوا : إِن هذا الآخَر هو الزمهرير ، فكأَنهم جعلوا كل جزءٍ منه زمهريراً . وقرأَ أَبو عمرٍو وحده : [وَأُخَرُ] على الجمع ، وهي قراءَة الحسن ، ومجاهد ، والجحدري ، وابن جبير ، وعيسى ، وهو رفع على الابتداءِ ، وخبره [أَزوَاجٌ] ، و [مِنْ شَكْلِهِ] في موضع الصفة . ورجح أَبو عبيد هذه القراءَة ، وكذلك أَبو حاتم لكون الصفة جمعاً ، ولم ينصرف (أُخَرُ) لأَنه معدول عن الأَلف واللام صفة ، وذلك أَن حق (أَفْعل) وجمعه أَلا يستعمل إِلَّا بالأَلف واللام ، فلما استعملت (أُخَر) دون الأَلف واللام كان ذلك عدْلاً لها ، وجاز في (أُخَر) أَن يوصف بها النكرة كقوله تعالى : ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾(٢) ، بخلاف جميع ما عُدل عن الأَلف واللام كشجر ونحوه في أَنه لا يجوز أَن توصف به النكرة لأَن هذا العدل في (أُخَر) اعتُدَّ به في منع الصرف ، ولم يعتد به في الامتناع من صفة النكرة ، كما يعتدون بالشيءِ في حُكْم دون حُكْم ، نحو اللام في قولهم : «لا أَبا لَكَ» ، واللام المتصلة بالكاف اعتُدَّ بها

(١) العُثْنُون : شعيرات طوالٌ عند مذبح البعير والتَّيْس ، فكأَنهم جعلوا كل جزءٍ من العُثْنُونِ عُثْنُوناً فجمعوا فقالوا : عَثَانين .

(٢) من الآية (١٨٤) من سورة (البقرة) .

فاصلة للإضافة ، ولذلك جاز دخول (لا) ، ولم يُعْتَدَّ بها في أن أُعرب (أَبا) بالحرف ، وشأْنه - إذا انفصل ولم يكن مضافاً - أَن يعرب بالحركات ، فجاءَت (اللام) ملغاة الحكم من حيث أُعرب بالحركات كأَنه مضاف ، وهي مُتَعَدٌّ بها فاصلة في أَن جوَّزت دخول (لا) .
وقرأ مجاهد : ﴿ مِنْ شِكْلِهِ ﴾ بكسر الشين . و[أَزْوَاجٌ] معناه : أَنواع ، والمعنى : لهم حميمٌ وغَسَّاقٌ وأَغذية أُخرى من ضَرْب ما ذُكر ونحوه وأَنواعٌ كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ هَذَا فَوْجٌ ﴾ هو مما يقال لأَهل النار إذا سيق عامَّة الكفار وأَتباعهم ؛ لأَن رؤساءَهُم يدخلون النار أَوَّلاً ، والأَظهر أَن قائل ذلك لهم ملائكةُ العذاب ، وهو الذي حكاه الثعلبي وغيره ، ويحتمل أَن يكون ذلك من قول بعضهم لبعض ، فيقول البعض الآخر : ﴿ لَا مَرْحَباً بِهِمْ ﴾ ، أَي : لا سَعَة مكان ولا خير يلقونه . و « الفَوْجُ » : الفريق من الناس ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ ﴾ حكاية لقول الأَتباع حين سمعوا قول الرؤَساءِ . و ﴿ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ معناه : بإِغوائكم أَسلفتم لنا ما أَوجب هذا ، فكأَنكم فعلتم بنا هذا .

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا ﴾ حكاية لقول الأَتباع أَيضاً ، دعوا على رؤَسائهم بأَن يكون عذابهم مضاعفاً .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾

الضمير في [قَالُوا] لأَشراف الكفار ورُؤَسائِهِم ، أَخبر الله تعالى عنهم أَنهم يتذكرون ـ إذا دخلوا النار ـ لقوم من مستضعفي المؤمنين ، فيقولون هذه المقالة ، وهذا مطَّرِدٌ في كل أُمة جاءَها رسول ، ورُوي أَن القائلين من كفار عصر النبي صلى الله عليه وسلم هم : أَبو جهل ابن هشام ، وأُميَّة بن خلف ، وأَهل القليب ، ومن جرى مجراهم ، وأَن الرجال الذين يُشيرون إلى ذكرِهِم هُمْ عمار بن ياسر ، وسَلْمان ، وصُهَيْب ومثْلُهم ، قاله مجاهد وغيره . والمعنى : كنا في الدنيا نعُدُّهم أَشراراً لا خَلَاقَ لهم . وأَمال الرَّاءَ من [الأَشْرَار] أَبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، وفتحها ابن كثير ، وعاصم ، وأَشَمَّ نافعٌ ، وحمزة . وقرأَ أَبو عمرٍو ، وحمزة ، والكسائي : [اتَّخَذْنَاهُمْ] بأَلف وصل ، على أَن يكون ذلك في موضع الصفة لـ (رِجَالٍ) ، وقرأَ الباقون بأَلف قَطْع للاستفهام ، ومعناها تقريرُ أَنفسهم على هذا ، على جهة التوبيخ لها والأَسف ، أَي : اتَّخذناهم ولم يكونوا كذلك ، واستبعد معنى هذه القراءَة أَبو علي .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : [سُخْرِيًّا] بضم السين ، وهي قراءة الأعرج ، وشيبة ، وابن مسعود وأصحابه ، وأبي جعفر ، ومجاهد ، والضحاك ، ومعناها من السُّخْرةِ والاستخدام ، وقرأ الباقون بكسر السِّين ، وهي قراءة الحسن ، وأبي رجاءٍ ، وعيسى ، وابن محيصن ، ومعناها المشهور من السُّخر الذي هو بمعنى الهُزْءِ ، ومنه قول الشاعر :

إنِّي أَتَتْني لِسَانٌ لَا أُسُرُّ بِهَا ... مِنْ عَلْوَ لَا كَذِبٌ فيها وَلَا سَخَرُ (١)

وقالت فرقة : يكون بكسر السِّين من التَّسْخير . و [أَمْ] في قولهم : ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ معادلةٌ لِـ [مَا] في قولهم : ﴿مَالَنَا لَا نَرَى﴾ ، وذلك أنها قد تعادل ما يعادل (من) ، وأنكر بعض النحويين هذا وقال : إنها لا تعادل إلا الألف فقط ، والتقدير في هذه الآية : أَمَفْقودون هم

---

(١) هذا البيت لأعشَى باهله ، عامر بن الحرث بن رباح ، أحد بني وائل ، الشاعر الجاهلي المجيد ، وهو من قصيدة قالها يرثي بها أخاه لأمه المُنْتَشر بن وهب ، وهي من المراثي المعدودات ، وهي في الأصمعيات تحت رقم ٢٤ ، وفي جمهرة أشعار العرب ، وفي الخزانة ، والبيت في اللسان (لَسَنَ) ، وهو مطلع القصيدة ، وقد اختلفت هذه المصادر في روايته ، ففي الأصمعيات :

قَدْ جاءَ مِنْ عَلُ أَنْبَاءٌ أُنبَّؤُهَا ... إلَيَّ لا عَجَبٌ مِنْهَا وَلا سَخَرُ

وفي الجمهرة ، واللسان :

إنِّي أَتَتْنِي لِسانٌ مَا أُسُرُّ بِهَا ... مِنْ عَلْوَ لا عَجَبٌ فِيهَا وَلا سَخَرُ

قال في اللسان : « اللِّسَان : جارحة الكلام ، وقد يُكْنَى بها عن الكلمة فيؤَنَّث حينئذ ، قال أعشى باهلة : إنِّي أَتَتْنِي لسان... البيت» ، وقال ابن بري: اللسان هنا : الرسالة ، و (من عَلْوَ)، أو (مِنْ عَلُ) بالحركات الثلاث على اللام : أيْ : جاءتني من أعلى ، يريد أعلى نجد ، ، والسَّخَرُ : السخرية ، — وقد تفتح السين والخاء ، وقد تضم كل منهما — ، والسَّخَر بمعنى السُّخْرية والهزؤ هو موضع الاستشهاد هنا .

أَم زاغت ؟ ومعنى هذا الكلام : أَلَيْسُوا معنا أَم هُمْ معنا ولكن أَبصارنا تميل عنهم فلا نراهم ؟ و «الزَّيْغُ» : المَيْل .

ثم أَخبر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ ، و [تَخَاصُمُ] بدلٌ من قوله : [لَحَقٌّ] . وقرأَ ابن أَبي عبلة : [تَخَاصُمَ] بفتح الميم ، وقرأَ ابن محيصن : [تَخَاصُمٌ] بالتنوين ﴿أَهْلُ ٱلنَّارِ﴾ برفع اللام .

ثم أَمَرَ تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام بأَن يتجرَّد للكفار من جميع الأَغراض إِلَّا أَنه منذرٌ لهم ، وهذا توعُّدٌ بليغ محرِّك للنفوس ، وباقي الآية بيِّنٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

الإِشارة بقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ إِلى التوحيد والمعاد ، فهي إِلى القرآن وجميع ما تَضَمَّنه وعْدُهُ أَن التصديق به نجاةٌ

والتكذيب به هلكة . وحكى الطبري أَن شُرَيْحاً اختصم إِليه أَعرابي ، فشهد عليه ، فأَراد شُريح أَن ينفذ الحكم ، فقال الأَعرابي : أَتحكم عليَّ بالنَّبَاءِ ؟ فقال شريح : نعم ، إن الله تعالى يقول في القرآن : ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ، وقرأَ الآية ، وحكم عليه .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا الجواب من شريح إنما هو بحسب لفظ الأَعرابي ، ولم يُحَرِّرْ معه الكلام ، وإنما قصد إلى ما يقطعه به ؛ لأَن الأَعرابي لم يُفَرِّق بين الشهادة والنَّبإِ ، و «النَّبَأُ» في كلام العرب بمعنى الخبر . ووبَّخهم تبارك وتعالى بقوله : ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ .

ثم قال : ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ، وهذا احتجاجٌ لصحة أَمر محمد صلى الله عليه وسلم ، كأَنه يقول : هذا أَمر خطير ، وأَنتم عنه معرضون مع صحته ، ودليل صحته أَنِّي أُخبركم فيه بغيوب لم تأْت إلا من عند الله ، فإِنِّي لم يكن لي عِلم بالملإِ الأَعلى وقت خصومتهم لولا أَن الله تعالى أَخبرني بذلك . وأَراد بهم الملائكة ، والضمير في [يَخْتَصِمُونَ] عند جمهور المفسرين هو للملائكة .

واختلف الناسُ في الشيءِ الذي هو اختصامهم فيه — فقالت فرقة : اختصامهم في أَمر آدم عليه السلام وذريته في جعلهم في الأَرض ،

ويدلُّ على ذلك ما يلي من الآيات ، فقول الملائكة : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ﴾(١) هو الاختصام ، وقالت فرقة : بل اختصامهم في الكفارات وغفر الذنوب ونحوه ؛ فإن العبد إذا فعل حسنةً اختلفت الملائكة في قدر ثوابه في ذلك حتى يقضي الله بما شاءَ ، وورد في هذا حديث فسَّره ابن فُورك ؛ لأَنه يتضمن أَن النبي عليه الصلاة والسلام قال له ربُّه عزَّ وجلَّ في نومه : فيم يختصمون ؟ فقلت : لا أَدري ، فقال : في الكفَّارات ، وهي : إِسْبَاغُ الوضوءِ في السَّبرات(٢)، ونقل الخُطَى إلى الجماعات ، الحديث بطوله ، قال : (فوضع الله سبحانه وتعالى يده بين كتفيَّ حتَّى وجدتُ بردَها فيما بين ثديي)(٣) .

(١) من الآية (٣٠) من سورة (البقرة) .

(٢) السَّبرات : جمع سَبْرَة ، وهي الغداةُ الباردة .

(٣) لهذا الحديث طرق متعددة ، وقد ذكرها كلَّها الإمام السيوطي في (الدر المنثور) ، وقد أخرجه أحمد في مسنده ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : احتبس علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرْن الشمس ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً ، فثوَّب بالصلاة وصلى وتجوَّز في صلاته ، فلما سلَّم قال : كما أنتم على مَصَافِّكُم ، ثم أقبل إلينا فقال : إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة ، إني قمتُ من الليل فصلَّيت ما قدِّر لي ، فنعست في صلاتي حتى استيقظت ، فإذا أنا بربِّي عزَّ وجلَّ في أحسن صورة ، فقال : يا محمد ، أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري يا رب . قال : يا محمد ، فيم يختصم الملأ الأعلى ، قلت : لا أدري ربِّ ، فرأيته وضع كفَّه بين كتفيَّ ، حتى وجدت برد أنامله بين صدري ، فتجلَّى لي كل شيءٍ ، وعرفت ، فقال : يا محمد ، فيم يختلف الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفَّارات ، فقال : وما الكفَّارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، وجلوسٌ في المساجد بعد الصلاة ، وإسباغ الوضوءِ عند الكريهات ، قال : وما الدَّرَجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام ، قال : سَلْ ،=

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فتفسير هذا الحديث أَن اليَدَ هي نعمة العِلْم ، وقوله صلى الله عليه وسلم : بَرْدَهَا ، أَي : السُّرور بها والثَّلْج ، كما تقول العرب في الأَمر السَّارِّ : يا بَرْدَه على الكبد ، ونحو هذا ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (الصَّلاة باللَّيل هي الغنيمة الباردة)[1]، أَي : السهلة التي يُسَرُّ بها الإِنسانُ .

وقالت فرقة : المراد بـ ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الملائكة ، وقوله تعالى : ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ مقطوعٌ منه ، ومعناه : إِذ يختصم العرب الكافرة

=قلت : اللّهم أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم ٍ فتوفّني غير مفتون ، وأسألك حبك وحُبَّ من يُحِبُّك وحُبَّ عمل يُقَرِّبني إلى حبك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنها حقٌ فادرسوها وتعلّموها) .

وابن كثير يؤكد أن هذا حديث المنام المشهور ، قال : ومن جعله يقظة فقد غلط ، وهو في السُّنَن ِ من طرق ، وهذا الحديث رواه الترمذي من حديث جَهْم بن عبد الله اليمامي ، وقال : حسَنٌ صحيح . وقال الترمذي : سألت محمد بن إسماعيل البخاري عن هذا فقال : هذا حديث حسنٌ صحيح .

(١) لم أجد الحديث بلفظ الصلاة ، والذي رأيته في (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) أن الحديث عن الصيام في الشتاء ، وقال : أخرجه الترمذي في الصوم ، والإمام أحمد في مسنده (٥ـ٣٣٥) ، وكذلك ذكره ابن الأثير في كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) ، وشرح معنى باردة . ونص ما ذكره أحمد في مسنده هو : (عن عامر ابن مسعود الجُمَحي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصوم في الشتاء الغنيمةُ الباردةُ) ، قال ابن الأثير : «أي : لا تَعَبَ فيه ولا مشقّة ، وكل محبوب عندهم بارد ، وقيل : معناه الغنيمة الثابتة المستقرة ، من قولهم : بَرَدَ لي على فلان حقٌ ، أي : ثبت . وسواءٌ أكان الحديث عن الصيام أو عن الصلاة فالشاهد فيه أن كلمة (باردة) تؤدي معنى السهولة التي تريح الإنسان وتسرُّه .

في الملإِ الأَعلى، فيقول بعضها : هي بناتُ الله ، ويقول بعضها : هي آلهة تُعْبَد ، وغير ذلك من أَقوالهم .

وقالت فرقة : أَراد بـ ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ قريشاً ، وهذا ضعيف لا يَتَقَوَّى من جهـــة .

وقرأَ جمهور الناس : ﴿إِلَّا أَنَّمَا﴾ بفتح الأَلف كأَنه يقول : إِلَّا الإِنذار ، وقرأَ أَبو جعفر : ﴿إِلَّا إِنَّمَا﴾ على الحكاية ، كأَنه قيل له : «أَنْتَ نذيرٌ مُبينٌ» ، فحكى هو المعنى ، وهذا كما يقول الإِنسان : أَنا عالِمٌ ؟ فيقال له : أَنْت عالم ، فيحكي المعنى .

و [إِذْ] في قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ بدلٌ من [إِذْ] الأُولى ، على تأْويل من رأَي الخصومة في شأْن من سيخلف في الأَرض ، وعلى الأَقوال الأُخرى يكون العامل في [إِذْ] الثانية فعل مضمر تقديره : اذْكُرْ إِذْ قال ، و «الْبَشرُ الْمَخْلُوقُ» هو آدم عليه السلام . . و [سَوَّيْتُهُ] يريد به شخصه . و ﴿نَفَخْتُ فِيهِ﴾ عبارة عن إِجراءِ الروح فيه ، وهي عبارة على نحو ما يفهم البشر من إِجراءِ الأَشياءِ بالنفخ ، وقوله تعالى : ﴿مِنْ رُوحِي﴾ هي إِضافة مِلْكٍ إِلى مالك ؛ لأَن الأَرواح كلها هي مِلك لله تبارك وتعالى ، وأَضاف إِلى نفسه تشريفاً . وقوله تعالى : [سَاجِدِينَ] اختلف الناس فيه ـ فقالت فرقة : هو السجود المتعارف ، وقالت فرقة : معناه : خاضعين ، على أَصل السجود في اللغة . ثم أَخبر تعالى أَن الملائكة بأَجمعهم سجدوا إِلَّا إِبليس فإِنه استكبر عن السجود .

وقوله : ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ يحتمل أن يريد به : وكان من أول أمره من الكافرين في علم الله تعالى ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، ويحتمل أن يريد : ووُجِد عند هذه الغفلة من الكافرين ، وعلى القولَيْن فقد حكم الله تعالى على إبليس بالكفر ، وأخبر أنه كان قد عقد قلبه في وقت الامتناع .

قوله عزَّ وجل :

﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾

القائل لإبليس هو الله عزَّ وجلَّ ، وقوله : ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ تقريرٌ وتوبيخٌ ، وقرأ عاصم الجحدري : ﴿لَمَّا خلقْتُ﴾ بفتح اللام من [لَمَّا] وشد الميم ، وقرأ جمهور الناس : [بِيَدَيَّ] بالتثنية ، وقرأت فرقة : [بِيَدِي] بتخفيف الياءِ (١) ، وقد جاءَ في كتاب الله تعالى :

(١) في بعض النسخ : « بفتح الياء » .

﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾(١) بالجمع ، وهذه كلها عبارة عن القدرة والقوة ، وعبَّر عن هذا المعنى بذكر الْيَد تقريباً على السَّامعين ؛ إذ المعتاد عن البشر أَن القوَّة والبطش والاقتدار إنما هو باليد ، وقد كانت جهالة العرب بالله تعالى تقتضي أَن تنكر نفوسها أَن يكون خلقٌ بغير مماسَّة ونحو هذا من المعاني المعقولة . وذهب القاضي ابن الطيِّب إلى أَن الْيَد والوجه والعين صفاتُ ذاتٍ زائدةٌ على القدرة والعلم وغير ذلك من متقرر صفاته تعالى ، وذلك قولٌ مرغوب عنه ، ويُسَمِّيها الصفات الخبرية . ورُوي في بعض الآثار أَن الله تعالى خلق أَربعة أَشياءٍ بيده ، وهي : العرش ، والقلم ، وجنة عدن ، وآدم ، وسائرَ(٢) المخلوقات بقوله : كُنْ ، وهذا ـ إنْ صحَّ ـ فإنما ذكر على جهة التشريف للأَربعة والتنبيه منها ، وإلا فإذا حقَّقنا النظر فكل مخلوق هو بالقدرة التي بها يقع الإيجادُ بعد العدم .

وقرأَت فرقة : [ٱسْتَكْبَرْتَ] بصِلة الأَلف ، على الخبر عن إبليس(٣) ،

---

(١) من قوله تعالى في الآية (٧١) من سورة (يس) : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ .

(٢) أي : وخلَق سائرَ المخلوقات ، فهي معطوفة على (أربعةَ) من قول المؤلف : «خلَق أَرْبَعَةَ أَشْيَاءٍ» .

(٣) هي قراءة ابن كثير ، وأهل مكة ، ويحتمل أن تكون إخباراً كما ذكر ابن عطية ، والغرض منه التقريع ، و [أَمْ] منقطعة ، والمعنى : بل أنت من العالين عند نفسكَ . ويحتمل أن تكون همزة الاستفهام وحذفت لأن [أَمْ] دلَّت عليها ، كقول عمر بن أبي ربيعة :

لَعَمْرُكَ ما أدْرِي وإنْ كُنْتُ دارِياً بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الْجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

وهو شاهد على أن ألف الاستفهام تحذف لضرورة الشعر وذلك لدلالة (أم) عليها .

وتكون [أَمْ] بنيَّة الانقطاع لا مُعَادِلةً لها ، وقرأت فرقة : [أَسْتكْبَرْتَ] بقطع الألف ، على الاستفهام ، فـ [أَمْ] - على هذا - مُعَادِلةٌ للألف ، وذهب كثير من النحويين إلى أن [أَمْ] لا تكون مُعَادِلَةً للألف مع اختلاف الفعلين ، وإنما تكون مُعَادِلَةً إذا دخلتا على فعلٍ واحد ، كقولك : أَزيدٌ قام أَمْ عمرو ؟ وقالوا : وإذا اختلف الفعلان كهذه الآية فليست معادلة (١) . ومعنى الآية : أَحَدثَ لك الاستكبارُ الآن أَم كنت قديماً مِمَّن لا يليق أَن يكلَّف مثل هذا لِعُلُوٍّ مكانك ؟ وهذا على جهة التوبيخ .

وقول إبليس : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ قياسٌ أَخطأَ فيه ، وذلك أَنه لما توهَّم أَن النار أَفضل من الطين قاسَ أَن ما خُلق من الأَفضل فهو أَفضل من الذي خُلق من المفضول ، ولم يدر أَن الفضائل تخصيصاتٌ من الله تعالى يَسِمُ بها من يشاءُ ، وفي قوله ردٌّ على حكمة الله تعالى وتجويز ، وذلك بيِّنٌ في قوله : ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا ٱلَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ (٢) ، ثم قال : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ ، وعند هذه المقالة اقترن كُفْر إبليس به ، إمَّا عناداً - عَلَى قول من يجيزه - ، وإمَّا بأَن سُلب المعرفة ، وظاهر أَمْره أَنه كُفْرُ عنادٍ ؛ لأَن الله تعالى قد حكم عليه بأَنه كافر ، ونحن نجده

---

(١) نقل أبو حيان في (البحر المحيط) هذا الكلام عن ابن عطية ، ثم قال تعقيباً عليه : « وهذا الذي ذكره عن كثير من النحويِّين مذهبٌ غير صحيح ، قال سيبويه : وتقول : أضربتَ زيداً أم قتلتَه ، فالبَدْءُ هنا بالفعل أحسن ؛ لأنك إنما تسأل عن أحدهما ، لا تدري أيهما كان ، ولا تسأل عن موضع أحدهما ، كأنك قلت : أيُّ ذلك كان . اهـ فعادَلَ بـ (أَمْ) الألف مع اختلاف الفعلين » .

(٢) من الآية (٦٢) من سورة (الإسراء) .

خلال القصة يقول : (يارَبِّ ، وبِعِزَّتِكَ ، وإلى يوم يبعثون) ، فهذا كلُّه يقتضي المعرفة ، وإن كان للتأْويل فيه مزاحم ، فتأَمَّله .

ثم أَمر الله تعالى إبليس بالخروج على جهة الدُّخور له (١) ، وقالت فرقة : أَمره بالخروج من الجنة ، وقالت فرقة : من السماءِ . وحكى الثعلبي عن أَبي الحسن ، وأَبي العالية أَن قوله تعالى : [مِنْهَا] يريد تعالى : من الخلقة التي أَنت فيها ، ومن صفات الكرامة التي كانت له ، قال الحسن بن الفضل : ورجعت له أَضدادها ، وعلى القول الأَول فإِنما أُمر أَمراً يقتضي بُعده عن السماءِ ، ولا خلاف أَنه أُهبط إلى الأَرض . و «الرَّجِيمُ» : المرجوم بالقول السَّيِّءِ ، و «اللَّعْنَةُ» : الإِبعاد ، و «يومُ الدِّين» : يومُ القيامة . و «الدِّينُ» : الجزاءُ .

وإنما حدَّ الله تعالى له اللعنة بيوم الدين ، ولعنتُه إِيَّاه إنما هي مُخَلَّدة ، ليحصر له أَمر التوبة ؛ لأَن امتناع توبته بعد يوم القيامة بيِّنٌ ؛ إِذْ ليست الآخرة دار عمل .

ثم إن إبليس طلب النَّظِرةَ وتأْخيرَ الأَجل إلى يوم بعث الأَجساد من القبور ، فأَعطاه الله تعالى الإِبقاءَ إلى يوم الوقت المعلوم ، واختلف الناسُ في تأْويل ذلك ـ فقال الجمهور : أَسعفه الله تعالى في طِلْبته وأَخَّره إلى يوم القيامة ، وهو الآن حيٌّ مُغْوٍ مُضِلٌّ ـ وهذا هو الأَصح

---

(١) الدخُور : الذِّلّةُ والصَّغارُ والهوانُ ، وفي التنزيل العزيز : ﴿سُجَّداً للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ .

من القولين ـ ، وقالت فرقة : لم يُسْعَف بِطِلْبته ، وإنما أُسعف إلى الوقت الذي سبق من الله تبارك وتعالى أن يموت إبليس فيه . وقال بعض هذه الفرقة : ماتَ إبليس يوم بدرٍ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾

القائل هو إبليس ، أَقسم بِعِزَّة الله تعالى ، قال قتادة : علم عدوُّ الله أنه ليست له عزَّة فأَقسم بِعِزَّة الله سبحانه أنه يُغوي ذريَّة آدم أَجمع ، إلَّا من أَخْلَصه اللهُ للإِيمان به .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذا استثناءُ الأَقل عن الأَكثر ، على باب الاستثناءِ ؛ لأَن المؤمنين أَقلُّ من الكفرة بكثير ، بدليل بعث النار (١) وغيره ، وجوَّز قومٌ

(١) حديث بعث النار أخرجه البخاري في الأنبياء ، وتفسير سورة الحج ، والرقاق ، والتوحيد ، ومسلم في الإيمان والفتن ، والترمذي في تفسير سورة الحج ، وأحمد في مُسْنده=

أَن يُستثنى الكثيرُ من الجملة ويترك الأَقلُّ على الحكم الأَول ، واحتَجُّوا بقوله : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾(١) وقال من ناقضهم : العبادُ هنا يعُمُّ البشرَ والملائكة ، فبقي الاستثناءُ على بابه في أَن الأَقـلَّ هو المستثنى . وفتح الـلَّام وكسرهـا في [ٱلْمُخْلَصِينَ] تقدم .

والقائل : ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ هو الله تعالى ، قال مجاهد : المعنى : فالْحَقُّ أَنا . وقرأَ الجمهور بالنصب في الاثنين ، فأَما الثاني فمنْصوب بـ [أَقُولُ] ، وأَما الأَول فيحتمل الإِغراءَ ، أَو القسَم على إسقاط حرف القَسَم ، فكأَنه قال : «فَوالْحقَّ» ، ثم حذف الحرف، كما تقول : «اللهَ لأَفعلن» ، تريد : واللهِ ، ويُقَوِّي ذلك قوله : [لَأَمْلَأَنَّ] ،

=(١–٣٨٨ ، ٢–١٦٦ ، ٣–٣٣ ، ٤–٤٣٢ ، ٤٣٥) . ولفظه كما رواه البخاري في تفسير سورة الحج ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يقول الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة : يا آدم ، فيقول : لبَّيْك ربنا وسعديك ، فينادَى بصوت : إن الله يأمرك أن تُخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، قال : يارب وما بعثُ النار ؟ قال : من كل ألْف أُراهُ قال : تسعمائة وتِسْعَةً وتِسْعين ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الولد ، وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى ولكن عذاب الله شديد ، فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإني لأرجو أن تكونوا رُبع أهل الجنة ، فكبَّرنا ، ثم قال : ثُلُث أهل الجنة ، فكبَّرنا ، ثم قال : شَطْر أهل الجنة ، فكبَّرنا) .

(١) الآية (٤٢) من سورة (الحِجر) .

قال سيبويه : قلتُ للخليل : ما معنى «لأَفعلن» إذا جاءَت مبتدأً ؟ فقال : هو بتقدير قَسَم منوي . وقالت فرقة : الأَول منصوب بفعل مضمر .

وقرأَ ابن عباس ، ومجاهد برفع الاثنين ، فأَما الأَول فبالابتداءِ ، وخبرُه في قوله : [لَأَمْلَأَن] ؛ لأَن المعنى : أَنْ أَمْلأَ(١) ، وأَمَّا الثاني فَعَلَى الابتداءِ أَيضاً . وقرأَ عاصم ، وحمزة بالرفع في الأَول ، وهي قراءَة مجاهد ، والأَعمش ، وأَبان بن تغلب ، وإِعرابُ هذه بيِّنٌ . وقرأَ الحسنُ : ﴿فالْحَقِّ وَٱلْحقِّ﴾ بخفض القاف على القسم ، ذكرها أَبو عمرو الداني (٢) .

ثم أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أَن يخبرهم بأَنه ليس بسائل أَجرٍ ولا مال ، وأَنه ليس ممَّن يتكلَّف ما لم يُجعل إِليه ،

---

(١) قال أبو حيان الأندلسي في (البحر المحيط) تعقيباً على هذا الإعراب بعد أن نقله عن ابن عطية : «وهذا ليس بشيءٍ ؛ لأن [لأمْلأنَّ] جواب قسم ويجب أن يكون جملة ، فلا يتقدر بمفرد ، وأيضاً ليس مصدراً مُقَدَّراً بحرف مصدريٍّ والفعل حتَّى ينْحَلَّ إليهما ، ولكنه لما صحّ لَهُ إسناد ما قدر إلى المبتدإ حكم أنه خبرٌ عنه» ، وقدَّر أبو حيان الخبر محذوفاً ، فقيل : تقديره : فالحقُّ أنا ، وقيل : فالحقُّ مني ، وقيل : تقديره : فالحقُّ قسمي . وحُذف الخبر كما حُذف في قول امرئ القيس :

فَقُلْتُ يَمينُ اللهِ أَبْرَحُ قاعِداً وَلَوْ قَطَّعُوا رَأسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالي

إذ التقدير : يمين الله قَسَمي .

(٢) وهي أيضاً قراءة عيسى ، وعبد الرحمن بن أبي حماد ، عن أبي بكر ، وتُخَرَّج على أن الأول مجرور بواو القسم محذوفة ، والتقدير . فَوَ الْحَقِّ ، والثاني معطوف عليه ، كما تقول : واللهِ واللهِ لأفْعَلَنَّ كذا .

ولا يتحلّى بغير ما هو فيه . قال الحسين بن الفضل : هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَى ﴾ (١) ، وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه : نادى منادي النبي صلى الله عليه وسلم : (اللّهم اغفر للذين لا يدّعون ولا يتكلّفون ، أَلَا إِنِّي بريءٌ من التكلُّف ، وصالحو أُمَّتي) (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ يريد : القرآن ، و ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ أي : تَذْكِرَةٌ . ثم توعدهم تعالى بقوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ، وهذا على حذف تقديره : وَلَتَعْلَمُنَّ صدْقَ نَبَئِهِ بعد حين من توعدكم .

---

(١) من الآية (٢٣) من سورة (الشورى) .

(٢) أخرج الديلمي ، وابن عساكر ، عن الزبير رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إنِّي لا ألي من التكلف وصالحو أُمّتي) . (الدر المنثور) .

هذا وفي التكلُّف آثار كثيرة ، منها ما أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن مسروق رضي الله عنه ، قال : بينما رجلٌ يُحدِّثُ في المسجد فقال فيما يقول : يوم تأتي السماءُ بدخانٍ يكون يوم القيامة ، يأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام ، قال : فقمنا حتى دخلنا على عبد الله رضي الله عنه وهو في بيته ، فأخبرناه ، وكان متكئاً فاستوى قاعداً فقال : أيُّها الناس ، من علم منكم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ . وقال صلى الله عليه وسلم : (للمتكلِّف ثلاث علامات : ينازع مَنْ فوقه ، ويتعاطى مالا ينال ، ويقول مالا يعلم).

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ إلى أي وقت أشارَ ؟ لأن (الحينَ) في اللغة يقع على القليل والكثير من الوقت ، فقال ابن زيد : أشار إلى يوم القيامة ، وقال قتادةُ والحسن : أشار إلى الآجال التي لهم ؛ لأن كل واحد منهم يعرف الحقائق بعد موته ، وقال السدي : أشار إلى يوم بدر ؛ لأنه يوم عرف الكفار فيه صدق وعيد القرآن لهم .

كمل تفسير سورة (صٓ) والحمد لله ربِّ العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أَجمعين

(٣٩) سورة الزمر مكية وآياتها خمس وسبعون

تفسير سورة الزُّمَرْ(١)

هذه السورة مكِّيَّة بإجماع ، غير ثلاث آياتٍ نزلت في شأْن وحشيٍّ قاتِل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وهي : ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآيات ، وقالت فرقة : بل إلى آخر السورة هو مدنيٌّ ، وقيل : فيها مدنيٌّ سبع آياتٍ(٢).

(١) وتُسَمَّى سورة الغرف ، قال وهب بن منبِّه : من أراد أن يعرف قضاءَ الله عزَّ وجلَّ في خلقه فليقرأ سورة الغرف .

(٢) تبدأُ بقوله تعالى في الآية (٥٣) : ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا ...﴾ إلى آخر السبع . وأخرج النسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول : ما يريد أن يُفْطِرَ ، ويُفْطِرُ حتى نقول : ما يريد أن يصوم، وكان يقرأُ في كل ليلة بني إسرائيل والزُّمَر» ، وأخرجه الترمذي عنها بلفظ : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأَ الزُّمر وبني إسرائيل» .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ ﴾

[تَنْزِيلُ] رفع بالابتداء ، والخبر قوله : ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ ، وقالت فرقة : [تَنْزِيلُ] خبر ابتداءٍ تقديره : هذا تنزيل ، والإشارة إلى القرآن الكريم ، وقرأ ابن أبي عبلة : [تَنْزِيلَ] بنصب اللام . و [ٱلْكِتَابِ] في قوله : ﴿تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ﴾ هو القرآن الكريم ، ويظهر لي أنه اسمٌ عامٌّ لجميع ما ينزلُ من عند الله من الكتب ، وكأنه تعالى أخبر إخباراً مجرداً أن الكتب الهادية الشارعة إنما تنزيلها من الله عزَّ وجلَّ ، وجعل هذا الإخبار تقدمةً وتوطئة لقوله : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ﴾ ، و «العزيز» في قدرته ، و «الحكيمُ» في إبداعه . و «ٱلْكِتَابَ» الثاني هو القرآن لا يحتمل غير ذلك . وقوله سبحانه : [بِالْحَقِّ] يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون معناه : متضمناً الحقَّ ، أي : الحقُّ فيه وفي أحكامه وفي أخباره ، والثاني أن يعني الاستحقاق والوجوب وشمول المنفعة للعالم في هدايتهم ودعوتهم إلى الله .

وقوله تعالى : ﴿فَاعْبُدِ ٱللَّهَ﴾ يحتمل أن تكون الفاءُ عاطفةً جُملةً من القول على جُملة وواصلة ، ويحتمل أن تكون كالجواب ؛ لأن

قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ جملة ، كأنه ابتداءٌ وخبره ، كما لو قال : الكتاب منزل ، وفي الجمل التي هي ابتداءٌ وخبرٌ إبهامٌ مَّا يُشبه الجزاءَ ، فجاءَت الفاءُ كالجواب ، كما تقول : زيدٌ قائمٌ فأكرمه ، ونحو هذا قول الشاعر :

وَقَائِلَةٍ خَوْلَانُ فَانْكِحْ فَتَاتَهُم . . . . (١)

التقدير : هذه خولان . و [مُخْلِصاً] حالٌ ، و [ٱلدِّينَ] نصب به ، ومعنى الآية الأَمر بتحقيق النِّيَّة لله في كلِّ عمل ، و «ٱلدِّين» هنا يعم المعتقدات وأعمال الجوارح . وقوله سبحانه : ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ بمعنى : من حقه ومن واجباته ، لا يقبل غيره ، وهذا كقولك : «لله ٱلْحمدُ» ، أي : واجباً ومستحقًّا . قال قتادة : ﴿ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ : لَا إِلَه إِلَّا الله .

وقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا﴾ رفع بالابتداءِ ، وخبره في المحذوف المقدر ، وتقديره : «يقولون : ما نعبدهم» ، وفي مصحف ابن مسعود : «قالوا : ما نعبدهم» ، وهي قراءَة ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير . و [أَوْلِيَاءَ] يريد : معبودين ، وهذه مقالة شائعة في العرب ، يقول

(١) هذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لم يعرف لها ناظم ، وهو في الكتاب ، والخزانة ، وابن يعيش ، والهمع ، وشرح شواهد المغني ، وهو شاهد عند سيبويه على أن (خولان) خبر مبتدإ محذوف ، والتقدير : هذه خولان ، وعند الفراء : خولان مبتدأ ، وخبره : انْكِحْ ، والفاءُ زائدة ، والمذكور هنا هو صدر البيت ، وهو بتمامه :

وَقَائِلَةٍ خَوْلَانُ فَانْكِحْ فَتَاتَهُم وَأُكْرُومَةُ الحَيَّيْن خِلْوٌ كَمَا هِيَا

والأُكْرُومَةُ : فعل الكرم ، مصدر بمعنى اسم المفعول ، أي : ومُكْرَمَةُ الحَيَّيْن ، والمراد بالحَيَّيْن حيُّ أبيها وحيُّ أُمها . وخِلْوٌ : خالية لا زَوْجَ لَهَا ، والجملة في محل نصب على الحال ، والمعنى : ربَّ قائلة لي : هذه خولان فانكح فتاتَهُم ، فقلت : كيف أَنكحها وأُكرومة الحيَّيْن خالية عن الزوج ، وقوله : كما هي ، معناه : كما كانت خِلْواً فيما مضى .

كثير منهم في الجاهلية : «الملائكة بنات الله ، ونحن نعبدهم لِيُقَرِّبونا» ، وطائفة منهم قالت ذلك في أَصنامهم وأَوثانهم . وقال مجاهد : قد قال ذلك قوم من اليهود في عُزَيْر ، وقوم من النصارى في عيسى ، وفي مصحف أُبَيٍّ بن كعب : «نَعْبُدُكُم» بالكاف ، «لِتُقَرِّبونا» بالتاءِ . و [زُلْفَى] بمعنى : قُرْبَى وتَوْصلة ، كأَنه قال : لِتُقَرِّبونا إلى الله تقريباً ، وكأَن هذه الطوائف كلها كانت ترى نفوسها أَقل من أَن تتصل هي بالله ، فكانت ترى أَن تتصل بمخلوقاته ، و [زُلْفَي] - عند سيبويه - مصدرٌ في موضع الحال ، كأَنه ينزل منزلة : مُتَزَلِّفِين ، والعامل فيه [تُقَرِّبُونَا] ، هذا مذهبه وفيه خلاف . وباقي الآية وعيدٌ في الدنيا والآخرة .

قوله عزَّ وجل :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾﴾

هذه الآية إِمَّا أَن يكون معناها : إِن الله لا يهدي الكاذب الكفار في حال كذبه وكفره ، وإِمَّا أَن يكون لفظُها العموم ومعناها الخصوص

فيمن حتم الله عليه بالكفر ، وقضى في الأزل أنه لا يؤمن أبداً ، وإلَّا فقد وُجد الكاذب الكفَّار وقد هُدِيَ كثيراً . وقرأ أنس بن مالك ، والجحدري : «كَذَّابٌ كَفَّارٌ» بالمبالغة فيهما ، ورُويت عن الحسن ، والأَعرج ، ويحيى بن يَعْمَر ، وهذه المبالغة إشارة إلى المتوغِّل في الكُفْر ، القاسي فيه ، الذي يُظَنُّ بأنه محتوم عليه .

وقوله تعالى : ﴿لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ معناه : اتخاذَ التشريف والتَّبَنِّي ، وعلى هذا يستقيم قوله سبحانه : ﴿لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ﴾ ، وأَمَّا الاتخاذ المعهود بالتَّوالد فَمُستحيل أن يُتَوَهَّم في جهة الله سبحانه وتعالى ، ولا يستقيم عليه معنى قوله : [لَاصْطَفَى] . وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾[1] لفظ يعُمُّ اتخاذ النسل واتخاذ الاصطفاء ، فأَمَّا الأَول فمعقول ، وأَما الثاني فمعروف بخبر الشَّرع ، ومما يدل على أَن المعنى هنا الاصطفاءُ والتَّبنِّي قوله تعالى : ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ ، أَي : من موجوداته ومُحْدَثاته . ثم نزَّه تعالى نَفْسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع مالا يكون مِدْحَةً . واتِّصافه تعالى بالقَهَّار على الإطلاق ؛ لأَن أَحداً من البشر إنِ اتَّصف بالقَهْر فمقيَّدٌ في أَشياءَ كثيرة قليلة ، وهو في حيِّز قهره لغيره مقهور لله تعالى على أَشياءَ كثيرة .

وقوله تعالى : [بِالْحَقِّ] معناه : بالواجب الواقع موقعه الجامع للمصالح . وقوله تعالى : ﴿يُكَوِّرُ ٱللَّيْلَ﴾ معناه : يُعيد من هذا على هذا ، ومنه : كَوَّر العمامة التي يلتوي بعضها على بعض ، فكأَن الذي يطولُ

---

(١) الآية (٩٢) من سورة (مريم) .

من النهار أَو من الليل يصير منه على الآخر جزءٌ فيستره ، وكأَن الآخر الذي يقصر يَلِجُ في الذي يطول فَيُسْتَر فيه ، فيجيءُ [يُكَوِّرُ] ـ على هذا ـ معادلاً لقوله تعالى : [يُولِجُ](١) ، ضِدًّا له . قال أَبو عبيدة : هما بمعنى واحد ، وهذا من قوله تقريب لا تحرير .

وتسْخيرُ الشمس دَوَامُها على الجري واتِّساقُ أَمرها على ما شاءَ الله تبارك وتعالى ، و «الأَجَلُ المُسَمَّى» يحتمل أَن يكون يوم القيامة حين تنفسد البِنْيَة ويزول جَرْيُ هذه الكواكب ، ويحتمل أَن يريد أَوقاتَ مغيبها كل يوم وليلة ، ويحتمل أَن يريد أَوقاتَ رجوعها إلى قوانينها كُلَّ شهر في القمر ، و (كُلَّ)(٢) سنة في الشمس .

قوله عزَّ وجل :

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

النفس الواحدة المرادة في هذه الآية هي نفس آدم عليه السلام ، قاله قتادة وغيره ، ويحتمل أَن يكون اسم الجنس . وقوله تعالى :

(١) تكررت هذه الكلمة في آيات كثيرة ، هي الآية (٦١) من سورة (الحج) ، والآية (٢٩) من سورة (لقمان) ، والآية (١٣) من سورة (فاطر) ، والآية (٦) من سورة (الحديد) .
(٢) زيادة لتوضيح المعنى .

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ظاهر اللفظ يقتضي أن جعل الزوجة من النفس هو بعد أن خَلَق الخَلْق منها ، وليس الأَمر كذلك ، واختلف الناسُ في تـأْويل هذا الظاهر ـ فقالت فرقة : قوله : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هو أَخْذ الذرِّيَّة من ظهر آدم ، وذلك شيءُ كان قبل خلْق حوَّاءَ منه ، وقالت فرقة : [ثُمَّ] إنَّما هي لترتيب الإخبار لا لترتيب المعاني ، فكأَنَّه تعالى قال : «ثم كان من أَمره قبل ذلك أَن جعل منها زوجها» ، وفي نحو هذا يُنْشَد هذا البيت :

قُلْ لِمنْ ساد ثُمَّ ساد أَبُـــوهُ ثُمَّ قدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِك جَدُّهْ (١)

وقالت فرقة : قوله تعالى : ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ عبارة عن سبْق ذلك في علم الله تعالى ، فلما كان ذلك أَمراً حتماً واقعاً ولابُدَّ ، حَسُنَ أَن يُخْبر عن تلك الحال التي كانت وثيقة ، ثم عطف عليها حالة جعل الزوجة منها ، فجاءَت معانٍ مترتبةً وإن كان خروج خلْق العالَم من آدم إلى الوجود إنما يجيءُ بعد ذلك . و «زَوْجُ آدَمَ» هي حوَّاءُ عليهما السلام ، وخُلِقت من ضِلَعِهِ القصير فيما رُوي ، ويؤيد هذا الحديثُ الذي فيه : (إنَّ المرأَة خلقت من ضِلَع أَعوج ، فإن ذهبت

(١) يمدحه بالسيادة أباً عن جدٍّ ، والسَّيِّدُ : الرئيس الذي فاق غيره بالعقل والمال والدَّفْع والنَّفْع ، والشاهد في البيت هنا أن (ثُمَّ) لا تفيد ترتيب المعاني ، وإنما تفيد ترتيب الخبر بعد الخبر .

تقيمه كسرته) (١) ، وقالت فرقة : خُلقت حواءُ من نفس طين آدم عليه السلام . والأَول أَصح ، وقد تقدم شرح ذلك .

قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ ، قيل : معناه : إن المخلوق الأَول من هذه الأَنعام خُلق في السماءِ وأُهبط إلى الأَرض ، وقالت فرقة : بل لما نزل الأَمر بخلْقه وإيجاده من عند الله ـ وكانت العادة في نِعَم الله تعالى ورحمته وأَمطاره وغير ذلك أَن يُقال : إنها من السماءِ ـ عبَّر عن هذه بـ [أَنْزَلَ] ، وقالت فرقة : لما كانت الأَمطارُ تنزل ، وكانت الأَعشاب والنبات عنها كانت هذه الأَنعام عن النبات في سمتها ومعانيها قال فيها : [أَنْزَلَ] ، فهو على التدريج ، كما قال الراجز :

* أَسْنِمَةُ الآبالِ في رَبَابِهْ * (٢)

(١) أخرجه البخاري والداميُّ في النكاح ، ومسلم في الرضاعة ، وأحمد في مسنده (٤٢٨/٢ ، ٤٤٩ ، ٤٩٧) ، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله علية وسلم قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره ، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن خُلِقْن من ضِلَعٍ ، وإن أعوج شيءٍ في الضِّلَع أعلاه ، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساءِ خيراً) .

(٢) أسْنِمَة : جمع سنام ، وهو أعلى ظهر البعير والناقة ، والآبالُ : جمع الإبل ، قال الجوهري : والإبل معروفة وهي مؤنثة لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين فالتأنيث لها لازم . والرَّباب بالفتح : سحابٌ أبيض ، واحدتُه ربابة ، وقيل : هو السحاب المتعلق الذي تراه كأنه دون السحاب ، وبهذا سميت المرأة الرباب ، لما كانت الأمطار تنزل ، والأعشاب تنبت عنها ، والإبل تأكل الأعشاب فتسمن وتكبر أسْنمتها ، كانت الأسنمة كأنها نشأت من الرباب ، أو بدأ تكوين الأسنمة في الرباب على التدريج كما قال المؤلف .

وكما قال الشاعر :

تَعَالَى النَّدَى في مَتْنِهِ وَتَحَدَّرَا (١)

وجعلها ثمانية أزواج لأن كل واحد فيه زوجٌ للذكر من نوعه ، وهي : الضأْن والمعز والبقر والإبل .

قوله تعالى : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ ، قال ابن زيد : معناه : يخلقكم في البطون خلقاً من بعد خلق آخر في ظهر آدم وظهور الآباءِ ، وقال مجاهد ، وعكرمة ، والسدي : يخلقكم في البطون رُتَباً خلقاً بعد خلق على المُضْغَة والعَلَقَة وغير ذلك . وقرأ عيسى بن عمر ، وطلحة بن مصرف : [يَخْلُقكُّم] بإدغام القاف في الكاف في جميع القرآن ، وقرأ الجمهور : [أُمَّهَاتِكُمْ] بضم الهمزة ، وكسرها يحيي بن وثاب ، وهما لغتان . وقوله : ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ قالت فرقة : الأُولى : ظهر الأَب ، ثم رحم الأُم ، ثم المشيمة في البطن . وقال مجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد : هي المشيمة ، والرحم ، والبطن (٢). وهذه الآية كلها معتبر وتنبيه لهم على الخالق

(١) المَتْن من كل شيءٍ : ما صَلُب ظهره ، والجمع مُتُون ومِتان ، وتحدُّر الشيء : إقباله ، وقد تحدَّر تَحَدُّراً : نَزَلَ في تدفق من عُلُوٍّ إلى سُفْل ، وفي حديث الاستسقاء : رأيت المطر يتحادر على لحيته ، أيْ ينزل ويقطر .

(٢) في مؤتمر « الإعجاز الطبي في القرآن الكريم » الذي عقد بالقاهرة ـ أغسطس ١٩٨٥ ـ أعلن بعض الأطباء من غير المسلمين إسلامهم لأنهم اكتشفوا أن الغشاءَ الذي يحمي الطفل في بطن أُمه مكون من ثلاث طبقات رقيقة ، وأنهم لم يكتشفوا هذه الحقيقة إلا أخيراً ، ثم علموا أن القرآن الكريم قد تحدث عنها منذ ألف وأربعمائة عام في هذه الآية الكريمة ، فكان إسلامهم عن قناعة علمية كاملة .

الصانع الذي لا يستحق العبادة غيره ، وهذا كله في ردِّ أَمر الأَصنام والإفساد لها . ثم قال تعالى لهم : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ ، وقد قامت على ذلك البراهين واتَّسقت الأَدلَّة ، ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ ، أَي : من أَيِّ جهة تضلُّون ؟ وبأَيِّ سبب ؟

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٧) ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذه الآية مخاطبة للكفَّار الذين لم يُرد الله أَن يطهر قلوبهم ، و « عِبَادُهُ » هم المؤمنون ، ويحتمل أَن تكون مخاطبة لجميع الناس ؛ لأَن الله غنيٌّ عن جميع الناس وهم فقراءُ إليه ، وبيَّن بُعْد البشر عن رضى الله إن كفروا بقوله : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا ﴾ .

واختلف المتأَولون من أَهل السُّنَّة في تأْويل قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ ـ فقالت فرقة : الرِّضى بمعنى الإرادة ، والكلام ظاهره

العموم ومعناه الخصوص فيمن قضى الله له بالإيمان وحَتَمَه له ، فعباده – على هذا – ملائكته ومؤمنو البشر والجن ، وهذا يتركب على قول ابن عباس رضي الله عنهما . وقالت فرقة : الكلام عموم صحيح ، والكفر يقع ممن يقع بإرادة الله تعالى ؛ إلَّا أنه بعد وقوعه لا يرضاه ديناً لهم ، وهذا يتركَّب على الاحتمال الذي تقدم آنفاً ، ومعْنى ﴿لَا يَرْضَى﴾ : لا يشكره لهم ولا يثيبهم به خيراً ، فالرضى – على هذا – هو صفة فعل بمعنى القبول ونحوه ، وتأمل الإرادة فإنَّ حقيقتها إنما هي فيما لم يقع بعد ، والرضى فإنما حقيقته فيما قد وقع ، واعتبر هذا في آيات القرآن تجده ، وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارها على جهة التجوز هذا بَدَلَ هذا .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ عمومٌ ، والشكر الحقيقي في ضمنه الإيمانُ . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي : [يَرْضَهُ] بضمة مُشْبَعَة على الهاءِ ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم بضمة مُخْتَلَسَة (١) ، واختلف عن نافع وأبي عمرو (٢) ، وقرأ عاصم – في رواية أبي بكر – : [يَرْضَهْ] بسكون الهاءِ . قال أبو حاتم: وهو غلطٌ لا يجوز (٣) .

(١) في بعض النسخ : بضمة غير مُشْبَعَة .

(٢) نلاحظ أنه ذكر أبا عمرو ضمن من يضمون الهاءَ بضمة مُشْبَعَة ، في حين ذكر القرطبي أن أبا عمرو ممن قرأ بإسكان الهاء . ولعلَّه قد قرأ بالقراءتين .

(٣) قال أبو حيان في (البحر المحيط) : « ليس بغلط ، بل ذلك لغة لِبني كلاب وبني عقيل » .

ثم قال تعـالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى ﴾ ، أَي : لا يحمل أَحدٌ ذنب أَحد ، وأَنَّث « الوَازِرَةَ » و « الأُخْرَى » لأَنه أَراد الأَنفس ، و « الوِزْرُ » : الثقل ، وهذا خبر مُضَمَّنه الحضُّ على أَن ينظر كلُّ أَحَد في خاصة أَمره ، وما ينوبه في ذاته ، ثم أَخبرهم بأَن مرجعهم في الآخرة إلى ربِّهم ، أَيْ : إلى ثوابه أَو عقابه ، فيوقف كل أَحد على أَعماله ؛ لأَنه المطلع على نيَّات الصدور وسرائر الأَفئدة ، و « ذَاتُ الصَّدْرِ » : ما فيه من خبيئة ، ومنه قولهم : « الذئب مغبوط بذي بطنه »(١).

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾

« الإِنْسَانُ » في هذه الآية يرادُ به الكافر بدلالة ما وصفه به آخراً من اتخاذ الأَنداد لله تبارك وتعالى ، ولقوله تعالى ﴿ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ ﴾ .

(١) هذا مثل يضرب لمن يُظن به الشِّبع وهو جائع ، أو لمن يُظَنّ به الخير وهو على غيره ، ويُروى : الذئب يُغبط بغير بِطْنَة ، قال أبو عبيد : وذلك أنه ليس يُظن به الجوع أبداً ، إنما يُظَنُّ به البِطْنة لأنه يعدو على الناس والماشية ، قال الشاعر :

وَمَنْ يَسْكُنِ البَحْرَيْنِ يَعْظُمْ طِحالُهُ ويُغْبَطُ ما في بَطْنِهِ وَهُوَ جائِعُ

وقال غيره : إنما قيل له ذلك لأنه عظيم الجفرة أبداً ، لا يبين عليه الضمور وإن جهده الجوع ، قال الشاعر :

. . . . لَكَالذِّئْبِ مَغْبُوطُ الْحشا وَهُوَ جائِعُ

وهذه آيةٌ بيَّن اللهُ تعالى بها على الكفار أَنهم على كل حال يَلْجَئُون في حال الضرورات إليه ، وإن كان ذلك عن غير يقين منهم ولا إيمان ، فلذلك ليس بِمُعْتَدٍّ به ، و [مُبِيناً] معناه : مقارباً مراجعاً بصيرته .

وقوله : ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً﴾ يحتمل أَن يريد : في كشف الضُّر المذكور ، أَو يريد أَيَّ نعمة كانت ، واللفظ يعمهما ، و [خَوَّلَهُ] معناه : مَلَّكَهُ وحكَّمه فيها ابتداءً منه لا مجازاةً ، ولا يقال في الجزاءِ : خَوَّلَ ، ومنه الْخَوَل (١) ، ومنه قول زُهَير :

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا المالَ يُخْوِلُوا . . . . (٢)

وهذه رواية ، ويُرْوَى : يُسْتَخْبَلُوا .

---

(١) خَوَلُ الرجل : حَشَمُه ، والواحد : خائل ، قال أبو النجم :

أَعْطَى فَلَمْ يَبْخَلْ وَلَمْ يُبَخَّلِ كُومَ الذُّرَى مِنْ خَوَلِ الْمُخَوَّلِ

(٢) هذا صدر بيت من قصيدة قالها زهير يمدح سِنانَ بْنَ أبي حارثة المُرِّي ، ومطلعها :

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَقَدْ كَادَ لا يَسْلُو وَأَقْفَرَ مِنْ سَلْمَى التَّعانيقُ فَالثَّقْلُ

والبيت بتمامه — على الرواية التي اختارها ابن عطية وفيها الشاهد — هو :

هُنالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا الْمَالَ يُخْوِلُوا وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا

أما رواية الديوان فهي : (يُسْتَخْبَلُوا المال يُخْبِلُوا) ، والإخْبال : الإعارة ، يقال : أَخْبَلْتُه المالَ إذا أَعَرْتَه ناقةً لينتفع بألبانها وأوبارها ، أو فرساً ليغزو عليه . قال في اللسان (خَوَلَ) : « والاسْتِخْوَال مثلُ الاسْتِخْبالِ ، ومنه قول زهير : هنالك ... البيت » ، والمرادُ هُنا أَنهم قومٌ كرماءُ ، إن طُلب منهم إعارة إبِلِهم أعاروها وتكرَّموا على الناس بها ، ومعنى يُيْسِرُوا : يُقامِرُوا بالمَيْسِر ، ويُغْلوا : يأخذوا أغلى ما عندهم من الإبل والنَّعم فيقامروا عليها . فهم عند الميسر لا يقامرون إلا بالغالي .

قوله تعالى : ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ﴾ . قالت فرقة : [مَا] مصدرية ، والمعنى : نسِيَ دعاءَه إليه في حال الضرر ورجع إلى كفره ، وقالت فرقة : [مَا] بمعنى الذي ، والمراد بها اللهُ سبحانه وتعالى ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [1]، وقد تقع (ما) مكان (مَن) فيما لا يُحصى كثرةً من كلامهم . ويحتمل أن تكون [مَا] نافية ، ويكون قوله : [نَسِيَ] كلاماً تامًّا ، ثم نفى أن يكون دعاءُ هذا الكافر خالصاً ومقصوداً به من قَبْل النعمة ، أي في حال الضُّر . ويحتمل أن تكون [مَا] نافية ، ويكون قوله : ﴿مِنْ قَبْلُ﴾. يريد : من قَبْل الضَّرر ، فكأَنه يقول : ولم يكن هذا الكافر يدعو في سائر زمنه قبل الضرر ، بل أَلجأَه ضرره إلى الدعاءِ .

و «الأَنْدَادُ» : الأَمثال التي تضادُّ وتزاحم ويعارض بعضها بعضاً ، قال قتادة : المُرادُ : من الرجال يطيعونهم في معصية الله تعالى ، وقال غيره : المرادُ : الأَوثانُ . وقرأَ الجمهور : [لِيُضِلَّ] بضمِّ الياءِ ، وقرأَها بفتح الياءِ أَبو عمرو ، وعيسى ، وابن كثير ، وشبل .

ثم أَمر الله تعالى نَبِيَّه أَن يقول لهم ــ على جهة التهديد ــ قولاً يخاطب به واحداً واحداً منهم : ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ ، أَي : تَلَذَّذ به ، واصنع ما شئت «قليلاً» ، وهو عُمْرُ ذلك المخاطب . ثم أَخبره أَنه من أَصحاب النار ، أَي : من سكانها والمخلَّدِين فيها .

(١) تكررت في الآيتين (٣ ، ٥) من سورة (الكافرون) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة : [أَمَنْ] بتخفيف الميم ، وهي قراءة أهل مكَّة ، والأَعمش ، وعيسى ، وشيبة بن نصاح ، ورُويت عن الحسن ، وضعَّفها الأَخفش وأَبو حاتم . وقرأ عاصم ، وأَبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي ، والحسن ، والأَعرج ، وقتادة ، وأَبو جعفر : [أَمَّنْ] بتشديد الميم .

فأَمَّا الأُولى فلها وجهان : أَحدهما ـ وهو الأَظهر ـ أَنَّ الأَلِفَ أَلِفُ تقرير واستفهام ، كأَنه يقول : أَهذا القانت خيرٌ أَم هذا المذكور الذي يتمتَّع بكفره قليلاً وهو من أَصحاب النَّار ؟ وفي الكلام حذف يدل عليه سياق الآيات مع قوله آخراً : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، ونظيره قول الشاعر :

فَأُقْسِمُ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا رَسُولُهُ سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعَا (١)

(١) البيت لامرئ القيس ، وهو من قصيدة مطلعها : « جَزِعْتُ وَلَمْ أَجْزَعْ من البَيْنِ مَجْزَعَا » ، وهو في الديوان : « وَجَدِّكَ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا » ، وهو من شواهد النحويين على=

ويُوقَفُ ـ عَلَى هذا التأْويل ـ على قوله سبحانه : ﴿ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ .
والوجه الثاني أن تكون الأَلف نداءً (١) ، والخطاب لأَهل هذه الصفات ، كأَنه يقول لصاحب هذه الصفات : قُلْ هلْ يَسْتَوِي ؟ فهذا السؤال بـ [هَلْ] هو للقانت ، ولا يُوقَف ـ على هذا التأْويل ـ على قوله سبحانه : ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ .

=أن الجواب فيه محذوف ، أي جواب القسم لا جواب (لوْ) ، عملا بمقتضى الضابط في اجتماع قَسَمٍ وشرط ، وتقدير الجواب كما قال الفراءُ وغيره : لو أتانا رسولُ سواكِ لدفعناه ، بدليل قوله : مَدْفَعاً » ، وتبع الطبريُّ وابنُ عطية وغيرهما من المفسرين الفراءَ في قوله هذا . ومن كلام الفراءِ قوله : « فإن قال قائل : فأين جواب ﴿ أَمَّنْ هُوَ﴾ ؟ فقد تبيَّن في الكلام أنه مضمر ، قد جرى معناه في أول الكلمة ، إذْ ذكَرَ الضالَّ ثم ذكَرَ المهتدي بالاستفهام ، فهو دليل على أنه يريد : أهذا مثلُ هذا ؟ ومن لم يعرف مذاهب العرب ويتبيَّن له المعنى في هذا وشبهه لم يكتف ولم يشتف . ألا ترى إلى قول الشاعر : فَأُقْسِمُ لَوْ شَيْءٌ أتانا ... البيت ، وجرى قولُه تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلام ﴾ على مثل هذا » . هذا ما ذكره الفراءُ والمفسرون ، ولكن الصواب أن الجواب مذكور في البيت الذي بعده ، وهو قول امرئ القيس :

إذَنْ لَرَدَدْنَاهُ وَلَوْ طَالَ مُكْثُهُ   لَدَيْنَا وَلَكِنَّا بِحُبِّـكِ وُلَّعَـا

قال البغدادي في الخزانة : « وعلى هذا يكون قوله : « ولكن لم نجد لك مدفعاً » جملة اعتراضية ، وعذرهم في تقدير الجواب أن البيت الثاني ساقط في كثير من الروايات ، وقد ذكره الزجَّاج في أماليه الصغرى والكبرى » .

(١) قال الفراءُ في معاني القرآن : « والعرب تدعو بألف كما يدعون بيَا ، فيقولون : يا زيد أقبل ، وأَزَيْدُ أقْبِلْ » ، قال الشاعر :

أَبَنِي لُبَيْنَى لَسْتُمُ بِيَـدٍ   إلا يَدٌ لَيْسَتْ لَهَا عَضُـدُ

فيكون المعنى مردوداً بالدعاء كالمنسوق » . ومراده بالدعاءِ : النداءُ ، والبيت في الكتاب لسيبويه ، والرواية فيه : « إلا يَداً » بالنصب ، وبعضهم جرَّها على البدلية من (يدٍ) الأولى ، أو على الصفة لها . وموضوع استشهادنا هنا هو الهمزة التي جاءت للنداءِ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا المعنى صحيح إلَّا أنه أَجنبي من معنى الآية قبله وبعده . وضعَّفه أَبو علي الفارسي ، وقال مكيٌّ : إنه لا يجوز عند سيبويه » لأَن حرف النداءِ لا يسقط مع المُبْهَم ، وليس كما قال مكي ، أَما مذهب سيبويه في أَن حرف النداءِ لا يسقط مع المُبْهم فَنَعَمْ ؛ لأَنه يقع الإِلباسُ الكثير بذلك ، وأَما أَن هذا الموضع سقط فيه حرف النداءِ فَلَا وأَلف ثابتةٌ فيه ظاهرة .

وأَمَّا القراءَة الثانية فإِنها (أَمْ) دخلت على (مَنْ) ، والكلام — على هذه القراءَة — لا يحتمل إِلَّا المعادلة بين صنفين ، فيحتمل أَن يكون ما يُعادل (أَمْ) متقدماً في التقدير ، كأَنه يقول : «أَهذا الكافر خيرٌ أَمْ مَنْ» ، ويحتمل أَن تكون (أَمْ) قد ابتدأَ بها بعد إِضراب مقدر ، ويَكُون المعادلُ في آخر الكلام . والأَوَّلُ أَبْيَن .

و «الْقَانِتُ» : المطيع ، كذا فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما ، والقُنوت في الكلام يقع على القراءَة ، وعلى طول الكلام في الصلاة ، وبهذا فسَّرها ابن عمر رضي الله عنهما ، ورُوي عن ابن عباس أَنه قال : «من أَحبَّ أَن يهوِّن الله عليه الوقوف يوم القيامة فلْيُنَزِّه الله في سواد اليل ساجداً وقائماً» ، ويقع القنوت على الدعاءِ وعلى الصمت عبادة ، ورَوَى أَبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أَن القنوت

الطاعة (١) ، وقال جابر بن عبد الله : سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَيُّ الصلاة أَفضل ؟ قال : (طول القنوت) (٢) .

و «الآناءُ» : السَّاعاتُ ، واحدها إِنًى كمِعًى ، ومنه قولهم : «لن يعدو شيءٌ إناهُ» ، ومنه قوله تعالى : ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ (٣) على بعض التأْويلات في ذلك ، ويُقال في واحدها أَيضاً : «أَنًا» على وزن «قَفًا» ، ويقال فيه : «إِنْيٌ» بكسر الهمزة وسكون النون ، قال الهُذَلِيّ :

حُلْوٌ وَمُرٌّ كَعِطْفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ   في كُلِّ إِنْيٍ قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ (٤)

وقرأَ الضحاك : «سَاجِدٌ وقَائِمٌ» بالرفع فيهما .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣–٧٥) ، عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كلُّ حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة) .

(٢) أخرجه مسلم في المسافرين ، والترمذي في الصلاة ، والنَّسائي في الزكاة ، وابن ماجه في الإقامة ، وأحمد في مسنده (٣–٣٠٢ ، ٣٩١ ، ٤١٢) ، ولفظه كما في مسند أحمد ، عن جابر رضي الله عنه ، قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم : أيُّ الجهاد أفضل ؟ قال : من عُقِر جواده ، وأُهريق دمه ، قال : وسُئل : أيُّ الصلاة أفضل ؟ قال : طول القنوت .

(٣) من الآية (٥٣) من سورة (الأحزاب) .

(٤) البيت للمُتَنَخِّل الهذلي ، والمُتَنَخِّل – بكسر الخاء – لقب له ، واسمه مالك ابن عويمر ، شاعر جاهلي محسن ، من شعراء هذيل ، والبيت من قصيدة له يرثي بها ابنه أُثَيْلَةَ الذي مات في شبابه ، وفيه يقول : «لكِنْ أُثَيْلَةُ صافي الوجهِ مُقْتَبَلُ» ، أي في بداية حياته ، والبيت في اللسان (أنى) ، وفي (الشعر والشعراء) ، قال في اللسان : «قال أهل اللغة ومنهم الزجاج : آناءُ الليل ساعاتُه ، واحدها إِنْيٌ وإِنًى ، فمن قال إِنْيٌ فهو مثل نِحْيٍ وأَنحاءٍ ، ومن قال إِنًى فهو مثلُ مِعًى وأَمعاءٍ ، قال المتنخِّل الهذلي :

السَّالِكُ الثَّغْرَ مَخْشِيّـاً مَوَارِدُهُ   بِكُلِّ إِنْيٍ قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ

قال الأزهري : كذا رواه ابن الأنباري ، وأنشده الجوهريُّ :

حُلْوٌ ومُرٌّ كَعِطْفِ القِدْحِ مِرَّتُهُ   في كُلِّ إِنْيٍ قَضَاهُ اللَّيْلُ يَنْتَعِلُ =

وقوله تعالى : ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ معناه : يحذر حالها وهولها . وقرأ سعيد بن جُبَيْر : «يَحْذَرُ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ» . و [أُولُو] معناه : أَصحاب ، واحدهم : ذُو .

وقرأ الجمهور : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾ بفتح الياءِ ، وأَسكنها أَبو عمرو ، وعاصم ، والأَعمش ، وقرأَ أَبو عمرو ، وعاصم أَيضاً ، والأَعمش ، وابن كثير : [يَا عِبَادِ] بغير ياءٍ في الوصل . ويُروى أَن هذه الآية نزلت في جعفر بن أَبي طالب وأَصحابه حين عزموا على الهجرة إِلى أَرض الحبشة . وَوَعَد تعالى بقوله : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ، ويحتمل أَن يكون قوله : ﴿فِي هَذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلقاً بـ [أَحْسَنُوا] ، وكأَنه يريد : إِنَّ الذين يحسنون في الدنيا لهم حسنة في الآخرة ، وهي الجنة والنعيم ، قاله مقاتل ، ويحتمل أَن يريد : إِنَّ الذين يحسنون لهم حسنَةٌ في الدنيا ، وهي العافية والطهور وولاية الله تعالى ، قاله السدي ، وكان قياس قوله أَن يكون ﴿فِي هَذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متأَخراً ، ويجوز تقديمه . والقول الأَول أَرجح ، وهو أَن الحسنة في الآخرة . و ﴿أَرْضُ

= ونسبه أيضاً للمُتَنَخِّل ، فإمَّا أن يكون هو البيت بعينه أو آخر من قصيدة أُخرى » . اهـ .
ونقول : الرواية الصحيحة هي رواية الجوهري ، أما رواية ابن الأنباري فقد جمعت بين بيتين جاءت بالصدر من بيت والعجز من بيت ، والصدر الذي جاءت به موجود في القصيدة كما رواها في (الشعر والشعراء) مع شيء من التحريف ، والرواية في (الشعر والشعراء) : «حذَاهُ الليل» بدلا من «قَضَاه اللَّيْلُ» ، قال الأزهري : «حذَاهُ نَعْلا» إذا حمله على نعل ، ويَنْتَعِلُ : يركب الأرض الصلبة بما فيها من حرَّات . وهو في البيت يذكر بعض صفات ابنه .

ٱللَّهِ﴾ يريد بها البلاد المجاورة التي تقتضيها القصة التي الكلام فيها ، وهذا حضٌّ على الهجرة ، ولذلك وصف الله الأَرض بالسَّعَة . وقال قوم : أَراد بالأَرض هنا الجنة ، وفي هذا القول تحكم لا دليل عليه .

ثم وَعَدَ تبارك وتعالى على الصبر على المكاره ، والخروج عن الوطن ، ونُصرة الدين ، وجميع الطَّاعات ، بأَن الأَجر يُوَفَّى بغير حساب ، وهذا يحتمل معنيَيْن : أَحدهما أَن الصَّابر يُوَفَّى أَجره ثم لا يُحاسب عن النعيم ولا يُتَابع بذنوب ، فيقع [ٱلصَّابِرُونَ] في هذه الآية على الجماعة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام أَنها تدخل الجنة بغير حساب ، وفي قوله صلى الله عليه وسلم : (يدخل الجنَّة من أُمَّتي سبعون أَلْفاً بغير حساب ، الذين لا يتطيَّرون ولا يَكْتَوُونَ ولا يسترقُّون وعلى ربِّهم يتوكَّلون ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر ...) الحديث على اختلاف ترتيباته[1] . والمعنى الثاني أَن أُجور الصابرين تُوَفَّى

(١) أخرجه البخاري في الرقاق والطب ، ومسلم في الإيمان ، وابن ماجه في الزهد ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مواضع كثيرة من مسنده ، وهناك اختلاف في ترتيب الصفات تبعاً لاختلاف الرواة . ولفظه كما في البخاري أن سعيد بن جبير قال ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يدخل الجنة من أُمتي سبعون ألفاً بغير حساب ، هم الذين لا يسْتَرْقون ولا يتطَيَّرُون وعلى ربهم يتوكلون) ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أكثرنا الحديث عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ، ثم غدونا إليه ، فقال: عُرضت عليَّ الأنبياءُ الليلة بأُممها ، فجعل النبي يمر ومعه الثلاثة ، والنبي ومعه العصابة ، والنبي ومعه النفر ، والنبي=

بغير حصْر ولا عَدٍّ بلْ جزافاً ، وهذه استعارة للكثرة التي لا تُحصى ، ومنه قول الشاعر :

ما تَمْنعي يَقْظى فَقَــدْ تُعْطِينهُ في النَّوم غيْر مُصَرَّدِ محْسُوبِ (١)

وإلى هذا التأْويل ذهب جمهور المفسِّرين ، حتى قال قتادة : ما ثَمَّ والله مكيال ولا ميزان ، وفي بعض الحديث أنه لما نزلت ﴿وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٢) ، قال عليه الصلاة والسلام : (اللَّهم زِدْ أُمَّتي) ، فنزلت : ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ (٣) ، فقال : (اللَّهم زِدْ أُمَّتي) فنزلت هذه الآية ، فقال : (رَضِيتُ يا رَب) (٤) .

= ليس معه أحد ، حتى مرَّ عليَّ موسى معه كبكبة من بني إسرائيل ، فأعجبوني ، فقلت: من هؤلاء ؟ فقيل لي : هذا أخوك موسى معه بنو إسرائيل ، قال : قلت : فأين أُمتي ؟ فقيل لي : أُنظر عن يمينك فنظرت فإذا الظراب قد سُدَّ بوجوه الرجال ، ثم قيل لي : أنظر عن يسارك فنظرت فإذا الأفق قد سُدَّ بوجوه الرجال ، فقيل لي : أرضيت ؟ فقلت : رضيت يا ربّ ، رضيت يا ربّ ، قال : فقيل لي : إن مع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ... وفي آخر الحديث يقول ابن مسعود : ثم تحدثنا فقلنا : من ترون هؤلاء السبعون الألف قوم ولدوا في الإسلام لم يشركوا بالله شيئاً حتى ماتوا ، فبلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال : (هم الذين لا يكتَوُون ولا يستَرِقُون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون) . رواه أحمد في مسنده (١/٤٠١) .

(١) التَّصْريد في العطاء : تقليله ، وفي الحديث : (لن يدخل الجنة إلا تصريداً) أي قليلا ، وصرَّد العطاءَ قلَّلَه ، والشاهد في البيت أن العطاء فيه كثير غير محسوب ولا معدود .

(٢) من الآية (٢٦١) من سورة (البقرة) .

(٣) من الآية (٢٤٥) من سورة (البقرة) .

(٤) رواه ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن حبان في صحيحه ، وهو عن ابن عمر رضي الله عنهما .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾

أمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية بأن يصدع للكفار فيما أُمر به من عبادة ربِّه تعالى . وقوله : ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾ ، أي : وأُمرت بهذا الذي ذكرتُ لأَن أَكون أَول من أَسلم من أَهل عصري وزمني ، فهذه نعمة من الله تعالى عليه ، وتنبيهٌ منه له . وقوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ﴾ فعل معلَّق بشرط وهو العصيان ، وقد عُلم أَنه عليه الصلاة والسلام معصوم منه ، ولكنه خطابٌ لأُمَّته ، يَعُمُّهم حكمه ويخيفهم وعيده .

وقوله : ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ تأْكيد للمعنى الأَول ، وإعلامٌ بامتثاله للأَمر ، وهذا كلُّه نزل قبل القتال ؛ لأَنها موادعات ، وقوله : ﴿فَٱعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ صيغة أَمْر على جهة التهديد ، كقوله تعالى : ﴿ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾(٢) ، وهذا

(١) من الآية (٤٠) من سورة (فُصِّلَت) .
(٢) من الآية (٨) من هذه السورة (الزُّمَر) .

كثير . و [ٱلَّذِينَ] في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ في موضع رفع خبرٌ لـ [إِنَّ] ، وقوله « [وَأَهْلِيهِمْ] قيل : معناهُ أَنهم خسروا الأَهل الذي كان يكون لهم لو كانوا من أَهل الجنة ، فهذا كما لو قال : خَسِرُوا أَنفسهم ونعيمهم ، أَي الذي كان يكون لهم . وقيل : أَراد الأَنفس والأَهلين الذين كانوا في الدنيا ؛ لأَنهم صاروا في عذاب النار ، ليس لهم نفوسٌ مستقرة ، ولا بدل من أَهل الدنيا ، ومَنْ في الجنة قد صار له إِما أَهله في الدنيا وإِما غيرهم ، على اختلاف فيما يُؤثر في ذلك ، فهو على كل حالٍ لا خُسران معه البَتَّةَ .

قوله عز وجلَّ :

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾

هذه صفة حال أَهل جهنم ، و « الظُّلَّةُ » : ما غَشِيَ وعمَّ كالسحابة وسقف البيت ونحوه ، فأَمَّا ما فوقهم فكونُه ظُلَّة بيِّنٌ ، وأَمَّا ما تحتهم ، فقالت فرقة : سُمِّي ظُلَّة لأَنه يتلهب ، ويصعد ممَّا تحتهم شيءٌ كثير ولهب حتى يكون ظُلَّة ، فلَوْ لم يكن فوقهم شيءٌ لكفى فرع الذي

تحتهم أَن يكون ظُلَّة ، وقالت فرقة : جعل ما تحتهم ظُلَّة لأَنهم فوق آخرين ، وهكذا هي حالهم إلى الطبقة الأَخيرة التي في القعر .

وقوله : [عِبَادَهُ] يريد جميع العالم ، خوَّفهم الله تعالى النَّار وحذَّرهم منها ، فمن هدي وآمن نجا ، ومن كفر حصل فيما خوِّف منه . واختلفت القراءَة في قوله : ﴿يَا عِبَادِ﴾ ، وقد تقدم نظيره .

قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطَّاغُوتَ ﴾ الآية . قال ابن زيد : إن سبب نزولها زيد بن عمرو بن نفيل ، وسلمان الفارسي ، وأَبو ذرٍّ الغِفَارِي ، والإشارةُ إليهم . وقال ابن إسحق : الإشارة بها إلى عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أَبي وقاص ، وسعيد بن زيد ، والزُّبَيْر رضي الله تعالى عنهم ، وذلك أَنه لما أَسلم أَبو بكر رضي الله عنه سمعوا ذلك فجاءُوه فقالوا : أَسلمت ؟ قال : نعم ، وذكَّرهم بالله تعالى فآمنوا بأَجمعهم ، فنزلت فيهم هذه الآية ، وهي على كل حالٍ عامة في الناس إلى يوم القيامة ، يتناولهم حكمها . و « الطَّاغُوتُ » كلُّ ما يُعبد من دون الله تعالى ، و « الطَّاغُوتُ » أَيضاً الشيطان ، وبه فسَّرها مجاهد ، والسدي ، وابن زيد ، وأَوْقَعه هنا على جماعة الشياطين ، ولذلك أَنَّثَ الضمير في [يَعْبُدُوهَا] .

وقوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ كلام عام في جميع الأَقوال ، وإنما القصد الثناءُ على هؤلاءِ ببصائر هي لهم وقوام في نظرهم ، حتَّى أَنهم إذا سمعوا قولاً مَيَّزوه واتبعوا أَحسنه ،

واختلف المفسرون في العبارة عن هذا ـ فقالت فرقة : أَحسن القول كتاب الله تعالى ، أَيْ إِذا سمعوا الأَقاويل وسمعوا القرآن اتَّبعوا القرآن ، وقالت فرقة : «الْقول» هو القرآن ، وأَحْسَنُه ما فيه من عفو وصفح واحتمال على صبر ونحو ذلك ، وقال قتادة : أَحسن القول طاعة الله تعالى ، وهذه أَمثلة وما قلناه أَوَّلاً يعمها .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾

أَسقط العلامة التي في الفعل المسند إلى الكلمة لوجهين : أَحدهما الحائل الذي بين الفعل والفاعل ، ولو كان متَّصلاً به لم يحسن ذلك ، والثاني أَن «الكلمة» غير مؤنث حقيقي ، وهذا أَخف وأَجود من قولهم : «حضر القاضي اليوم امرأَةٌ» ؛ لأَن التأْنيث هنا حقيقي ، وقالت فرقة: في هذا الكلام محذوف اختصره لدلالة الظاهر عليه ،

تقديره : أَفمن حقَّ عليه كلمة العذاب تتأَسَّف أَنت عليه ؟ أَو نحو هذا من التقدير (١) ، ثم استأْنف قوله للنبي صلى الله عليه وسلم على أَنه يريد أَن ينقذ من في النار ، أَي : ليس هذا إِليك . وقالت فرقة : الأَلف في قوله : [أَفَأَنْتَ] إِنما هي مؤكدة زادها لطول الكلام ، وإِنما معنى الآية : أَفمن حقَّ عليه كلمة العذاب فأَنت تنقذه ؟ ولكنه زاد الأَلف الثانية توكيداً للأَمر (٢) ، وأَظهر الضمير العائد تشهيراً لهؤلاءِ القوم ، وإِظهاراً لِخِسَّة منازلهم كقول الشاعر :

* لَا أَرى الْمَوْتَ يسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ * (٣)

وإِنما أَظهر الضمير تنبيهاً على عِظَم قدر الموت ، وهذا كثير .

---

(١) والمحذوف المُقَدَّر هو خبر (من) ، والفاءُ في [أَفَمَنْ] للعطف ، وموضعها التقديم على الهمزة ، لكن الهمزة قدمت عليها لأن لها الصدارة ، فالأصل عندهم : (فأَمَنْ) .

(٢) هذا رأي آخر يرى أن جواب (من) في [أَفَمَنْ] هو قوله تعالى : [أَفَأَنْتَ] ، وهو رأي الحوفي والزمخشري ، قال الحوفي : «ولولا طول الكلام لم يجز الإتيان بالألف ؛ لأنه لا يصلح في العربية أن يُؤْتَى بألف الاستفهام في الاسم وبألف أُخرى في الجزاء» . وعلى هذا الرأي يكون قد اجتمع في الكلام استفهام وشرط .

وقال الفراءُ : كيف اجتمع استفهامان في معنى واحد ؟ فيقال : هذا مما يراد به استفهامٌ واحد ، وإنما المعنى : أَفَأَنت تنقذ من حقت عليه كلمة العذاب ؟ فيسبق الاستفهام إلى غير موضعه يُرَدُّ الاستفهام إلى موضعه الذي هو له ، ومِثْله من غير الاستفهام قوله تعالى : ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ فردَّ [أَنَّكُمْ] مرتين ، وإنما المعنى والله أعلم : أيعدكم أنكم مخرجون إذا مِتُّم وكنتم تراباً ؟ (معاني القرآن) .

(٣) والأصل أن يُقال : لا أَرى الموتَ يسبقه شيءٌ ، ولكنه أظهر في مقام الإضمار إظهاراً لفظاعة الموت ورهبته .

ثم استفتح تعالى إِخْبَاراً آخر بـ [لَكِنِ] ، وهذه مُعادلَةٌ وتحضيض على التقوى لمن فكَّر وازدجر . وقوله تعالى : ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي : من تحت الغُرف ، وعادلت : ﴿غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ ما تقدم من قوله سبحانه : ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ ٱلنَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ، و «الغُرَفُ» : ما كان من المساكن مرتفعاً عن الأَرض ، وفي الحديث : (إِن أَهل الجنة ليتَرَاءَوْنَ الغُرف من فوقهم كما تراءَوْن الكوكب الدُّرِّيَّ في الأُفق)(١)، وقوله تعالى : ﴿وَعْدَ ٱللهِ﴾ نصب على المصدر، ونصبه إمَّا بفعل مضمر من لفظه ، وإمَّا بما تضمَّن الكلام قبْلُ من معنى الوعد على الاختلاف الذي للنحاة في ذلك .

ثم وقف تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم على معتبر من مخلوقاته ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وكلُّ بشر داخلٌ معه في معناه ، وقال الطبريُّ وغيره : أَشار إِلى ماءِ المطر ، وقالوا : العيونُ منه ، وذلك أَنها تنماع عند وجوده وتيْبَس(٢) عند فقده ، وقال الحسنُ بن مُسْلم ابنُ يَنَّاقٍ(٣) : الإِشارة إِلى العيون ، وليست العيون من المطر ، ولكنْ ماؤُها نازل من السماءِ ، وقال الشعبي : كل ماءٍ عذب في الأَرض فمن السماءِ نزل ، والقولان متقاربان ، و «سَلَكَهُ» معناه : أَجراهُ ، ومنه

(١) أخرجه الترمذي في الجنة .

(٢) يَنْماع : يَسيل ، ويَيْبَس : يَجِفُّ بعد رطوبة .

(٣) الحسن بن مسلم بن يَنَّاق – بالياء المفتوحة ثم النون المشددة ، المكيُّ ، ثقة ، من الخامسة ، ومات بعد المائة بقليل . (تقريب التهذيب) .

قول الشاعر :

حتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى مِنْهُنَّ في مسَكٍ مِنْ نَسْلِ جَوَّابَةِ الآفَاقِ مِهْدَاجُ (١)

ومنه قول امرى القيس :

نَطْعُنُهُمْ سُلْكَى ومَخْلُوجَةً كرَّكَ لأْمَيْنِ عَلَى نَابِلِ (٢)

وواحد الينابيع : ينبوع ، وهو العيْن يُبْني لها بناءٌ ، مبالغة من النبع .

و «الزَّرْعُ» هنا واقع على كل ما يُزرع ، وقالت فرقة : [أَلْوَانُهُ] :

---

(١) البيت لأبي وَجْزَة السَّعْدي ، واسمُه يزيد بن عُبَيْد ، وهو أصلا من بني سُلَيْم ، لكنه نشأ في بني سعد آظآر النبي صلى الله عليه وسلم فغلب عليه نسبهم . والبيت في اللسان (مَسَكَ) ، قال : «والمَسَكُ : الأسْوِرَةُ والخلاخيل من الذَّبْل والقُرُون والعاج ، واحدته مَسَكَةٌ ، واستعاره أبو وجزة فجعل ما تُدْخِل فيه الأتُن أرجلها من الماء مَسَكاً ، فقال : حتَّى سَلَكْنَ الشَّوَى ... البيت» . وأبو وجزة يصف الأتُنَ في البيت ، وسَلَكْنَ : أَدْخَلْن ، والشَّوى : قوائم الأتن وأطراف أرجلها . وجَوَّابَةُ الآفاق هي السحابة التي تتنقل في آفاق السماء من مكان إلى مكان ، أوالريح التي تدور فيالآفاق ، والمهداج : الريح الشديدة الصوت ، يقول : إن حمر الوحش هذه أدخلن قوائمهن في ماءٍ كأنه الأسْوِرَة حولها ، وهذا الماءُ من نسل رياح شديدة الصوت تجوب الآفاق ، والشاهد أن سَلَك بمعنى : أدخل أو أجرى ، وفي التنزيل العزيز : ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ .

(٢) البيت من قصيدة لامرئ القيس ، قالها بعد ظفره ببني أسد ، وهو في الديوان ، وفي اللسان : (سَلَكَ) ، والضمير في نطعنهم يعود على أعدائه الذين ذكرهم في الأبيات السابقة ، وهم بنو غُنْم ، وبني عمرو ، وكاهل ، ومالك ، و (سُلْكَى) معناه : طعْناً مستوياً أو أمام الوجه ، و (مَخْلُوجَةً) معناه : طعناً معوَجّاً عن يمين وشمال . فهم يطعنون أعداءهم طعناً يأتي أمام الوجه ، ويأتي من يمين ومن شمال ، والكَرُّ : الرَّدُّ ، وكَرَّكَ : أي مِثلُ رَدِّكَ ، واللأمُ : السهم ، والنَّابِلُ : مَنْ يَرْمِي النَّبْل ، يقول : نطعنهم هذا الطعن المتنوع ، ونَرُدُّهُ ونُعيدُهُ كما تردُّ سهمين على صاحب نَبْل يرمي بها فتعيدهما إليه . قال في اللسان : «وصفه بسرعة الطعن ، وشبَّهه بمن يدفع الريشة إلى النَّبَّال في السرعة ، وإنَّما يُحتاجُ إليه في السرعة والخفة لأن الغِرَاءَ إذا بَرَدَ لم يلزق ، فيستعمل حارًّا » اهـ .

أَعراضه من الحمرة والصُّفرة وغير ذلك ، و [يهِيجُ] : ييْبس ، وهاج الزرع والنبات إذا يبس ، ومنه قول عليٍّ رضي الله عنه في الحديث الذي في غريب ابن قتيبة : « ذِمَّتي رهينة ، وأنابه زعيم ألَّا يَهِيج على التَّقْوَى زرعُ قوم ولا ييْبَس على التَّقوى..... (١) أَصل الحديث » (٢) . و « الحُطَامُ » : اليابس المتفتت ، ومعنى قوله تعالى : [لَذِكْرَى] أَي : للبعث من القبور وإحياءِ الموتى على ما يوحيه هذا المثال المذكور .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ (*) ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾

(١) مكان النقط كلمة غير واضحة في الأصول .

(٢) معنى الحديث كما قال في اللسان : « مَنْ عمِل لله عملا لم يفسد عملُه ولا يَبْطُل ، كما يهيج الزرع فيهلك » ، والعبارة نفسها ذكرها ابن الأثير في كتاب (النهاية في غريب الحديث) ، وفي اللسان والنهاية أيضاً حديث آخر جاء فيه : (كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فأمر بغُصن فقطع ، أو كان مقطوعاً قد هاج ورقه) ، والمعنى أيبِسَ وسَقَط .

(*) قيل: إن [مِنْ] بمعنى (عَنْ) ، والمعنى : قست عَنْ قبول ذكر الله تعالى ، وقيل : إن معنى ﴿ مِنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أنَّ قلوبهم تزداد قسوة من سماع ذكره سبحانه .

رُوي أَن هذه الآية : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ ﴾ الآية ، نزلت في عليٍّ وحمزة رضي الله عنهما وأَبي لهب وابنه ، وهما اللَّذان كانا من القاسية قلوبهم (١) . وفي الكلام محذوف يدلُّ عليه الظاهر ، تقديره : كالقاسي القلب والمُعْرِض عن أَمر الله ، و « شرحَ الله صدْرَهُ » استعارة لتحصيله للنظر الجيد والإِيمان بالله ، و « النُّور » هداية الله ، وهي أَشبه شيءٍ بالضوءِ ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : قُلْنا : يا رسول الله ، كيف انشراح الصدر ؟ قال : (إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح) ، قلنا : وما علامة ذلك ؟ قال : (الإِنابة إِلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأَهب للموت)(٢) ، و « القَسْوَة » : شدة القلب ، وهي مأْخوذة من قسوة الحجر ، شبَّه قلب الكافر به في صلابته ، وقلة انفعاله للوعظ . وقال مالك بن دينار :

(١) ذكر ذلك أبو الحسن الواحدي في (أسباب النزول) بدون سند .

(٢) أخرجه ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وأخرج مثله عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة رضي الله عنه ، وأخرج الحكيم الترمذي في (نوادر الأصول) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا قال : (يا نبيَّ الله ، أيُّ المؤمنين أكْيَسْ ؟ قال : أكثرهم ذكراً للموت ، وأحسنهم له استعداداً ، وإذا دخل النور القلب انفسح واستوسع ، فقالوا : ما آية ذلك يا نبيَّ الله ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت) ، ثم أخرج عن أبي جعفر عبد الله بن المسوَّر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه ، وزاد فيه : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . (الدر المنثور) .

«ما ضُرب عبْدٌ بعقوبة أَعظم من قسوة القلب» ، ويدلُّ قوله تبارك وتعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾(١) على المحذوف المُقَدَّر .

وقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ يريد به القرآن ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ سبب هذه الآية أَن قوماً من الصحابة قالوا : يا رسول الله ، حدِّثْنَا بأَحاديث حسانٍ ، وأَخبرنا بأَخبار الدهر ، فنزلت الآية في ذلك (٢) ، وقوله : [مُتَشَابِهاً] معناه : مستوياً لا تناقض فيه ولا تدافع ، بل يشبه بعضه بعضاً في رصانة اللفظ ، ووثاقة البراهين ، وشرف المعاني ؛ إذ هي اليقين في العقائد في الله تعالى وصفاته وأَفعاله وشرعه . وقوله : [مَثَانِيَ] معناه : موضع تثْنِيَةٍ للقصص والأَقضية والمواعظ ، تُثَنَّى فيه ولا يُمَلُّ مع ذلك ، ولا يعرض لها ما يعرض للحديث المعاد ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يُثَنَّى فيه الأَمر مراراً ، ولا ينصرف [مَثَانِيَ] لأَنه جمع ولا نظير له في الواحد .

---

(١) أخرج الترمذي ، وابن مردويه ، وابن شاهين في (الترغيب في الذكر) ، والبيهقي في (شعب الإيمان) ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي) .

(٢) قال الواحدي في (أسباب النزول) : «أخبرنا عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، قال : أخبرنا أبو عمرو بن مطر ، قال : أخبرنا جعفر بن محمد الفريابي ، قال : أخبرنا إسحق بن راهويه ، قال : أخبرنا عمرو بن محمد القرشي ، قال : أخبرنا خلاد الصفار ، عن عمرو بن قيس الملائي ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن مصعب بن سعد ، عن سعد ، قالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ عبارة عن قف شَعْر الإنسان عندما يداخله خوف ، ولِينُ قلب عند سماع موعظة أو زجر قرآن ونحوه ، وهذه علامة وقوع المعنى المتخشع في قلب السامع ، وفي الحديث أَن أُبَيَّ بن كعب قرأَ عند النبي صلى الله عليه وسلم فرَقَّت القلوب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اغتنموا الدعاءَ عند الرقَّة فإنها رحمة)(١) ، وقال العباس : قال عليه الصلاة والسلام : (من اقشعر جلده من خشية الله تحاتَّت عنه ذنوبه كما يتحاتُّ عن اليابسة ورقها) ، وقالت أَسماءُ بنت أَبي بكر رضي الله عنهما : كان الصحابة تدمع أَعينهم وتقشعر جلودهم عند سماع القرآن ، قيل لها : إن أَقواماً اليوم إذا سمع أَحدهم القرآن خرَّ مغشيًّا عليه ، فقالت : أَعوذ بالله من الشيطان(٢) ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما وقد رأَي ساقطاً عند سماع القرآن : إنَّا لنخشى الله وما نَسْقُط ، هؤلاءِ يدخل الشيطان في جوف أَحدهم ، وقال ابن سيرين : بيننا وبين هؤلاءِ القوم الذين يصرعون عند قراءَة القرآن أَن يُجعل أَحدهم على حائط

---

(١) في القرطبي : أخرجه زيد بن أسلم ، قال : قرأ أُبي بن كعب ... الحديث .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن أبي حاتم ، وابن عساكر ، عن عبد الله ابن عروة بن الزبير ، قال : قلتُ لجَدَّتي أَسماءَ رضي الله عنها : كيف كان يصنع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرءُوا القرآن ؟ قالت : كانوا كما نَعَتَهم اللهُ تعالى ، تدمع أعينهم ، وتقشعر جلودهم ، قلت : فإن ناساً ها هنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية ، فقالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . (الدر المنثور) .

باسطاً رجليه ، ثم يُقرأُ عليه القرآن كلُّه ، فإن رمى بنفسه فهو صادق .

وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يشير إلى القرآن ، أي : ذلك الذي هذه صفته هُدَى الله ، ويحتمل أن يشير إلى الخشية واقشعرار الجلد ، أي : ذلك أمارة هُدَى اللهِ ، ومن جعل : [تَقْشَعِرُّ] في موضع الصفة لم يقف على [مَثَانِيَ] ، ومن جعله مُسْتَأْنَفاً وإخباراً منقطعاً وقف على [مَثَانِيَ] . وباقي الآية بيِّنٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

هذا تقرير بمعنى التعجُّب ، والمعنى : أَفمن يتَّقي بوجهه سوءَ العذاب يوم القيامة كالمنعمين في الجنة ؟ واختلف المتأَولون في قوله تعالى : ﴿يَتَّقِي بِوَجْهِهِ﴾ ـ فقال مجاهد : يجثو على وجهه في النار ، وقالت فرقة : لِمَا رُوي أَن الكافر يُلقى في النَّار مكتوفاً مربوطة يداه إلى رجليه

مع عنقه ، ويُكَبُّ على وجهه ، فليس له شيءٌ يتَّقي به إلَّا وجهه ، وقالت فرقة : المعنى صفة ما ينالهم من كثرة العذاب ، وذلك أَن يتَّقيه بجميع جوارحه وفيه حواسُّه ، فإذا بلغ به العذابُ إلى هذه الغاية ظهر أَنه لا متجاوز بعدها . وهذا المعنى عندي أَقْيَس بلاغة ، وفي هذا المضمار يجري قول الشاعر :

يَلْقَى السُّيُوفَ بِوَجْهِهِ وبِنَحْـرِهِ وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَـامَ الْمِغْفَرِ (١)

لأَنه إنما أَراد عظيم جرأَته عليها ، فهو يلقاها بكُلِّ مِجَنٍّ ، وبكُلِّ شيءٍ منه حتَّى بوجهه وبنحره (٢) . وقوله تعالى : ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ معناه : باشروا ، وهنا محذوف تقديره : جَزَاءَ ما كنتم تكسبون .

ثم مثَّل لقريش بالأُمم السالفة ، ثم أَخبر تعالى بما نال تلك الأُمم من كونها في الدنيا أَحاديث مُلَعَّنة ، وأُخرى أَعظم من هذا ، مع ما نال نفوسهم من الأَلم والذُّلِّ والكرب ، ثم أَخبر أَن ما أُعِدَّ لهم من عذاب الآخرة أَكبر من هذا كله الذي كان في الدنيا .

(١) الهامة : الرأسُ ، والمِغْفَر : زَرَدٌ يُنسج من الدروع على قدر الرأس ، ويلبس تحت القلنسوة في الحرب ، والجمع : مغافر . يصفه بالشجاعة الزائدة والجرأة الفائقة ، فهو لا يخشى السيوف بل يلقاها بوجهه وبنحره ، وهو أيضاً لا يحمي رأسه بالمِغْفَر ، بل يقدم نفس الرأس ليتلقى بها الضربات .

(٢) وقيل : إن معنى ﴿يَتَّقِي بِوَجْهِهِ﴾ : يستقبل ، كما قال الشاعر :

سَقَطَ النَّصِيفُ ولَمْ تُرِدْ إسْقَاطَـهُ فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَـا بِالْيَـدِ

أي : استقبلتنا بيدها لِتَتَّقِي بها وجهها حتى لا نراه .

قوله : [قُرْآناً] ، قالت فرقة : نصب على المصدر ، وقالت فرقة : نصب على الحال و [عَرَبِيًّا] حالٌ ، وقالت فرقة : نصب على التوطئة للحال ، والحال قوله : [عَرَبِيًّا]، ونفى عنه العوج لأنه لا اختلاف فيه ولا تناقض ولا مغمز بوجه . واختلفت عبارة المفسرين - فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : المعنى : غير متضاد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : غير مختلف ، وقال مجاهد : غير ذي لَبْس ، وقال السدي : غير مخلوق ، وقال بكر بن عبد الله المزني (١) : غير ذي لحن . و «الْعِوَج» بكسر العين في الأمر ، وبفتحها في الأشخاص .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

لما ذكر الله تعالى أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كلِّ مثل مُجْمَلاً ، جاءَ بعد ذلك بِمَثَل في أهم الأُمور وأَعظمها خطراً وهو

(١) بكر بن عبد الله المُزَني ، أبو عبد الله ، البصري ، ثقة جليل ، من الثالثة ، مات سنة ست ومائة . (تقريب التهذيب) .

التوحيد ، فمثَّل تعالى الكافر العابد للأَوثان والشياطين بِعَبْدٍ لرجالٍ عدَّة ، في أَخلاقهم شَكَاسَةٌ ونقْصٌ وعَدَم مسامحة ، فهم لذلك يُعَذِّبون هذا العبد بأَنهم يتضايقون في أَوقاتهم ، ويُضايقون هذا العبد في كثرة العمل ، فهو أَبداً دائب ناصب ، فكذلك عابد الأَوثان ، والذي يعتقد أَن ضرَّه ونفعه عندها هو معذب الفكر بها ، وبحراسة حاله منها ، ومتى أَرضى صنماً منها بالذبح له في زعمه تفكَّر فيما يصنع مع الآخر ، فهو أَبداً في نَصَب وضلال ، وكذلك هو المُصانع للناس ، المُمْتَحن بخدمة الملوك .

ومثَّل تعالى المؤمنَ بالله تبارك وتعالى وحده بِعَبْد لرجلٍ واحدٍ يكلفه شغله ، فهو يعمله على تؤدة ، وقد ساسَ مولاه ، فالمولى يغفر زلَّته ، ويشكره على إجادة عمله .

وقوله تعالى : [ضَرَبَ] مأْخوذٌ من الضريب الذي هو الشَّبيه ، ومنه قولهم : «هذا ضَرْب هذا» ، أَي : شبهه ، و [مَثَلاً] مفعول بـ [ضَرَبَ] ، و [رَجُلاً] بدلٌ ، قال الكسائي : وإن شئتَ على إسقاط الخافض ، أَيْ : «مثلاً لرجل» ، أَو «في رجل» ، وفي هذا نظر .

و [مُتَشَاكِسُونَ] معناه : لا سَمْحَ(١) في أَخلاقهم ، بل فيها لجاجٌ ومتابعةٌ ومحادقة(٢) ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) سَمْح : مصدر سَمَحَ ، يقال : سَمَحَ سَمْحاً وسَمَاحاً وسَمَاحَةً .

(٢) هكذا في جميع الأصول ، ومادة (حَدَقَ) تعطي معنى الإحاطة والاستدارة ، فلعلَّه يريد أنهم يحيطون به من كل جانب ويضيقون عليه الخناق .

خُلِقْتُ شَكْساً لِلْأَعَادِي مِشْكَساً (١)

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرٍو : [سَالِماً] على معنى اسم الفاعل ، بمعنى : سلم من الشركة فيه ، قال أبو عمرٍو : معناه : خالصاً ، وهذه بالألف قراءَة ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والجحدري ، والزهري ، والحسن ـ بخلاف عنه ـ . وقرأ الباقون : [سَلَماً] بفتح السين واللام(٢)، وهي قراءَة الأعرج ، وأبي جعفر ، وشيبة ، وأبي رجاءٍ ، وطلحة ، والحسن ـ بخلاف ـ . وقرأ سعيد بن جُبَيْر : [سِلْماً] بكسر السِّين وسكون اللام ، وهما مصدران وصف بهما الرجل ، بمعنى : خالصاً وأَمْراً قد سَلِمَ له .

ثمَّ وقف الكفار بقوله : ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ ، ونصب [مَثَلاً] على التمييز (٣) ، وهذا توقيف لا يُجيب عنه أَحدٌ إِلَّا بأَنهما لا يستويان ،

---

(١) هذا الشاهد في اللسان : (شكَسَ) ، قال : الشَّكْسُ والشَّكِيس والشَّرِسُ جميعاً : السَّيِّئُ الخلق ، والمِشْكَسُ كالشَّكْسِ ، عن ابن الأعرابي ، وأنشد :

خُلِقْتُ شَكْساً لِلأعَادِي مِشْكَساً

وتشاكس الرجلان : تضادَّا ، وفي التنزيل العزيز : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ . وقال الفراءُ : رجل شَكِسٌ عَكِصٌ ، قال الراجز :

شَكْسٌ عَبُوسٌ عَنْبَسٌ عَذَوَّرُ

(٢) قال الفراءُ في « معاني القرآن » : « وسَلَمٌ وسَالِمٌ متقاربان في المعنى ، وكأن سَلَماً مصدر ، لقولك : سَلِمَ له سَلَماً ، والعرَبُ تقول : رَبِحَ رِبْحاً ورَبَحاً ، وسَلِمَ سِلْماً وسَلَماً وسَلامَةً ، فَسَالِمٌ من صفة الرجل ، وسَلَمٌ مصدر لذلك والله أعلم » .

(٣) وهو تمييز منقول عن الفاعل ؛ إذ التقدير : هل يستوي مثلهما ، واقتصر في التمييز على الواحد لأنه المُقْتَصَر عليه أولا في قوله سبحانه : ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً﴾ ، ولبيان الجنس . وقرئ : « مَثَلَيْن » فطابق حال الرجلين » .

فلذلك عاملتهم العبارة الوجيزة على أنهم قد جاوبوا ، فقال : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظهور الحُجَّة عليكم من أقوالكم ، ثمَّ قال : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأضرب عن مُقَدَّرٍ محذوف يقتضيه المعنى ، تقديره : الحمد لله على ظهور الحُجَّة ، وأن الأمر ليس كما يقولون ، بل أكثرهم لا يعلمون .

و [أَكْثَرُ] في هذه الآية على بابها ، لأنا وجدنا الأقل منهم عَلِم أمر التوحيد وتكلَّم به ، ورفض أمر الأصنام ، كوَرَقَة وزَيْد ، وقُس (١).

ثم ابتدأ تعالى القول معهم في غرض آخر من الوعيد بيوم القيامة والخصومة فيه ، ومن التحذير من حال الكَذَبَة على الله ، المكَذِّبينَ بالصدق ، فقدم تعالى لذلك توطئة مُضَمَّنُهَا وعْظُ النفوس وتَهْيِئَتُهَا لقبول الكلام وخوف الوعيد ، وهذا كما تريد أن تنهى إنساناً عن معاصيه ، أو تأمره بخير ، فتفتتح كلامك بأن تقول : كلُّنا يفنى ، أو : لا بُدَّ للجميع من الموت ، أو : كلٌّ من عليها فانٍ ، ونحو هذا مِمَّا تُرَقِّق به نفس الذي تحادثه ، ثم بعد ذلك تورد قولك . فأخبر تعالى أن الجميع مَيِّتٌ ، وهذه قراءة الجمهور ، وقرأها : [مَائِتٌ] و [مَائِتُونَ] بألفٍ ابنُ الزبير ، وابن محيصن ، وابن أبي إسحق ، واليماني ، وعيسى بن عمر ، وابن أبي عقرب ، وابن أبي عبلة ، والضمير في [إِنَّهُمْ] لجميع العالم . ودخل رجل على صِلَة بن أَشْيَم فَنَعَى إِلَيْهِ

(١) هم ورَقَة بنُ نَوْفَل بن أسَد ، وزيدُ بنُ عَمْرو بن نُفَيْل ، وقُسٌّ بنُ سَاعِدَةَ الإيادِيُّ . وكانوا في الجاهلية ممن أنكر أمر الأصنام وعَرَفَ الله تعالى ، وتكلم بالتوحيد .

أَخاه ، وبين يَدَيْ صِلَةَ طعام ، فقال صِلَةُ للرجل : ادْنُ فكُلْ ، فَإِنَّ أَخي قد نُعي إِليَّ منذ زمان ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ .

والضمير في ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ قيل : هو عامٌّ أَيضاً ، فيختصم يوم القيامة المؤمنون والكافرون فيما كان من ظلم الكافرين لهم في كل موطن ظلموهم فيه ، ومن هذا قول عليٍّ رضي الله عنه : أَنا أَول من يجثو يوم القيامة للخصومة بين يدي الرحمن عزَّ وجلَّ ، فيختصم عليٌّ ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم مع عُتْبَة ، وشَيْبَة ، والوليد[١] ، ويختصم أَيضاً المؤمنون بعضهم مع بعض في ظُلَامَاتِهِم ، قاله أَبو العالية وغيره ، وقال الزبير بن العوام للنبي صلى الله عليه وسلم : أَيُكْتَب علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : (نعم ،

---

(١) في أول المعركة في غزوة بدر الكبرى خرج عُتْبة بن ربيعة ، وابنه الوليد بن عُتْبة وأخوه شَيبة بن ربيعة ، ودعوا للمبارزة ، فبرز إليهم ثلاثة من الأنصار وهم عَوْفٌ ومُعَوِّذ ابنا الحارث ، ورجل آخر يقال إنه عبد الله بن رواحة ، فقال عتبة : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار ، قال : مالنا بكم من حاجة ، ثم نادى : يا محمد أَخْرِج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي ، فلما عرفوا أسماءهم قالوا : نعم أَكْفَاءٌ كرامٌ ، فبارز عبيدة — وكان أسنَّ القوم — عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز علي الوليد ، أما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله ، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما جرح صاحبه جرحاً لم يستطع القيام بعده ، وكرَّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه رضي الله عنهم .

حتى يُؤَدَّى إلى كل ذي حقٍّ حقَّه)(١) ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لما نزلت هذه الآية قلنا : كيف نختصم ونحن إخوان؟ فلما قُتِلَ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وضرب بعضنا وجه بعض بالسيوف قلنا : هذا الخصام الذي وعدنا ربنا تعالى (٢) ، ويختصم أيضاً - على ما رُوي - الروح مع الجسد في أن يُذَنِّب كل واحد منهما صاحبه ، ويجعل المعصية في حيِّزه ، فيحكم الله تعالى بشركتهما في ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومعنى الآية عندي أن الله تعالى توعدهم بأنهم سيتخاصمون يوم القيامة في معنى ردِّهم في وجه الشريعة ، وتكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وأحمد ، وابن منيع ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصحَّحه ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم (في الحلية) ، والبيهقي (في البعث والنشور) ، عن الزبير بن العوام رضي الله عنه ، واللفظ في سؤال الزبير : (أيُنكر) بدلا من (أيكتب) ، وفي إجابة النبي صلى الله عليه وسلم قال : (نعم لينكرن ذلك عليكم) ، وفي نهاية الحديث قال الزبير رضي الله عنه : فوالله إنَّ الأمر لشديد . (عن الدُّرِّ المنثور) .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن مردويه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، ولفظه كما في الدُّرِّ المنثور ، قال : نزل عليه الآية : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ ، وما ندري ما تفسيرها ، ولفظ عَبْد بن حميد : وما ندري فيم نزلت ، قلنا : ليس بيننا خُصومة ، فما التَّخاصم؟ حتى وقعت الفتنة فقلنا : هذا الذي وعدنا ربُّنا أن نختصم فيه . وأخرج مثله نعيم بن حماد في الفتن ، والحاكم وصحَّحه ، وابن مردويه ، عن ابن عمر رضي الله عنهما .

ثم وقفهم الله تعالى توقيفاً معناه نَفْي الْمُوقَف عليه بقوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ، أَي : لا أَحد أَظلم ممن كَذَب على الله ، والإِشارة بهذا الكذب إِلى قولهم : إِنَّ لله صاحبة وولدا ، وقولهم : هذا حلالٌ وهذا حرامٌ افتراءً على الله تعالى ، وكذَّبوا أَيضاً بالصِدْق ، وهو تكذيبهم أَقوال محمد صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ، ما كان من ذلك معجزاً أَو غير معجز ، ثم توعَّدهم تبارك وتعالى توعُّداً فيه احتقارهم بقوله تعالى على وجه التوقيف : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ ، والمَثْوَى : موضع الإِقامة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ معادلٌ لقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى ٱللهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾ ، ف [مَنْ] هناك للجميع والعموم ، و [ٱلَّذِي] هنا للجنس أَيضاً ، كأَنه قال : والفريق الذي

جاءَ بعضه بالصدق ، وصدَّق به بَعْضُهُ ، ويستقيم اللفظ والمعنى على هذا الترتيب . وفي قراءة ابن مسعود : «والَّذين جاءُوا بالصِّدقِ وصَدَّقوا به» ، وهو هنا القرآنُ وأَنباؤُه ، والشَّرع بجملته .

وقالت فرقة : [ٱلَّذِي] يراد به : الَّذينَ ، وحذفت النون لطول الكلام ، وهذا غير جيِّد ، وتركيب [جَاءَ] عليه يردُّ ذلك ، وليس كقَوْل الفرزدق :

. . . . إنَّ عَمَّيَّ اللَّذَا قَتَلَا الْمُلُوكَ . . . . (١)

ونظير الآية قول الشاعر :

وإنَّ الَّذي حانَتْ بِفَلْج دِمَاؤُهُمْ هُمُ القومُ كُلُّ الْقَوم يا أُمَّ خَالِدِ (٢)

---

(١) هذا البيت من شواهد النحويين على حذف النون من (اللذان) تخفيفاً ، والمشهور بين كثيرين أنه للفرزدق ، قال ذلك في شرح الشواهد للعيني ، ونقل عن التوضيح وشرحه أن بني الحارث وبعض ربيعة يحذفون نون (اللذان واللتان) في حالة الرفع تقصيراً للموصول لطوله بالصلة ، لكونهما كالشيء الواحد ، والبيت في الحقيقة للأخطل ، وهو في الديوان ، وفي الخزانة ، وفي ابن الشجري ، وفي الكتاب لسيبويه ، وهو بتمامه :

أبَنِي كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّيَّ اللَّـذَا قَتَلَا الْمُلُوكَ وفَكَّكَا الأغْـلالا

وقد قاله يهجو جريراً ، وهو من كليب بن يربوع . والهمزة في (أبني) للنداء ، وعَمَّاهُ هما : عمرُو ومُرَّةُ ابنا كُلْثُوم ، والرواية في الأصل (سَلَبَا المُلُوك) ، وفي بقية المراجع (قتلا الملوك) ، أما عمرو بن كلثوم فقد قتل عمرو بن هند ، وأما مُرَّة أخوه فقد قتل المنذر ابن النعمان بن المنذر ، ويروى (وَحَطَّمَا) بدلا من (وفَكَّكَا) ، والأغلال : جمع غُلٍّ ، وهو طوقٌ من حديد يجعل في عنق الأسير ، يمدحهم بفك الأسرى .

(٢) هذا بيت قاله أشهَبُ بنُ رُمَيْلَة ، — وقيل : هو لِحُرَيْث بن مخفض — وهو في مجاز القرآن ، واللسان ، والتاج ، والصحاح ، وسيبويه ، والخزانة ، وشواهد المغني ، وابن الشجري ، ومغني اللبيب . وفلج : وادٍ بين البصرة وحمى ضرية ، وحانت دماؤهم : لم=

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الذي جاءَ بالصدق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي صدَّق به ، وقالت فرقة من المفسرين : الذي جاءَ بالصدق هو جبريل ، والَّذي صدَّق به هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، وأَبو العالية ، والكلبي ، وجماعة : الذي جاءَ بالصِّدق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي صدَّق به هو أَبو بكر رضي الله عنه ، وقال قتادة ، وابن زيد : الذي جاءَ بالصدق هو محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي صدَّق به هم المؤمنون ، وقال مجاهد : هم أَهل القرآن ، وقال أَبو الأَسود ومجاهد وجماعة : الَّذي صدَّق هو عليٌّ رضي الله عنه ، وقالت فرقة بالعموم الذي ذكرناه أَولا ، وهو أَصوب الأَقوال .

وقرأَ أَبو صالح(١) ، ومحمد بن جُحادَة (٢) ، وعكرمة بن سليمان : ﴿وَصَدَقَ بِهِ﴾ بالتخفيف في الدال ، بمعنى : استحق به اسم الصدق ،

= يؤخذ لهم بِدِيَة ولا قصاص، وهم القوم كلُّ القوم: هم القوم الكاملون في قوميتهم ، وهو شاهد على حذف النون من (الّذين) تخفيفاً بسبب طول الصلة ، وقيل : إن (الذي) هنا مفرد عبر به عن الجمع ، وعاد الضمير إليه محمولا على المعنى ، وهذا هو ما قصده ابن عطية حين قال : ونظير الآية قول الشاعر : وإنَّ الذي ... البيت ، وقد روي البيت : (وإن الأولى) ، وعلى هذا فلا شاهد فيه لا لمن يقول بأن أصله (الذين) والنون محذوفة ، ولا لمن يقول : إنه مفرد عبر به عن الجمع .

(١) المراد : أبو صالح الكندي الكوفي ، واسمه ميسرة ، حدَّدَه القرطبي في تفسيره ، وقال عنه العسقلاني في تقريب التهذيب : ثقة من الثالثة .

(٢) هو محمد بن جحادة ، بضم الجيم وتخفيف الدال المهملة ، قال عنه العسقلاني في التقريب : ثقة ، من الخامسة ، مات سنة إحدى وثلاثين .

فَعَلَى هذه القراءَة يكون إسناد الأَفعال كلها إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وكأَن أُمَّته في ضمن القول ، وهو الذي يُحَسِّن : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ . قال ابن عباس رضي الله عنهما : اتَّقَوْا الشِّركَ .

واللام في قوله تعالى : ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ يحتمل أَن تتعلق بقوله تعالى : [ٱلْمُحْسِنِينَ] ، أَي : الذين أَحْسَنُوا لكي يكفِّر ، قاله ابن زيد ، ويحتمل أَن تتعلق بفعل مضمر مقطوع مما قبله ، كأَنك قلت : « بشَّرهم الله تعالى بذلك ليكَفِّر » لأَن التكفير لا يكون إِلَّا بعد التَّيْسير للخير ، و ﴿ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُوا ﴾ هو كُفْر أَهل الجاهلية ومعاصي أَهل الإِسلام .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ تقوية لنفس النبي عليه الصلاة والسلام ، لأَن كفار قريش كانوا خوَّفوه من الأَصنام ، وقالوا : أَنت تَسُبُّها ونخاف أَن تُصيبك بجنون أَو عِلَّة ، فنزلت الآية في ذلك . وقرأَ حمزة ، والكسائي : [عِبَادَهُ] يريد الأَنبياءَ المختصين به وأَنت أَحدهم ، فيدخل في ذلك المطيعون من المؤمنين والمتوكلون على الله تعالى ، وهذه قراءَة أَبي جعفر ، ومجاهد ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش . وقرأَ الباقون : [عَبْدَهُ] ، وهو اسم جنس ، وهي قراءَة الحسن ، وشيبة ، وأَهل المدينة ، ويُقوِّي أَن الإِشارة إِلى محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : [وَيُخَوِّفُونَكَ] ؛ وقوله : ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ يريد : بالذين يعبدون من دونه ، وروي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد

إلى كسر العُزَّى ، فقال سادِنُها(١) : يا خالد ، إني أَخاف عليك منها ، فلها قوة لا يقوم لها شيءٌ ، فأَخذ خالد الفأْس فهشم به وجهها وانصرف(٢).

ثم قرَّر تعالى أَن الهداية والإِضلال من عنده بالخَلْق والاختراع ، وأَن ما أَراد من ذلك لا رادَّ له ، ثم توعدهم بعزَّته وانتقامه ، فكان ذلك وانتقم منهم يوم بدر وما بعده .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا ابتداءُ احتجاج عليهم بحُجَّة أُخرى ، وجملتها أَن وُقِفوا على الخالق المخترع ، فإِن قالوا إِنه الله لم يبق لهم في الأَصنام غرض

(١) السَّادِنُ : هو الخادم والقائم على حمايتها .

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، عن قتادة . (الدر المنثور) .

إلا أَن يقولوا : إنها تضر وتنفع ، فلما تقعد (١) من قولهم إن الله هو الخالق قيل لهم : أَفرأَيتم هؤلاءِ إذا أَراد الله أَمراً ، أَبِهِمْ قدرة على نقضه ؟ وحذف الجواب عن هذا لأَنه من البَيِّن أَنه لا يجيب أَحد إلَّا أَنه لا قدرة للأَصنام على شيءٍ من ذلك . وقرأَ : ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ﴾ بياءٍ مفتوحة جمهور القراءِ والناس ، وقرأَ الأَعمش : ﴿إِنْ أَرَادَنِ ٱللَّهُ﴾ بحذف الياءِ في الوصل ، ورَوى خارجة بغير ياءٍ أَصلاً . وقرأَ جمهور القراءِ ، والأَعرج ، وأَبو جعفر ، والأَعمش ، وعيسى ، وابن وثاب : ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ بالإِضافة ، وقرأَ أَبو عمرو ، وأَبو بكر عن عاصم : ﴿كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ﴾ بالتنوين ونصب [ضُرَّهُ] ، وهي قراءَة شيبة ، والحسن ، وعيسى - بخلاف عنه - وعمرو بن عُبَيْد ، وهذا هو الوجه فيما لم يقع بعد ، وكذلك الخلاف في ﴿مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ (٢) .

ثم أَمره تعالى أَن يصدع بالاتكال على الله تعالى ، وأَنه حسْبُه من كل شيءٍ ومن كل ناصر . ثم أَمره بتوعُّدهم في قوله : ﴿ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ، أَي : على ما رأَيتموه متمكناً لكم ، وعلى حالاتكم التي

---

(١) لعله يريد : تمكن من أن يجبرهم على ذلك ، وأقرب معاني (تقعَّدتُه) في اللسان إلى هذا أنها تأتي بمعنى : رَبَّثْتُه عن حاجته وعُقْته ، أو حبسته عنها .

(٢) التنوين هو الأصل ، وهو اختيار أبي عبيد ، وأبي حاتم ، قالوا لأنه اسم فاعل في معنى الاستقبال ، وإذا كان كذلك كان التنوين أجود ، قال الشاعر :

الضَّارِبُونَ عُمَيْراً عن بُيُوتِهِمُ بالليْلِ يَوْمَ عُمَيْرٍ ظالِمٌ عَادي

ولو كان ماضياً لم يجز فيه التنوين ، على أن حذف التنوين كثير في كلام العرب ، قال تعالى : ﴿هَدْياً بَالِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ ، وقال : ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ﴾ .

استقر رأيكم عليها . وقرأ الجمهور : [مكَانَتِكُمْ] بالإفراد ، وقرأها بالجمع الحسنُ وعاصم[١] . وقوله : [ٱعْمَلُوا] لفظ أَمر بمعنى الوعيد ، و «العذابُ المُخْزي» هو عذاب الدنيا يوم بدر وغيره ، «والعذاب المقيم» هو عذاب الآخرة .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

هذا إعلامٌ بعُلُوِّ مكانة محمد صلى الله عليه وسلم واصطفاءِ ربِّه عزَّ وجلَّ له. و «ٱلْكِتَابَ» : القرآن . وقوله تعالى : [بِٱلْحَقِّ] يحتمل معنيين : أَحدهما أن يريد : متضمناً الحق في أَخباره وأَحكامه ، والآخر أَن يُريد أَنه أَنزله بالواجب من إنزاله ، وبالاستحقاق لذلك ، لما فيه من مصلحة العالم وهداية الناس ، وكأَن هذا الذي فعل الله تعالى من إنزال كتاب إلى عبده هو إقامة حُجَّة عليهم ، وبقي تكسُّبُهم بعدُ إليهم،

(١) أي في رواية أبي بكر ، أما قراءته في رواية حفص فهي بالإفراد .

فمن اهتدى فلنفسه عمِل وسَعَى ، ومن ضَلَّ فعليها جَنَى ، والهُدى والضلال إنما لله تعالى فيهما خلْقٌ واختراعٌ ، وللعبد تكسُّبٌ عليه يقع الثواب أو العقاب . وأخبر تعالى نبيَّه أنه ليس عليهم بوكيل ولا مسيطر ، و «الوكيل» : القائم على الأمر حتى يكمله .

ثم نبَّه تعالى عن آية من آياته الكبرى تدلُّ الناظر على الوحدانية ، وأن ذلك لا شِرْكَ (١) فيه لصنم ، وهي حالة التوفِّي ، وذلك أن الله تعالى ما توفَّاه على الكمال فهو الذي يموت ، وما توفاه توفِّياً غير مكمل فهو الذي يكون في النوم ، قال ابن زيد : النوم وفاةٌ ، والموت وفاةٌ ، وكثَّرت فرقة في هذه الآية وهذا المعنى ، ففرَّقت بين النَّفس والروح ، وفرَّق قوم أيضاً بين نفس التمييز ونفس التَّخيُّل ، إلى غير ذلك من الأقوال التي هي غلبة ظن ، وحقيقة الأمر في هذا هي مِمَّا استأْثر الله تبارك وتعالى به وغَيَّبَه عن عباده في قوله سبحانه : ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (٢) ، ويكفيك أن في هذه الآية ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ﴾ ، وفي الحديث الصحيح أن الله قَبَضَ أرواحنا حين شاءَ ، وردَّها علينا حين شاءَ ، في

(١) شِرْكُ هنا مصدر : شَرِكَ ، يقال : شَرِكَ زيدٌ فلاناً في الأمر شِرْكاً ، وشَرِكَةً ، وشِرْكَةً : كان لكل منهما نصيب منه ، فهو شريك .

(٢) من الآية (٨٥) من سورة (الإسراء) .

حديث بلال في الوادي(١) ، فقد نطقت الشريعة بقبض الرُّوح والنفس في النوم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾(٢) ، فظاهر أن التفصيل والخوض في هذا كله عناءٌ ، وإن كان قد تعرَّض للقول في هذا ونحوه الأئِمَّة ، ذكر الثعلبي وغيره ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : في ابن آدم نفسٌ بها العقل والتمييز ، وفيه روح بها التَّنفُّس والتَّحرُّك ، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه . و « الأَجل المُسَمَّى » في هذه الآية هو عُمْر كل إنسان .

وقرأ جمهور القراء : ﴿ قَضَى عَلَيْهَا ﴾ بفتح القاف والضاد ، وقرأ حمزة ، والكسائي : ﴿ قُضِيَ عَلَيْهَا ﴾ بضم القاف وكسر الضاد ، وهي قراءة ابن وثاب ، وطلحة ، والأَعمش ، وعيسى .

ثم أَحال تعالى أَهل الفكرة على النظر في هذا ونحوه ، فإنه من البيِّن أَن هذه القدرة لا يملكها إلَّا الواحد الصمد .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، عن أبي قتادة رضي الله عنه ، ولفظه كما في (الدر المنثور) : (إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم ليلة الوادي : إن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردَّها عليكم حين شاء) ، ويفسر السبب في ذلك ما أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : كنتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فقال : من يكلؤنا الليلة ؟ فقلت : أنا ، فنام ونام الناس ونمتُ ، فلم نستيقظ إلا بحر الشمس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أيها الناس ، إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد ، فيقبضها إذا شاء ويُرسلها إذا شاء) .

(٢) من الآية (٨٥) من سورة (الإسراء) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

[أَمْ] هنا مقطوعة مما قبلها ، وهي مقدرة بالألف وبَلْ ، وهذا تقرير وتوبيخ ، فأمر الله تعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يوقفهم على الأمر ، وعلى أنهم يرضون بهذا مع كون الأصنام بصورة كذا وكذا من عدم المِلْك والعقل .

والواو في قوله تعالى : [أَوَ لَوْ] واو عطف دخلت عليها ألف الاستفهام ، وَمَتَى دخلت ألف الاستفهام على واو العطف أو فائه أحدثت معنى التقرير .

ثم أمره بأن يخبر بأن جميع الشفاعة إنما هي لله تعالى ، و [جَمِيعاً] نصب على الحال ، والمعنى أن الله تعالى يشفع ثم لا يشفع أحد قبل شفاعته هو إلَّا بإذنه ، فمن حيثُ شفاعةُ غيره موقوفةٌ على إذنه فالشفاعة كلُّها له ومِنْ عنده .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ الآية ، قال مجاهد وغيره : نزلت في قراءة النبي صلى الله عليه وسلم سورة النجم عند الكعبة بمحضر

من الكفار ، وعند ذلك ألقى الشيطان في أُمْنِيَّتِهِ ، فقال : «إِنَّهُنَّ الْغَرَانِيقُ العُلَى ، وإن شفاعتهن لتُرْتَجَى» ، فاستبشر الكفار بذلك وسُرُّوا ، فلما أذهب الله ما ألقى الشيطان أَنِفُوا واستكبروا واشمأزَّت نفوسهم[1] ، ومعناه : تَقَبَّضَت كِبْراً وأنفةً وكراهية ونفوراً ، ومنه قول عمرو ابن كلثوم :

إِذَا عَضَّ الثِّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَّتْ وَوَلَّتْهُمْ عَشَوْزَنَةً زَبُونَا[2]

و ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يريد تعالى الذين يُعْبَدُون من دونه ، وجاءت العبارة في هذه الآيات عن الأَصنام كما تأْتي عَمَّن يفعل ، من حيث

---

(١) حديث الغرانيق هذا فيه كلام كثير يؤكِّد أنه غير صحيح ، قال عنه ابن عطية في سورة الحج : «لم يُدْخله البخاري ولا مسلم ، ولا ذَكره في علمي مصنَّف مشهور» ، وقال فيه القاضي عياض : «لم يخرِّجه أحدٌ من أهل الصِّحَّة ، ولا رواه بسند صحيح سليم متصلٍ ثقةٌ» ، وقال أبو بكر البزَّار : «وهذا الحديث لا نعلمه يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل يجوز ذكره» . ونكتفي بهذا ، ويمكنك الرجوع إلى تفسير الآية (٥٢) من سورة (الحج) .

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم ، وقبله يقول مخاطباً الملك عمرو بن هند :

فَإِنَّ قَنَاتَنَا يا عَمْـرُو أَعْيَتْ عَلَى الأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا

وفيه استعار لِعِزَّتِهِم اسم القناة ، فقال : إن عِزَّنا يا عمرو منيع لا يُرامُ ، وقد عجز أعداؤنا قبلك عن خفض شوكتنا ، والضمير في (بها) في البيت يعود على (القناة) في البيت السابق ، والثقافُ : الحديدة التي يُقَوَّم بها الرُّمح ، والعَشَوْزَنَةُ : الصَّلْبَةُ القويَّة ، والزَّبون : الدفوع . جعل القناة التي لا يمكن تقويمها ولا إصلاح ما فيها مثلا لِعِزَّتهم التي لا تتَضَعْضَع ، فإذا حاول أحد إصلاحها أو تقويمها نفرت ، وظلَّت كما هي شديدة صلبة دفوعاً . والشاهد أن الاشمئزاز معناه : النفور والإباء والكبر .

صارت في حيِّز من يعقل ، ونُسب إليها الضُّرُّ والنفع والأُلوهية ، ونفي ذلك عنها ، فعوملت معاملة من يعقل . و [وَحْدَهُ] منصوب عند سيبويه على المصدر ، وعند الفراء على الحال .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

أَمر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالدعاءِ إليه ، وردِّ الحكم إلى عدله ، ومعنى هذا الأَمر تضمن الإِجابة ، و [ٱللَّهُمَّ] عند سيبويه منادى ، وكذلك عند الكوفيين ، إِلَّا أَنه خالفهم في هذه الميم المشدَّدة ، فقال سيبويه : هي عِوَضٌ من حرف النداءِ المحذوف إيجازاً ، وهي دلالة على أَن ثَمَّ ما حذف ، وقال الكوفيون : بل هو فعل اتصل بالمكتوبة ، وهو (أَمَّ) ثم حذفت الهمزة تخفيفاً ، فكأَن معنى اللَّهُم : يا اللهُ أُمَّ برحمتك وفضلك . و [فَاطِرَ] منادى مضاف ، أَي : يا فاطر السموات ، و [ٱلْغَيْب] : ما غاب عن البشر ، [وَٱلشَّهَادَة] : ما شاهدوه .

ثم أخبر تعالى عن سوءِ حال الكفرة يوم القيامة ، وأَن ما ينزل بهم لو قدروا على الافتداءِ منه بِضِعْفِ الدنيا بأَسرها لفعلوا ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الآية . أَي : كانت ظنونهم في الدنيا متفرقة متنوعة حسب ضلالهم وتخيلاتهم فيما يعتقدونه ، فإِذا عاينوا العذاب يوم القيامة وقصرت بهم حالاتهم ظهر لكل واحد خلاف ما كان يظن . وقال سفيان الثوري : ويلٌ لأَهل الرِّبَا من هذه الآية ، وقال عكرمة بن عمَّار : فزع محمد بن المنكدر عند الموت ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال : أَخاف هذه الآية . وقوله : [وَحَاقَ] معناه : نزل وثبت ولزم ، وقوله : ﴿مَا كَانُوا﴾ هو على حذف مضاف ، تقديره : وحاق بهم جزاءُ ما كانوا به يَستهزئون .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

هذه حُجَّة تلزم عُبَّاد الأَوثان للتناقض في أَعمالهم ، وذلك أَنهم يعبدون الأَوثان ويعتقـدون تعظيمها ، فإِذا أَزفت آزفة أَو نالت

شِدَّةٌ نبذوها ونسوها ودَعَوا الخالق المخترع ربَّ السموات والأَرض ، و [ٱلْإِنسَانُ] في الآية للجنس ، و [خَوَّلْنَاهُ] معناه : ملَّكْناه ، قال الزجاج وغيره : التَّخْويل : العطاءُ عن غير مجازاة ، و «النِّعْمَةُ» هنا عامٌّ في جميع ما يسديه الله إلى العبد ، فمن ذلك إزالة الضُّرِّ المذكور ، ومنه الصِّحَّةُ والأَمْن والمالُ ، وتقوى الإشارة إليه في الآية بقوله : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ، وبقوله تعالى أَخيراً : ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ ، وبِذِكْر الكسب .

وذَكَّرَ تعالى الضمير في قوله : [أُوتِيتُهُ] ، وذلك يحتمل وجوهاً : منها أَن يريد بالنعمة المال كما قدمنا ، ومنها أَن يُعيد الضمير على المذكور إذ اسم النِّعْمَة يعُمُّ ما هو مُذَكَّر ويعُمُّ ما هو مُؤَنَّث ، ومنها أَن تكون [مَا] في قوله : [إِنَّمَا] بمعنى (الذي)، وعلى الوجهين الأَولين [مَا] كافَّةٌ ، وقوله : ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موضع نصب على الحال ، مع أَن تكون [مَا] كافَّة ، وأَما إذا كانت بمعنى (الذي) فإن ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موضع خبر [إِنَّ] ، ودالٌّ على الخبر المحذوف ، كأَنه قال : «هو على عِلْم» ، وقوله : ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل أَن يريد : على علم مِنِّي يُوَجِّه المكاسب والتجارات وغير ذلك ، قاله قتادة ، ففي هذا التأْويل إعجاب بالنفس وتَعَاطٍ (١) مُفرط ، ونحو هذا ، ويحتمل أَن يريد :

(١) من معاني التعاطي : تناول مالا يحقُّ ولا يجوز تناوله ، يقال : فلانٌ تعاطى ظُلْمكَ ، وتعاطى أمراً قبيحاً ، أي : رَكِبَهُ .

عَلَى عِلْم من الله تعالى فيَّ ، وشيءٌ سبق لي ، واستحقاق حُزْتُه عند الله تعالى ، لا يَضُرُّني معه شيءٌ ، وفي هذا التأْويل اعتزازٌ بالله تبارك وتعالى وعَجْزٌ وتَمَنٍّ على الله تعالى .

ثم قال تعالى : ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ ، أَي : ليس الأَمر كما قال ، بل هذه الغفلة به فتنةٌ له وابتلاءٌ .

ثم أَخبر تعالى عمَّن سلَف من الكفرة أَنهم قد قالوا نحو هذه المقالة ، كقارون وغيره ، وأَنهم ما أَغنى عنهم كسبهم واحتجابهم للأَموال ، وكذلك لا يُغني هؤلاءِ . ثم ذكر تعالى ـ على جهة التوعُّد لهؤلاءِ في نفس المثال ـ أَن أُولئك أَصابهم جزاءُ سيئات ما كسبوا ، وأَن الذين ظلموا بالكفر من هؤلاءِ المعاصرين لك سيصيبهم ما أَصاب المتقدمين ، وهذا خبر من الله تعالى أَبْرَزَهُ الوجود يوم بدرٍ وغيره ، و «مُعْجِزِينَ» معناه : مُفْلِتِين وناجين بأَنفسهم .

ثم قرَّر تعالى عَلَى الحقيقة في أَمر الكسْب وسَعَة النعم فقال : أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا أَن الله هو الذي يبسط الرزق لقوم ويُضَيِّقه على قوم بمشيئته وسابق علمه ، وليس ذلك لِكَيْس أَحد ولا لعجزه ، وقوله : [وَيَقْدِرْ] معناه : يُضَيِّق ، كما قال تعالى : ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ (١) .

(١) من قوله تعالى في الآية (١٦) من سورة (الفجر) : ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ * قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

هذه الآيات عامة في جميع الناس إلى يوم القيامة ، في كل كافر ومؤمن ، أَي أَن توبة الكافر تمحو كفره ، وتوبة العاصي تمحو ذنبه ، واختُلِف ـ هل يكون في المشيئة أَو هو مغفور له ولابُدَّ ؟ ـ فقالت فرقة من أَهل السُّنَّة : هو مغفور له ولابُدَّ ، وهذا مقتضى ظواهر القرآن ، وقالت فرقة : التائب في المشيئة ، لكن يَغلب الرجاءُ في ناحيته ، والعاصي في المشيئة ، لكن يغلب الخوف في ناحيته .

واختلف المفسرون في سبب نزول الآيات ـ فقال عطاءُ بن يسار : نزلن في وحشي قاتِل حمزة ، وقال السُّدي ، وقتادة ، وابن أَبي إِسحق : نزلن في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا ، وفتنتهم قريش فافتتنوا ، ثم ندموا وظنُّوا أَنهم لا توبة لهم ، فنزلت ، منهم الوليد [1] ، وهشام

(١) اسمه الوليد بن الوليد ، وقد أخرج ابن جرير ، عن ابن عمر ، قال : نزلت هذه الآيات في عيَّاش بن أبي ربيعة ، والوليد بن الوليد ، ونفر من المسلمين كانوا قد أسلموا ثم فُتِنُوا وعُذِّبُوا فافتتنوا ... الحديث .

ابن العاصي ، وهذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأنه كتبها بيده إلى هشام بن العاصي ـ الحديث (١) . وقالت فرقة : نزلن في قوم كفار من أهل الجاهلية ، قالوا : وما ينفعنا الإسلام ونحن قد زنينا وقتلنا النفس وأتينا كل كبيرة ، فنزلت ، وقال عليٌّ ، وابن مسعود ، وابن عمر رضي الله عنهم : هذه أرجى آية في القرآن ، ورَوَى ثوبان أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما أُحِبُّ أَن لي الدنيا بما فيها بهذه الآية : يا عبادِي) (٢) .

و [أَسْرَفُوا] معناه : أَفرطوا وتعدَّوا الطور ، و «القنوط» : أَعظم اليأْس ، وقرأَ نافع وجمهور الناس : [تَقْنَطُوا] بفتح النون ، قال

---

(١) روى محمد بن إسحق ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن عمر رضي الله عنه ، قال : لما اجتمعنا على الهجرة ، واتَّعَدْتُ أنا وهشام بن العاصي بن وائل السهمي ، وعياش بن أبي ربيعة بن عُتبة ، فقلنا : الموعد أَضاةُ بني غفار ـ غدير بني غفار ـ وقلنا : من تأخَّر منَّا فقد حُبس فَلْيَمْضِ صاحبه ، فأصبحت أنا وعياش بن عتبة ، وحُبس عنَّا هشام ، وإذا به قد فُتن فافتُتِن ، فكنا نقول بالمدينة : هؤلاءِ قد عرفوا الله عزَّ وجلَّ ، وآمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم افتتنوا لبلاءٍ لَحِقَهُم ، لا نرى لهم توبة ، وكانوا هم أيضاً يقولون هذا في أنفسهم ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ في كتابه : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ، قال عمر رضي الله عنه : فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام ، قال هشام : فلما قدمت عليَّ خرجتُ بها إلى ذي طُوًى فقلت : اللَّهم فَهِّمْنيها ، فعرفتُ أنها نزلت فينا ، فرجعتُ فجلست على بعيري فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في (شعب الإيمان) ، عن ثوبان رضي الله عنه ، وفي آخره : فقال رجل : يا رسول الله ، فمن أشرك ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : (إلا من أشرك) ثلاث مرات . (الدر المنثور) .

أبو حاتم : «يلزمهم أن يقرءُوا : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنِطُوا﴾(١) بالكسر ، ولم يقرأ به أَحد» ، وقرأ الأَشهب العقيلي بضم النون ، وقرأ أبو عمرو ، وابن وثاب ، والأَعمش بكسرها ، وهي لغات.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ عموم بمعنى الخصوص ؛ لأَن الشِّرك ليس بداخل في الآية إِجماعاً ، وهي أَيضاً في المعاصي مقيدة بالمشيئة ، و [جَمِيعاً] نصب على الحال . ورُوي أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : «إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً وَلَا يُبَالِي»(٢) ، وقرأ ابن مسعود : «إِن اللَّهَ يَغْفِر الذُّنوب جميعاً لِمَنْ يَشَاءُ» .

قوله تعالى : [وَأَنِيبُوا] معناه : ارجعوا وميلوا بنفوسكم ، و «الإِنابةُ»: الرجوعُ بالنفس إِلى الشيء ، وقوله سبحانه : ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ توعُّدٌ بعذاب الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿وَٱتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ معناه أَن القرآن العزيز تضمَّن عقائد نيِّرة ، وأَوامر ونواهي مُنْجية ، وعِدَات على الطَّاعات والبِرِّ ، وحدوداً على المعاصي ووعيداً على بعضها ، فالأَحسن

(١) من الآية (٢٨) من سورة (الشورى) .

(٢) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، والترمذي وحسَّنه ، وابن المنذر ، وابن الأنباري في المصاحف ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن أسماءَ بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأُ : ﴿يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً (وَلا يُبَالِي) إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

أَن يسلك المرءُ طريق التَّفهُّم والتحصيل والطاعة والانتهاء والعفو في الأُمور ونحو ذلك ، فهو أَحسن من أَن يسلك طريق الغفلة والمعصية فيجزى أَو يقع تحت الوعيد ، فهذا هو المعنى المقصود بـ [أَحْسَنَ] ، وليس أَن بعض القرآن أَحسن من بعض من حيث هو قرآن ، وإِنما هو أَحْسَن كله بالإِضافة إِلى أَفعال الإِنسان وما يلقى من عواقبها ، قال السدي : الأَحْسَنُ هو ما أَمر الله تبارك وتعالى به في كتابه . و [بَغْتَةً] معناه : فجأَة وعلى غير موعد ، و [تَشْعُرُونَ] مشتق من الشعار .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

[أَنْ] في هذه الآية مفعولٌ من أَجله ، أَي : أَنيبُوا وأَسْلِمُوا من أَجْل أَن تقول نفس ، وقرأَ الجمهور : ﴿يَا حَسْرَتَا﴾ ، والأَصل : يا حَسْرَتِي ، ومن العرب من يَرُدُّ ياءَ الإِضافة أَلفاً ، فيقول : يا غلاما ،

ويا جارا(١) ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : ﴿يَا حَسْرَتَايَ﴾ بفتح الياءِ ، ورُوي عنه بسكونها ، قال أبو الفتح : جمع بين العوض والمُعَوَّض منه(٢) ، وروي ابن جمَّازٍ عن أبي جعفر : ﴿يَا حَسْرَتِي﴾ بكسر التاءِ وبعدها ياءٌ ساكنة ، قال سيبويه : «ومعنى نداءُ الحسرة والويل : أي هذا وقْتُك وزمانُك فاحضري» . و [فَرَّطْتُ] معناه : قصَّرتُ في اللازم ، وقوله : ﴿في جَنْبِ ٱللَّهِ﴾ معناه : في مقاصدي إلى الله ، وفي جهة طاعته ، أي : في تَضْييع شريعته والإيمان به ، و «الجَنْبُ» يُعَبَّر به عن هذا ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) قالوا : لأن الألف أخفُّ من الياء ، ولأنها تمكِّن من مدِّ الصوت المناسب للاستغاثة .

(٢) واستشهد أبو الفتح لذلك بكثير من الشواهد : منها قوله : «وهذا كمذهب أبي إسحق ، وأبي بكر في قول الفرزدق :

هُمَا نَفَثَا فِي فِيَّ مِنْ فَمَوَيْهِمَا عَلَى النَّابِحِ الْعَاوِي أشَدَّ رِجَامِ

وذلك أنه جمع بين الميم والواو ، وإنما الميم بدل من الواو» ،قلت : والفرزدق يصف شاعرين من قومه ، ويريد بالنابح العاوي من يهجوه الفرزدق في البيت ، والرِّجام: الرجم بالحجارة ، وهي بمعنى : المراجمة بها .

وأما قراءة إسكان الياء بعد الألف فقد قال عنها أبو الفتح أيضاً : «هو على ما مضى من قراءة نافع – في الآية (١٦٢) في سورة (الأنعام) : ﴿مَحْيَايْ وَمَمَاتِي﴾ ، على أن الياءَ هنا ضعيفة حيث عوض عنها بالألف ، والسكون أنسب لها من الفتحة» .

لكن أبا الفضل الرازي يرى رأياً آخر ، ذكره في (اللوامح) ، يقول : «ولو ذهبْتَ إلى أنه أراد تثنية الحسرة ، مثل لبيك وسعديك ، فكأنه يقول : يا حسْرَةَ بعد حسْرَة ، لكثرة حسراتهم يومئذ – لكان مذهباً» .

أَفي جَنْبِ بَكْرٍ قَطَّعَتْني مَـلامَةً لَعَمْرِي لَقَدْ طَالَتْ مَلامَتُها بِيَا (١)

ومنه قول الآخر :

. . . . النَّـاسُ جَنْبٌ والأَميرُ جَنْبُ (٢)

وقال مجاهد : ﴿فِي جَنْبِ ٱللَّهِ﴾ أي : في أمر الله . وقول الكافر : «وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ» ندامة على استهزائه بأمر الله ، والسُّخْرُ : الاستهزاءُ .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ تَقُولَ﴾ في الموضعين عطف على قوله : ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ الأول ، و [كَرَّةً] مصدر ، من : كَرَّ يكُرُّ ، وقوله : [فَأَكُونَ] نصب بـ (أَنْ) مُضمرة مقدَّرة ، وهو عطفٌ على قوله : [كَرَّةً] ،

---

(١) يستشهد ابن عطية بالبيت على أن (الجَنْب) يُعَبَّر به عن : الجانب والقُرْب والطريق والجوار ، تقول : في جَنْب بكر ، أي في جانبها وقُرْبها وجوارها وطريق حياتها والولاءِ لها . واللَّوْم : العَذْلُ ، والملامَةُ : مصدر (لامَ) ، والقطيعة : الهجْرانُ ، ضدُّ الوصْل ، يقال : قَطَعَ رَحِمَه قطيعةً وقَطَّعَها : عقَّها ولَمْ يَصِلْها . ويروى البيت : «سُلَيْمَى» بدلاً من «لَعَمْري» ، وفي البحر : (سُلَيْمَى ، لقد كانت ملامَتُها ثناء) .

(٢) هذا بيت من مشطور الرَّجز ، وهو في اللسان (جَنَب) ، قال : «والجَنْبُ : الناحية ، وأنشد الأخفش : (النَّاسُ جَنْبٌ والأميرُ جَنْبُ) ، كأنه عدله بجميع الناس» ، وكذلك ذكره في البحر ، وفي القرطبي ذكر بيتاً قبله ، قال :

قُسِمَ مَجْهُودا لِذَاكَ القَلْبُ النَّاسُ جَنْبٌ والأميرُ جَنْبُ

ولم ينسبه أحدٌ ممن استشهد به . والمعنى الذي يستشهدون عليه معروف ومتكرر في اللغة ، قالوا: وهو من باب الكناية ، تقول : فعلتُ كذا لمكانكَ ، أي: لأجلك ، ومثله : فعلت كذا مِن جهتك ؛ لأنك إذا أثبتَّ الأمر في مكان الإنسان وحيِّزه فقد أثبته فيه ، وقال كُثيِّر :

أما تَتَّقِينَ الله في جَنْبِ عاشِـقٍ لَهُ كَبِدٌ حَرَّى عَلَيْكِ تَقَطَّعُ ؟

ومن بابه البيت المشهور :

إنَّ السَّمَاحَةَ والمُرُوءَةَ والنَّدَى في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ

والمرادُ : لَوْ أَنَّ لي كَرَّةً فكَوْناً ، فلذلك احتيج إلى (أَنْ) لتكون هي مع الفعل بتأْويل المصدر ونحوه قول الشاعر — أَنشده الفراءُ — :

فَمَا لَكَ مِنْهَا غَيْر ذِكْرَى وَخَشْيَةٍ وَتَسْأَلَ عَنْ رُكْبَانِهَا أَيْنَ يَمَّمُوا ؟(١)

وقد قدَّر بعض الناس الكلام بأَنه : « لو أَنَّ لي أَنْ أَكرَّ » ، ذكره الطبريُّ ، وهذا « الكوْنُ » في الآية داخلٌ في التمني (٢) .

---

(١) هذا البيت من شواهد الفراءِ في (معاني القرآن) ، قال : إن النصب في قوله تعالى : [فَأَكُونَ] جواب لِلَوْ ، وإنْ شئْتَ جعلته مردوداً على تأويل (أنْ) تضمرها في « الكَرَّة » ، كما تقول : لو أنَّ لي أن أكُرَّ فأكونَ ، ... ثم قال : وأنشدني : فما لَكَ ... البيتَ» . والشاهد فيه قوله : و (تَسْأَلَ) ؛ إذ يجوز فيه النصب بتقدير (أنْ) ، ليعطف عَلَى (ذِكْرَى) لأنها اسمٌ ، و (تَسْأَلَ) فعل ، فإذا ما قدَّرنا (أنْ) صارت هي والفعل بعدها اسماً فجاز عطفه على الاسم قبله ، فيصبح تقدير الكلام : فما لك منها غير الذكرى والسؤال ، وهو في هذا كالبيت المشهور الذي قالته مَيْسون بنت بَحْدل زوج معاوية بن أبي سفيان :

لَلُبْسُ عَبَـاءَةٍ وتَقَرَّ عَيْني أَحَبُّ إليَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُـوفِ

هذا ، وقد روي بيتنا هنا : و (حِسْبَةً) بدلاً من (خَشْيَة) ، وروي أيضاً : (وحَسْرَة) ، على أنه يجوز هنا في البيت و (تَسْأَلُ) بالرفع — لأنه لم تسبقه (أنْ) الناصبة .

(٢) ما ذكره الطبري هنا هو نفس كلام الفراءِ في (معاني القرآن) ، قال : « وفي نصب قوله : [فَأَكُونَ] وجهان : أحدهما أن يكون نصبه على أنه جواب (لو) ، والثاني على الرَّدِّ على موضع الكرَّة ، وتوجيه الكرَّة في المعنى إلى : لو أنَّ لي أن أكُرَّ » . هذا وفي الأصول سقط من النساخ بعض الكلام الذي نقله عن الطبري ، وقد صححناه عن الطبري والفراء .

وقد قال في البحر تعقيباً على الرأيين في نصب [فَأَكُونَ] : « والفرق بينهما أن الفاءَ إذا كانت في جواب التمني كانت (أنْ) واجبة الإضمار ، وكان الكون مترتباً على حصول المُتَمَنَّى لا مُتَمَنَّى ، وإذا كانت للعطف على [كَرَّةً] جاز إظهارُ (أنْ) وإضمارها ، وكان متمنى » . تأمل هذا وتأمل كلام ابن عطية تعقيباً على رأي الطبري ، فإنه جعل (الكَوْنَ) في الآية داخلا في التمني .

وقوله : [بَلَى] جوابٌ لِنَفْي مقدَّر في قول هذه النفس ، كأَنها قالت : «فَعُمْري في الدنيا لم يتسع للنظر» ، أَوْ قالت : «فإِنِّي لم يَتَبَيَّن لي الأَمر في الدنيا» ، ونحو هذا ، وحقُّ (بَلَى) أَنْ يجيءَ بعد نَفْي عَلَيْه تقريرٌ (١) .

وقرأَ الجمهور : ﴿قَدْ جَاءَتْكَ﴾ بفَتْح الكاف وبفَتْح التاءِ من قوله : ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ﴾ ، على مخاطبة الكافر ذي النفس ، وقرأَ ابن يَعْمَر ، والجحدريُّ بكسر الكاف والتاءِ في الثلاثة (٢) على خطاب النفس المذكورة ، قال أَبو حاتم : روتها أُمُّ سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأَ الأَعمش : ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْهُ﴾ بالهاءِ .

ثم خاطب تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بخبرٍ يراه يوم القيامة من حالة الكفار ، وفي ضمن هذا الخبر وعيدٌ لمعاصري محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وقوله : [تَرَى] هو من رؤْية العين ، وكَذِبُهم على الله تعالى هو في أَن جعلوا له البنات والصاحب ، وشرعوا ما لم يأْذن به الله ، إلى غير ذلك . وقوله : ﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ جملة في موضع

---

(١) عقَّب أبو حيان في البحر على كلام ابن عطية هذا بقوله : «وليس حق (بَلَى) ما ذَكَرَ ابن عطية ، بل حقُّها أن تكون جواب نفيٍ ثُمَّ حُمِل التقريرُ على النفي ، ولذلك لم يحمله عليه بعض العرب وأجاب النفي بـ (نَعَم) ، ووقع ذلك أيضاً في كلام سيبويه نفسه ، إذْ أجاب التقرير بـ (نَعَم) اتِّباعاً لبعض العرب» ، وفي هذا نقضٌ للفكرة السائدة بأن جواب النفي الذي حُمل عليه التقرير لا يكون في صحيح اللغة إلا بقولنا : (بَلَى) .

(٢) أي : الأفعال الثلاثة في قوله : ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ﴾ .

الحال (١) ، وظاهر الآية أَن لون وجوههم يتغير وتَسْوَدُّ حقيقة ، ويحتمل أَن يكون في العبارة تجوُّز ، وعبَّر بالسَّواد عن اربداد وجوههم وغالب همهم وظاهر كآبتهم ، و « مَثْوًى » : موضع الثواءِ والإِقامة ، و « المتكَبِّر » : رافعُ نفسه إِلى فوق حقه ، قال صلى الله عليه وسلم : (الكبر سفه الحق وغمط الناس) أَي احتقارهم (٢) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(١) هذا على أن [تـرَى] من رؤية البصر كما قال ابن عطية ، أما لو قلنا إنها رؤية القلب كما قدرها بعضهم فالجملة مفعول ثان .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١–٣٩٩) ، ولفظه كاملا ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبَّة من إيمان ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبَّة من كِبر) ، فقال رجل : يا رسول الله ، إني ليعجبني أن يكون ثوبي غسيلا ، ورأسي دهيناً ، وشراك نعلي جديداً ، وذكر أشياءَ حتى ذكَر علاقة سوطه ، أفمِنَ الكِبْر ذاك يا رسول الله ؟ قال : (لا ، ذاك الجمال ، إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال ، ولكن الكِبْر من سَفِه الحقَّ وازدَرَى الناسَ) .

ذكر الله تعالى حالة المتقين ونجاتهم ليعادل بذلك ما تقدم من ذكر الكفرة ، وفي ذلك ترغيب في حالة المتقين ؛ لأَن الأَشياءَ تبين بأَضدادها . وقرأَ الجمهور : [بِمَفَازَتِهِمْ] على اسم الجنس ، وهو مصدرٌ من الفوز ، وقرأَ حمزة ، والكسائي ، وأَبو بكر عن عاصم : [بِمَفَازَاتِهِمْ] على الجمع ، من حيث النجاةُ لأَنواع ولأَسباب مختلفة ، وهي قراءَة الحسن ، والأَعرج ، وأَبي عبد الرحمن ، والأَعمش . وفي الكلام حذف مضاف تقديره : ويُنَجِّي الله الذين اتقوا بأَسباب أَو بدواعي مفازتهم . وقال السُّدي : [بِمَفَازَتِهِمْ] : بفضائلهم ، وقال ابن زيد : بأَعمالهم .

وقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كلام مستأْنفٌ دالٌّ على الوحدانية ، وهو عموم معناه الخصوص ، و «الوكيل» : القائم على الأَمر الزعيم بإكماله وتتميمه .

و «الْمَقَالِيدُ» : المفاتيح ، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما ، واحدها : مِقْلاد ، مثل مِفْتاح ، وفي كتاب الزهراوي : واحد المقاليد : إقليد ، وهذه استعارة ، كما تقول : بيدك يا فُلان مفتاح هذا الأَمر ؛ إذا كان قادراً على السعي فيه ، وقال السدي : المقاليدُ : الخزائن .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

وهذه عبارة غير جيدة ، ويُشبه أَن يقول قائل : المقاليدُ إشارةٌ للخزائن أَو دالَّة عليها فيسوغ هذا القول ، كما أَن الخزائن أَيضاً

في جهة الله تعالى إنما تجيءُ استعارة ، بمعنى : اتساع قدرته ، وأنه يبتدع ويخترع ، ويُشبه أن يقال فيما أوجد من المخلوقات كالماء والنار وغير ذلك : إنها في خزائنه سبحانه ، وهذا كله تجوُّز على جهة التقريب والتفهيم للسَّامعين ، وقد ورد القرآن بذكر الخزائن (١) ، ووقعت في الحديث الصحيح في قوله صلى الله عليه وسلم : (ما فتح الليلة من الخزائن) (٢) ، والحقيقة في هذا غير بعيدة ، لكنه ليس اختزان حاجة ولا قِلَّة قدرة كما هو اختزان البشر . وقال عثمان رضي الله عنه : سأَلت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقاليد السموات والأَرض فقال : (لا إِلٰه إِلَّا الله ، والله أَكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إِلَّا بالله ، هو الأَول والآخر ، والظاهر والباطن ، يُحيي ويميت وهو على كل شيءٍ قدير) (٣) .

---

(١) جاء ذلك في آيات كثيرة : منها قوله تعالى : ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ ، وقوله : ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ ، وقوله : ﴿وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ .

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري في أبواب العِلْم ، والتهجد ، والمناقب ، واللباس ، والأدب ، والفتن ، وأخرجه الترمذي ، وأحمد في مسنده (٦–٢٩٧) ، ولفظه كما جاء في مسنده ، عن أُمّ سلمة رضي الله عنها ، قالت : استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول : (لا إله إلا الله ، ما فتح الليلة من الخزائن ، لا إله إلا الله ما أنزل الليلة من الفتنة ، من يوقظ صواحب الحجر ، يا رُبَّ كاسيات في الدنيا عاريات في الآخرة) .

(٣) أخرجه أبو يعلى ، ويوسف القاضي في سننه ، وأبو الحسن القطَّان في المطولات ، وابن السني في عمل يوم وليلة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى : =

وقوله : [أَفَغَيْرَ] منصوب بـ [أَعْبُدُ] ، كأنه قال : أَفَغَيْرَ اللهِ أَعْبُدُ فيما تـأمروني ؟ ، ويجوز أن يكون نصبه بـ [تَـأْمُرُونِّي] على إسقاط [أَنْ] ، تقديره : أَفغير الله تـأْمروني أن أَعْبُدَ . وقرأت فرقة [تَـأْمُرُونَنِي] بنونين ، وهذا هو الأَصل ، وقرأَ ابن كثير بنون مشددة مكسورة بعدها ياءٌ مفتوحة . وقرأَ ابن عامر بنون خفيفة مكسورة وياءٍ ساكنة ، وهذا على حذف النون الواحدة ، وهي الموطئة لياءِ المتكلم ، ولا يجوز حذف النون الأُولى ، وهو لحن لأَنها علامة رفع الفعل ، وفتح نافع الياءَ على هذا الحذف فقرأَ : [تَـأْمُرُونِيَ] ، وقرأَ الباقون بشدِّ النون وسكون اليـــاءِ .

= ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ، قال : لا إله إلا الله والله أكبر ، سبحان الله و الحمد لله ، أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، يحيي ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير ، يا عثمان ، من قالها كل يوم مائة مرة أُعطي بها عشر خصال ، أما أولها فيغفر له ما تقدم من ذنبه ، وأما الثانية فيكتب له براءة من النار ، وأما الثالثة فيوكل به ملَكان يحفظانه في ليله ونهاره من الآفات والعاهات ، وأما الرابعة فيعطى قنطاراً من الأجر ، وأما الخامسة فيكون له أجر من أعتق مائة رقبة محررة من ولد إسماعيل ، وأما السادسة فيزوَّج من الحور العين ، وأما السابعة فيحرس من إبليس وجنوده ، وأما الثامنة فيعقد على رأسه تاج الوقار ، وأما التاسعة فيكون مع إبراهيم ، وأما العاشرة فيشفع في سبعين رجلا من أهل بيته ، يا عثمان إن استطعت فلا تفوتك يوماً من الدهر ، تَفُزْ بها مع الفائزين ، وتسبق بها الأولين والآخرين . (الدر المنثور) .

هذا والحديث مروي من طرق كثيرة ، فقد أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ، وأخرجه الحارث بن أبي أُسامة ، وابن مردويه عن أبي هريرة ، وأخرجه العقيلي ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر ، مع اختلاف في بعض الألفاظ ، وفي زيادة بعض الجمل أو نقصها ، وكل هذه الروايات ذكرها السيوطي في الدر المنثور .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ الآية ، قالت فرقة : في الآية تقديم وتأْخير ، كأَنه قال : « ولقد أُوحِيَ إِلَيْكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عملُك وإلى الَّذينَ مِنْ قَبْلِكَ » ، وقالت فرقة : الآية على وجهها ، والمعنى : ولقد أُوحي إلى كل نبيٍّ لئن أَشركت ليحبطن عملك ، و « حبط » معناه : بَطَل وسقط . وبهذه الآية بطلت أَعمال المُرْتَدِّ مِنْ صلاته وحجِّه وغير ذلك .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

المكتوبة (١) منصوبة بقوله تعالى : [فَاعْبُدْ] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ معناه : وما عظَّموا الله حق عظمته ، ولا وصفوه بصفاته ، ولا نفوا عنه مالا يليق به .

واختلف الناس في المعنيِّ بالضمير في قوله سبحانه : [قَدَرُوا] — فقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزل ذلك في كفار قريش الذين

---

(١) المكتوبة هي لفظ الجلالة (الله) .

كانت هذه الآيات كلها مخاورة لهم وردًّا عليهم . وقالت فرقة : الآية نزلت في قوم من اليهود ، تكلموا في صفات الله تعالى وجلاله فألْحدوا وجَسَّموا وأَتَوْا بكل تخليط ، فنزلت الآية فيهم ، وفي الحديث أنه جاءَ حَبْر بالمدينة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس إليه ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : حدِّثْنا ، قال : إن الله عزَّ وجلَّ إذا كان يوم القيامة جعل السموات على إصْبَع ، والأَرض على إصبع ، والجبال على إصبع ، والماءَ والشجر على إصبع ، وجميع الخلائق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول : أَنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بَدَت نواجذه تصديقاً له ، ثم قرأَ هذه الآية (١) .

قال القاضي أَبو محمد رحمه الله :

فرسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل بالآية وقد كانت نزلت ، وقوله في الحديث : (تصديقاً له) ، أَي في أَنه لم يَقُل إلَّا ما رأَى في كتب اليهود ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أَنكر المعنى لأَن التجسيم فيه ظاهر ، [واليهود معروفون باعتقاده ، لا يُحسنون حَمْله

(١) ذكره الواحدي بسنده ، عن عبد الله بن مسعود في (أسباب النزول) ، وهو في الصحيحين دون سبب النزول ، وذكره السيوطي في (الدُّرِّ المنثور) ، وزاد في رواته : سعيد ابن منصور ، والإمام أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والدارقطني في (الأسماء والصفات) . وأخرج نحوه أحمد ، والترمذي وصحَّحه ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

على تأْويله من أَن الإِصبع عبارة عن القدرة ، أَو أَنها إِصبع خَلْق يَخْلُقه لذلك ، ويعضد هذا تنكير الإِصبع] (١) .

وَرَوي سعيد بن المسيب أَن سبب نزول الآية أَن طائفة من اليهود جاءَت إِلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد ، هذا اللهُ خلق الأَشياءَ ، فمن خَلَق اللهَ ؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وساورهم (٢) فنزلت الآية (٣) ، وقرأَ جمهور الناس : [قَدْرِهِ] بسكون الدال ، وقرأَ الأَعمش بفتحها ، وقرأَ أَبو حيوة ، وعيسى بن عمر ، والحسن ، وأَبو نوفل : ﴿وَمَا قَدَّرُوا﴾ بتشديد الدال ﴿حَقَّ قَدَرِهِ﴾ بفتحها.

وقوله تعالى : ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ﴾ معناه : في قبضته ، وقال ابن عمر ما معناه : إِن الأَرض في قبضة اليد الواحدة ، والسموات

(١) ما بين العلامتين [......] لا يوجد إلا في النسخة التونسية المكتوبة بالخط المغربي ، وهي زيادة توضح رأي ابن عطية وفهمه للحديث الشريف .

(٢) قال ابن الأثير في (النهاية) : « أُساوِرُه : أُواثبه وأُقاتله » ، وفي المعجم الوسيط : ساوَرَهُ : واثَبَهُ .

(٣) الحديث في تفسير الطبري ، ولفظه : قال : أتى رهط من اليهود نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا محمد ، هذا الله خَلَقَ الخَلْق ، فمن خَلَقه ؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتى انتقَعَ لونه ، ثم ساورهم غضباً لربه ، فجاءه جبريل فسكَّنه ، وقال : اخفض عليك جناحك يا محمد ، وجاءَه من الله جواب ما سألوه عنه ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ ، ٱللهُ ٱلصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ، فلما تلاها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : صف لنا ربك ، كيف خلْقه ؟ وكيف عضده ؟ وكيف ذراعُه ؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول ، ثم ساورهم ، فأتاه جبريل فقال مثل مقالته ، وأتاه بجواب ما سألوه عنه ﴿وَمَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَٱلسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

مطويات باليمين الأُخرى ؛ لأَن كلتى يديه يمين ، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الأَرض جميعاً قبضته والسموات وكل ذلك بيمينه . وقرأ عيسى بن عمر : [مَطْوِيَّاتٍ] بكسر التاءِ المنونة ، والناسُ على رفعها .

وعلى كل وجه فاليمينُ هنا والقبضةُ وكل ما ورد عبارة عن القدرة والقوة ، وما اختلج في الصدور من غير ذلك باطل ، وما ذهب إِليه القاضي من أَنها صفات زائدة على صفات الذات قول ضعيف . وبحسب ما يختلج في النفوس التي لم يصنها العلم قال سبحانه وتعالى : ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، أَي : هو مُنَزَّه عن جميع الشُّبه التي لا تليق به .

ثم ذكر سبحانه وتعالى النَّفخ في الصُّور ليُصعق الأَحياءُ من أَهل الدنيا والسماءِ ، وفي بعض الأَحاديث من طريق أَبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّ قَبْل هذه الصعقة صعقةُ الفزع ، ولم تَتَضَمَّنْهَا هذه الآية . و [صَعِقَ] في هذه الآية معناه : خَرَّ ميتاً ، و «الصُّورُ» : القَرْن ، ولا يتصور هنا غير هذا ، ومن يقول : الصُّور جمع صورة فَإِنما يتوجه قوله في نفخة البعث . وقرأَ قتادة : ﴿ وَنُفِـخَ فِي ٱلصُّوَرِ ﴾ بفتح الواو ، وهي جمع صورة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَاءَ ٱللَّهُ ﴾ ، قال السدي : استثنى جبريل وميكائيل وإِسرافيل ومَلَك الموت ، ثم أَماتهم بعد هذه الحال ، وروي ذلك عن أَنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم(١) ، وقيل :

(١) حديث أنس هذا أخرجه الفريابي ، وعبد بن حميد ، وأبو نصر السجزي في الإبانة ، وابن مردويه ، وهو حديث طويل تجده في الدر المنثور .

استثنى الأَنبياءَ ، وقال ابن جبير : استثنى الله الشهداءَ . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ هي نفخة البعث ، ورُوي أَن بين النفختين أَربعين ، لا يدري أَبو هريرة : سنةً أَو يوماً أَو شهراً أَو ساعة (١) . وباقي الآية بيِّنٌ .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

(١) قال البخاري : حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا الأعمش ، قال : سمعتُ أبا صالح ، قال : سمعتُ أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (ما بين النفختين أربعون) ، قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوماً ؟ قال رضي الله عنه : أبَيْتُ ، قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبَيْتُ ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبَيْتُ ، ويَبْلَى كلُّ شيءٍ من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق .

[أَشْرَقَتْ] معناه : أَضاءَتْ وعظُم نورُها ، يقال : شرقت الشمس إذا طلعت ، وأَشرقت إذا أَضاءَت . وقرأَ ابن عباس ، وعبيد بن عمير : [وَأُشْرِقَت] بضم الأَلف وكسر الراءِ ، وهذا إنما يترتب من فعل يتعدى ، فهذا على أَن يقال : أَشرقَ البيتُ وأَشرَقَهُ السِّراجُ ، فيكون الفعل متجاوزاً وغير متجاوز بلفظ واحد ، كَرَجَعَ وَرَجَعْتُه ، وَوَقَف وَوَقَفْتُه ، ومن المتعدي من ذلك يقال : أُشْرِقَت الأَرْضُ ، «و الأَرْضُ» في هذه الآية الأَرْضُ المُبْدلة من الأَرض المعروفة .

وقوله تعالى : ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إضافةُ خَلْق إلى خالقٍ ، أَي : بنور الله تبارك وتعالى . و [ٱلْكِتَابُ] : كتابُ حساب الخلائق ، ووحَّده على اسم الجنس ؛ لأَن كل واحد له كتابٌ على حِدَة . وقالت فرقة : وُضع اللَّوحُ المحفوظ . وهذا شاذٌّ ، وليس فيه معنى التوعُّد وهو مقصد الآية .

وقوله تعالى : ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ أَي : استُشهدوا على أُممهم ، وقوله تعالى : [وَٱلشُّهَدَاءِ] ، قيل : هو جمع شاهد ، والمرادُ أُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم الذين جعلهم الله تعالى شهداءَ على الناس ، وقال السُّدِّي : الشهداءُ : جمع شهيد في سبيل الله ، وهذا أَيضاً يزول عنه معنى التوعُّد ، ويحتمل أَن يريد بالشهداءِ الأَنبياءَ أَنفسهم ، فيكون من عطف الصفة على الصفة بالواو ، كما تقول : جاءَني زيد الكريمُ والعاقل . وقال زيد بن أَسلم : الشهداءُ : الحَفَظَةُ .

والضمير في قوله تعالى : [بَيْنَهُمْ] عائد على العالم بأجمعه إذ الآية تدلُّ عليهم . وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ معناه : لا يوضع شيءٌ من أُمورهم غير موضعه .

وقوله : ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ معناه : جوزيته مُكَمَّلاً ، وفي هذا وعيدٌ صرَّح عنه قوله سبحانه : ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ .

وقرأ الجمهور : [وَسِيقَ] ، [وَجِيءَ] بكسر أَوَّله ، وقرأها ونظائرها بإشمام الضَّمِّ الحسنُ ، وابن وثاب ، وعاصم ، والأعمش . و [زُمَراً] معناه : جماعات متفرقة ، واحدتُها زُمْرَة . وقوله تعالى : [فُتِحَتْ] جوابُ [إِذَا] ، والكلام هنا يقتضي أَن فَتْحَهَا إنما يكون بعد مجيئهم ، وفي وُقوفهم قبل فتحها مذلَّة لهم ، وهكذا هي حال السجون ومواضع الثِّقاف(١) والعذاب ، بخلاف قوله تعالى في أهل الجنة : [وَفُتِحَتْ] ، فالواو مُؤذنةٌ بأَنهم يجدونها مفتوحة كمنازل الأَفراح(٢) . وقرأ الجمهور :

---

(١) الثِّقَافُ : الأَخْذُ والظَّفَر ، يقال : ثَقِفْتُه إذا ظفرْتَ به ، قال الله تعالى : ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ ، اللسان .

(٢) قال الثعلبي وبعض اللغويين : إن الواو في قوله تعالى : ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ هي واو الثمانية ، لأن العرب تعطف على العدد بالواو على ما فوق السبعة ، وسمَّوْها واو الثمانية ، وأبواب الجنة ثمانية فجاءت الواو لذلك ، وأبواب النار سبعة فلم تذكر الواو لذلك ، وهذا القول تنقضه الآيات القرآنية التي لم تذكر فيها الواو مع العدد الثامن ، وقد قيل أيضاً :=

[فُتِّحَتْ] بشد التاءِ في الموضعين ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بتخفيفها ، وهي قراءَة طلحة ، والأَعمش . ثم ذكر سبحانه وتعالى توقيف الخزنة لهم على مجيءِ الرُّسل . وقرأ الجمهور : [يَأْتِكُمْ] بالياءِ من تحت ، وقرأ الأَعرج : [تَأْتِكُمْ] بالتاءِ من فوق ، وقوله تعالى : [مِنْكُمْ] أَعظم في الحُجَّة ، أَي : رسُلٌ من جنسكم لا يصعب عليكم مرامهم ولا فَهْم أَقوالهم .

وقوله تعالى : ﴿قَالُوا بَلَى﴾ جوابٌ على التقرير على نفي أَمر ، ولا يجوز هنا الجواب بـ (نَعَم) لأَنهم كانوا يقولون : نعم لم يأْتنا ، وهكذا كان يترتب المعنى : ثم لم يجدوا حُجَّة ، إِلَّا أَنَّ كلمة العذاب حقت عليهم ، أَي الكلمة المقتضية من الله تعالى تخليدهم في النار ، وهي عبارة عن قضائه السابق لهم بذلك ، وهي التي في قوله تعالى لإبليس : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١) ، و «الْمَثْوَى» : موضع الإقامة .

=إن الواو زائدة ، وقيل وهو الرأي السائد واختاره ابن عطية : إن الواو هنا واو الحال ، وذكرت للدلالة على أن الأبواب كانت مفتحة لهم قبل مجيئهم ، وفي هذا دلالة على الترحيب بهم ، وليستعجلوا السرور قبل الدخول إذا رأوها مفتوحة ، وهو أيضاً صيانة لهم عن الذلة التي يلقاها من يجد الباب مغلقاً في وجهه . (راجع تفسير الآية ١١٢ من سورة التوبة) .

(١) الآية (٨٥) من سورة (ص) .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ لفظ يعم كل من يدخل الجنة من المؤمنين الذين اتقوا الشِّرْكَ ؛ لأَن الذين لم يتقوا المعاصي قد يُساق منهم ، وهم الذين سَبَق لهم أَن يغفر الله تعالى لهم من أَهل المشيئة ، وأَيضاً فالذين يدخلون النار ثم يخرجون منها قد يساقون زُمَراً إلى الجنة بعد ذلك فيصيرون من أَهل هذه الآية ، والواو في قوله تعالى : [وَفُتِحَتْ] مُؤْذنة بأَنها قد فُتحت قبل وصولهم إليها ، وقالت فرقة : هي زائدة ، وجواب [إِذَا] هو [فُتِحَتْ] ، وقال الزَّجَّاج عن المُبَرّد : جواب [إِذَا] محذوف ، تقديره بعد قوله تعالى : [خَالِدِينَ] .. سعِدُوا[1] ، وقال الخليل : الجواب محذوف تقديره : حَتَّى إذا جاءُوها جَاءُوهَا وفتحت

(١) في الأصول : «بعد قوله تعالى : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ... سعِدوا» ، والآية الكريمة خالية من كلمة (فيها) ، ولعلَّه خطأ من النساخ .

أَبوابها ، وهذا كما قَدَّر الخليل قول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (١) ، وكما قدَّر أَيضاً قول امرئ القيس :

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى . . . . (٢)

أَي : أَجَزْنَا وانْتَحَى . وقد قال قوم ـ أَشار إِليهم ابن الأَنباري وضعَّف قولهم ـ : هذه واو الثمانية ، وقد تقدم القول في واو الثمانية مستوعباً في سورة الكهف ، وسقطت هذه الواو في مصحف ابن مسعود ، فهي كالأُولى .

وقوله : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تحيَّة ، ويحتمل أَن يريد أَنهم قالوا لهم : سلامٌ عليكم وأَمَنَة لكم ، و [طِبْتُمْ] معناه : أَعْمَالاً ومُعْتَقداً ومُسْتَقَراً وجزاءً .

---

(١) الآية (١٠٣) من سورة (الصَّافَّات) .

(٢) هذا صدر بيت قاله امرؤ القيس في معلقته ، والبيت بتمامه :

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وانْتَحَى بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذي قِفَافٍ عَقَنْقَلِ

ويروى : بطن حِقْف ، وأَجزْنَا : قَطَعْنَا ، والساحة : فِنَاءُ الدار ، وانْتَحَى : اعْتَرض ، والخَبْتُ : بطن من الأَرض غامض . والقِفَاف : جمع قُفٍّ ، وهو ما غَلُظ من الأَرض وارتفع ، والعَقَنْقَل : المنعقد الداخل بعضه فوق بعض . وهذا البيت موضع خلاف بين النحويين في بيان جواب (لَمَّا) ، وذلك أَن بعضهم يقول : الجواب هو قوله في بيت بعده : (هَصَرْتُ بِفَوْدَيْ رَأْسِهَا فتَمَايَلَتْ) ، وقال بعضهم : الجواب هو (انْتَحى) ، والواو زائدة لمعنى التعجب ، وقال أَبو عبيدة : الواو في هذا البيت واو نَسَق ، والجواب محذوف لعِلْم المخاطبين به ، وكل هذه الأَقوال قيلت في جواب [لَمَّا] في الآية الكريمة : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ ، وفي الآية الكريمة : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ، وزيادة على هذه الآراءِ قيل : إِن الواو في هذه الآية هي واو الثمانية ، وقد تحدثنا عن ذلك من قبل .

وقوله تعالى حكاية عنهم : ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ يريد أرض الجنة ، قاله قتادة ، وابن زيد ، والسُّدِّي ، والوراثة هنا مستعارة ؛ لأن حقيقة الميراث أن يكون يصير شيءٌ إلى إنسان بعد موت إنسان ، وهؤلاء إنما ورثوا مواضع أهل النار لو كانوا مؤمنين ، و [نَتَبَوَّأُ] معناه : نتخذ أمكنة ومساكن .

ثم وصف تعالى حالة الملائكة من العرش وحفوفهم به ، وقال قوم : واحد [حَافِّينَ] : حافٌّ ، وقالت فرقة : لا واحد لِحَافِّين لأن الواحد لا يكون حافًّا ؛ إذ الحفوف الإحداقُ بالشيء ، وهذه اللفظة مأخوذة من الحفاف الذي هو الجانب ، ومنه قول الشاعر :

لَهُ لَحظَاتٌ عَنْ حِفَافَيْ سَرِيرِهِ إذا كَرَّهَا فِيها عِقابٌ وَنَائِلُ (١)

أي : عن جانبيه . وقالت فرقة : [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ زائدة .

---

(١) اللَّحَظَات: جَمْعُ لَحْظَة ، واللَّحْظَة هي النظرة من جانب الأذن ، وفي اللسان عن الأزهري : اللَّحَاظُ هو أن ينظر الرجلُ بِلَحَاظِ عينه إلى الشيء شَزْراً ، واللَّحاظ هو شق العين الذي يلي الصدغ ، وعن حِفَافَيْ السرير : عن جانبيه ، وكَرَّها : رَدَّها وأعادها والنَّائِل : العطاء والجود ، يقول : إن له نظرات شديدة الوقع إذا ردَّدها في الناس وهو على جانبي سريره كان فيها الخير والشر ، أو كان فيها الثواب والعقاب ، والشاهد أن الحِفَافَ هو الجانب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والصواب أنها لابتداءِ الغاية .

قوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾(١)، قالت فرقة : معناه أَن تسبيحهم يتأَتَّى بحمد الله تعالى وفضله ، وقالت فرقة : تسبيحهم هو ترديد حمد الله تبارك وتعالى وتكراره . وقال الثعلبي : مُتَلَذِّذين لا مُتَعَبِّدين وَلَا مُكَلَّفين .

وقوله تعالى : ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ حَتْم للأَمر ، وقولٌ جزمٌ عند فصل القضاءِ ، أَيْ : إنَّ هذا الحاكم العدل ينبغي أَن يُحمد عند نفوذ حُكْمه وإكمال قضائه ، ومن هذه الآية جُعلت ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ خاتمة المجالس والمجتمعات في العِلْم ، وقال قتادة : فتح اللهُ أَول الخلْق بالحمد فقال : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾(٢) ، وختم القيامة بالحمد في هذه الآية (٣) .

---

(١) قال الثعلبي : العرب تُدخل الباءَ في التسبيح أحياناً وتحذفها أحياناً ، فيقولون : سَبِّح بحمد ربك ، وسبِّح حمداً لله . قال الله تعالى : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ، وقال : ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

(٢) من الآية (١) من سورة (الأنعام) .

(٣) أضاف بعض المفسرين زيادة في كلام قتادة هي قوله : « فلزم الاقتداءُ به » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وجعل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ فاتحة كتابه ، فبه يبدأ كلُّ أمر ، وبه يُختَم ، وحَمْدُ الله تبارك وتعالى وتقديسه ينبغي أن يكون من المؤمن ، كما قال الشاعر :

وَآخِرُ شَيْءٍ أَنْتَ فِي كُلِّ ضِجْعَةٍ   وَأَوَّلُ شَيْءٍ أَنْتَ عِنْدَ هُبُوبِي (١)

كمل تفسير سورة الزُّمَر والحمد لله ربِّ العالمين

(١) الضِّجْعَةُ : هيئة الاضْطِجاع ، وفي اللسان : « الضِّجْعَةُ بالكسر : من الاضطجاع ، وهو النوم ، كالجِلْسة من الجلوس ، والضَّجْعَةُ بفتح الضاد : المرَّة الواحدة ، وهبَّ النائم إذا استيقظ ، وهبَّ فلانٌ يفعل كذا ، والشاعر يخاطب اللهُ عزَّ وجلَّ مقدساً ذاته ، فهو آخر شيءٍ يذكره عند كل ضجعة نوم ، وهو أول شيءٍ يسبحه عند قيامه من النوم .

هذا وقد أخرج عبد بن حميد عن وهب رضي الله عنه أنه قال : « من أراد أن يعرف قضاء الله في خلقه فليقرأ آخر سورة الزُّمَر » .

انتهى الجزءُ الثاني عشر بعون الله وتوفيقه والحمد لله ربِّ العالمين ، ويليه الجزءُ الثالث عشر بمشيئة الله تعالى ، ويبدأُ بقوله تبارك وتعالى :

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ : ﴿حمٓ ، تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ، غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ .

حقوق الطبع لهذا التفسير محفوظة للمحققين
فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
والأستاذ السيد عبد العال السيد إبراهيم

فهرس ـ الآيات

الآيـــة	رقم الصفحة
تفسير سورة الأحزاب	١
قوله عزَّ وجلَّ : (يأيها ٱلنبي ٱتق ٱلله ولا تطع ٱلكافرين وٱلمنافقين) إلى آخر الآية ٣	٢
قوله عزَّ وجلَّ : (ما جعل ٱلله لرجل من قلبين في جوفه) إلى آخر الآية ٤	٤
قوله عزَّ وجلَّ : (ٱدعوهم لآبائهم هو أقسط عند ٱلله) إلى آخر الآية ٦	١٠
قوله عزَّ وجلَّ : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) إلى آخر الآية ٩	١٦
قوله عزَّ وجلَّ : (إذ جاءُوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) إلى آخر الآية ١٢ ...	٢٢
قوله عزَّ وجلَّ : (وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا) إلى آخر الآية ١٥	٢٥
قوله عزَّ وجلَّ : (قل لن ينفعكم ٱلفرار إن فررتم من ٱلموت أو ٱلقتل) إلى آخر الآية ١٨	٢٩
قوله عزَّ وجلَّ : (أشحَّة عليكم) إلى آخر الآية ١٩	٣٢
قوله عزَّ وجلَّ : (يحسبون ٱلأحزاب لم يذهبوا) إلى آخر الآية ٢١	٣٥
قوله عزَّ وجلَّ : (ولما رأى ٱلمؤمنون ٱلأحزاب قالوا هذا ما وعدنا ٱلله ورسوله) إلى آخر الآية ٢٤	٣٧
قوله عزَّ وجلَّ : (وردَّ ٱلله ٱلذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً) إلى آخر الآية ٢٧ ...	٤٥
قوله عزَّ وجلَّ : (يأيها ٱلنبي قل لأزواجك إن كنتُنَّ تُردن ٱلحياة ٱلدنيا وزينتها فتعالين أُمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا) إلى آخر الآية ٢٩ ...	٤٩

الآيـــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (يانساء ٱلنبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها ٱلعذاب ضعفين) إلى آخر الآية ٣٢	٥٣
قوله عزّ وجلّ : (وقَرْنَ في بيوتكن ولا تبرجن تبرج ٱلجاهلية ٱلأولى) إلى آخر الآية ٣٣	٥٨
قوله عزّ وجلّ : (وٱذكُرن ما يُتلى في بيوتكن من آيات ٱلله وٱلحكمة) إلى آخر الآية ٣٥	٦٣
قوله عزّ وجلّ : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى ٱلله ورسوله أمراً أن يكون لهُم ٱلخِيَرَة من أمرهم) إلى آخر الآية ٣٧	٦٦
قوله عزّ وجلّ : (ما كان على ٱلنبي مِن حرج فيما فرض ٱلله له) إلى آخر الآية ٤٤	٧٤
قوله عزّ وجلّ : (يأيها ٱلنبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) إلى آخر الآية ٤٩	٨٠
قوله عزّ وجلّ : (يأيها ٱلنبي إنا أحللنا لك أزواجك ٱللاتي آتيت أُجورهن) إلى آخر الآية ٥٠	٨٥
قوله عزّ وجلّ : (تُرجي من تشاءُ منهن وتؤوي من تشاء) إلى آخر الآية ٥٢	٩١
قوله عزّ وجلّ : (يأيها ٱلذين آمنوا لا تدخلوا بيوت ٱلنبي إلا أن يؤذن لكم) إلى آخر الآية ٥٣	١٠٠
قوله عزّ وجلّ : (إن تُبدوا شيئاً أو تخفوه فإن ٱلله كان بكل شيءٍ عليماً) إلى آخر الآية ٥٥	١٠٨
قوله عزّ وجلّ : (إن ٱلله وملائكته يُصلُّون على ٱلنبي) إلى آخر الآية ٥٨	١١٠
قوله عزّ وجلّ : (يأيها ٱلنبي قل لأزواجك وبناتك ونساء ٱلمؤمنين يُدنين عليهن من جلابيبهن) إلى آخر الآية ٥٩	١١٦
قوله عزّ وجلّ : (لئن لم يَنْته ٱلمنافقون وٱلذين في قلوبهم مرض وٱلمرجفون في ٱلمدينة لنغرينّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) إلى آخر الآية ٦٢	١١٧

الآيــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (يسألك ٱلناس عن ٱلساعة قل إنما علمها عند ٱلله) إلى آخر الآية ٦٨	١٢١
قوله عزّ وجلّ : (يأيها ٱلذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه ٱلله مما قالوا) إلى آخر الآية ٧١	١٢٣
قوله عزّ وجلّ : (إنا عرضنا ٱلأمانة على ٱلسموات وٱلأرض وٱلجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) إلى آخر الآية ٧٣	١٢٦
تفسير سورة سبـأ	١٣٠
قوله عزّ وجلّ : (ٱلحمد لله ٱلذي له ما في ٱلسموات وما في ٱلأرض وله ٱلحمد في ٱلآخرة) إلى آخر الآية ٢	١٣١
قوله عزّ وجلّ : (وقال ٱلذين كفروا لا تأتينا ٱلساعة قُل بلى وربي لتأتينّكم) إلى آخر الآية ٥	١٣٣
قوله عزّ وجلّ : (ويرى ٱلذين أُوتوا ٱلعلم ٱلذي أُنزل إليك من ربك هو ٱلحق) إلى آخر الآية ٨	١٣٦
قوله عزّ وجلّ : (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من ٱلسماء وٱلأرض) إلى آخر الآية ١١	١٣٩
قوله عزّ وجلّ : (ولسليمان ٱلريح غُدوُّها شهر ورواحها شهر) إلى آخر الآية ١٢ ...	١٤٨
قوله عزّ وجلّ : (يعملون له ما يشاءُ من محاريب وتماثيل وجِفان كالجواب وقدور راسيات) إلى آخر الآية ١٣	١٥٠
قوله عزّ وجلّ : (فلما قضينا عليه ٱلموت ما دلّهم على موته إلا دابة ٱلأرض تأكل منسأته) إلى آخر الآية ١٤	١٥٥
قوله عزّ وجلّ : (لقد كان لسبإٍ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال) إلى آخر الآية ١٧	١٦٢

الآيـــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (وجعلنا بينهم وبين ٱلقرى ٱلتي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدّرنا فيها ٱلسير) إلى آخر الآية ١٩	١٧١
قوله عزّ وجلّ : (ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتّبعوه إلا فريقاً من ٱلمؤمنين) إلى آخر الآية ٢٢	١٧٧
قوله عزّ وجلّ : (ولا تنفع ٱلشفاعة عنده إلا لمن أذن له) إلى آخر الآية ٢٣	١٧٩
قوله عزّ وجلّ : (قل من يرزقكم من ٱلسموات وٱلأرض قل ٱلله) إلى آخر الآية ٢٧	١٨٥
قوله عزّ وجلّ : (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) إلى آخر الآية ٣٠ ...	١٨٧
قوله عزّ وجلّ : (وقال ٱلذين كفروا لن نؤمن بهذا ٱلقرآن ولا بالذي بين يديه) إلى آخر الآية ٣٢	١٨٩
قوله عزّ وجلّ : (وقال ٱلذين ٱستُضْعِفوا للذين ٱستكبروا بل مكْرُ ٱلليل وٱلنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) إلى آخر الآية ٣٣	١٩٠
قوله عزّ وجلّ : (وما أرسلنا في قرية من نـــذير إلا قال مُتْرَفوها إنا بما أُرسلتم به كافرون) إلى آخر الآية ٣٧	١٩٢
قوله عزّ وجلّ : (وٱلذين يسعوْن في آياتنا معاجزين أُولئك في ٱلعذاب محضرون) إلى آخر الآية ٣٩	١٩٥
قوله عزّ وجلّ : (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاءِ إياكم كانوا يعبدون) إلى آخر الآية ٤٣	١٩٧
قوله عزّ وجلّ : (وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) إلى آخر الآية ٤٦	١٩٩
قوله عزّ وجلّ : (قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم إن أجريَ إلا على ٱلله) إلى آخر الآية ٥١	٢٠٣
قوله عزّ وجلّ : (وقالوا آمنّا به وأنّى لهم التّناوُش من مكان بعيد) إلى آخر الآية ٥٤	٢٠٦

الآيـــــة	رقم الصفحة
تفسير سورة فاطر	**٢١١**
قوله عزّ وجلّ : (ٱلحمد لله فاطرِ ٱلسموات وٱلأرض جاعل ٱلملائكة رُسُلا أُولي أَجنحة مثْنى وثلاثَ ورباع) إلى آخر الآية ٥	٢١٢
قوله عزّ وجلّ : (إن ٱلشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدواً) إلى آخر الآية ٨	٢١٨
قوله عزّ وجلّ : (وٱلله ٱلذي أرسل ٱلرياح فتثير سحاباً) إلى آخر الآية ١٠	٢٢٠
قوله عزّ وجلّ : (وٱلله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً) إلى آخر الآية ١١	٢٢٥
قوله عزّ وجلّ : (وما يستوي ٱلبحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أُجاج) إلى آخر الآية ١٢	٢٢٧
قوله عزّ وجلّ : (يولج ٱلليل في ٱلنهار ويولج ٱلنهار في ٱلليل) إلى آخر الآية ١٤ ...	٢٣٠
قوله عزّ وجلّ : (يأَيها ٱلناس أَنتم ٱلفقراءُ إلى ٱلله وٱلله هو ٱلغني ٱلحميد) إلى آخر الآية ١٨	٢٣٢
قوله عزّ وجلّ : (وما يستوي ٱلأعمى وٱلبصير) إلى آخر الآية ٢٦	٢٣٥
قوله عزّ وجلّ : (أَلم تر أَن ٱلله أَنزل من ٱلسماءِ ماءً فأَخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً أَلوانها) إلى آخر الآية ٢٨	٢٤٠
قوله عزّ وجلّ : (إن ٱلذين يتلون كتاب ٱلله وأَقاموا ٱلصلاة وأَنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور) إلى آخر الآية ٣١	٢٤٤
قوله عزّ وجلّ : (ثم أورثنا ٱلكتاب ٱلذين ٱصطفينا من عبادنا) إلى آخر الآية ٣٤ ...	٢٤٦
قوله عزّ وجلّ : (ٱلذي أَحلّنا دار ٱلمقامة من فضله لا يمسُّنا فيها نصب ولا يمسُّنا فيها لغُوب) إلى آخر الآية ٣٧	٢٥٣
قوله عزّ وجلّ : (إن ٱلله عالم غيب ٱلسموات وٱلأرض إنه عليم بذات ٱلصدور) إلى آخر الآية ٤١	٢٥٨

الآيـــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى ٱلأمم) إلى آخر الآية ٤٣	٢٦٢
قوله عزّ وجلّ : (أو لم يسيروا في ٱلأرض فينظروا كيف كان عاقبة ٱلذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة) إلى آخر الآية ٤٥	٢٦٦
تفسير سورة ياسين	**٢٦٨**
قوله عزّ وجلّ : (يسٓ ، والقرآن ٱلحكيم) إلى آخر الآية ٧	٢٧٠
قوله عزّ وجلّ : (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى ٱلأذقان فهم مقمحون) إلى آخر الآية ٩	٢٧٤
قوله عزّ وجلّ : (وسواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) إلى آخر الآية ١٢	٢٧٨
قوله عزّ وجلّ : (وٱضرب لهم مثلا أصحاب ٱلقرية إذ جاءها ٱلمرسلون) إلى آخر الآية ١٧	٢٨١
قوله عزّ وجلّ : (قالوا إنا تطيّرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسّنّكم منا عذاب أليم) إلى آخر الآية ٢١	٢٨٣
قوله عزّ وجلّ : (وما ليَ لا أعبد ٱلذي فطرني وإليه تُرجعون) إلى آخر الآية ٢٧ ...	٢٨٧
قوله عزّ وجلّ : (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من ٱلسماء وما كُنّا مُنزلين) إلى آخر الآية ٣٢	٢٩٠
قوله عزّ وجلّ : (وآية لهُم ٱلأرض ٱلميتَة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون) إلى آخر الآية ٣٦	٢٩٥
قوله عزّ وجلّ : (وآية لهم ٱلليل نسلَخ منه ٱلنهار فإذا هم مظلمون) إلى آخر الآية ٤٠	٢٩٧
قوله عزّ وجلّ : (وآية لهم أنّا حملنا ذريتهم في ٱلفلك ٱلمشحون) إلى آخر الآية ٤٦	٣٠٠

الآيــــة	رقم الصفحة

قوله عزّ وجلّ : (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم ٱلله قال ٱلذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاءُ ٱلله أطعمه) إلى آخر الآية ٥٠ ... ... ٣٠٣

قوله عزّ وجلّ : (ونُفخ في ٱلصور فإذا هم من ٱلأجداث إلى ربهم ينسلون) إلى آخر الآية ٥٤ ... ... ٣٠٨

قوله عزّ وجلّ : (إن أصحاب ٱلجنّة ٱليوم في شغل فاكهون) إلى آخر الآية ٦١ ... ٣١١

قوله عزّ وجلّ : (ولقد أضل منكم جبِلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون) إلى آخر الآية ٦٥ ... ... ٣١٦

قوله عزّ وجلّ : (ولو نشاءُ لطمسنا على أعينهم فاستبقوا ٱلصراط فأنّى يبصرون) إلى آخر الآية ٧٠ ... ... ٣١٨

قوله عزّ وجلّ : (أو لم يرَوْا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون) إلى آخر الآية ٧٦ ... ... ٣٢٤

قوله عزّ وجلّ : (أو لم ير ٱلإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) إلى آخر الآية ٨٠ ... ... ٣٢٧

قوله عزّ وجلّ : (أو ليس ٱلذي خلق ٱلسموات وٱلأرض بقادر على أن يخلق مثلهم) إلى آخر الآية ٨٣ ... ... ٣٢٩

تفسير سورة الصافات ٣٣٢

قوله عزّ وجلّ : (وٱلصّافّات صفّــاً) إلى آخر الآية ٧ ... ... ٣٣٢

قوله عزّ وجلّ : (لا يسّمّعون إلى ٱلملإ ٱلأعلى ويُقذفون من كل جانب) إلى آخر الآية ١٠ ... ... ٣٣٥

قوله عزّ وجلّ : (فاستفتهم أهُم أشد خلقاً أم من خلقنا) إلى آخر الآية ١٨ ... ... ٣٣٨

قوله عزّ وجلّ : (فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) إلى آخر الآية ٢٦ ... ٣٤٢

الآيـــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) إلى آخر الآية ٣٤	٣٤٥
قوله عزّ وجلّ : (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا ٱلله يستكبرون) إلى آخر الآية ٤٠	٣٤٩
قوله عزّ وجلّ : (أُولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون) إلى آخر الآية ٤٩	٣٥١
قوله عزّ وجلّ : (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) إلى آخر الآية ٥٣	٣٥٨
قوله عزّ وجلّ : (قال هل أنتم مطّلعون) إلى آخر الآية ٦١	٣٦٠
قوله عزّ وجلّ : (أذلك خير نُزُلا أم شجرة ٱلزّقّوم) إلى آخر الآية ٧٠	٣٦٤
قوله عزّ وجلّ : (ولقد ضلّ قبلهم أكثر ٱلأولين) إلى آخر الآية ٧٩	٣٦٩
قوله عزّ وجلّ : (إنّا كذلك نجزي ٱلمحسنين) إلى آخر الآية ٩٠	٣٧٢
قوله عزّ وجلّ : (فَرَاغَ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون) إلى آخر الآية ٩٨	٣٧٦
قوله عزّ وجلّ : (وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين) إلى آخر الآية ١٠٢	٣٨٠
قوله عزّ وجلّ : (فلما أسلما وتلّه للجبين) إلى آخر الآية ١١١	٣٨٤
قوله عزّ وجلّ : (وبشرناه بإسحق نبيّـــاً من الصّالحين) إلى آخر الآية ١١٧	٣٩٠
قوله عزّ وجلّ : (وهديناهما ٱلصراط ٱلمستقيم) إلى آخر الآية ١٢٥	٣٩١
قوله عزّ وجلّ : (ٱللهَ ربكم وربّ آبائكم ٱلأولين) إلى آخر الآية ١٣٨	٣٩٥
قوله عزّ وجلّ : (وإن يونس لَمن ٱلمرسلين) إلى آخر الآية ١٤٦	٣٩٦
قوله عزّ وجلّ : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) إلى آخر الآية ١٥٧	٤٠٣
قوله عزّ وجلّ : (وجعلوا بينه وبين ٱلجِنّة نسباً ولقد علمت ٱلجِنّة إنهم لمحضرون) إلى آخر الآية ١٦٩	٤٠٦
قوله عزّ وجلّ : (فكفروا به فسوف يعلمون) إلى آخر الآية ١٨٢	٤٠٩

الآيـــــة	رقم الصفحة
تفسير سورة صٓ	٤١٣
قوله عزّ وجلّ : (صٓ والقرآن ذي ٱلذكر ، بل ٱلذين كفـــروا في عزّة وشـــقاق) إلى آخر الآية ٥	٤١٣
قوله عزّ وجلّ : (وٱنطلق ٱلملأ منهم أن ٱمشوا وٱصبروا على آلهتكم إن هذا لشيءٌ يـــراد) إلى آخر الآية ٩	٤٢١
قوله عزّ وجلّ : (أم لهم مُلك ٱلسموات وٱلأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب) إلى آخر الآية ١٤	٤٢٦
قوله عزّ وجلّ : (وما ينظر هؤلاءِ إلا صيحة واحدة ما لها من فواق) إلى آخر الآية ٢٠	٤٢٨
قوله عزّ وجلّ : (وهل أتاك نبأُ ٱلخَصْم إذ تسوروا ٱلمحراب) إلى آخر الآية ٢٤ ...	٤٣٥
قوله عزّ وجلّ : (فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مئاب) إلى آخر الآية ٢٩	٤٥٠
قوله عزّ وجلّ : (ووهبنا لداود سليمان نِعم ٱلعبد إنه أوّاب) إلى آخر الآية ٣٥ ...	٤٥٣
قوله عزّ وجلّ : (فسخّرنا له ٱلريح تجري بأمره رُخاءً حيث أصاب) إلى آخر الآية ٤٠	٤٦٢
قوله عزّ وجلّ : (وٱذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسّنيَ ٱلشيطان بِنُصْبٍ وعذاب) إلى آخر الآية ٤٤	٤٦٤
قوله عزّ وجلّ : (وٱذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أُولي ٱلأيدي وٱلأبصار) إلى آخر الآية ٥٤	٤٧١
قوله عزّ وجلّ : (هذا وإن للطّاغين لشرّ مآب) إلى آخر الآية ٦١	٤٧٦
قوله عزّ وجلّ : (وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنّا نعُدّهم من ٱلأشرار) إلى آخر الآية ٦٦	٤٨٠

رقم الصفحة	الآيــــة
٤٨٢	قوله عزّ وجلّ : (قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون) إلى آخر الآية ٧٤ ... ...
٤٨٧	قوله عزّ وجلّ : (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من ٱلعالين) إلى آخر الآية ٨١ ... ...
٤٩١	قوله عزّ وجلّ : (قال فبعزّتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم ٱلمُخلصين) إلى آخر الآية ٨٨ ... ...
٤٩٦	**تفسير سورة الزمر** ... ...
٤٩٧	قوله عزّ وجلّ : (تنزيل ٱلكتاب من ٱلله ٱلعزيز ٱلحكيم) إلى قوله تبارك وتعالى : (إن ٱلله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون) من الآية ٣ ... ...
٤٩٩	قوله عزّ وجلّ : (إن ٱلله لا يهدي من هو كاذب كفّار) إلى آخر الآية ٥ ... ...
٥٠١	قوله عزّ وجلّ : (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من ٱلأنعام ثمانية أزواج) إلى آخر الآية ٦ ... ...
٥٠٥	قوله عزّ وجلّ : (إن تكفروا فإن ٱلله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر) إلى آخر الآية ٧ ... ...
٥٠٧	قوله عزّ وجلّ : (وإذا مسّ ٱلإنسان ضر دعا ربه مُنيباً إليه) إلى آخر الآية ٨ ...
٥١٠	قوله عزّ وجلّ : (أمّن هو قانت آناءَ ٱلليل ساجداً وقائماً يحذرُ ٱلآخرة ويرجوا رحمة ربّه) إلى آخر الآية ١٠ ... ...
٥١٧	قوله عزّ وجلّ : (قل إني أُمرت أن أعبد ٱلله مخلصاً له ٱلدين) إلى آخر الآية ١٥ ...
٥١٨	قوله عزّ وجلّ : (لهم من فوقهم ظُلَل من ٱلنار ومن تحتهم ظُلَل) إلى آخر الآية ١٨ ... ...

الآيــــة	رقم الصفحة
قوله عزّ وجلّ : (أفمن حقّ عليه كلمة ٱلعذاب أفأنت تنقذ من في ٱلنار) إلى آخر الآية ٢١	٥٢٠
قوله عزّ وجلّ : (أفمن شرح ٱلله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه) إلى آخر الآية ٢٣	٥٢٤
قوله عزّ وجلّ : (أفمن يتّقي بوجهه سوءَ ٱلعذاب يوم ٱلقيامة) إلى آخر الآية ٢٨ ...	٥٢٨
قوله عزّ وجلّ : (ضرب ٱلله مثلا رجلا فيه شركاءُ متشاكسون ورجلا سَلَماً لرجل هل يستويان مثلا) إلى آخر الآية ٣٢	٥٣٠
قوله عزّ وجلّ : (وٱلذي جاءَ بالصِّدق وصدّق به أُولئك هم ٱلمتقون) إلى آخر الآية ٣٧	٥٣٦
قوله عزّ وجلّ : (ولئن سألتهم من خلَق ٱلسموات والأرض ليقولن ٱلله) إلى آخر الآية ٤٠	٥٤٠
قوله عزّ وجلّ : (إنا أنزلنا عليك ٱلكتاب للناس بالحق فمن ٱهتدى فلنفسه ومن ضلّ فإنما يضلُّ عليها وما أنت عليهم بوكيل) إلى آخر الآية ٤٢	٥٤٢
قوله عزّ وجلّ : (أم ٱتخذوا من دون ٱلله شفعاءَ) إلى آخر الآية ٤٥	٥٤٥
قوله عزّ وجلّ : (قل ٱللّهم فاطر ٱلسموات وٱلأرض عالم ٱلغيب وٱلشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون) إلى آخر الآية ٤٨ ...	٥٤٧
قوله عزّ وجلّ : (فإذا مس ٱلإنسان ضرٌّ دعانا ثم إذا خولناه نعمة منّا قال إنما أُوتيته على علم) إلى آخر الآية ٥٢	٥٤٨
قوله عزّ وجلّ : (قل يا عباديَ ٱلذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة ٱلله) إلى آخر الآية ٥٥	٥٥١

الآيـــــة	رقم الصفحة
قوله عزَّ وجلَّ : (أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب ٱلله) إلى آخر الآية ٦٠	٥٥٤
قوله عزَّ وجلَّ : (وينجي ٱلله ٱلذين ٱتقوْا بمفازتهم لا يمسهم ٱلسوءُ ولا هم يحزنون) إلى آخر الآية ٦٥	٥٥٩
قوله عزَّ وجلَّ : (بل ٱلله فاعبد وكن من ٱلشاكرين) إلى آخر الآية ٦٨	٥٦٣
قوله عزَّ وجلَّ : (وأشرقت ٱلأرض بنور ربها ووضع ٱلكتاب وجيءَ بالنبيين وٱلشهداءِ وقُضي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون) إلى آخر الآية ٧٢	٥٦٧
قوله عزَّ وجلَّ : (وسيق ٱلذين ٱتقوْا ربهم إلى ٱلجَنَّة زُمَراً) إلى آخر الآية ٧٥ ...	٥٧١

مؤسسة دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة – قطر

رقم الايداع بدار الكتب القطرية
٤٤٦ / ١٩٨٦